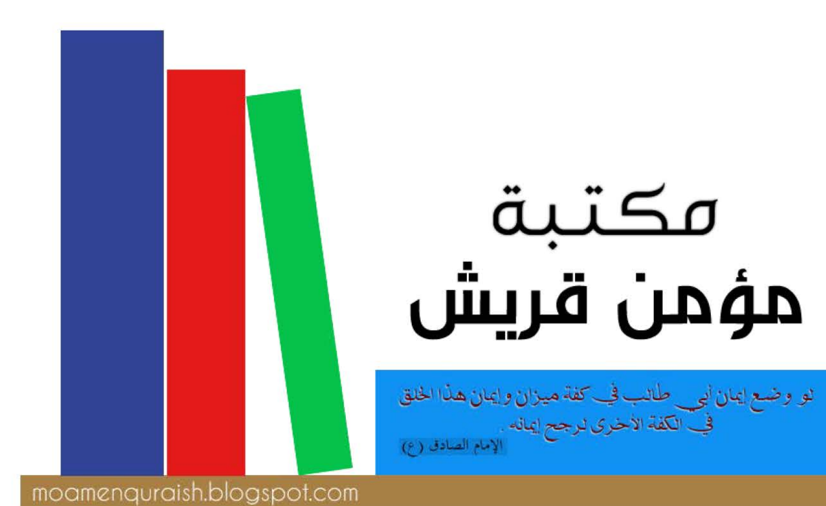
الإمام الخميني و ثقافة عاشوراء

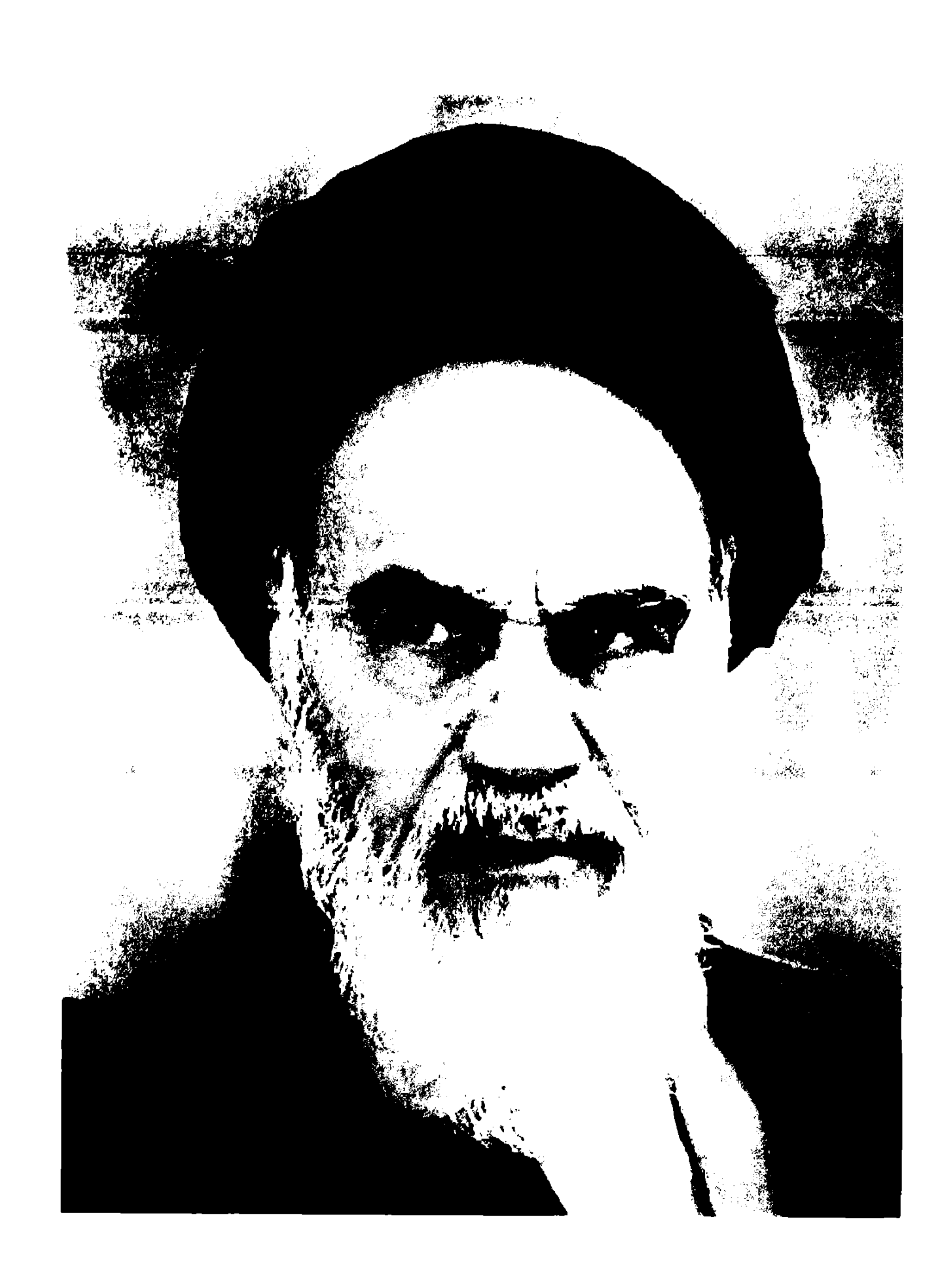
مجموعة المقالات العربية التي شاركت في ندوة
«الامام الخميني و ثقافة عاشوراء»
الدولية الثانية





مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


بسم الله الرحمن الرحیم



□ الإمام الخميني و ثقافة عاشوراء

مجموعة المقالات العربية التي شاركت في ندوة

«الإمام الخميني و ثقافة عاشورا» الدولية الثانية

مؤسسة تنظيم و نشر تراث الإمام الخميني قدس سره - الشؤون الدولية



همزمان با گرامیداشت صدمین سالگرد میلاد امام خمینی(س)
رهبر کبیر انقلاب و بنیانگذار جمهوری اسلامی ایران



□ الإمام الخميني وثقافة عاشوراء

مجموعة المقالات العربية التي شاركت في ندوة «الإمام الخميني وثقافة عاشوراء» الدولية الثانية

الناشر: مؤسسة تنظيم ونشر تراث الامام الخميني قدس سره ـ الشؤون الدولية

الطبعة الأولى: محرم الحرام ١٤١٩هـ. ق / ١٩٩٨م

الكمية: ٣٠٠٠ نسخة

العنوان: ايران ـ طهران ـ صندوق البريد رقم ٦١٤ ـ ١٩٥٧٥

الهاتف: ٢٢٨٧٧٧٥ ـ ٢٢٨٧٧٧٤ ـ ٢٢٨١٣٨

السعر: ١٣٥٠٠ تومانا

﴿ کتاب امام خمینی (س) و فرهنگ عاشـورا به زبان عربی ﴾

DESIGN: M H. SALEH

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

محمّد حسين الأنصاري

تمهيد

من أعظم شعائر الله تعالى هذه الشعيرة الإسلامية العالية، التي فرضها الله تعالى علينا لإقامة دين الله في الأرض، وتصحيح مسيرة البشرية نحو هدفها المرسوم لها، وانطلاقاً من الشعور بالمسؤوليّة لبناء مجتمعٍ حيٍّ يقوّمُ بعضه بعضاً، ويُرشدُ بعضُهُ إلى طريق الرشاد بعضه الذي يشذّ بهم الهوى، أو تتقلب بهمُ الأحوال.

قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر»(١)

وهذه الشعيرة المقدّسة لم تكن مختصة بهذا الدين العظيم فقط، بل لها جذورها التاريخية، وأساسها الواضح في الديانات السماوية السابقة. فهذا كتاب الله تعالى ينطق بذلك فيقول:

﴿من أهل الكتاب أمّةٌ قائمةٌ يتلون كتاب الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويُسارعون في الخيرات وأولئك من الصّالحين﴾(٢).

ويقول تعالى ذاكراً وصية لقمان الحكيم لابنه ﴿يا بُنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنهَ عن المنكر...﴾(٣).

فها هو لقمان في ذلك الزمن البعيد يأمر ابنه بهذه الوظيفة المهمة ـ بعد أمره بإقامة الصلاة ـ لما لها من أهمّية عظمى في استمرار الخير في الأرض وعدم انقطاعه.

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «أمّا بعد؛ فإنّه إنّما هلك من كان قبلكم حيث ما عملوا من المعاصي ولم ينههم الربّانيّون والأحبار عن ذلك، وإنهم لما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربّانيوّن والأحبار عن ذلك نزلت بهم العقوبات» (٤).

وهذا يشعرنا بوجوب ذلك عليهم كما هو واضح.

ولأهمّيتها ذكرها سبحانه بعد إقامة الصلاة التي هي عمود الدين، عند قوله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿الّذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزّكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ (٥).

بَل في آيةٍ أخرى يقدّم هذا الأمر على إقامة الصلاة إذ يقول تعالى في صفة المؤمنين والمؤمنات الذين بعضهم أولياء بعض:

﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزّكاة﴾ (٦).

وكأنّه يشعرنا سبحانه لأجل أنّ بعضهم أولياء بعض، فبعضهم يأمر بعضهم الآخر بالمعروف وينهاه عن المنكر.

فما أروعهم إذ يقوّم أحدُهمُ الآخر ويتمِّم مسيرته ويحفظ الحياة الصحيحة في ذلك الجسم الكبير، ومثل هذا المجتمع يكون حيّاً، وبهذا يستطيعون أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويطيعوا الله ورسوله، وبهذا ستشملهم الرحمة الإلهية...

«فبَدَأ الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه ـ لعلمه بأنّها إذا أُدّيت وأُقيمت؛ اَستقامت الفرائض كلها هيّنها وصعبها، وذلك أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى الإسلام مع ردّ المظالم، ومخالفة الظالم، وقسمة الفيء والغنائم، وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقها...» (٧).

وعن الإمام الباقر عليه السلام : «إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضةٌ عظيمة بها تُقام الفرائض» (٨).

«وقد ورد عنهم عليهم السلام : إنّ بالأمر بالمعروف تُقام الفرائض وتأمن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتمنع المظالم، وتعمر الأرض وينتصف للمظلوم من الظالم، ولا يزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وتعاونوا على البر، فإذا لم

يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات، وسُلّط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء»[٩].

ولذا حثّنا في موضع آخر من كتابه العزيز على ذلك الأمر المهم وطلب منّا إبرازه وإظهاره في الخارج.

﴿ولتكن منكم أُمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...﴾[١٠].

بل إنّه مدحَنا لخصوص هذه الشعيرة المقدسة:

﴿كنتم خير أُمّةٍ أُخرِجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر...﴾[١١]، فكنّا عنده خير الأُمم من لدن آدم حتّى ما شاء الله تعالى بهذه الصفة العظيمة، وبهذا الخلق الرفيع، وهو قمة الشعور بالمسؤوليّة.

لو تتبعنا كتاب الله تعالى لرأيناه يذكر هذا الأمر بالمضمون الذي نتعرض له وبالعنوان الكبير نفسه ثماني مرات[١٢]، وبأحد مصاديق ذلك الأمر مرّة واحدة وإن كان ظاهراً بعيداً...

﴿وَأْمُر أهلك بالصّلاة واصطبر عليها﴾[١٣].

وكذلك ربما يظهر أوضح من ذلك بعنوان «المعروف» في قضية الرضاع خوفاً من حدوث شدخٍ في العلاقات الزوجية من أثر الحالة الجديدة، إذ يقول تعالى: ﴿وَأْتَمروا بينكم بمعروف﴾[١٤].

وهناك ماشاء الله من الأحاديث الواردة عن طرق الفريقين تُشير إلى أهمّية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبيّن حدودهما وأبعادهما، ففي كتاب واحد مثلاً من «وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة» للفقيه المحدّث الشيخ محمّد بن الحسن الحر العاملي (١١٠٤ هـ) وهو الجزء السادس عشر منه فيه «مئة وأربعة أحاديث» بخصوص هذا الأمر بالعنوان الصريح للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبوابه، إلى شرائط وجوبه، إلى أقسامه وكيفية تطبيقه وعمق اظهاره، إلى غير ذلك من الأمور المتعلّقة به.

وأما مع عدم التصريح بهذا العنوان بالخصوص فيتجاوز العدد المئات في كتاب واحد في جزء واحد منه وهو الجزء السادس عشر.

ويصف الشهيد الاستاذ الشيخ مرتضى المطهري طريق الحسين عليه السلام الذي هو طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بـ «طريق المبدأ الأكثر أساسية لضمان بقاء المجتمع الإسلامي، ذلك المبدأ لو لم يكن؛ لتلاشى المجتمع الإسلامي وتفكك، وتفرّقت الأمّة وتقطعّت أوصالها، وانهار بنيانها، وتناثرت قطعاً»[١٥].

«نعم فهذا المبدأ يحمل كلّ هذه القيمة والأهمّية، والآيات القرآنية الواردة بهذا الصدد كثيرة للغاية. ففي موارد عديدة نرى أنّ القرآن الكريم يُذكِّرنا بمصائر عدد من المجتمعات التي انقرضت وتلاشت وهلكت، بسبب عدم توافر قوّة الإصلاح فيها، وافتقارها إلى قوّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[١٦]. فـ«هما من أسمى الفرائض وأشرفها، وبهما تقام الفرائض، ووجوبهما من ضروريات الدين، ومنكره مع الالتفات بلازمه والالتزام به من الكافرين»[١٧].

تعريفهما

المعروف: هو كلّ فعل حسن؛ مع الالتزام بأنّ الحسن يطلق على ما له مدخليّة في استحقاق المدح.

المنكر : هو كلّ فعل قبيح، والقبيح ما يقابل الحسن، أي ما كان على صفة تؤثِّر في استحقاق الذمّ.

فيكون تعريف المصطلح على ماجاء في «جواهر الكلام» بعد الردّ والابرام على تعريف شرائع الإسلام[١٨] هو:

الأمر بكلّ فعل حسن ـ مع الالتزام بأن الحسن يطلق على ما له مدخليّة في استحقاق المدح ـ عرف فاعلُه ذلك أو دُلَّ عليه، والنهي عن كلّ فعل قبيح ـ ما يقابل الحسن بالمعنى المتقدّم وهو ماكان على صفة تؤثّر في استحقاق الذم ـ عرف فاعله ذلك أو دُلَّ عليه.

بيان التعريف

الأمرُ من أَمَرَهَ يأمرُه أَمْراً: طلب ذلك منه مع جهة الاستعلاء.

ولعلّ الاستعلاء هنا داخل حتّى لو طلب العبد من مولاه المعروف، أو طلب

أحد المتساويين من الآخر ؛ وذلك لأنه طلب منه لا من جهة كونه عبداً له ليكون التماساً، في الأوّل، ولا من جهة كونه مساوياً في الثاني فيكون استدعاءً، بل يكون في كليهما أمراً على الحقيقة، لا المجاز، ذلك لأن العلوّ في الناس والارتفاع بينهم والتساوي يكون بالقرب من الله تعالى والبعد عنه، فالذي حقق العبودية الدنيوية له أو المساواة قد حقّق له هنا المولوية في هذه الأوامر والنواهي.

أو نقول بأن المولى تعالى أعطى صلاحية لذلك الآمر أو الناهي ، فهو يأمر وينهى بلسانه ـ سبحانه ـ فينزل منزلة الآمر والناهي.

فيكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أعلى من تارك المعروف وعامل المنكر وإن كان الأوّلان عبدين والآخران حُرّين بأحد المعنيين المتقدّمين.

وربما أشار إلى ذلك آية الله العظمى الإمام الخميني؁ في تحرير الوسيلة، ج١، ص٤٦٥ مسألة (١٢) بقوله: «الأمر والنهي في هذا الباب مولوي من قبل الآمر والناهي ولو كانا سافلين».

هذا من جهة نفس معنى الأمر والنهي..

وأما من جهة بقية ماجاء في التعريف فهو:

الأمرُ بكلّ فعل حسن: إذا التزمنا بما قدّمنا من معنى الحسن؛ حينئذ سيخرج المباح والمكروه والحرام، ويبقى الواجب والمستحب.

ولذا من هذه الجهة بالخصوص ينقسم الأمر بالمعروف إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما.

والنهي عن كلّ فعل قبيح: والقبيح بما أنّه ماكان على صفة تؤثر في استحقاق الذمّ فلا يكون داخلاً فيه إلّا الحرام.

فيخرج بهذا؛ المباح والمكروه وترك المندوب بما هو ترك له فلا يدخل تحت عنوان النهي عن المنكر إذا نهيت تاركه كما هو واضح، وليس هو من المعروف بحالٍ من الأحوال ، فحينئذ لا أمر بهذه ولا نهي. وهو ما التزمه الشيخ الطريحي في مجمع بحرينه أيضاً(١٩).

وأما إذا عرّفنا القبيح بأنه ما فيه صفة تقتضي رجحان تركه ، فحينئذ يشمل الحرام والمكروه فيكون النهي عن المنكر أيضاً على قسمين اثنين واجب ومستحب.

وبعضهم التزم بانقسام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى قسمين اثنين فقط نظراً إلى هذه الجهة بالذات، فعليه «ينقسم كلّ من الأمر والنهي في المقام إلى واجب ومندوب فما وجب عقلاً أو شرعاً وجب الأمر به، وما قبح عقلاً أو حرم شرعاً وجب النهي عنه، وما ندب واستحب فالأمر به كذلك، وما كره فالنهي عنه كذلك» (٢٠).

وأمّا القيد الأخير في تعريفهما ـ عرف فاعله ذلك أو دلّ عليه ـ فهذا ليس داخلاً في المعروف والمنكر بأي حال من الأحوال كما هو واضح، إلا أنّه أدخله كما صرَّح به أنّه «من حيث يؤمر به وينهى عنه لا في حدّ ذاته، إذ العلم به غير شرط في كونه حسناً ومعروفاً وقبيحاً» (٢١). وقال: «إن القيد الأخير ظاهر في إرادة الإشارة إلى العلم بالاجتهاد والتقليد مثلاً من قوله: (عرفه أو دلّ عليه)» (٢٢).

أطراف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وبما أنّ هناك: آمراً، ومأموراً، ومأموراً به؛ وكذا من طرف النهي: ناهياً، ومنهياً، وما يُنهى عنه؛ فبلحاظ ذلك نستطيع أن نقول: إنّ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أطرافاً ثلاثة:

الطرف الأوّل: الفعل المأمور به، أو الفعل المنهي عنه.

الفعل المأمور به: قد يكون واجباً، كالصلاة مثلاً؛ أو قد يكون مستحباً كالإقامة للصلاة على القول باستحبابها. فإذا أمر بالأوّل مع اجتماع الشرائط الكليّة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من قسم الواجب، وإذا أمر بالثاني فهو من قسم المستحب.

وبناءً على ما ذُكر في بيان ماهية الأمر؛ لا ينقسم بهذا الطرف إلّا إلى القسمين المذكورين فقط.

الفعل المنهي عنه: إذا كان حراماً كشرب الخمر مثلاً، فإذا نهى عنه مع اجتماع الشرائط كلها فهو من قسم الواجب؛ وأما إذا كان مكروهاً فعلى الأوّل من تعريف القبيح لا يُعدّ النهي عنه مستحباً. وإذا كان تعريف القبيح هو الفعل الذي فيه صفة تقتضي رجحان تركه؛ فيكون النهي عنه مستحباً كما هو واضح. «ولكن الأمر

سهل بعد معلومية رجحان النهي عن فعل المكروه، كمعلومية رجحانه أيضاً عن ترك المندوب »[٢٣]. وهنا أيضاً لا ينقسم إلّا إلى قسمين بناءً على الثاني، وأما على الأوّل من تعريف القبيح فليس فيه إلّا الواجب.

فعليه؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينقسم ـ في الجملة ـ من زاوية الطرف الأوّل منه إلى قسمين اثنين فقط هما الواجب والمستحب.

الطرف الثاني: فاعل الطرف الأوّل.

فإمّا أن يكون مُلتفتاً إلى وجوب الفعل المتروك أو حرمة الفعل المُرتكب مثلاً أو لا يكون مُلتفتاً. فإذا لم يكن مُلتفتاً، لا يجب على الطرف الثالث مع اجتماع الشرائط كلها أمره أو نهيه بعنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالالتفات إلى حكم الفعل من الطرف الثاني هو الذي يُنجّزُ حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. هذا أولاً.

وثانياً: يجب أن يطمئن الآمر إلى أن المأمور سيتأثر بأمره أو نهيه، وإلّا لو اطمأن إلى عدمه فإن التكليف يسقط عنه.

وثالثاً: « أن يكون العاصي مُصِرّاً على الاستمرار، فلو علم منه الترك سقط الوجوب »[٢٤].

الطرف الثالث: الآمر.

يجب عليه أن يعرف المعروف والمنكر ليستطيع أن يأمر بالأول وينهى عن الثاني «والعلم شرط الوجوب كالاستطاعة في الحج»[٢٥]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى عليه أن يحتمل أنّ المأمور يمتثل أمره أو نهيه فلو لم يحتمل ذلك سقط عنه.

قال الإمام الخمينيﷺ في رسالته العمليّة: «أن يجوّز ويحتمل تأثير الأمر أو النهي، فلو علم أو اطمأن بعدمه فلا يجب»[٢٦]، وألّا يتضرّر هو بنفسه أو بعرضه أو بماله أو يكون ثمّة ضرر على المسلمين من جرّاء أمره ونهيه، فإذا كان هناك ضرر من هذا القبيل، سقط عنه الوجوب.

«والظاهر أنّه لا فرق بين العلم بلزوم الضرر، والظن به، والاحتمال المعتدّ به عند العقلاء الموجب لصدق الخوف»[٢٧].

وكما قال الإمام الخميني قدس سره: «أن لا يكونِ في إنكاره مفسدة» [٢٨]، فـ«لو علم أو ظن أن إنكاره موجب لتوجّه ضرر نفسيّ أو عرضيّ أو ماليّ يعتدّ به عليه أو على أحد متعلقيه كأقربائه وأصحابه وملازميه فلا يجب ويسقط عنه، بل وكذا لو خاف ذلك لاحتمالٍ معتدٍّ به عند العقلاء، والظاهر إلحاق سائر المؤمنين بهم» [٢٩].

وبناءً على كلّ ما تقدّم نرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينقسم إلى الواجب والمندوب.

ومن ناحية أخرى إذا لاحظنا مقدار الضرر المترتب على هذه الشعيرة العظيمة والضرر الواصل إذا تُركت، ظهر لنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ينقسم إلى: الواجب، والمستحب وقد مرّ بيانهما. وإلى المكروه: إذا كانت النتيجة ليست خطرةً بتلك الدرجة السلبية لتنقلها إلى الحرمة، إلّا أن فيها جانباً مؤثّراً سلباً. وإلى الحرام: إذا ترتبت مفسدة على هذه الشعيرة. ولسنا مجازفين إذا قلنا بأنّ حكم الإباحة له قابليّة التحقق هنا إذا تساوى الطرفان سلباً وإيجاباً. وعلى هذا يمكن أن يقسّم حكمه إلى الأحكام الخمسة.

وهذا التقسيم قد لوحظ فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلحاظ كلّي لجميع الأطراف وما يترتّب على هذا الأمر في الخارج. وهو تقسيم لم يلتزم به الأعمّ الأغلب من الفقهاء؛ لأنّ تشخيص كلّ ذلك أمرٌ متعسِّر جدّاً، والتزموا التقسيم الأوّل.

بيان كلّ من الأحكام المتقدّمة

أوّلاً: أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على المسلمين إجماعاً منهم للكتاب العزيز وللسنّة القطعية، وقال البعض: للعقل أيضاً، وإن لم يرتضه بعضهم الآخر.

قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [٣٠]، فهذه الجملة ظاهرةٌ في الطلب ومؤكّدة بلامها، والطلب للوجوب؛ فمتعلقه واجب جزماً.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له، فقيل له: وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر» [٣١].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر فإذا لم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء» [٣٢].

وقال الصادق جعفر بن محمّد عليهما السلام لقوم من أصحابه: «إنّه قد حقّ لي أن آخذ البريءَ منكم بالعقيم، وكيف لا يحقّ لي ذلك؟! وأنتم يبلغكم عن الرجل منكم القبيح فلا تنكرون عليه، ولا تهجرونه ولا تؤذونه حتّى يتركه» [٣٣].

وهناك روايات أخرى كثيرة كما ذكرنا في أوّل الحديث يعضد بعضها بعضاً ويقوّي بعضها بعضاً الآخر، جاءت متظافرة تؤكّد وجوب هذه الشعيرة العظيمة فلا نحتاج إلى المناقشة في سند كلّ واحد منها وظهورها، وخاصة مع مطابقتها لما جاء في كتاب الله تعالى.

هل الوجوب عيني أم كفائي؟!

وقع الاختلاف بينهم أيضاً في وجوبه العيني والكفائي فذهب إلى الأوّل بعض، منهم : المحقق الحلي في شرائعه، ومال إلى الآخر جمع كثير من فقهائنا حتى المتأخرون منهم.

ويمكن الاستدلال على العينية:

١) بقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...﴾ [٣٤]. على اعتبار أنّ (من) هنا بيانية، بمعنى أن المطلوب منكم أن تكونوا أمّةً هذه صفاتها.

٢) مع التقاء هذا التفسير بأصالة العينية في الوجوب.

٣) بالإضافة إلى أن العموم لسان الأمر الوارد في جملة من الروايات الواردة عنهم عليهم السلام .

والجواب عن ذلك:

أما الأوّل منها: فأنّ الأظهر من (مِنْ) هنا التبعيض، ويكون معنى الآية حينئذٍ لتكن أمّةٌ من مجتمعكم وأفرادكم ؛ والأمّة تطلق على الجماعة وربما أُطلِقَتْ حتى على الواحد إذا كان ذا رصيدٍ عالٍ من الصفات التي لا تجتمع بسهولة في فرد واحد كخليل الله ابراهيم عليه وعلى نبينا وآله السلام، فلتكن هذه الأمّة أو هذه المجموعة

بتعبير آخر هذه صفاتها لإقامة الخير والمعروف ودفع المنكر وإزالته.

ويُبعِّد هذا الأمر ما جاء في نهاية هذه الآية المباركة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ والخطاب في هذه الآيات لم يكن إلّا للمؤمنين، ونعلم يقيناً بأنّ المؤمنين هم المفلحون، فيقتضي أنّ الكلّ مطلوب منه ذلك عيناً، وإلا لأصبح بعضهم من المفلحين دون بعض آخر.

إلا أنّ هذا أيضاً بعيد؛ لأنّه لا يتلاءم مع سياق الآية من الوجه التالي:

قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمّةٌ﴾. لو كان المراد أن يكون الكل أمّةً واحدةً، لقال تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف، لأن هذه وظيفة الأمّة التي تحولتم أنتم لها. أو لقال: تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف؛ ويشمل الكلام الكلّ، فتكون قرينة واضحة على الكليّة.

إلا أنه سبحانه وتعالى قال: ﴿ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف...﴾ فهؤلاء الذين هم منكم، هذه وظيفتهم.

ولو نُوقش في هذا كله ولم يكن واضحاً، فإن الرواية المباركة الواردة عن صادق أهل البيت عليهم السلام تبيّن المراد على أفضل وجه.

قال مسعدة بن صدقة: سُئِل أبو عبد الله عليه السلام عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أواجب هو على الأمّة جميعاً؟

فقال: لا. فقيل: ولِمَ؟!

قال عليه السلام: إنّما هو على القويّ المطالع العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعفة الذين لا يهتدون سبيلاً ـ إلى أن قال ـ والدليل على ذلك كتاب الله عزّ وجل ﴿ولتكن منكم أمّة...﴾. فهذا خاص غير عام، كما قال الله عزّوجل: ﴿ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾. ولم يقل على أمّة موسى عليه السلام ولا على كلّ قوم، وهم يومئذ أمم مختلفة، والأمّة واحد فصاعداً، كما قال الله عزّوجل: ﴿إنّ إبراهيم كان أمّة قانتاً لله﴾ يقول مطيعاً لله عزّ وجلّ. وليس على من يعلم ذلك في هذه الهدنة من حرج إذا كان لا قوّة له ولا عدد ولا طاعة [٣٥].

ولكنّ الإنصاف أن هذه الرواية غير ظاهرة في الوجوب الكفائي بحال من الأحوال، بل بالعكس هي ظاهرة في الوجوب العيني، أكثر وذلك لأن الإمام عليه السلام

عندما أخرج من الواجب من أخرجه لا لأجل سقوط الوجوب بعد ثبوته لقيام بعض به ـ وهو مقصد الواجب الكفائي ـ بل لموانع الوجوب أو للضرورة. فهذا الضعيف يسقط عنه الوجوب، وكذا مَنْ لا قوّة له ولا عدد ولا طاعة فقد خرج من التكليف، أما غيرهم فمشمولون جزماً.

فلا نستفيد من هذه الآية المباركة الوجوب الكفائي؛ خاصّة إذا لاحظنا سياق الآية المباركة مع الآية السابقة والآية اللاحقة ؛ قال تعالى: ﴿واعتصموا بحل الله جميعاً ولا تفرّقوا...﴾.

ثم قال في هذه الآية المباركة: ﴿ولتكن منكم أمّة...﴾

فالمستفاد أن الجميع مطلوب منهم أن يكونوا أمّة هذه صفاتها، مع وضوح المقصد في الآية اللاحقة ، إذ قال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات...﴾ فهذه اللاحقة، وتلك السابقة تبيان لنا أنّ وجود هذه الأمّة هي عبارة عن الاعتصام بحبل الله، ومطلوب من الجميع تشكيلها ، وإلّا فالتفرّق والاختلاف.

ومع أنّ هذا يزيد الاطمئنان بذلك. إلّا أن السياقَ ليس حجّة على الإطلاق. هذا أوّلاً.

وثانياً: إنّ المطلوب أن يكون المؤمنون أمّة هذه صفاتها. فمجموع الصفات واجب على أيّ حال، إلّا أنّ هذا الواجب هل هو واجب كفائي أم عيني؟! فهو غير ظاهر. وإذا ترددنا فلا نستدل بها على هذا ولا على ذاك.

ويبقى الدليل الثاني؛ الّذي مؤدّاه أن الأصل في الوجوب هو الوجوب العيني مستحكماً فنحمل الآية عليه، وكذا الروايات. ويردّ هذا بأنّ الاصل هنا غير جائز جريانه، لأنّنا نعلم جزماً بأنّ الغرض من الأمر بالمعروف هو تحققه في الخارج، كما أن الغرض من النهي عن المنكر هو عدم تحققه في الخارج، فإذا تمّ هذان الأمران ، وتحقق الأوّل ولم يتحقق الثاني ، فقد تمّ مراد الشارع جزماً، وإن قام به بعض دون بعض، وهو المعنى الواضح للوجوب الكفائي. إذ ليس مطلوباً للشارع الإتيان به من كلّ أحد بعينه، بل مرادُه التحقق الخارجي. وقال بعضهم: «بل يمكن دعوى عدم تعقّل إرادة الحمل على المعروف باليد مثلاً من الجميع»(٣٦).

وأما الدليل الثالث: فمسألة العموم الذي يُستفاد من جملة من الروايات ما هو إلا العموم نفسه الوارد عنهم في مسألة تغسيل الميّت وتجهيزه ودفنه أو غير ذلك من الواجبات الكفائية، وذلك بلحاظ أنّ هذا الفعل الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ كتلك الواجبات التي لا يُعقل فيها التكرار أصلاً، إذ بعد أن قام به بعض لا معنى لقيام الآخرين به بعد ذهاب موضوعه بامتثال المأمور، وكذلك لا يمكن اشتراك الجميع في تحققه، كما هو واضح بأدنى تأملّ.

نعم هو فعل مطلوب من الكلّ، فإذا تركه كلّهم أثموا جميعاً؛ إلا أن بعضهم إن قام به سقط عن الآخرين، لأن الشارع المقدّس يريد تحققه في الخارج وقد تحقق فلا معنى لبقاء حكمه أصلاً. وهذا بعينه هو مفاد الواجب الكفائي ومعناه.

بقي شيءٌ هنا ربما يُستفاد من الرواية المبيّنة لمعنى الآية المباركة أن المقصود من الأمّة هو المعصوم عليه السلام وذلك بالإشارة إليه والتلميح إن لم يكن ثمّة تصريح في قوله عليه السلام: «والأمّة واحد فصاعداً...» مع ذكر إبراهيم وكونه مطيعاً له عزّ وجل، بالإضافة إلى قوله: «وليس على من يعلم ذلك في هذه الهدنة من حرج إذا كان لاقوّة له ولا عدد ولا طاعة».

والذي نعلمه من الدليل الخارجي أن الذي يعلم، والذي طاعته مفروضة على العباد، والذي ينتظر القوّة والعدد؛ ما هو إلّا الإمام، فلا يبقى أدنى شكّ في أنّ المراد من الأمّة ماهو إلّا المعصوم. مع ملاحظة أن الآية ظاهرة في بيان واجب متعلق بأُمّة خاصّة من المؤمنين؛ وهم المخاطبون بها، وهذا يعني أننا لو التزمنا بأنّه يشمل الأمّة وأن الآية بصدد بيان الواجب الكفائي، وهو لا يتحقق بفعل الأمّة جميعاً بل ببعض أفرادها فعلينا أن نلتزم بأنّه في الواجباب الكفائية يتوجّه من الشارع خطاب إلى ذلك المبهم أوّلاً عندنا المعلوم عنده سبحانه فيأمره بذلك وينهاه، وهذا ممّا لا نرتضيه بحالٍ من الأحوال. فإذا بطل هذا المعنى نبقى متمسكين بأنه لا ظهور. فإذا تمّ ذلك خرج عن حديثنا.

ويمكن أن ندفع هذا كلّه بقولنا: إن الآية المباركة تشملهم عليهم السلام بالجري المصطلح عند العلامة الطباطبائي قدس سره. وليس المصداق منحصراً فيهم عليهم السلام، إذ كلّ ما ذكر يمكن الكلام فيه وتوجيهه، وهو لا يخفى على المتأمّل الدقيق.

والعمدة في الردّ لهذا التوجيه الانحصاري هو أنّ الأمّة كلّها غير مُخاطبة بتعيين الإمام المعصوم عليه السلام، بل يتمّ تعيينه من قبل الله تعالى، وليس بيد الأمّة من ذلك شيء كما هو واضح لمن استوعب عقائدنا الحقة، فإذا كان كذلك فهؤلاء يقومون بكلّ واجب ولا دخل للأمّة ليطلب الله تعالى منهم أن يكون منهم أمّة هذه صفاتها. فالله هو الذي يعرف صفاتها أوّلاً ويعيّنها ثانياً، لا أنّه بعد تحققها في الخارج يأمرها فتظهر صفاتها فيعيّنها بعد التزامها وبعد تصدّيها لهذا الأمر . وهو قول غيرنا.

إذ إن الله تعالى باطلاعه على حقائق الأمور قد اختارهم كما اختار الأنبياء والمرسلين : ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته...﴾ (٣٧). ولذا خاطبهم الله تعالى في موضع آخر من كتابه:

﴿كنتم خير أمّةٍ أُخرِجَت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (٣٨).

وهذا مارواه علي بن ابراهيم في تفسيره عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن سنان قال: قرأت على أبي عبدالله عليه السلام ﴿كنتم خير أمّة اخرجت للناس...﴾ فقال أبو عبدالله عليه السلام : خير أمّة يقتلون أمير المؤمنين والحسن والحسين بن علي عليهم السلام. فقال القارئ جُعلت فداك كيف نزلت؟!

فقال عليه السلام نزلت «كنتم خير أئمة أُخرجت للناس» ألا ترى مدح الله لهم ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

وفي تفسير العياشي قريب منه بطريقين عن الصادق عليه السلام.

وفي مناقب ابن شهرآشوب عن الباقر عليه السلام قريب من ذلك، وكذا في تفسير النعماني عن الحافظ بن عقدة بإسناده عن الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام. والطوسي في تبيانه، والطبرسي في مجمع بيانه رويا ذلك.

من هذا كلّه يظهر لنا أنّه بالواجب الكفائي أقرب. «وإنّما تظهر فائدة القولين في وجوب قيام الكلّ به قبل حصول العرض، وإن قام به مَن فيه الكفاية على الوجوب العيني، وسقوط الوجوب عمّن زاد على ما فيه الكفاية من القائمين على القول الآخر..» (٣٩).

كيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الإمام الصادق عليه السلام في بيان كيفية الرفق بالناس عند إرشادهم:

«إن الله وضع الإسلام على سبعة أسهم: على الصبر والصدق واليقين والرضا والوفاء والحلم، ثمّ قسّم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة أسهم فهو كامل محتمل، ثمّ قسم لبعض الناس السهم، ولبعضهم السهمين، لبعضهم الثلاثة أسهم، ولبعض الأربعة أسهم، ولبعض الخمسة أسهم، ولبعض الستة الأسهم، ولبعض السبعة الأسهم، فلا تحملوا على صاحب السهم سهمين ولا على صاحب السهمين ثلاثة... إلى أن يقول (سلام الله عليه) وعلى صاحب الستة سبعة أسهم، فتثقلوهم وتنفروهم، ولكن ترفقوا بهم وسهّلوا لهم المدخل، وسأضرب لك مثلاً تعتدّ به أنه كان رجل مسلم وكان له جار كافر، وكان الكافر يرافق المؤمن فلم يزل يزيّن له الإسلام حتّى أسلم، فغدا عليه المؤمن فاستخرجه من منزله فذهب إلى المسجد ليصلي معه الفجر جماعة، فلمّا صلّى قال: لو قعدنا نذكر الله تعالى حتّى تطلع الشمس فقعد معه، فقال له: لو تعلّمت القرآن إلى أن تزول الشمس وصمتَ اليوم كان أفضل، فقعد معه وصام حتّى صلى الظهر والعصر. فقال له: لو صبرت حتّى تصلي المغرب والعشاء الآخرة كان أفضل فقعد معه حتّى صلّى المغرب والعشاء الآخرة. ثم نهضا وقد بلغ مجهوده وحمل عليه ما لا يطيق. فلما كان من الغد غدا عليه وهو يريد مثل ما صنع بالأمس؛ فدّق عليه بابه، فأجابه: أن انصرف عني، إن هذا دين شديد لا أُطيقه.. فلا تخرقوا بهم...»[٤٠]. وفي خبر إبان: «وليكن أحدكم بمنزلة الطبيب المداوي إن رأى موضعاً لدوائه وإلا أمسك»[٤١].

ما هي المراتب التطبيقية في هذا الأمر؟

بالنظر إلى ما اشتهر من لسان الادلة وخاصّة الحديث المشهور عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطِع فبلسانه، فإن لم يستطِع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»؟

ومقتضى روايات أخرى هذا المعنى أيضاً. منها ما عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «من رأى منكم منكراً فلينكر بيده إن

استطاع، فإن لم يستطِع فبقلبه، فحسبه أن يعلم الله من قلبه أنّه لذلك كاره»[٤٢].

إلّا أن تصريح جلّ العلماء ترتيب الأيسر فالأيسر، أن لم نقل أنّ الشهرة محرزة في ذلك، مع وجود روايات عنهمعليهم السلام تفيد الترتيب المذكور، بالإضافة إلى القاعدة التي يعلمها كلّ أحد وهي حرمة إيذاء المؤمن والإضرار به ولا يمكن الخروج عنها الا بدليل قوي، فنقتصر على الأيسر إن أدّى الغرض، وإلّا فالأيسر إلى أن يؤدّى، وكأنّه خروج عنها للضرورة فمتى ارتفعت تحكمّت القاعدة مرَة أخرى.

بالإضافة إلى وجود مثل الآية الكريمة: ﴿وإن فئتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر الله﴾. فهنا الصلح قد قُدّم على القتال.

ونحتمل قوياً إن لم نكن جازمين أنّ الشارع المقدّس لا يريد من الأمر والنهي إلّا إقامة تشريعه في الأرض، فلو تأدّى هذا بالأيسر فلماذا ننتقل إلى الأشدّ في حال الاختيار؟! نعم لو لم نتمكن من ذلك يتعيّن الأشد، أو لو علمنا من الأوّل أن تأثير القلب واللسان لا يؤدّيان الغرض جزماً، واليد هي التي تؤدّيه؛ فحينئذ ننتقل إليها مباشرة كما هو مقتضى أمر العقلاء، والشارع رأسهم بل رئيسهم. وقد صرّح بهذا جمعٌ من فقهائنا في رسائلهم العمليّة.

ننقل قسماً مما جاء في تحرير الوسيلة، للمرجع الكبير والمجاهد العظيم آية الله العظمى الإمام روح الله الموسوي الخمينيقدس سره من القول في مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فإن لهما مراتبَ لا يجوز التعدي من مرتبة إلى أخرى مع حصول المطلوب من المرتبة الدانية بل مع احتماله.

المرتبة الأولى: أن يعمل عملاً يظهر منه انزجاره القلبي عن المنكر، وأنه طلب منه بذلك فعل المعرف وترك المنكر، وله درجات كغمض العين، والعبوس والانقباض في الوجه، وكالإعراض بوجهه أو بدنه، وترك مراودته ونحو ذلك.[٤٣]

المرتبة الثانية: الأمر والنهي لساناً.[٤٤]

ثم يقولقدس سره في مسألة لاحقة. «لو كان بعض مراتب القول أقلّ إيذاءً وإهانةً من بعض ما ذُكر في المرتبة الأولى يجب الاقتصار عليه، ويكون مقدّماً على ذلك».

فلو فُرض أنّ الوعظ والإرشاد بقول ليّن ووجه منبسط مؤثر أو محتمل التأثير وكان أقل إيذاءً من الهجر والإعراض ونحوهما ، لا يجوز التعدّي منه إليها ، والأشخاص آمراً ومأموراً مختلفون جداً ، فرب شخص يكون إعراضه وهجره أثقل وأشدّ إيذاءً وإهانةً من قوله وأمره ونهيه . فلابدّ للآمر والناهي ملاحظة المراتب والأشخاص ، والعمل على الأيسر ثمّ الأيسر »(٤٥).

المرتبة الثالثة: الإنكار باليد.

لو علم أو اطمأن بأن المطلوب لا يحصل بالمرتبتين السابقتين ، وجب الانتقال إلى الثالثة ، وهي إعمال القدرة مراعياً للأيسر فالأيسر .(٤٦).

ثم يتمّم هذا المطلب بقوله ﷺ في المسألة (١٠) والمسألة (١١) : «لو لم يحصل المطلوب إلا بالضرب والإيلام ، فالظاهر جوازهما مراعياً للأيسر فالأيسر والأسهل فالأسهل ، وينبغي الاستيذان من الفقيه الجامع للشرائط ، بل ينبغي ذلك في الحبس والتحريج ونحوهما ». و «لو كان الإنكار موجباً للجرّ إلى الجرح أو القتل فلا يجوز إلّا بإذن الإمام عليه السلام على الأقوى ، وقام في هذا الزمان الفقيه الجامع للشرائط مقامه مع حصول الشرائط »(٤٧).

وهكذا يصرّح آية الله العظمى السيد الخوئي ﷺ ويذكر في رسالته :

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب :

الأولى: الإنكار بالقلب.

الثانية: الإنكار باللسان والقول.

الثالثة: الإنكار باليد بالضرب المؤلم الرادع عن المعصية.

ولكلّ واحدة من هذه المراتب مراتب أخف وأشدّ ، والمشهور الترتيب بين هذه المراتب . ولكنّه ﷺ يضيف :

« ولكن الظاهر أن القسمين الأوّلين في مرتبة واحدة فيختار الآمر والناهي ما يحتمل التأثير منهما ، وقد يلزمه الجمع بينهما ، وأما القسم الثالث فهو مترتّب على عدم تأثير الأوّلين ، والأحوط في هذا القسم الترتيب بين مراتبه فلا ينتقل إلى الأشدّ ، إلّا إذا لم يكفِ الأخفّ .»(٤٨).

ويذهب الشيخ المفيد ﷺ إلى: «أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللّسان

فرض على الكفاية بشرط الحاجة إليه لقيام الحجّة على من لا علم لديه إلّا بذكره، أو حصول العلم بالمصلحة به، أو غلبة الظنّ بذلك. فأمّا بسط اليد فيه فهو متعلّقٌ بالسلطان، وإيجابه على من يندبُهُ له، وإذنُهُ فيه؛ ولن يجوز تغيّر هذا الشرط المذكور، وهذا مذهبٌ متفرّعٌ على القولِ بالعدل والإمامة دون ماعداهما»(٤٩).

وقد رأينا أنّ النهضة الحسينية كان مردّ تحريكها الأساسي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولقد صرّح قائدها بهذا فقال عليه السلام:

«إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مُفسداً، ولا ظالماً، إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّةِ جدّي، أُريد أنْ آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي».

وكذا نرى أنّ الشهيد السعيد آية الله الشيخ المطهري قدس سره عندما يحصر العوامل التي أثّرت بالعمل في واقعة كربلاء بثلاثة عوامل، يجعل العامل الثالث لهذا الواجب المقدّس، هو الاساس إذ يقول قدس سره:

«إنّ عامل الامتناع عن المبايعة، أكثر أهمّيةً من عامل قبول دعوة الكوفة، ذلك أنّ عامل قبول الدعوة الكوفية كان يحمل معه احتمال النجاة والفرار بالجلد ـ كذا ـ إضافة إلى احتمال النجاح والموفقية في إسقاط الحكم، واستلام السلطة، في حين إن عامل الامتناع عن المبايعة، لا سيما في الأيام الأولى من طلب البيعة، كان يحمل معه نسبة عالية من الخطر، بل إن احتمال الموت المحقق كان عالياً جدّاً. وأما عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي يستند إليه الإمام كثيراً في خطبه، ويذكره منفصلاً عن أية إشارة إلى عامل الامتناع عن المبايعة(٥٠)، أو عامل الدعوة الكوفية(٥١)، فإنّه في الواقع العامل الأكثر أهمّية وقيمةً، من كلا العاملين، وذلك لأنّ الإمام في هذه الحالة هو الّذي يتّخذ قرار المواجهة مع السلطة الحاكمة آنذاك، وأنّ تلك المواجهة نوع من الهجوم الذي يبدأه الإمام بنفسه، وليس الحكومة، ولا حتّى الناس.

وكما قلنا فإنّ الإمام في إطار هذا العامل عنصرٌ مهاجم، ومعترض، وليس مدافعاً. وعمله نوع من العمل الابتدائي، وليس محض ردّ فعل سلبي على طَلَبِ البيعة، او ردّ فعل إيجابي على طلب الدعوة الكوفية له لتشكيل الزعامة»(٥٢).

يقول الشهيد السعيد الشيخ المطهّري نفسه بعد ذلك: «واستناداً إلى هذا العامل فإنّ الإمام عنصر معارض ومتمرّد، ويريد تغيير الاوضاع الفاسدة، سواء أطلبت منه الحكومة البيعة، أم لم تطلب، وسواء كذلك أن يكون أهل الكوفة قد دعوه إليهم، وأعلنوا نصرتهم له، أم لم يفعلوا ذلك» الملحمة الحسينية، ج ٣، ص ١٨١.

الخاتمة

كيف التوافق بين آيات الأمر والنهي ورواياته ومنها: «إنّ أفضل الجهاد كلمة عدلٍ عند إمام جائر»[٥٣]. من جهة، والقول بسقوط الأمر والنهي في حال احتمال عدم الاستجابة، أو العلم بعدمها؛ أو بينها وبين مثل قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين...﴾[٥٤]. وقوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم مَن ضلّ إذا اهتديتم﴾[٥٥]، من جهةٍ أخرى؟!

أمّا أوّلاً، فنقول بأنّ في غلبة الظن بعدم التأثير يسقط الأمر والنهي، وبهذا صرّح جُلّ العلماء كصاحب الشرائع مثلاً، والمحقق السيد الخوئي، بل حتّى أمثال المجاهد المحقق آية الله الإمام الخميني كما نقلنا ذلك منه آنفاً.

أمّا في صورة العلم فساقطان للإجماع. كما نقله صاحب الجواهر في جواهره[٥٦].

وأمّا ثانياً، فللنصوص الكثيرة التي أسقطتهما في حال عدم التأثير كقول الصادق عليه السلام في خبر مسعدة في بيان الرواية التي ذكرناها آنفاً لما سُئل عمّا جاء عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر» «هذا على أن يأمره بعد معرفته ومع ذلك يقبل منه، وإلّا فلا»[٥٧].

وفي خبر داود الرقي: «لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه، قيل له وكيف ذلك؟ قال: يتعرّض لما لا يطيق»[٥٨].

وأما ثالثاً، فالحديث حول الآيات يكون بترتيب آخر.

أما الآية الأولى فليست ناظرة لما نحن فيه، بل مؤدّاها غير ذلك. ويمكن تلخيصه بما يلي:

إن الإكراه الوارد في الآية المباركة معناه ما يقابل الاختيار ومعنى ذلك أن الله

سبحانه وتعالى يريد أن يقول بأن الإيمان بالدين أساساً بالاختيار لا بالإجبار الذي هو معنى الإكراه فلا جبر على الإيمان به، بل إن الإنسان في دربه مخيّر بحسب ما أودع الله فيه من عقل وجعله متمكّناً من معرفة الطريق الذي هو أحقّ بالاتباع من غيره؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ (٥٩).

فبعد أن ألهمها ذلك قال سبحانه:

﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها﴾ (٦٠).

فالاختيار راجع إلى ذلك كما قال تعالى في موضع آخر من كتابه:

﴿إنّا هديناهُ السبيلَ إمّا شاكراً وإمّا كفورا﴾ (٦١).

فهو الذي يختار الإيمان والكفر ولا إجبار بأحدهما.

ويدلّ على ما ذهبنا إليه ما يلي:

لفظ الكره الوارد في الآية المباركة له في لغة العرب معنيان:

الأوّل: عدم الرضا.

الثاني: عدم الاختيار.

والأوّل غير مراد في الآية المباركة كما هو الظاهر منها؛ وذلك لوجود ما يُقابل الرضا في الدين. فها هو الإكراه بالحق واضح في كثير من المصاديق، من ذلك:

إكراه الزوجة على إطاعة زوجها.

إكراه المدين على أداء دينه.

إكراه المالك الكافر على بيع عبده المسلم.

إكراه الزوج على طلاق زوجه لو امتنع من النفقه عليها وجعلها كالمعلّقة ورفعت أمرها إلى الحاكم الشرعي لو امتنع من الطلاق أيضاً. ومن يرد التوسعة في بيان المراد منها، فعليه بكتاب البيان للسيد الخوئي(قدس سره) عند تعرّضه لها في جملة الآيات المدّعى نسخها (٦٢). فإذا موردها غير مورد الأمر والنهي الواردين في مقام إرشاد الناس وهدايتهم إلى طريق الحقّ كما هو واضح.

وأمّا الآية المباركة التي يقول جلّ وعلا فيها:

﴿يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾[٦٣]. فقد ورد في تفسير القمّي فيها قولهعليه السلام: «أصلحوا أنفسكم، ولا تتبعوا عورات الناس، ولا تذكروهم، فإنّه لا يضرّكم ضلالتهم إذا أنتم صالحون»[٦٤].

وقال العلامة الكبير آية الله السيد محمّد حسين الطباطبائي في ميزانه: «والرواية منطبقة على أنّ الآية متوجّهة إلى النهي عن التعرّض لإصلاح حال الناس أزيد من متعارف الدّعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليست مسوقة للترخيص في ترك فريضة الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٦٥].

وإذا تمّعنا فيها ظهر لنا أنّ الخطاب موجّه إلى مجموع المؤمنين، فالمجتمع المؤمن يكون مسؤولاً عن نفسه، وفي الوقت نفسه لا يكون مسؤولاً عن غيره. فإذا اهتدى المؤمنون ـ ومِن جُملةِ هدايتهم بالطبع تطبيقهم لما جاء به رسولهمصلى الله عليه وآله وسلم من اوّل العبادات إلى آخر المعاملات، ومن جملة ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ فإذا أقاموا مجتمعاً كهذا لا يضرّهم من ضلّ بشيءٍ.

وبهذا نختم حديثنا حول هذه الشعيرة المهمة من شعائر الله، التي بتطبيقها يقام المجتمع ويسعد، ذلك المجتمع الذي يشدّ بعضه بعضاً، ويُكمل بعضه بعضه الآخر، وفيه يكون المؤمن مرآةً لأخيه المؤمن، ناصِراً له ظالماً أو مظلوماً.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لو لا أن هدانا الله...

الهوامش

١ ـ الوسائل، الباب الأول، من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ج ١٨.

٢ ـ آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤.

٣ ـ لقمان: ١٧.

٤ ـ الوسائل، من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ج ١٨.

٥ ـ الحج: ٤٢.

٦ ـ التوبة: ٧١.

٧ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. الوسائل، الباب الثاني، من أبواب الأمر بالمعروف، ح ٩.

٨ ـ الكافي: ج ٥، ص ٥٥، التهذيب: ج ١، ص ١٨٠.

٩ ـ منهاج الصالحين: ج ١، ط ٢٨، سنة ١٤١٠هـ.، ص ٣٥٠، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي قدس سره).

١٠ ـ آل عمران: ١٠٤.

١١ ـ آل عمران: ١١٠.

١٢ ـ آل عمران: ١٠٤ و ١١٠ و ١١٤؛ الأعراف: ١٥٧؛ التوبة: ٧١ و ١١٢؛ لقمان: ١٧؛ الحج: ٤٢.

١٣ ـ طه: ١٣٢.

١٤ ـ الطلاق: ٦.

١٥ ـ الملحمة الحسينية: ج ٢، ط ٢، سنة ١٩٩٠م، ص ٦٤.

١٦ ـ المصدر السابق: ص ٦٤.

١٧ ـ تحرير الوسيلة: ج ١، ط ٢، سنة ١٣٩٠، آية الله العظمى السيد روح الله الخميني قدس سره.

١٨ ـ راجع جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام: ج ٢١، الناشر دار الكتب الإسلامية، طهران ط سنة ١٣٩٢هـ. ص ٣٥٦، الشيخ محمّد حسن النجفي قدس سره.

١٩ ـ مجمع البحرين، الشيخ الطريحي، مادة «عرف»، ج ٥، ص ٩٥، ومادة «فكر»، ج ٣ ص ٥٠١ و ٥٠٢، المكتبة المرتضوية.

٢٠ ـ تحرير الوسيلة: ج ١، آية الله السيد روح الله الخميني قدس سره، مسألة (١).

٢١ ـ جواهر الكلام ط. دار الكتب الإسلامية، الشيخ محمّد حسن النجفي.

٢٢ ـ المصدر نفسه.

٢٣ ـ المصدر السابق: ص ٣٥٧.
٢٤ ـ تحرير الوسيلة: ج ١، ص ٤٧٠.
٢٥ ـ تحرير الوسيلة: ج ١، ص ٤٦٥.
٢٦ ـ المصدر السابق: ص ٤٦٧، الشرط الثاني.
٢٧ ـ منهاج الصالحين: ج ١، ص ٣٥٢، السيد أبو القاسم الخوئي.
٢٨ ـ تحرير الوسيلة: ج ١، ص ٤٧٢.
٢٩ ـ المصدر السابق.
٣٠ ـ آل عمران: ١٠٣.
٣١ ـ الوسائل: الباب الأول، من أبواب الأمر والنهي، ج ١٣.
٣٢ ـ الوسائل: الباب الأول، ح ١٨.
٣٣ ـ الوسائل: الباب الثالث، من أبواب الأمر والنهي، ح ٤.
٣٤ ـ آل عمران: ١٠٤.
٣٥ ـ الوسائل، الكتاب الثاني، من أبواب الأمر والنهي، ج ١، الحرّ العاملي.
٣٦ ـ الجواهر: ج ٢١، ص ٣٦٠.
٣٧ ـ الأنعام: ١٢٤.
٣٨ ـ آل عمران: ١١٠.
٣٩ ـ الجواهر، ج ٢١، ص ٣٦٢.
٤٠ ـ الوسائل: الباب الرابع عشر، من أبواب الأمر والنهي، ح ٩.
٤١ ـ الوسائل: الباب الرابع عشر، من أبواب الأمر والنهي، ح ٩٥.
٤٢ ـ الوسائل: الباب الثالث، من أبواب الأمر والنهي، ح ١٢.
٤٣ ـ ص ٤٧٦.
٤٤ ـ ص ٤٧٧.
٤٥ ـ مسألة (٦): ص ٤٧٨.
٤٦ ـ ص ٤٧٩.
٤٧ ـ ص ٤٨١.
٤٨ ـ منهاج الصالحين: ج ١ العبادات، ط ٢٨ لسنة ١٤١٠هـ، ص ٣٥٢، آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي.
٤٩ ـ أوائل المقالات، الشيخ المفيد، المتوفى سنة ٤١٣هـ، ط ٢، ص ١٣٧.

٥٠ ـ وما نرى ذلك إلّا لأنّه من مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الّتي طبقها الإمام عليه السلام عملياً، فلذا نرى دخول هذا العامل في العامل الثالث.

٥١ ـ ونرى أن ذلك ليس عاملاً مؤثراً في الثورة الحسينية نفسها، بل تلك الدعوة الكوفية وجّهت الثورة الحسينية وسحبتها نحو الكوفة ليس إلّا. وكذا قد صرّح الشهيد.

٥٢ ـ الملحمة الحسينية، ج ٣.

٥٣ ـ الوسائل: ج ٢٥، الباب الثاني، من أبواب الأمر والنهي، ح ١.

٥٤ ـ البقرة: ٢٥٥.

٥٥ ـ المائدة: ١٠٥.

٥٦ ـ الجواهر، الشيخ محمّد حسن النجفي، ٢٦٨.

٥٧ ـ الوسائل: الباب الثاني، من أبواب الأمر والنهي، ح ١.

٥٨ ـ الوسائل: الباب الثاني عشر، من أبواب الأمر والنهي، ح ١.

٥٩ ـ الشمس، ٧.

٦٠ ـ الشمس: ٩.

٦١ ـ الإنسان: ٩.

٦٢ ـ البيان، ط ١٩٧٤، ص ٣٢٦.

٦٣ ـ المائدة: ١٠٥.

٦٤ ـ تفسير القمي للآية المباركة.

٦٥ ـ تفسير الميزان، الطباطبائي ط ٥، سنة ١٤١٢، ج ٦، ص ١٧٦.

المصادر

١ ـ كتاب الله المجيد

٢ ـ أوائل المقالات للشيخ المفيد

٣ ـ البيان للسيد الخوئي

٤ ـ جواهر الكلام للشيخ محمّد حسن النجفي

٥ ـ تحرير الوسيلة للإمام الخميني

٦ ـ تفسير الميزان للسيد الطباطبائي

٧ ـ التهذيب للشيخ الطوسي

٨ ـ الكافي للشيخ الكليني

٩ ـ مجمع البحرين للشيخ الطريحي

١٠ ـ الملحمة الحسينية للشيخ المطهري

١١ ـ منهاج الصالحين للسيد الخوئي

١٢ ـ الوسائل للشيخ الحر العاملي

النماذج التربوية والاخلاقية

في نهضة الإمام الحسين

شهاب الدين الحسيني

الحياة البشرية قائمة على أُسس وسنن ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدّل منذ أن كان المجتمع الإنساني أسرة واحدة؛ ومن هذه السنن استمرار الصراع بكلّ مقوّماته بين الحقّ والباطل، وبين الاستقامة والانحراف وبين الوضوح والزيغ، ولكلٍّ منهما تصوّره ومنهجه ومواقفه.

والصراع بجميع أبعاده مستمر مادام هنالك منهجان وموقفان في الكون والحياة. ولاينتهي الصراع إلّا بزوال أحدهما بحيث لايبقى له وجود وأتباع وأنصار.

والحركة التاريخية تتّجه نحو بقاء الحق والفضيلة، وانكماش الباطل والرذيلة، وإنّ التنافي والتضادّ بينهما يتبعه التنافي والتضاد في سلوك وأخلاق أتباع وأنصار المنهجين، لأنّ الأخلاق تتبع المنهج المتبنّى في الحياة.

وفي حركة المسلمين التاريخية ظهر هنالك منهجان متنافيان، خصوصاً في عهد أمير المؤمنين علي عليه‌السلام بينه وبين معاوية وأنصاره وانعكس ذلك على سلوك وأخلاق الطرفين، وتجلّى ذلك التنافي والتضادّ السلوكي والأخلاقي في عاشوراء، حيث برزت في الساحة القمم العالية والرفيعة من الأخلاق مقابل الأخلاق الوضيعة.

تأثير الإيمان في السلوك التربوي والأخلاقي

الإيمان بالله تعالى والاستسلام لربوبيته وترويض النفس باتجاه هذا الإيمان، انعكس في أخلاق الجبهتين، جبهة الحقّ وجبهة الباطل؛ فقائد جبهة الحق وهو الإمام الحسين عليه‌السلام قد تلقّى أرقى أُسس التربية الإيمانية من أبيه وجدّه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم؛ لذا قدّم لنا أروع المفاهيم والمواقف الأخلاقية في نهضته

لارتباطه واندكاكه بالله تعالى.

أمّا قائد جبهة الباطل وهو يزيد بن معاوية، فإنّ عدم استسلامه للربوبية المطلقة، وركونَه إلى مطامع الأرض وأثقالها، قدّم أحطّ وأخس المفاهيم والمواقف الأخلاقية؛ لأنّه نشأ نشأةً نصرانية عند أخواله، وانعكست جاهليّة أبيه على سلوكه وأخلاقه وأخلاق أتباعه. فهو القائل مُتمثّلاً بقول أحد الشعراء:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل[1]

وعمر بن سعد القائد العسكري المباشر في عاشوراء يشكّك بالبعث والمعاد فيقول:

يقولون إنّ الله خالق جنّة ... ونار وتعذيب وغلّ يدين

فإن صدقوا فيما يقولون انني ... أتوب إلى الرحمن من سنتين[2]

النماذج الأخلاقية في نهضة الإمام الحسين

الأوّل: تقديس الكعبة

الكعبة رمز الإسلام وقبلة المسلمين وهي محلّ اعتزازهم ومصدر عزّهم، ولها حرمة في قلوبهم وضمائرهم، وقد جسّد الإمام الحسين عليه السلام حرمتها وكرامتها في مواقفه الشريفة وخُلقه القويم. وقد جدّ في السير خارجاً منها لئلا يكون قتله فيها سبباً لانتهاك حرمتها. قال لأخيه محمّد بن الحنفية: «يا أخي خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية بالحرم فأكون الذي يُستباح به حرمة هذا البيت»[3].

وقال لعبد الله بن الزبير: «يا ابن الزبير لئن أُدفن بشاطئ الفرات أحبّ إليّ من أن أُدفن بفناء الكعبة»[4].

وقال: «إنّ أبي حدثني أنّ لها كبشاً به تستحلّ حرمتها فما أحبّ أن أكون أنا ذلك الكبش، والله لئن أُقتل خارجاً منها بشبر أحبّ إليّ من أن أُقتل فيها، ولئن أُقتل خارجاً منها بشبرين أحبُّ إليّ من أن أُقتل خارجاً منها بشبر»[5].

الثاني: أخلاقية الإعلام والدعاية

امتاز الإعلام الحسيني في عاشوراء بالصدق والصراحة والواقعية، ولم يُمارس فيه الخداع والتضليل، وإنّما ركّز الإمام عليه السلام على وقائع معلومة للجميع غير خافية على أحد، واستمر الإمام عليه السلام على ذلك في جميع مراحل الثورة وخطواتها ومجالاتها.

ففي جوابه لأمير المدينة يقول: «إنّا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، وبنا فتح الله وبنا ختم الله، ويزيد رجلٌ فاسق شارب الخمور، قاتل النفس المحرَّمة، معلن بالفسق؛ ومثلي لا يبايع مثله»[٦].

وحدّد أهداف ثورته بصراحة وصدق قائلاً: «وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب»[٧].

ولم يخفِ الأحداث على أتباعه وكان يخبرهم باستمرار أنّه سيستشهد ويُقتل، ولما أتاه خبر مقتل مسلم بن عقيل أعلم أصحابه ذلك وقال: (... فمن أحبّ أن ينصرف فلينصرف ليس عليه ذمام»[٨].

وتجسّدت أخلاقية الإعلام في خطابات أصحاب الحسين عليه السلام للجيش الأموي فلم يستخدموا اللف والدوران والتدليس في طرح الحقائق، وإنّما عرضوا نصائحهم وآراءهم واضحةً لا لبس فيها ولا غموض. وبعد قيام المرحلة الثانية من النهضة الحسينية، استخدم الإمام علي بن الحسين عليه السلام والعقيلة زينب أُسلوب الصدق والصراحة في مجلس عبيد الله ويزيد.

الثالث: نكران الذات

وهو من أبرز الص فات الخلقية التي اتصفت بها النهضة الحسينية، على مستوى القيادة والطليعة المؤمنة من أهل البيت والأنصار، فجعلوا العقيدة والمسؤوليّة الشرعية فوق ذواتهم، ولم يُبقوا لذواتهم أيّ شيء سوى الفوز في السعادة الأبدية، فالإمام الحسين عليه السلام جعل المبادئ فوق كلّ الاعتبارات، فيقول عليه السلام: «فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحق»[٩].

وكان الإيثار هو الخُلق القويم الذي اتبعه الناهضون، فقبل المعركة وصل بُرير ومعه جماعة إلى النهر، فقال لهم حماة النهر ـ بعد أن عجزوا عن قتالهم ـ اشربوا هنيئاً مريئاً ولاتحملوا قطرةً من الماء للحسين، فكان جوابهم: «ويلكم نشرب الماء هنيئاً والحسين وبنات رسول الله يموتون عطشاً، لا كان ذلك أبداً»(١٠).

وفي شدّة العطش، وحين وصول العبّاس عليه السلام إلى الماء رفض أن يشربه وقال:

يانفس من بعد الحسين هوني	وبعده لا كنتِ أن تكوني
هذا حسينٌ وارد المنون	وتشربين بارد المعين (١١)

وتنافس أصحاب الحسين عليه السلام فيما بينهم على التضحية «فلمّا رأوا أنّهم لايقدرون يمنعون الحسين ولا أنفسهم تنافسوا أن يُقتلوا بين يديه»(١٢).

ورفض العبّاس وإخوته الأمان الذي جاء به شمر وقالوا له: «لعنك الله ولعن أمانك»(١٣).

وتجلّت قمّة الإيثار في موقف مسلم بن عوسجة حينما طلب الإمام عليه السلام من أنصاره الانصراف فقال: «والله لو علمت أنّي أُقتل ثمّ أحيا ثمّ أُحرق حيّاً ثمّ أُذرّى سبعين مرّة ما فارقتُك حتّى ألقى حمامي دونك»(١٤).

وترى الإيثار في موقف النساء، فزوجة زهير بن القين هي التي شجّعته على الانتماء إلى معسكر الحسين عليه السلام وهي تعلم بمقتله، وأُمّ عبدالله بن عمير الكلبي حينما عاد ولدها سالماً من المعركة دفعته ثانيةً قائلةً له: «فداك أبي وأُمّي قاتل دون الطيبيّن ذريّة محمّد... لن أدعَك دون أن أموتَ معك»(١٥).

الرابع: الإنسانية والرحمة بالأعداء

جرت العادة في أغلب الثورات أنّ الثوّار في حالة الهياج الثوري يغفلون أحياناً عن قضايا الرحمة والعطف بأعدائهم وخصومهم، لأنّهم يريدون الوصول إلى أهدافهم بأسرع وقت وبأقلّ التكاليف، لكنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يفعل هذا، وقد رافقته الرحمة والعاطفة على الذين وقفوا أمام مسيرته، لأنّ هدفه الهداية والإصلاح لا الانتقام لذاته؛ وحبّ الخير للبشر، لا الحقد على الذين آذوه؛ وتحطيم الحواجز

الحائلة دون إيصال هذا الخير للناس، لا حباً للغلب والاستعلاء والاستغلال.

أراد الحسين عليه السلام إعادة الأمّة والنظام القائم إلى ما كان عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليتمتع الجميع في ظلّه بالعدل والسلام، وتحكيم مبادئ الإسلام في العقول والقلوب والإرادة، ولايتمّ ذلك إلّا بإبرازها في الحياة؛ ولهذا كانت الرحمة والعطف هي الصفات التي اتصف بها الحسين وأصحابه في التعامل مع مغلوبي الإرادة من الجيش الذي سخّره الأمويون لقتال الحسين عليه السلام.

ففي طريقه إلى كربلاء التقى بأحد ألوية جيش ابن زياد وكانوا ألف مقاتل مع خيولهم، وكانوا عطاشى، فأمر أتباعه بسقيهم وقال لهم: «اسقوا القوم وارووهم من الماء ورشّفوا الخيل ترشيفاً»(١٦).

وسقى الحسين عليه السلام أحد أفراد الجيش بنفسه لأنّه كان مرتبكاً من شدّة العطش، وكان الماء قد احتفظ به الحسين عليه السلام لوقت الحاجة، ولكنّه أراد تجسيد القيم الإسلامية في الواقع العملي في أروع صورها لأنّ الهداية وإصلاح الخصوم أفضل من الانتقام منهم وتركهم يموتون عطشاً.

الخامس: الوفاء بالعهود والمواثيق

الوفاء بالعهود والمواثيق من القيم الأخلاقية الفاضلة لدى كلّ المجتمعات، وإن لم تتخذ الإسلام منهاجاً لها في الحياة. وقد وفّى الإمام الحسين عليه السلام بكلّ العهود والمواثيق التي قطعها مع أصحابه وأعدائه وعموم الناس. فحينما بايعه أهل الكوفة وطلبوا منه القدوم، أرسل إليهم مسلم بن عقيل وقال: «وإني باعث إليكم بأخي وابن عمّي وثقتي من أهلي «مسلم بن عقيل» ليعلم لي كُنه أمركم، ويكتب إليّ بما يتبيّن له من اجتماعكم، فإن كان أمركم على ما أتتني به كتبكم، وأخبرتني به رسلكم أسرعت القدوم عليكم إن شاء الله»(١٧).

وبعد وصول مسلم إلى الكوفة كتب إليه باجتماع الناس عليه، فقدم الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة وفاءً بالعهد والميثاق الذي قطعه مع عموم المراسلين له. وإن كان يعلم أن مصيره هو القتل ومصير نسائه الأسر والسبي.

وفي طريقه إلى كربلاء اتفق مع الحرّ على أن يسايره فلا يعود إلى المدينة

ولايدخل الكوفة، وبعد هذا الاتفاق قال له الطرماح بن عدي: «فأسير معك حتّى أُنزلك القُرَيّة... فإنْ هاجك هَيْجٌ فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائي يضربون بين يديك بأسيافهم، فوالله لا يوصل إليك أبداً وفيهم عين تطرف».

فقال له الإمام عليه السلام: «جزاك الله وقومك خيراً، إنّه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصراف»[١٨].

فالإمام عليه السلام وفّى للحرّ بما عاهده عليه ولم ينكث عهده، وإن وجد له مبرّراً شرعياً، وآثر الوفاء بالعهد على سلامته بالتحصّن مع قوم الطرماح.

ووفى الإمام عليه السلام لمن نصره وقاتل معه، وهو الضحّاك بن عبدالله المشرقي، اشترط على الإمام عليه السلام: «إنّي أُقاتل عنك ما رأيت معك مقاتلاً، فإذا لم أرَ مقاتلاً فأنا في حلّ من الانصراف». فقال له عليه السلام: نعم. فقاتل دفاعاً عن الإمام عليه السلام. ولما رأى ان المقاتلين قد استشهدوا وبقي الإمام وحده، قال له: إني على الشرط، فقال له: «نعم أنت في حلّ إن قدرت على النجاة»[١٩].

فالإمام عليه السلام يستطيع أن يقنعه بالبقاء ولكنّه آثر الوفاء بالعهد على ذلك.

والوفاء بالعهد كثيراً ما يتجاوزه قادة الثورات ويتناسون ما قطعوه على أنفسهم لجنودهم أو أعدائهم عند اشتداد الظروف، ويرفضون الوفاء بالعهود عند إقبال الصعاب والمواقف المحرجة، ولكنّ الإمام عليه السلام وفّى بها في أحلك الظروف لأنّ هدفه انتصار قيم الإسلام لا الانتصار العسكري الآني الذي قد يبيح المحظورات.

السادس: حفظ الذمام والاستجارة

الثورة الحسينية لها مراحل ابتدأت من رفض بيعة يزيد واستمرّت بعد مقتل الحسين عليه السلام، وفي أوائل مراحلها، حافظ الثوّار على مفاهيم الذمام والاستجارة، ومنهم هاني بن عروة الذي ضحّى بحياته من أجل حفظ ذمام مسلم بن عقيل؛ فحينما طلب منه ابن زياد أن يأتيه بمسلم قال: «والله لو كان تحت قدمي مارفعتها عنه»[٢٠].

وفي رواية أخرى: «في ذلك الخزي والعار أن أدفع جاري وضيفي وأنا حيّ صحيح»[٢١].

فهاني بن عروة يستطيع مخادعة ابن زياد ويقبل قوله ثمّ يتخلّى عن ذلك، ولكنّه أراد أن يسطّر موقفاً نبيلاً يبقى صداه على مرّ الأجيال.

وفي امتداد مراحل الثورة الحسينية، وفي هجوم المسلمين على الأمويين في المدينة كلّم مروان بن الحكم علي بن الحسين عليه السلام حول عائلته (فقال نعم، فضمهم عليّ إليه، وبعث بهم مع عياله)[٢٢].

فالإمام علي بن الحسين عليه السلام قائد المرحلة الثانية من النهضة الحسينية يجير عائلة أعدى أعداء أهل البيت عليهم السلام وهو الذي أشار على والي المدينة بقتل الحسين إن لم يبايع فلم يقابله الإمام عليه السلام بنفس الأسلوب وإنّما أجار عائلته وحافظ على سلامتها من الهجوم الغاضب الذي قام به أهل المدينة.

السابع: أخلاقية العلاقات

في كلّ نهضة هنالك قيادة وطليعة وقاعدة ترتبط بروابط مشتركة من أهداف وبرامج ومواقف، والقيادة دائماً هي القدوة التي تنعكس أخلاقها على أتباعها، وتجسّدت وحدة الأخلاق الفاضلة في نهضة عاشوراء، في العلاقات والروابط، حيث الإخاء والمحبّة والتعاون والودّ والاحترام بين القائد وأتباعه، وبين الأتباع والقائد. فالأتباع ارتبطوا بالقيم والمُثل الرفيعة، ثمّ ارتبطوا بالقائد الذي جسّدها في فكره وعاطفته وسلوكه، فالإمام الحسين عليه السلام لم تكن علاقته بأتباعه علاقة الآمر بالمأمورين، ولا علاقة القائد العسكري بجنوده، وإنّما كانت علاقات الحبّ والودّ والاحترام، فالأتباع يتلقّون النصائح لا الأوامر بقبولٍ ورضى وطمأنينة، ويرون للطاعة ذوقاً وطعماً جميلاً.

فالإمام الحسين عليه السلام يخاطب حامل لوائه وهو العبّاس: «ياعبّاس اركب بنفسي أنت»[٢٣].

ويخاطب أتباعه قائلاً: «قوموا يا كرام فهذه رُسل القوم إليكم»[٢٤].
ويخاطبهم في وسط الحشود الكبيرة وهم قلّة قليلة: «صبراً بني الكرام فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنّات الواسعة»[٢٥].

وجرت الطبيعة البشرية على أن ينسى القائد في مرحلة الصراع الدامي

العناصر غير البارزة من أتباعه ويهملهم وينشغل عنهم بكبار الشخصيّات أو من له علاقة قربى معه؛ ولكن في النهضة الحسينية لم يحدث ذلك؛ فالإمام عليه السلام يأذن لجون مولى أبي ذر الغفاري بالانصراف وترك نصرته فيقول جون: «يا ابن رسول الله أنا في الرخاء ألحس قصاعكم وفي الشدّة أخذلكم... لا والله لا أُفارقكم حتّى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم»، فيأذن له بالقتال، وحينما يقتل يقف عليه الإمام ويقول: «اللّهمّ بيّض وجهه، وطيّب ريحه، واحشره مع الأبرار، وعرِّف بينه وبين محمّد وآل محمّد»(٢٦).

وحينما قُتل واضح التركي وهو غلام لأحد أصحاب الحسين «اعتنقه الحسين وهو يجود بنفسه، فقال: مَن مثلي وابن رسول الله واضع خدّه على خدّي»(٢٧).

وفي مقابل علاقة القائد بأتباعه، نجد علاقة الأتباع بقائدها، فهم لايعملون عملاً إلّا بالاستئذان منه، حتى في القتال، فلايقاتلون ما لم يأذن لهم، ورفضوا الانصراف عنه وهو يدعوهم إليه.

الثامن: مراعاة العواطف والأحاسيس

في أغلب، بل في جميع النهضات الثورية يطغى الغضب والحماس على قادتها، فلا يعيرون للعواطف والأحاسيس أيّة أهمّية، لأنّهم يرونها مانعاً ومعوّقاً للنجاح والانتصار؛ ولكن في عاشوراء احتفظ الإمام الحسين عليه السلام بالاهتمام بها ومراعاتها، فحين خرج عمرو بن جنادة الأنصاري يستأذنه في القتال وهو ابن إحدى عشرة سنة، بعد أن قُتِل أبوه فلم يأذن له وقال: «هذا غلام قُتل أبوه في الحملة الأولى، ولعلّ أُمّه تكره ذلك» فقال ذلك الغلام: إنّ أُمّي أمرتني، فأذِن له(٢٨).

التاسع: احترام وشائج القربى

في حالات الصراع الساخن يغفل القائد وشائج القربى ويتجاهلها، وخصوصاً إذا كان الطرف الآخر لايراعي حرمة ولا ذمّة، وليس فيه خير يُرتجى، فتكون القطيعة التامّة بين أطراف الصراع؛ ولكنّ الإمام الحسين عليه السلام راعى وشائج

القربى وإن كانت ضعيفة، حفاظاً منه على المفاهيم والقيم التي ضحّى من أجلها، فحينما صاح شمر بن ذي الجوشن: أين بنو أُختنا؟ أين العبّاس وإخوته، فأعرضوا عنه ولم يجيبوه، قال لهم الحسين: «أجيبوه وإن كان فاسقاً»، فأجابوه فقال لهم: أنتم آمنون، فقالوا له: «لعنك الله ولعن أمانك أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له»(٢٩).

فالإمام عليه السلام احترم وشائج القربى بين إخوانه لأبيه وبين شمر وهو المنتسب إلى كلاب أحد القبائل التي تنتمي إليها أُمّهم، على الرغم من فسقه وتحريضه على قتل أهل البيت عليهم السلام.

العاشر: قبول توبة المخالفين والعفو عنهم

نهض الإمام الحسين عليه السلام من أجل إصلاح الانحراف الذي ابتُليت به الأمّة في جميع مرافق حياتها، على مستوى الحاكم ومؤسساته والأمّة المحكومة بحكمه، وأراد أن يعيد الأمّة إلى الهداية والرشاد بسفك دمه ليكون بركاناً يحيي إرادتها ويحرّرها ممّا طرأ عليها من انحراف وابتعاد عن قيم الإسلام ومبادئه، فهدفه الإصلاح والهداية، لذا كان ينصح الجيش الأموي بعدم الإقدام على قتله طاعة للطغاة، ولذا فهو عليه السلام يفتح صدره وقلبه لمن يعود إلى رشده، فالحر الرياحي منع الحسين عليه السلام من دخول الكوفة، ولو دخلها لتغيّرت الأحداث، ومنعه من سلوك أي طريق آخر، ومنعه من النزول قرب الماء، ومع كلّ إحسان الحسين عليه السلام له بسقيه وجيشه الماء يضعه في زاوية حرجة، ولكنّ مع كلّ ذلك حينما يعود الحرّ إلى رشده ويندم على موقفه، ويعتذر إلى الحسين عليه السلام يقابله الحسين برحابة صدر وعواطف نبيلة ويرحّب به ويعفو عنه ويقبله في صفوف الثوّار ثمّ يقف على جثمانه ويقول: «ما أخطأت أُمّك إذ سمّتك حرّاً، فأنت حرّ في الدنيا وسعيد في الآخرة»(٣٠).

وهذا الموقف ينفرد به الحسين عليه السلام ونهضته الخالدة، فالغالب على قادة الحركات أنّهم لايواجهون من كان موقفه منهم مثل الحرّ بهذا الخُلق النبيل؛ خصوصاً وانّ عرْضَ نصرته بعد التوبة لايؤثر على سير المعركة باعتباره فرداً واحداً، لأنّ ما عمله لايُنسى ولكنّ الحسين عليه السلام قبل توبته لأنّه جاء للإصلاح والهداية، لا للانتقام والتشّفي.

الحادي عشر: رفض الفتك

إنّ نهضة الحسين عليه السلام لم تكن سورة غضب أو عملاً ارتجالياً، أو ثورة محدودة الأهداف ضمن مرحلة من مراحل التاريخ، وإنّما كانت نهضة للأجيال على مرّ التاريخ ليستفيئوا بظلّها ويهتدوا بتعاليمها، فلم يفكّر الحسين عليه السلام بالمرحلة الزمنية التي يعيشها، ولو كان يفكّر في ذلك لاختار أساليب أخرى يمكن من خلالها تغيير الموازين العسكرية والسياسية، ولكنّه كان يفكّر ويخطّط للأمّة الإسلامية في جميع مراحل حياتها وكذلك أتباعه ومساعدوه، وأحدهم مسلم بن عقيل سفيره إلى الكوفة، فإنّه رفض قتل ابن زياد في دار هاني بن عروة وقال: «إنّ الإيمان قيد الفتك فلايفتِك مؤمن»(٣١).

وإن صحّت الرواية فإنّها لاتُحمل على ظاهرها، لأنّ الفتك في مثل ابن زياد لاحرمة فيه لأنّه من الطغاة المشهورين، وإنّه يستحقّ القتل لقتله بعض المسلمين في البصرة والكوفة، إضافة إلى ذلك فإنّ قتله يغيّر الموازين لصالح الثوّار، ولكنّ مسلماً لم يفكر في المرحلة الآنيّة، ولذلك لم يقدم على قتله، فقتْلُ ابن زياد بهذه الطريقة لا تليق بشأن مسلم ولا بشأن سفارته، وإن كان قتله لا حُرمة فيه، فمثل هذه الأعمال لايقوم بها القادة، والمجتمع لايستسيغ لهم ذلك، إضافة إلى ذلك إنّ مهمّته ليس القتال وإنّما متابعة سير الأحداث وإبلاغها للحسين عليه السلام. وعدم الفتك والقتلِ غيلةً من الصفات التي انفردت بها النهضة الحسينية،

ولا تزال الأجيال تُقَدّر هذا الموقف وتميّز بين منهج الحق ومنهج الباطل من خلال المواقف التي اتّخذوها.

الثاني عشر: مواساة القيادة لأنصارها

المسؤوليّة تقع على كاهل القيادة قبل أنصارها، ولذا تحمّل الحسين عليه السلام الثقل الأكبر منها وشارك أنصاره في آمالهم وآلامهم، وكان هو المتقدّم دائماً في المواجهة، ولم يحجّم دوره فقط في إصدار الأوامر والتعليمات ثمّ الانفصال عن أنصاره في بعض جوانب التضحية، بل واساهم وشاركهم وسبقهم في التضحية والفداء بكل مايمتلك من إمكانيات، فهاجر من مدينة جدّه قاطعاً المسافات الشاسعة

وترك كلَّ شيء، وأقدم بأمواله وعياله وأطفاله ليضحّي بها وبنفسه من أجل إصلاح الأمّة وإرشادها، فكان المتقدّم على أنصاره في العطاء للإسلام، وقد أعطانا درساً أخلاقياً في قوله: «نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم، فلكم فيَّ أُسوة»(٣٢).

وهو تقدُّم القيادة الحقيقية في الميدان ومواساتها لأنصارها، وقد قدّم الحسين عليه السلام كلّ شيء ابتداءً بأولاده وإخوانه وأهل بيته حتّى الطفل الرضيع، وعاش مع أنصاره الحصار والعطش وكل صنوف الأذى، فكان هو الأسوة لهم في كلّ ألوان الجهاد والعطاء.

الثالث عشر: صيانة المرأة

النهضة الحسينية شاركت فيها النساء إلى جانب الرجال، ولكلٍّ منهم دوره، وقد احترم الإمام الحسين عليه السلام دور المرأة اللائق بشأنها، ووضعها في مكانها المناسب لها، ورعى أحاسيسها ولم يصطحب معه النساء إلّا لإكمال مسيرة النهضة عن طريق إبلاغها إلى مسامع المسلمين، مع الحفاظ في كلّ ذلك على العفّة والوقار والحجاب الكامل، ولهذا رفض دخول بعضهنّ إلى ساحات القتال، والتعرّض بالقتال للرجال، فأُمّ وهب الكلبي أخذت عموداً وخرجت تقاتل فأرجعها الإمام عليه السلام وقال لها: «ارجعي يا أُمّ وهب، أنت وابنك مع رسول الله، فإنّ الجهاد مرفوع عن النساء»(٣٣).

وأُمّ عمرو بن جنادة استشهد زوجها فدفعت ابنها للقتال فَقُتل، ثمّ أخذت عموداً وأنشأت تقول:

إني عجوز في النسا ضعيفة ... خاوية بالية نحيفة
أضربكم بضربةٍ عنيفة ... دون بني فاطمة الشريفة(٣٤)

فردّها الحسين عليه السلام إلى الخيمة بعد أن أصابت رجلين.

الرابع عشر: كراهية البدء بالقتال

النهضة الحسينية نهضة هداية وإصلاح للأمّة التي غلبها الطغاة على إرادتها، فأصبحت وقلوبها مع الحسين وسيوفها عليه نتيجة لأجواء الإرهاب والخداع والتضليل والإغراء التي خلقها معاوية ومن بعده يزيد.

فالحسين لم يأتِ للانتقام والتشفّي، وإنّما للإصلاح والتغيير، وهو لم يقاتل كفّاراً وإنّما مسلمين، يتبنّون الإسلام قاعدة فكرية ومنهاجاً للحياة، ولكن الانحراف قد طغا على الأمّة نتيجة لانحراف الحاكم ومؤسساته، ولهذا كان القتال هو نهاية المطاف بعد أن عجزت الوسائل السلمية وبعد أن وصل قائد الانتفاضة والنهضة إلى طريق مسدود، فإمّا الذلّ بالركون إلى الطغاة، وإمّا العزّ بالدفاع عن القيم والمبادئ الإسلامية؛ والحسين رفض الابتداء بالقتال وإن كان في صالحه لو كان يفكّر بالمرحلة الراهنة التي يعيشها، فقابل أوّل طلائع الجيش الاموي، وكان الجيشان متكافئين من حيث العدّة والعدد، قبل أن يأمر المرافقين له بالتفرّق، ولكنّه رفض قتالهم حينما طلب منه زهير بن القين ذلك: «وإنّ قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به». فقال الحسين: «ماكنت لأبدأهم بالقتال»[٣٥].

وقبل بدء القتال وقف شمر أمام معسكر الحسين وبدأ يكيل السباب والشتم للحسين، فأراد مسلم بن عوسجة أن يرميه بسهمٍ، فقال الحسين: «لاترمه فإنّي أكره أن أبدأهم»[٣٦].

وفي ميدان المعركة حذّر الحسين الجبهة المقابلة من إقدامهم على القتال، وألقى عليهم الحجّة تلو الحجّة على عدم شرعية موقفهم، وذكّرهم بما حذّرهم فيه رسول الله ﷺ وذكّرهم بفضله وأحاديث رسول الله ﷺ في حقّه، وأتبعه أصحابه في تحذيرهم؛ ومنهم زهير وبرير والحرّ، وحينا لم تجدِ التحذيرات نفعاً، وأصرّوا على قتاله أو استسلامه تهيّأ للدفاع عن نفسه بعد أن بدأوه بالقتال وزحفوا على معسكره، وبعد بدء القتال لم ينقطع عن تحذيرهم، ولكنّهم أبوا إلّا قتاله.

الخامس عشر: التزام النساء بتعاليم الإسلام في المصاب

إنّ القتل بتلك الصورة المأساوية من تقطيع بعضٍ إرباً إرباً، والتمثيل بجثث القتلى وسحق صدر الحسين بالخيول وقتل الأطفال، لم يقابله حزن بتجاوز حدوده الشرعيّة؛ فالتزمت النساء بالقيم الإسلامية، فلم يشققن جيباً ولم يخمشن وجهاً، ولم يرتفع صراخهنّ أمام الأعداء، بل قابلت المصاب برباطة جأش؛ وهذا نادر في غير النهضة الحسينية.

النماذج التربوية في نهضة عاشوراء

الأوّل: الارتباط بالله تعالى في كلّ المراحل والظروف

حين تشتدّ المصائب وتتخاذل قوى الإسناد، وينظر الإنسان حواليه، فيجد نفسه مجرّداً من وسائل النصرة وأسباب الخلاص، فلا جهة تحميه ولا قوّة تنجده، ومعه قوّة قليلة وفي مقابلها كثرة عديدة، جاء من أجل إنقاذها، وإذا بها تقاومه وتطارده، فلا يبقى له من ركن وحصن وإسناد إلّا الله تعالى الذي يملك الغوث والنجدة، فيلتجئ إليه في مثل هذه الأوضاع ليمنحه الأمن والقوّة والثبات، هذا هو أهمّ الدروس التربوية التي سطّرتها النهضة الحسينية، فالحسين عليه السلام ومن معه لم ينقطع اتصالهم بالله تعالى في جميع الأحوال والظروف، واستسلموا له تمام الاستسلام.

ففي وصيّته عليه السلام يشرح أهداف ثورته ثمّ يقول: «ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم... وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب»(٣٧).

وحينما اقترح عليه ابن عباس بالتوجّه إلى غير العراق قال له: «فإنّي أستخير الله وأنظر مايكون»(٣٨).

وحينما أراد الجيش الأموي الهجوم عليه قبل يوم عاشوراء قال لأخيه العبّاس: «ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غدوة لعلّنا نصلّي لربّنا هذه الليلة وندعوه ونستغفره»(٣٩).

وفي وسط الميدان وقد أثخنته الجراح كان يردّد: «بسم الله وعلى ملّة رسول‌الله... هوَّنَ عليَّ ما نزل بي أنّه بعين الله»(٤٠).

وفي أشدّ ظروف المعركة كان يدعو: «اللّهمّ أنت ثقتي في كلّ كرب ورجائي في كلِّ شدّة، وأنت لي في كلّ أمرٍ نزَلَ بي ثقة وعدّة، كم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد وتقلّ فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت به العدوّ أنزلتّه بك وشكوتُه إليك رغبةً مني إليك عمّن سواك ففرّجته وكشفته وكفيتنيه فأنت وليّ كلّ نعمة...»(٤١).

الثاني: تقديم المبادئ على الرجال

أراد الحسين أن يبيّن للأمّة ان المبادئ الإسلامية فوق الرجال والشخصيات، وأنّ القائد والإمام ليس له من الأمر شيء. فلابدّ للأمّة أن ترتبط بالمبادئ أوّلاً، ثمّ ترتبط بمن يكون سلوكه مصداقاً لتلك المبادئ؛ فالمبادئ ثابتة والرجال يقتربون ويبتعدون منها، فقدَّم الحسين المبادئ على نفسه وإن كان إماماً وابن بنت رسول الله ﷺ وجعل الحقّ فوق نفسه فقال: «فمن قَبِلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحق»[٤٢].

والعبّاس يقدّم المبادئ على القيادة فيقول:

والله إن قطعتمُ يميني	إنّي أُحامي أبداً عن ديني
وعن إمامٍ صادق اليقين	نجل النبيّ الطاهر الأمين[٤٣]

وحينما تتقدّم المبادئ على الرجال وتكون مقياساً للانتماء والارتباط، لا يستطيع الرجال أو القادة أن يحرفوا الأمّة عن تلك المبادئ أو يوجّهوها حسب أهوائهم، كما حدث في التاريخ.

الثالث: تشخيص مصداق الإمامة

شخّص الحسين عليه السلام مصداق الإمامة ومن يكون له حقّ التصدّي لإمامة الأمّة؛ فهو الشخص المحكوم بالإسلام ومبادئه، وليس كلّ من يصل إلى دفّة الحكم وإن لم يكن أهلاً لها. فيقول عليه السلام: «... فلعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب القائم بالقسط الدائن بدين الحقّ»[٤٤].

فيزيد، وكل من سار على نهجه ممّن لم يكن سلوكه وسيرته مطابقاً للمبادئ الإسلامية، ليس له حقّ الطاعة، ولايجوز الانقياد له إلّا في الحدود التي فيها مصلحة إسلامية كبرى. من أجل أن لا تتوزّع الولاءات على شخصيات عديدة.

الرابع: الانتصار الحقيقي هو انتصار القيم الإسلامية

إنّ الانتصار الحقيقي هو انتصار القيم الإسلامية وتقريرها في واقع الحياة لتكون الأفكار والعواطف والسلوك الاجتماعي والسياسي منسجمة مع المنهاج

الإسلامي وقيمه، ولا قيمة ولا وزن للانتصار العسكري والسياسي إذا لم يكن قائماً على أساس ذلك المنهاج وتلك القيم، فقد يكون النصر العسكري أحياناً وبالاً على الأمّة، لأنّه لايمتّ إلى مبادئ الإسلام وقيمه بصلة؛ وقد أوضحت نهضة عاشوراء هذه الحقيقة في كلام الحسين مع بني هاشم «أمّا بعد فإنّه من لحِق بي منكم استشهد معي، ومن تخلّف لم يبلغ الفتح»(٤٥).

والإمام علي بن الحسين عليه السلام وهو قائد المرحلة الثانية من النهضة الحسينية يجيب على هذه الحقيقة ـ حينما سأله إبراهيم بن طلحة. قال: مَن الغالب؟ قال عليه السلام: «إذا دخل وقت الصلاة فأذّن وأقِم تعرف الغالب»(٤٦).

فالانتصار الحقيقي كما يوضحّه الإمام هو انتصار مبادئ الإسلام وقيمه وعدم قدرة الطغاة على طمسها.

الخامس: رفض الذلّ وعدم الخضوع للطغاة

درس تربوي من النهضة الحسينية هو الدعوة إلى تحقيق الحياة الكريمة وإن كانت باهضة الثمن، بتقديم النفس إلى القتل والإبادة، وأنّ الخضوع للطغاة يعني استمرارهم في طمس معالم المنهاج الإسلامي في الحياة وإنهاء القيم الإسلامية، وطغيان الطغاة لا يتمّ إلّا حينما يجد الطاغية خضوعاً واستسلاماً؛ والحسين أعطانا أبلغ الدروس في إيقاف حركة الطغاة وتحجيمها برفض الخضوع لهم والاستسلام لمخططاتهم.

ففي جواب الحسين عليه السلام لابن الأشعث حينما أراد منه بيعة يزيد قال: «لا والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ إقرار العبيد»(٤٧).

وقال: «ألا وإن الدعيّ ابن الدعيَّ قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلّة وهيهات منّا الذلّة»(٤٨).

وقال: « ... فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما»(٤٩).

وفي ساحة المعركة يقول علي الأكبر: «والله لا يحكم فينا ابن الدّعي»(٥٠).

والعبّاس وإخوته رفضوا الأمان الذي تقدّم به شمر وآثروا الموت بعزٍّ على الحياة بذلّ.

ويخاطب الإمام عليُّ بن الحسين ابنَ زياد ـ حينما هدّده بالقتل ـ :

«أبالقتل تهدّدني يا ابن زياد، أما علمت أنّ القتل لنا عادة وكرامتنا الشهادة»(٥١).

السادس: عدم قطع الولاية بين المسلمين

الولاية بين المسلمين ثابتة، فبعضهم أولياء بعض؛ وكان الحسين ـ ومن سار على نهجه ـ قبل عاشوراء لم يقطع الولاية بينه وبين غيره من المسلمين. اشترك في الفتوحات التي كانت في عهد عثمان ومعاوية، وكذلك أتباعه، فإن أغلبهم شارك في الفتوحات، ولكن في يوم عاشوراء انقطعت الولاية بينه وبين الجيش الأموي حينما أقدم على قتل الحسين، فالولاية ثابتة لا تنقطع إلّا بالارتداد أو القتال.

وقد أكدّ زهير بن القين هذا المفهوم في خطابه لأهل الكوفة والجيش الأموي حينما قال: «حقّاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتّى الآن إخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنّا أُمّة وأنتم أُمّة»(٥٢).

فلم تنقطع الولاية إلّا بعد القتال، وقبله كانت الولاية ثابتة، حتى إنّ بعض أبناء أصحاب الحسين كانوا في الجيش الذي يقاتل في الثغور؛ وأهم درس تربوي هو بقاء الولاية بين أتباع أهل البيت وأتباع خصومهم في حدود النصرة والدفاع عن الإسلام وعدم الاعتداء.

السابع: إلقاء الحجّة قبل القتال

الإسلام دين الهداية والإصلاح، ولم يكن القتال إلّا وسيلة للهداية والإصلاح حينما تستنفد جميع الوسائل السلمية، فيجب على المسلمين أن يبذلوا النصيحة لأعدائهم أو خصومهم قبل بدء القتال، كما فعله الحسين وأصحابه، فقد ألقوا الحجّة على أفراد الجبهة المقابلة طمعاً في هدايتهم، وقد برز ذلك من خلال الخطابات التي وجّهوها للجيش الأموي الفاقد لإرادته والمسيَّر من قبل الطغاة.

الثامن: مسؤوليّة الجميع في الدفاع عن الإسلام

حينما حفّت المخاطر بالإسلام، اندفع الحسين للتضحية، فقدّم كلّ عزيزٍ وغالٍ من أجل الإسلام، وضمَّ في نهضته جميع الأصناف، الرجل والمرأة، والصغير والكبير، والعبد والحرّ، والتركي والرومي والحبشي، فلا عذر لأحد لو داهم الإسلام خطر كخطر يزيد بن معاوية الذي كان هدفه طمس معالم الإسلام كما تخاطبه زينب عليها السلام قائلة: «فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا»(٥٣).

وإماتة الوحي تبدأ بتغيير المفاهيم الإسلامية وحرف الأمّة عن المنهاج الإسلامي وإن بقيت المظاهر إسلامية.

التاسع: مقاومة الطغاة أهم من بعض العبادات

الإسلام عبادته سياسة وسياسته عبادة، ولا فصل بينهما، ولذا نجد الحسين عليه السلام لم يتمّ مناسك الحجّ لأنّ هنالك ماهو أوجب من الحج، وهو كشف زيف الطغاة ومحاولة إنقاذ الأمّة منهم ومن مخططاتهم الرامية إلى إبعاد الأمّة عن مسارها الذي رسمه لها الإسلام، فلا ينفع الحجّ ولا يحقّق أهدافه إن كان الحاكم منحرفاً عن الإسلام، وإنّ الحجّ إن لم يكن مؤثّراً في إيقاف الطغيان لايكون ذا أهمّية، ويفقد محتواه الحقيقي، فترك الإمام عليه السلام الوقوف بعرفة في وقتٍ اجتمع فيه المسلمون هناك.

العاشر: التخطيط للمعركة

الإمام الحسين عليه السلام وان كان متيقّناً بالقتل ولكنّه لم يترك الأسباب الطبيعية للمقاومة والتهيؤ للقتال ومنها التخطيط، فقسم جيشه الصغير إلى ميمنة وميسرة وقلب، وحفر خندقاً حول الخيام لئلا يُباغته العدوّ بعد أن أضرم فيها النيران، فالنهضة الحسينية تعطينا درساً تربوياً ضرورياً في التخطيط لمجابهة أعداء الإسلام.

الحادي عشر: طاعة القيادة

القيادة الإسلامية واجبة الطاعة في كلّ شيء مادامت مرتبطة بالإسلام وسائرة على هديه، فالقائد الربّاني دائماً يكون أكثر وعياً وإدراكاً من غيره؛ والواجب العودة إليه في كلّ عمل وموقف يراد إنجازه؛ وهذا ما نلاحظه في عاشوراء، فالجميع استسلموا للقيادة في حركتهم ومسيرتهم وقتالهم وتوقفهم؛ فعلى المسلمين الاستفادة من هذا الدرس التربوي في طاعة ولي الأمر الإمام الخامنئي الذي هو امتداد للحسين وللإمام الخميني، إذ لولا الرعاية الإلهية وطاعة الأمّة له لم يستطع أن ينتصر على أميركا وعميلها الشاه.

الهوامش

١ ـ شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ١: ٦٩ دار الآفاق، بيروت

٢ ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ٤: ٧٤ مطبعة البابي، مصر ١٩٥٩م

٣ ـ بحار الأنوار، محمّد باقر المجلسي، ٤٤: ٣٦٤ بيروت ١٤٠٣هـ ط ٣.

٤ ـ المصدر نفسه ٤٥: ٨٦.

٥ ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٤: ٣٨، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥م.

٦ ـ بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٥.

٧ ـ المصدر نفسه ٤٤: ٣٣٠.

٨ ـ الكامل في التاريخ ٤: ٤٣.

٩ ـ بحار الأنوار ٤٤: ٣٣٠.

١٠ ـ معالي السبطين محمّد مهدي الحائري، ١٠: ٣٢٠، مؤسسة النعمان ـ بيروت.

١١ ـ رياض المصائب، محمّد مهدي الموسوي، ١٠: ٣٢٠ ط ١.

١٢ ـ الكامل في التاريخ ٤: ٧٢.

١٣ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، ٥: ٣٣٧، بيروت ١٤١٢هـ ط ١.

١٤ ـ بحار الأنوار ٤٤: ٣٩٣.

١٥ ـ الكامل في التاريخ ٤: ٦٥.

١٦ ـ الإرشاد، المفيد: ٢٢٤، منشورات بصيرتي، قم ١٤١٣هـ.

١٧ ـ الأخبار الطوال أبو حنيفة الدينوري: ٢٣ القاهرة ١٩٦٠م ط ١.

١٨ ـ الكامل في التاريخ ٤: ٥٠.

١٩ ـ تاريخ الطبري ٤: ٣٣٩ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ١٩٨٣ ط ٤.

٢٠ ـ المصدر نفسه ٤: ٢٥٩.

٢١ ـ الإرشاد: ٢٠٩.

٢٢ ـ الإمامة والسياسة، الدينوري ١: ٢٠٨، طبعة مصر ١٣٨٨هـ.

٢٣ ـ تاريخ الطبري ٤: ٣١٥.

٢٤ ـ حياة الإمام الحسين ٣: ١٩٩، باقر شريف القرشي ١٩٧٦م ط ١.

٢٥ ـ المصدر نفسه ٣: ٢٣٨، عن كتاب الفتوح ٥: ١٩٤.

٢٦ ـ اللهوف في قتلى الطفوف، ابن طاووس ٤٧.
٢٧ ـ ابصار الحق، محمّد مهدي السماوي، ٨٥، منشورات بصيرتي ١٤٠٨.
٢٨ ـ تاريخ الطبري ٤: ٣٠٤.
٢٩ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٥: ٢٣٧.
٣٠ ـ تاريخ الطبري ٤: ٣٢٥.
٣١ ـ الكامل في التاريخ ٤: ١١.
٣٢ ـ المصدر نفسه ٤: ٤٨.
٣٣ ـ بحار الأنوار ٤٥: ١٧.
٣٤ ـ تاريخ الطبري ٤: ٣٠٤.
٣٥ ـ الكامل في التاريخ ٤: ٥٢.
٣٦ ـ الارشاد ٢٣٤.
٣٧ ـ مقتل الخوارزمي ١: ١٨٨.
٣٨ ـ الكامل في التاريخ ٤: ٣٧.
٣٩ ـ المصدر نفسه ٤: ٥٧.
٤٠ ـ اللهوف ٤٠.
٤١ ـ مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور ٧: ١٤٦، دار الفكر بيروت ١٤٠٥ هـ ط ١.
٤٢ ـ بحار الأنوار ٤٤: ٣٣٠.
٤٣ ـ المصدر نفسه ٤٥: ٤٠.
٤٤ ـ الكامل في التاريخ ٤: ٢١.
٤٥ ـ بحار الأنوار ٤٥: ٨٥.
٤٦ ـ الأمالي الطوسي ٦٦.
٤٧ ـ الكامل في التاريخ ٤: ٦٣.
٤٨ ـ اللهوف ٤١.
٤٩ ـ تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٦١ هـ، ص ١٢ الذهبي.
٥٠ ـ بحار الأنوار ٤٥: ٤٣.
٥١ ـ المصدر نفسه ٤٥: ١١٨.
٥٢ ـ وقعة الطف، أبو مخنف، ٢١٠، مؤسسة النشر الإسلامي قم ١٣٦٧ هـ. ش.
٥٣ ـ البداية، ابن كثير ٨: ١٩٥.

الشهادة على الأمّة

النهضة الحسينيّة في شخصيّة الإمام الخميني

د. طلال عتريسي

يشدّد الإمام الخميني في معظم المناسبات التي التقى فيها العلماء والمبلّغين والمفكّرين والأساتذة من داخل إيران وخارجها على أهمّية عاشوراء والمجالس الحسينية ودورها في تحقيق الثورة ضد الشاه وفي ثبات الشباب الإيراني أثناء الحرب واندفاعه للتضحية والدفاع عن الإسلام.

وقد يكون ملفتاً وغريباً هذا التشديد من الإمام وكذلك الربط الذي يقوم به بين انتصار الثورة الإسلامية في القرن العشرين وما حصل قبل أكثر من ألف عام في مدينة تدعى كربلاء في العراق، علماً بأن ما يظهر من أوجه الشبه في مقاييس المقارنة بين الثورتين يكشف كثيراً من الاختلاف لا في التفاصيل فحسب وإنما في النتائج أيضاً.

فقد أدّت نهضة الإمام الحسينعليه السلام إلى استشهاده ومن معه من أصحابه وأهل بيته، وقد سبق ذلك انسحاب المؤيدين والمبايعين وتقلّص عددهم من آلاف إلى بضع عشرات، ممّا أدّى إلى الانكسار العسكري لتلك النهضة وانتصار الطرف المقابل؛ بينما لم يحصل مثل ذلك مع الإمام الخميني. فقد استمرّ التفاف الشعب حوله بمئات الآلاف قبل الثورة وبعدها، ولم يتخلّفوا عن تلبية نداءاته على الرغم من القمع والتعذيب والدماء التي سالت. كما انتصرت ثورة الإمام الخميني ومن معه من العلماء وجماهير الشعب وهُزم الطرف المقابل، الشاه وجنده وأعوانه والقوى الخارجية التي كانت تدعمه.

لِمَ إذن هذا التشديد من جانب الإمام الخميني على دور عاشوراء في انتصار الثورة في إيران؟

ربما يُفسّر بعضُ ذلك باستخلاص العبر من الهزيمة كي لا تتكرر؛ أو قد يكون الأمر دعوة للاعتبار بما تحققه التضحية في سبيل الهدف. أو هي دروس في القيادة والشجاعة.. لكن ذلك كلّه على الرغم من أهميته قد لا يكون خاصاً بنهضة الإمام الحسين في كربلاء. وقد نصادف بعض تلك الدروس أو العبر في ثورات أخرى حصلت في العالم.

ومن المشكوك فيه، بل من غير المحتمل ـ نظراً لشخصية الإمام الخميني الفقهية والسياسية والعرفانية، ونظراً لطبيعة النهضة الحسينية في المنظور الشيعي ـ أن يكون تشديد الإمام الخميني على ربط انتصار الثورة في إيران بما حصل في عاشوراء للأسباب التي أشرنا إليها.

فالشهادة لها عند الشيعة خصوصية مصدرها الإمامة التي يعتقدون بها ويعتبرونها جزءاً من النبوّة وامتداداً لها وأصلاً من أصول الدين إلى جانب العدل والتوحيد والمعاد. وما يميز المجتمع الديني عند الشيعة وكذلك الفقه الذي أنتجه علماؤهم وفقهاؤهم على امتداد قرون هو في هذا الاعتقاد بأن الرعاية الإلهية للعالم، وبأن الرسالة النبوية استمرّت بعد وفاة الرسولﷺ عن طريق الأئمة، حاضراً كان الإمام أو غائباً، خلافاً لمذاهب أُخَرَ تُقِرُّ بوجود إمام منقذ لكنه لم يولد بعد. ولهذا السبب يعتبر الشيعة أن الإمامة في الأصل نصّ إلّهي، ثمّ نصّ من الإمام وصولاً إلى الإمام الغائب المنتظر صاحب العصر والزمان، وتأتي عصمة الإمام نتيجة منطقية وطبيعية للدور الذي يؤدّيه على مستوى الشهادة بين الرسول والناس في المجتمع البشري عامّة. فهو نموذج الدين، وقدوة تحتذى، ولا يكتمل الدين إلّا بمعرفته. ولن يقوم العدل في الدنيا إلّا باكتمال الدين أي عند ظهور الحجة المنتظرعليه السلام، الذي «سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً».

وفي تفسير الميزان أن الشهادة على الناس في الآيات يذكرها القرآن حول هذا الموضوع، لا تكون إلّا للأئمة والرسل. فليس لكل إنسان أن يكون شهيداً على الناس وفيهم من لا يؤتمن على ما هو أدنى من ذلك بكثير. ولهذا السبب يرى الشيعة استحالة العدل في غَيْبَة الإمام. ويذهب بعض فقهائهم إلى رفض أي نهوض أو احتجاج أو ثورة لكي يستفحل الظلم والجور الذي سيعجّل في ظهور الإمام صاحب

العصر والزمان. أي أنّ هؤلاء الفقهاء يرفضون القيام بدور الشهداء بين الرسول والناس على مستوى التغيير الاجتماعي والسياسي لأنَّ ذلك منوط ـ بنظرهم ـ بوجود الإمام. وتتحوّل شهادتهم إلى المستوى العبادي الفقهي بعيداً عن دوائر التأثير الاجتماعية أو السياسية.

ويذهب بعض الباحثين إلى تفسير سلوك الشيعة في مسيرة التاريخ الإسلامي من خلال عقيدتهم في الإمام ومشروعية الشهادة على الناس ارتباطاً به. ويتأرجح هذا السلوك بين التقية ومعارضة السلطان غير الشرعي، لأنّ الحكم ينبغي أن يكون للإمام والفقهاء الذين ائتمنهم الإمام على ذلك.

وبسبب هذا «التأرجح» بين التقية والمعارضة اتُّهم الشيعة بالانكفاء واللامبالاة حيناً، وبالرفض والثورة والخروج على الحاكم أو السلطان حيناً آخر. وقد اتّجه الإمام الخميني إلى حسم هذا التأرجح مبكراً منذ يفاعته وقبل الثورة وبعدها. لا بل يعود إلى هذا الحسم سرّ استمراره في الثورة على الرغم من نداءات كثيرة صدرت من أنحاء العالم الإسلامي لوقف «حمّامات الدم» في طهران. فقد وضع الإمام الخميني كتابه الشهير «الحكومة الإسلامية» أو «ولاية الفقيه»، وهو مجموعة دروس ألقاها على طلّابه، يدعو فيها استناداً إلى الأحاديث والروايات عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام، إلى ضرورة قيام علماء الدين والفقهاء، حتّى في غَيْبة الإمام، ليس بالثورة أو الاحتجاج فقط، وإنما بمهام الحكم وإدارة دولة الإسلام، لأنهم هم الأولياء والأوصياء وورثة الأنبياء.

يقول الإمام في كتابه: «فَرضَ الائمة عليهم السلام على الفقهاء فرائض مهمّة جدّاً وألزموهم أداء الأمانة وحفظها. فلا ينبغي التمسك بالتقيّة في كلّ صغيرة وكبيرة. فقد شُرّعت التقيّة للحفاظ على النفس أو الغير من الضرر في مجال فروع الأحكام. أمّا إذا كان الإسلام كلّه في خطر، فليس في ذلك متّسع للتقية والسكوت».

ويتابع الإمام قائلاً:

«إذ كانت التقية تُلزم أحداً منّا بالدخول في ركب السلاطين، فهنا يجب الامتناع عن ذلك حتّى لو أدّى الامتناع إلى قتله، إلّا أن يكون في دخوله الشكلي (التقيّة) نصر حقيقي للإسلام والمسلمين».

هكذا نستطيع أن نفهم لماذا عبّأ الإمام العلماء والفقهاء وخلفهم آلاف الناس، وكيف كان الشاهد معهم على نظام الشاه الفاسد الذي انتهى إلى السقوط بعد أن انتُزعت شرعيّته ومصداقيّته.

وهكذا نفهم أيضاً كيف أصرّ الإمام الحسين عليه السلام على الذهاب إلى كربلاء ليكون الشاهد بدمه على الناس وشهيداً بينهم ومبلّغاً رسالة النبيّ والإسلام ومنقذاً لها من الحكم الفاسد والمنحرف. ولا يُفهم من اصطحاب الإمام الحسين لأهل بيته إلى كربلاء وهو متيقّن من الموت إلّا لتكون الشهادة أعظم أثراً، وإبلاغ الرسالة أشدّ وقعاً. إنها حركة التواصل في الشهادة على الناس لتكون الأمّة وسطاً. وما إحياء الشيعة لمراسم الحزن والعزاء لما حصل في كربلاء منذ مئات السنين إلّا استمرار لهذا التواصل.

وهذا، فيما نعتقد، باطن التشديد على الربط بين انتصار الثورة في إيران وعاشوراء الذي كان الإمام الخميني يكرّره دائماً: «لو لا نهضة سيد الشهداء لما استطعنا تحقيق النصر في ثورتنا هذه»، «وسيد الشهداء هو سرُّ بقاء الإسلام».

إن الدافع المشترك في كلا النهضتين كان الشهادة. الشهادة بمعنى إبلاغ الرسالة إلى الناس وإلى الأمّة في فضح الحاكم الفاسد ونزع الشرعية عنه. لكنّها أدّت في النموذج الأوّل إلى أقصى ما يمكن بلوغه وهو بذل النفس، وفي النموذج الثاني إلى الانتصار، دون أن يعني ذلك أن النموذج الأوّل قد هُزم، لأن الشهادة وإبلاغ الرسالة قد تمّتا.

فما حصل للإمام الحسين، وهو من هو في قرابته لرسول الله، أحدث ضجّة مدوّية في أنحاء العالم الإسلامي امتزج فيها الندم بالخوف والرهبة بل بالتشفّي والانتقام، لكنّها ضجّة أخرجت مشكلة النظام الفاسد والحاكم الفاسد من الإطار الضيق إلى أرجاء ذلك العالم الواسع، وكشفت مدى ما يمكن أن يبلغه مثل ذلك النظام في التعدّي والقتل.

ولو لم يقرّر الإمام الحسين عليه السلام أن يكون شاهداً وشهيداً، وبمثل تلك الطريقة المأساوية له ولأصحابه؛ لما أمكن لأيٍّ كان فيما بعد، أن يكتشف الحدود التي تفصل بين الإسلام الأصيل، والإسلام الملكي أو إسلام السلاطين. ولربّما أصبح

توريث الحكم في الإسلام شرعة لها ما يسندها في التاريخ وليس لها من يعارضها أو يقف في وجهها.

بهذا المعنى، ولكل ذلك، تحوّل الانكسار العسكري للإمام الحسين عليه السلام إلى اتّقادٍ لجذوة الإسلام، وإلى تنبيه لضمير الأُمة، وإلى تثبيتٍ لحدود لا تمحى بين الحكومة الشرعية والحكومة غير الشرعية في الإسلام، وإلى تأكيد أهمّية التضحية من أجل كلّ ذلك.

تلتقي نهضة الإمام الخميني وثورته مع هذا البعد العميق لإحياء الإسلام في ثورة الإمام الحسين عليه السلام قبل أكثر من ألف عام. فقد كانت سياسات الشاه، تخفي تحت مسمَّيات الثورة البيضاء والإصلاحات الزراعية وبعض مظاهر الاحتفالات أو الشعائر الإسلامية، منهجاً من الفساد ومن التفكيك المنظَّم للمؤسسات وللعقيدة الإسلامية لدى أفراد الشعب الايراني وجماعاته، ناهيك عن إطلاق يد القوى الكبرى في نهب ثروات البلاد وفي التآمر على الدول العربية والإسلامية، وفي دعم «الكيان الإسرائيلي» المغتصِب لأرض فلسطين والمعادي للعرب. وكادت سياسة الشاه هذه التي استخدمت العنف والقمع والاغتيال والتهديد، أن تدع الإسلام نسياً منسياً، أو تحوّله مجرد أذكار وصلوات تُتلى في المساجد والحسينيات.

كما أن الوضع الدولي في ذلك الوقت والتنافس بين جبّاري العالم (الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية) لم يفسح المجال لمجرّد التخيّل لأي عقيدة أخرى خارج الشيوعية والرأسمالية. وربما يذكر الكثيرون كيف كانت كل حركات التحرر في العالم وكذلك كل الأحزاب والمنظمات تتفاخر بالانتماء إلى الماركسية أو القومية عقيدة ومنهجاً؛ في الوقت الذي كانت بعض القوى أو الحركات الإسلامية، إذا وُجدت، تخجل من إعلان هويتها أو شعائرها حيناً، أو تتعرّض للاضطهاد والاستخفاف حيناً آخر..

كانت الماركسية والأفكار الأخرى المتأثّرة بها تقدمية في ذلك الوقت على الرغم من أنها كانت محصورة في نُخَبٍ ضيّقة، وكان الإسلام، دين الأغلبية العظمى، رجعياً وأفيوناً ومتهماً بتخدير الشعوب، يمنع نهضتها ويدفعها إلى الطاعة والاستسلام للحاكم وللظالم.

هكذا كانت الصورة في العالم عشية الثورة في إيران. فما الذي حصل بعد نهضة الإمام الخميني وانتصار الثورة التي قادها؟

قد لا يتّسع المقام لإيراد كلّ ما ترتب على تلك الثورة من آثار؛ على مستوى الفقه الإسلامي، والحكومة الإسلامية، وعلى مستوى التبدّل في وظيفة إيران الاستراتيجية من دولة تخدم المصالح المباشرة للولايات المتحدة وإسرائيل، إلى دولة تقف على نقيض ذلك تماماً، ومن قلعة للتجسس على المنطقة العربية الإسلامية تهدد بجيشها الأقوى حركات التحرر والأنظمة فيها، إلى دولة تقدّم الدعم والتأييد لتلك الحركات وتبحث عن سياسات للأمن والتعاون مع دول المنطقة والاستقلال عن مصالح الدول الكبرى وسياساتها.

أمّا على مستوى القيادة والشجاعة والتصميم أو دور التنظيم وأهميته، فتلك أمور قد تشترك فيها أيضاً ثورات أخرى. لكن الأثر الأهمّ الذي أنتجته نهضة الإمام هو إعادة الروح إلى الإسلام بعدما أوشك أو يتحوّل إلى تقليد لا يعيش إلّا بعيداً عن حركة المجتمع أو عن حركة التغيير فيه. لقد سلّط الإمام الضوء على الإسلام. فقد حصلت الثورة باسمه ومن أجله. ولأن الثورة انتصرت، فقد دفعت بهذا الإسلام إلى اختراق الثنائية العالمية في ذلك الوقت، متّخذاً مكانه بينهما، ديناً ومنهجاً داعياً الشعوب إلى استلهامه في التغيير والاستقلال.

وكما عملت كثير من الدوائر المعادية في بلاد كثيرة، على دراسة هذا التحوّل الإسلامي لفهمه ومحاصرته، فقد تعاطفت معه بالمقابل دوائر أخرى من الباحثين والمفكّرين ومن الأحزاب والحركات والمنظّمات؛ وعملت على استخلاص دروسه وفهم مناهجه. كما أن الانتقال الذي حصل لدى حركات وأحزاب إسلامية كثيرة من الجمود والتقليد إلى الانخراط في المواجهة السياسية المباشرة، والعنيفة أحياناً، كان أيضاً من نتائج تلك الثورة التي شجّعت ـ على المستويات الفردية والجماعية ـ على إعادة اكتشاف ما كان منسياً أو محجوباً في الإسلام على مستوى التغيير أو على مستوى ذلك الربط بين الدين والسياسة.

لقد أدرك الإمام الخميني الباطنَ السياسي العميق للظاهر الديني الذي دفع بالإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء. كما أدرك أن عظم التضحيات يدفع الأمور إلى

الذروة وأن الهدف المنشود لا يُقاس بحجم الدماء أو الشهداء، ما دامت النهضة وجوباً في سبيل الإسلام وشهادة في فضح السلطة السياسية والدينية التي أوشكت القضاء على الدين بسبب الفساد الشخصي والاجتماعي الذي مارسته.

ولا يمكن أن نفهم هذا التشديد على عاشوراء واستلهام دروسها من جانب الإمام الخميني إلّا من خلال إدراكه لهذا الترابط العميق بين ظاهرها الديني وباطنها السياسي؛ بين النهضة في سبيل الإسلام، والنهضة في سبيل فضح السلطة وكشف زيفها، وهو لهذا يقول: «سيد الشهداء هو سرّ بقاء الإسلام». ويقول أيضاً «ولولا نهضة سيد الشهداء عليه السلام لما استطعنا تحقيق النصر في ثورتنا هذه».

وهذا هو، فيما نظنّ، المحتوى العميق لما يمكن تسميته بثقافة عاشوراء في وعي الإمام الخميني وفي حركته السياسية والعلمية، بل في مواصفاته الشخصية من حزم وعزم وصلابة وتقوىً وفكر ثاقب وشجاعة نادرة؛ وهي صفات جعلت له ـ مبكراً منذ يفاعته ـ منزلة خاصّة بين أقرانه وعند أساتذته.

لقد اهتمّ الإمام في سنٍّ مبكّرة بشؤون البلاد السياسية والاقتصادية والثقافية. وكان يتابع سياسات النظام الحاكم الداخليّة والخارجية، ولا يترك أيَّ مناسبة للتشهير بتلك السياسات أمام الشعب. لكن ذلك لم يجعله يغفل عن القضايا الأخرى الثقافية والتاريخية لإيران والعالم.

ومن خلال قراءة السيرة السياسية للإمام الخميني، إضافة إلى ما جُمع عن حياته الشخصية وعن آرائه، يمكن أن نلاحظ عنده وجود منهج أو رؤية شاملة تربط بين دور علماء الدين وتعبئة الشعب وفضح النظام، وبين الحزم والجرأة والتقوى من جهة، والمحافظة على الثقافة الإسلامية والاستفادة من تجربة من سبق من العلماء ومن القوى الاستعمارية في إيران وخارجها من جهة أخرى.

ان الجرأة التي اتّسمت بها شخصية الإمام، في كلّ المراحل التي واجه بها سياسة الشاه، وكذلك قراره الحازم بمغادرة العراق ثمّ منفاه الفرنسي والعودة إلى طهران مع أن كفّة الثورة لم ترجّح بعد، يعيد إلى الأذهان ـ في عمليّة المقارنة بالنهضة الحسينية ـ ذلك القرار الحاسم الذي اتّخذه الإمام الحسين عليه السلام في ذهابه إلى كربلاء وهو يعلم يقيناً أن كفّة الحرب في غير مصلحته، خصوصاً وإن الإمام

الخميني كان يردّد دائماً في كلّ مراحل جهاده أن غاية الثورة ليست سوى الإسلام، وأن بناء الدولة ينبغي أن يكون على قاعدة الإسلام. كما استمرّ في موقفه الدّاعي إلى استمرار الإضراب والتظاهر في شوارع إيران رغم المذابح اليومية التي أقلقت الكثير من القادة والعلماء.

لقد شدَّد الإمام الخميني في المراحل المختلفة من الثورة وبناء الجمهورية الإسلامية ـ وكذلك أثناء الحرب مع العراق ـ على طبيعة النهضة التي يقودها وعلى هدف التضحيات التي يقوم بها أبناء الشعب معتبراً أن ذلك لا يراد منه سوى وجه الله سبحانه وتعالى، وأن مَن يقوم بتكليفه الإلّهي لا يهمّه ما سوى ذلك من آثار: «إن عليكم أن تدركوا منذ البداية، مثلما نهض الإمام الحسين عليه السلام وثار في وجه كلّ تلك الأعداد المدجَّجة بالسلاح حتّى استشهد. فعلينا نحن أيضاً أن نثور وأن نوطّن أنفسنا للشهادة، وإننا مستعدّون لذلك».

إن الإمام يكرّر ما رفعه الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة يزيد الذي كان يرأس آنذاك حكومة متسلّطة لا تقيم وزناً للإسلام ولا للعدل ولا للقيم أو الضوابط الأخلاقية والشرعية.

إن الإمام لم يفعل وفقاً لمنطقه الفقهي، سوى الاستجابة لما أمر به الفقهاء من أجل الولاية والحكومة بعد أن أعلن التقية ماضياً لا رجوع إليه. وهو لم يفعل ذلك من أجل النصر الأكيد، بل من أجل الشهادة على الأمّة أو الشهادة أمام الأمّة، على غرار الشهادة التي قدّمها الإمام الحسين قبل أكثر من ألف عام. إنه التواصل الذي يشدُّ الشيعة إلى خطِّ الإمامة.

إن اهتمام الإمام الشديد بثقافة عاشوراء والتأكيد الدائم على إحياء مراسمها هو أيضاً ثمرة ذلك البعد العرفاني الخاصّ في شخصيته الذي جذب قلوب الملايين إليه في إيران والعالم، والذي لم يَفهم من النهضة الحسينية والدماء التي بُذلت في سبيلها سوى «التقرّب من المحبوب» والعودة إليه. إنها العقيدة التي ترى أن الرعاية الإلّهية لم تنقطع لأنّ الإمام موجود دائماً، غائب لكنّه مُنتظر.

استعادة العزّة

في فكر الإمام الحسين وحفيده السيد الخميني

د. محمّد علي آذرشب

العزّ والذلّ

العزّ في اللغة هو القوّة والشدّة والغلبة.

والعزّ والعزّة: الرفعة والامتناع.

والعزيز من صفات الله عزّوجلّ وأسمائه الحسنى. قال الزجاج: هو الممتنع فلا يغلبه شيء. ومن أسمائه عزّوجلّ: المعزّ، وهو الذي يهب العزّ لمن يشاء من عباده، والعزّ خلاف الذلّ [١].

والإنسان بفطرته يتّجه إلى الله سبحانه [٢]، أي يتّجه إلى اكتساب صفات الكمال الإلهيّة، ومنها العزّة، ولكنه قد تصدّه عوامل عديدة عن هذه الحركة فيقع في حالة الذلّ: ﴿ضُربت عليهم الذّلّةُ والمَسْكَنَةُ وباءوا بغَضَبٍ من الله﴾[٣]، ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهم الذِّلّةُ أينَما ثُقِفُوا إلّا بحَبْلٍ من اللهِ وحبل من النّاس﴾[٤].

وقد يتحرّك تحركاً منحرفاً فيتّجه نحو عزّة ﴿كَسرابٍ بقيعةٍ يَحْسَبهُ الظّمآنُ ماءً﴾[٥]. يرى هذه العزّة مجسّدة ـ مثلاً ـ في طواغيت الأرض: ﴿وقالوا بعزّة فرعَونَ إنّا لَنحنُ الغالبون﴾[٦]، ويبتغيها أحياناً عند أعداء الدين كما يفعل المنافقون: ﴿بشِّر المنافقين بأنّ لهم عذاباً أليماً. الّذين يتّخِذُون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهمُ العِزَّة فإنَّ العِزَّةَ للهِ جميعاً﴾[٧]

والدعوة الإلهيّة تتّجه أول ما تتّجه إلى محاربة كلّ العوامل الّتي تصدّ الإنسان عن التحرّك نحو كماله، وتنتشله من حالة الذلّ، ثمّ توجّهه إلى المصدر الحقيقي لعزّته كي لا يلجأ إلى مصادر سرابية كاذبة ﴿مَن كان يُريدُ العِزَّةَ فلله العِزَّةُ

جَميعاً﴾[8] ﴿ولله العِزَّةُ ولرسولهِ وللمُؤمنين ولكن المُنافقين لا يعلمون﴾[9].

وشدّدت السنّة على ضرورة صيانة عـزّة الإنســان المســلم وحـرمة إذلاله. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله فوّض إلى المؤمن أمره كلّه، ولم يفوّض إليـه أن يكون ذليلاً، أما تسـمع الله عـزّ وجـل يـقول: ﴿ولله العِـزّةُ ولرسـوله ولـلمؤمنين﴾ فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً، ثمّ قال: إنّ المؤمن أعزّ من الجبل، إنّ الجبل يُستقلّ منه بالمعاول، والمؤمن لا يستقلّ من دينه شيء»[10].

وسـنرى أنّ المـحور الأسـاسي فـي جـميع أبـعاد التشـريع الإسـلامي، الاقتصادية منها والسياسية والاجتماعية، تدور حول محور صيانة عزّة الإنسـان وإبعاده عن حالة الذلّ. ونقف ولو قليلاً عند معنى العـزّة لنـبيّن مـوقعها مـن الفـرد والمجتمع، ومدى إسهامها في البناء والحركة، ثمّ نلقي الضوء في مقابل ذلك عـلى أخطار الذلّ في المجتمع.

إذا تأملنا في المعنى اللـغوي والاصـطلاحي ـ كـما ورد فـي القـرآن وسـائر النصوص ـ لكلمة العزّة، وجدنا أنّها حالة نفسية تجعل الإنسان يحسّ بالقوّة والمنعة والكرامة والشـخصية. وهـذه الحـالة تـتوافـر حـين يـجد الإنسـان نـفسه مسـنوداً ومدعوماً من قوّة كبيرة خارج ذاته؛ والإنسان المؤمن يجد فـي ارتـباطه بـالله عـزاً يوفّر له الثقة بنفسه، وينمي فيه الاحساس بالكرامة وعلوّ الشخصية، فـيترفّع عـن التوافه، ويصون نفسه من الانزلاق فـي الشـهوات[11] ويـبتعد عـن كـلّ مـا يـمسّ منزلته؛ وتأتي كلّ تشريعات الإسلام لتوفّر للفرد المسـلم تـعميق هـذا الإحسـاس بنفسه، وصيانته من كلّ مسّ وحطّ. وكان هذا الإحساس بالعزّة ـ في الواقع ـ وراء كل ما شهده المجتمع الإسلامي من حركة جهادية وعلمية، ووراء كلّ تطوّر أصيل في عصور التاريخ الإسلامي في حقل الهدم والبناء والمعرفة.

ولا أكون مبالغاً إذا قلت: إنّ أكثر ما شهده المجتمع الإسـلامي مـن نكسـات وانحرافات واضطرابات وفتن، يعود إلى غياب العزّة الإسلامية وظـهور حـالة الذلّ في المجتمع؛ وذلك لما يلي:

١ ـ الذليل صغير في كلّ ما يصدر عنه من موقف وسلوك ونظرة، وهو لذلك ينظر إلى الأشياء الصغيرة على أنها كبيرة، ويبتلى بالأمور التافهة التي تشغله عن

الأمور الكبيرة [١٢].

٢ ـ الذليل لا يستقيم على موقف صادر عن شخصيته الفكرية وقناعاته الذاتية، لأنه يفتقد الشخصية، ولذلك يكون آلة طيّعة بيد من يفتعل الأجواء، ويلوّح بأنه يمتلك مصير الناس [١٣].

٣ ـ عقدة الذلّ تدفع بالذليل لأن يبحث عن شخصيته في أمور موهومة غالباً، يتصور الذليل أنّه يستعيد شخصيته بها، وهذه الأمور لها طابع انحرافي غالباً، وتبعث على الشرور الاجتماعية المختلفة؛ ولذلك تستطيع عصابات الأشرار أن تستغلّ هؤلاء الأفراد أكثر من غيرهم لتنفيذ مآربها الشرِّيرة [١٤].

٤ ـ الذليل يفتقد توازن الشخصية في نفسه، ويفتقد الارادة وقدرة الضبط والسيطرة، ولذلك تثور عنده الشهوات المادّية وتستفحل، ويصبح هذا الشخص عرضة للانغماس في الشهوات ويؤدّي ذلك إلى أخطار بيّنة.

مظاهر اهتمام الإسلام بكرامة الإنسان وعزّته [١٥]

١ ـ ما نجده في السُّنّة من تأكيد على حرمة النطفة والجنين، وعلى اهتمام بالمرأة الحامل، وعلى سلامة طعامها وسلوكها، بل على سلامة محيطها الاجتماعي، وكل ما من شأنه أن يؤثّر على سلامة تكوين الجنين، إنما يشكّل دلالات هامّة على اهتمام الإسلام بكرامة الإنسان، منذ انعقاد نطفته وفي كلّ مراحل نموّه الجنينية.

٢ ـ نرى في السُّنّة اهتماماً بالغاً بكرامة الطفل واحترامه ومعاملته بالحسنى، وتركيزاً على تنفيذ طلباته ورغباته وملاعبته، مما يدلّ بوضوح على أن الإسلام يهتم بأن ينشأ الطفل عزيزاً كريماً.

٣ ـ في السُّنّة أيضاً تركيز على ضرورة الاهتمام بشخصية الشاب، واحترام رأيه، واستشارته في الأمور؛ لكي ينشأ هذا الشاب معتمداً على نفسه، محترماً لشخصيته، مهتماً بالجانب العقلي والارادي من كيانه.

٤ ـ اهتمام السنّة بحرمة الميت وكرامته، وتقرير التعاليم الخاصّة بتجهيزه ودفنه وذكره بخير وزيارة قبره، كلّ ذلك أيضاً تأكيد لحرمة الإنسان وكرامته حتى

بعد وفاته.

٥ ـ تؤكّد النصوص الإسلامية حرمة الخضوع للظالمين من أصحاب السلطة، وعدم الانخراط في سلك خدمتهم، والترفّع عن الشعور بالضعف أمام بطشهم.

٦ ـ المنهج الإسلامي للسلوك يأبى على الإنسان المسلم أن يحسّ بالضعف أمام أصحاب المال، وتدعوه لأن يترفّع عن الانقياد لهم، بل عن معاشرتهم لكي لا يشعر بالضعة بينهم.

٧ ـ في النصوص الصحيحة الموثّقة تأكيد على منع الإنسان المسلم أن يذلّ نفسه لأي سبب من الأسباب، بل تسقط الواجبات إذا استدعى أداؤها أن يذلّ الإنسان نفسه.

٨ ـ اهتمام الإسلام بضبط شهوات البطن والفرج لا تخفى شدته على أحد، وهذا الاهتمام يستهدف تنمية إرادة الإنسان وشخصيته كي لا تسيطر عليه هذه الشهوات وتستذلّه.

٩ ـ «التصوّر الإسلامي» يركّز ـ أول ما يركّز ـ على ربط الإنسان بربّ العالمين، ويُدخله في تعامل مباشر مع خالق هذا الوجود؛ وهذا الارتباط ـ إن استشعره الإنسان بكلّ وجوده ـ يبعث فيه إحساساً بالعزة والكرامة، ويجعله يشعر بأنه مرتبط ارتباطاً مباشراً بمن يملك كلّ مقادير أموره وأمور كلّ الناس.

١٠ ـ القرآن الكريم يربط تاريخ الفرد المسلم والجماعة المسلمة بتاريخ الأنبياء والصالحين، ومن هنا فإنّ الإنسان المسلم يرى أن تحرّكه استمرار لمسيرة طويلة سار عليها من قبل كلّ عباد الله الصالحين؛ وهو إحساس ينمّي مسيرته الحيوية ويباركها ويضفي عليها عراقة وبُعداً واسعاً ضارباً في أعماق التاريخ، ويشعر بذلك بكرامته وأهميته على هذه الساحة التاريخية ذات الآماد البعيدة.

١١ ـ يصوّر الإسلام للانسان أنه خُلق ليكون سيد الكون، وخليفة الله على أرضه، وأن كلّ شيء في هذا الوجود الرحب قد خُلق من أجله، ومن أجل تمهيد الطريق لمسيرته التكامليّة في حياته؛ وهو ما يبعد الإنسان عن أي شعور بالضعف أمام هذا الكون الفسيح، ويشعره بالكرامة أمام جميع المخلوقات.

١٢ ـ الإنسان المسلم في التصور الإسلامي مسؤول عن هداية البشرية،

وعن تبديد ظلامها، وإزالة العقبات عن طريق كمالها، وهو تصوّر يجعل الإنسان المسلم في مكانة القيادة والريادة على ظهر الأرض، ولا يخفى ما لهذا التصوّر من أثر في الشعور بالعزّة والكرامة في نفس الفرد المسلم والجماعة المسلمة.

١٣ ـ وضع الإسلام منهجاً متكاملاً لسلوك الحكم والحاكم في المجتمع الإسلامي، يحسّ فيه الفرد المسلم بأنه هو صاحب الرأي في قبول الحاكم أو ردّه، كما أن هذا المنهج يمنع استخدام الحكم آلة للظلم والسيطرة على مقدّرات الناس، وهو جوّ سياسي يوفّر كرامة المسلم، ويصون شخصيته، ويحافظ على إحساسه بالعزّة في تعامله مع النظام الحاكم.

١٤ ـ منهج المساواة والعدالة في التعامل، ووضع مقياس التقوى للتكريم في الإسلام، يصونان المجتمع من أي لون من ألوان التمييز بسبب الجنس أو اللون أو اللغة، ويشعر الفرد المسلم بكرامته وعزته لا بِنَسبه وحَسَبه وانتمائه القَبَلي أو القومي، بل بمقدار سمّوه في سلّمه التكاملي، اي بتقواه على حدّ التعبير القرآني؛ وهذا المعيار يزيل كلّ إحساس بالضّعة والذلّ بسبب وضاعة النسب أو الانتماء القبلي.

١٥ ـ حرص الإسلام على العدالة الاقتصادية في توزيع الثروة من جهة، ونفي أية سلطة لقوّة المال في المجتمع، من أجل القضاء على التمييز الطبقي والاستضعاف الاقتصادي، صيانة لكل فرد من أفراد المجتمع من أن يُستذلّ أو يستشعر الذلّ بسبب واقع اقتصادي غير متوازن في المجتمع؛ كما أن تأكيد الإسلام على تأمين احتياجات الفرد الضرورية، حتّى لو استدعى الأمر إعطاءه من بيت المال، إنما هو حفظ لكرامة الفرد وعزّته وإبعاده عن إراقة ماء الوجه بالسؤال. والرائع في الأمر أنّ هذه الرعاية تشمل حتّى غير المسلمين في المجتمع الإسلامي.

١٦ ـ حرمة النفس وحرمة العرض وحرمة المال أهمّ الحرمات التي أكّد عليها الإسلام، وشدّد على القضاء الإسلامي لصيانتها وحفظها والدفاع عنها، كما ألزم كلّ أفراد المجتمع برعايتها بدقّة متناهية، والاحتياط الشديد في مراعاتها؛ كلّ ذلك لكي يعيش الإنسان المسلم في مأمن من أيّ تهديد لمقوّمات كرامته وعزّته وشخصيّته.

١٧ ـ أكد الإسلام على العبادات الجماعية، وركّز على ضرورة إظهار قوّة المسلمين وتراصّ صفوفهم ووحدة عزمهم وإرادتهم، وانسجام تحركهم لإبراز عزتهم وإظهار كرامتهم أمام أنفسهم وأمام أعدائهم.

١٨ ـ نفي سبيل المشركين على المسلمين أصلٌ من الأصول الإسلامية، وهو يفرض على كلّ المسلمين العملَ لسدِّ أية ثغرة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو عمليّة، ينفذ منها أعداء الإسلام لكي يجدوا لهم موضع قدم في المجتمع الإسلامي؛ وهذا الأصل وحده، لو التزم به المسلمون، لحقّقت كرامتهم وعزّتهم على الساحة الدوليّة. ونفي السبيل طبعاً يعني نفي السيطرة لا نفي التعامل والاستفادة من الآخرين.

١٩ ـ مبدأ الجهاد يخلق في نفس الأمّة المسلمة روحاً ترفض الإخلاد إلى الأرض والرضا بالظلم والعدوان، والتهاون في الدفاع عن الكرامة والمقدسات، وتأبى الذلّ والخنوع والاستكانة، وتدفع الإنسان المسلم لأن يطلب عزته وعزة أُمته ودينِه وعزّة المستضعفين في الأرض ببذْل الغالي والنفيس.

٢٠ ـ حثُّ الإسلام على الانتماء إلى الجماعة وعدم الخروج عنها وعدم الشذوذ عن مسيرتها، يخلق في نفس الإنسان المسلم عزَّة الانتماء إلى الجماعة المؤمنة، ويجعله يحسّ بالقوّة والفخر بهذا الانتماء.

٢١ ـ الحثّ على طلب العلم والتدبّر في الكون وفي المخلوقات وفي الأمم والشعوب، تخلق من الإنسان المسلم كائناً ناضجاً يحترم شخصيته وفكره، ويقوّم الأفراد على أساس ما عندهم من علم إضافة إلى التقوى. والاعتزاز بالعلم والعلماء يجعل المسلم يبحث عن عزته وكرامته في تنمية شخصيته العلمية والفكرية؛ وبذلك تظهر الأمّة العالمة المفكّرة، ولا يخفي ما لمثل هذه الأمّة من عزّة وكرامة بين الأمم.

٢٢ ـ حرمة اغتيال شخصية الإنسان المسلم عن طريق اغتيابه واتهامه وإهانته أمرٌ أكّدْ الإسلام كثيراً جداً؛ كلّ هذا لكي يأمن المسلم من عدوان يستهدف عزّته وكرامته وماء وجهه في المجتمع.

٢٣ ـ النصوص الإسلامية الكثيرة التي تحذّر الإنسان المسلم والجماعة

المسلمة من التفرقة والشقاق والنفاق، إنما تتّجه كلّها لصيانة عزّة المسلمين وكرامتهم من أن تتصدّع، وشوكتهم من أن تلين.

٢٤ ـ حرمة التشبّه بالكفّار أصل يحافظ على الهويّة الثقافية للأمّة، ويخلق روح الاعتزاز بهذه الهوية والشعور بالاستعلاء النفسي أمام الثقافات الأخرى.

٢٥ ـ التحذير الشديد من الحرص والطمع في المال والمتاع والشهرة والسلطة، يصون المسلم من أن يستذلّه الطمع، ويتنازل عن عزته لتحقيق رغبة جامحة في النفس نحو الاستزادة.

٢٦ ـ مبدأ نيل إحدى الحسنيين يصون المجتمعَ المسلم من أيّ ضعف وخور وهوان، حينما تضطرّه الظروف لأن يتراجع وينهزم أمام الأعداء، فهو مجتمع منتصر إن غَلب أو غُلب، والفرد منتصر إن قَتل أو قُتل؛ فالمسلمون هم الأعلَون على كلّ حال.

٢٧ ـ مبدأ إعداد القوّة مبدأ اسلامي مهمّ يجعل المسلمين مرهوبي الجانب، أعزَّةً على ظهور الأرض، ويقتلع من رؤوس الأعداء كلّ فكر يساورهم للمسّ من عزّة المسلمين وكرامتهم.

٢٨ ـ مبدأ الرسالة الخاتمة يخلق في المسلمين إحساساً بأنهم مسؤولون عن خلافة الله في الأرض، وعن اعتلاء دورهم الشاهد والوسط على ظهر البسيطة حتّى يرثَ اللهُ الارضَ ومن عليها، وهي مسؤوليّة مقرونة بالعزّة والكرامة.

٢٩ ـ مبدأ قيام الدولة الإسلامية العالمية بقيادة المهدي المنتظر عليه السلام يجعل المسلمين ينتظرون تحقّق هدف دينهم على أوسع نطاق في مستقبل أيام البشرية، حين تذعن كلّ الشعوب لأحقّية الإسلام وتنصاع لأوامره، وتنضوي تحت لوائه، وهي نظرة تبعث العزّة في نفس الإنسان المسلم، والثقة بمستقبل ما يحمله من فكر وعقيدة، وتبعث فيه أيضاً روح الاستهانة بما تتخبّط به البشرية من انحرافات عن دينه الحق.

٣٠ ـ عالج الإسلام كلّ الحالات التي تُخرج الإنسان من حالة التعادل النفسي، وتوقعه في انفعال يحطّ من كرامته وشخصيته وعزّته مثل الغضب والحسد والحقد.

انحدار منحني العزّة الإسلامية خلال نصف قرن

خلال نصف قرن عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حدثت أمور أدّت إلى هبوط روح العزّة الإسلامية في النفوس، وازدادت مظاهر الخضوع والخنوع والاستسلام والاهتمام بالصغائر في المجتمع الإسلامي، لعوامل عديدة أهمّها:

١ ـ **التمييز الطبقي**، حيث ظهرت في المجتمع الإسلامي طبقتان، إحداهما تتمتع بثروات طائلة والأخرى مدقعة معدومة، والتمييز الطبقي يؤدّي طبعاً إلى انهيارات في عزة قطاع من افراد المجتمع بسبب الإحساس بالضعف والغبن والظلم [١٦].

٢ ـ **التمييز العنصري**، فقد أصبح غير العرب مواطنين من الدرجة الثانية، ومحَتقرين، وأخذت منهم الجزية، وعوملوا معاملة سيئة أضعفت روح العزّة الإسلامية في أنفسهم [١٧].

٣ ـ **الصراع القَبَلي**، ظهر في نصف القرن هذا، بعد أن ضعف روح الانتماء الرسالي، وعادت الروح الجاهلية والصراعات القبليّة بأوضح صورها في المجتمع، ومن الطبيعي أن تضيع روح العزّة الإسلامية في حمأة الاعتزاز القَبليّ الضيّق [١٨].

٤ ـ **التخويف والتجويع**، ظهر بأفظع صورة في العصر الأموي، بحيث إن الفرد المسلم كان يخشى على بيته أن يُهدم، وعلى لقمة عيشه أن تُسلب، وعلى دمه أن يُراق، وعلى عرضه أن يُنتهك بالظنّة ولأتفه الأسباب، مما خلق حالة من الذلّ والضعة والهوان في المجتمع الإسلامي [١٩].

٥ ـ **الاستخفاف بالدين وأهله**، والتجاهر بارتكاب المنكرات [٢٠].

٦ ـ **إشاعة أحاديث مكذوبة**، ومذاهب مزعومة تدعو إلى الرضوخ للظالمين والركون إلى المتسلّطين وعدم الثورة عليهم، وقبول الأمر الواقع باعتباره قضاءً من الله وقدراً [٢١].

مواقف أهل البيت العمليّة من مظاهر الإذلال

انتهج أئمة أهل البيت عليهم السلام جميعاً مواقف عمليّة لصد عمليّة الإذلال، وإبقاء روح العزّ في المسلمين. ونستعرض فيما يلي أهم محاور هذه المواقف كي لا يخال

القارئ الكريم أن استعادة العزّة إلى المجتمع الإسلامي تختصّ بالحسين عليه السلام وثورته.

١ ـ محاربة ظاهرة التمييز الطبقي وإشاعة العدل والمساواة في العطاء بين أفراد المجتمع الإسلامي [٢٢].

٢ ـ كسر العصبيات العنصرية [٢٣].

٣ ـ التأكيد على الولاة بالمحافظة على كرامة المسلمين وعزتهم، والاهتمام بعزل من يذلّ الناس ويستخفّهم [٢٤].

٤ ـ غرس روح الشهادة والثورة ضد الظلم في المجتمع الإسلامي [٢٥].

٥ ـ الاهتمام بالأمور التي ترتبط بعزة المسلمين وكرامتهم، وعدم فسح المجال للاختلافات الداخليّة أن تمسّ من هذه العزّة والكرامة [٢٦].

٦ ـ السعي الحثيث لربط المجتمع الإسلامي بالله سبحانه؛ كي يستشعر العزّة، في هذا الارتباط، لا في المسائل الموهومة [٢٧].

موقف الحسين وأهل بيته من ظاهرة الذلّ ونتائجها[٢٨]

١ ـ رفضه بيعة يزيد، معلناً أسباب عدم البيعة ومركّزاً على ظلم يزيد وانتهاكه حُرمات المسلمين.

٢ ـ التأكيد على مفاهيم العزّة في كلّ أقواله.

٣ ـ التحذير من الذلّ وأنّه سنّة طبيعية تصيب المجتمع المتخاذل.

٤ ـ الابتعاد عن أيّ مظهر من مظاهر الذلّ حتّى في الساعات الحرجة.

٥ ـ التركيز على الاخلاص في العبودية في أقواله؛ ليستشعر الافراد أنّ العزّة لله جميعاً دون سواه.

٦ ـ الصمود والمقاومة حتّى آخر لحظة.

٧ ـ مواقف زينب من محاولات الإذلال.

٨ ـ مواقف علي بن الحسين من محاولات الإذلال.

أما النتائج فهي:

١ ـ الانتفاض على حالة الذلّ واسترخاص الدنيا.

٢ ـ ارتفاع صوت طلب العزّة لدى الثائرين.

٣ ـ ارتفاع صوت التنديد بالظلم على المستوى الجماهيري.

٤ ـ أُفول دولة الظالمين.

حالة الذلّ في المجتمعات الإسلامية المعاصرة

بعد هذا العرض لموقف الحسين من حالة الذلّ في مجتمعه، نعود إلى العالم الإسلامي في القرون الأخيرة.

لقد نزل بالأمّة الإسلامية ما أفقدها هويتها وأركعها أمام أعدائها، وأفرغ محتواها الفكري والرسالي وأصابها بهزيمة منكرة، وهذه أهمّ مظاهر الذلّ التي سادت في المجتمعات الإسلامية المعاصرة:

١ ـ الهزيمة السياسية والعسكرية التي مُني بها العالم الإسلامي أمام الغزو البريطاني والفرنسي والإيطالي والروسي.

٢ ـ الهزيمة النفسية التي أصابت العالم الإسلامي عقب هزائمه السياسية والعسكرية.

٣ ـ السيطرة الاقتصادية التامّة على مصادر خيرات المسلمين.

٤ ـ السيطرة الثقافية على مراكز التعليم.

٥ ـ إلغاء التشريع الإسلامي من الحكم.

٦ ـ إشاعة الفساد والمنكرات في المجتمع الإسلامي.

٧ ـ فصل علماء الدين عن المجتمع، والاستهانة بالدراسات الدينية.

٨ ـ السيطرة الصهيونية على العالم الإسلامي.

٩ ـ النزاعات المستمرة القومية والطائفية والإقليمية بين المسلمين.

موقف الإمام الخميني من حالة الذلّ في المجتمع

سلك الإمام الخميني ثلاثة أساليب لمواجهة حالة الذلّ في مجتمعه.

الأوّل: خلق روح العزّة في المجتمع، وذلك عبر المحاور التالية:

١ ـ التأكيد على قدرة الله سبحانه وتعالى، وأن كلّ شيء بيده، وأنه القادر على ما يريد، وأنه سبحانه ينصر حتماً من ينصره، وأن كلّ انتصار إنما هو بفضله ومنّه. هذه التأكيدات موجودة في القرآن الكريم أيضاً، لكن الإمام كان يركّز عليها تركيزاً مقروناً بما يحدث في ساحة المواجهة والصراع والصمود والهدم والبناء، فيغرس هذه المفاهيم في النفوس، ليشعر الأفراد بعزّة وكرامة ورفعة وهم يتعاملون مع الله سبحانه في تحركهم الاجتماعي.

٢ ـ التركيز على قدرة الإسلام في دحر الطواغيت، وبناء الدولة العصرية، وإنقاذ البشرية من مستنقعها، وعلى أنه البديل الوحيد لما تعاني منه البشرية من ضياع وتيه وتخبّط في المادية. فلقد كان ﷺ ينصح المفكّرين والزعماء في العالم الإسلامي وغير الإسلامي بالعودة إلى الإسلام ليجدوا فيه عزتهم وسعادتهم وسؤددهم؛ وبذلك يغرس في نفوس كلّ المسلمين روح الاعتزاز بعقيدتهم والشعور بالكرامة في ظل دينهم.

٣ ـ الحديث المستمر عن إيمان حقيقي، حول قدرة الشعب في خلق المعجزات، لأن الأمّة المتحركة على طريق الله تتجلّى في حركتها قدرة الله وعظمته وانتقامه من الجبارين، فهو قادر على أن يواجه أعتى الطواغيت وإن افتقد العدة والعتاد، وقادر على أن يواجه كلّ جبهات الكفر على سعتها، وقادر على أن يبني ويعمر رغم كلّ الضغوط والمحاصرات.

٤ ـ منحه الشعب ثقة تامة، ولقد كانت الثقة المتبادلة بين الإمام الراحل وأمّته، من أهمّ بواعث شعور الشعب الإيراني بالاعتزاز والكرامة في حركته بقيادة الإمام؛ فهو قدس الله روحه يرى في الشعب وفاءً وصدقاً وإخلاصاً لم يبلغه صحابة رسول الله ﷺ ولا صحابة علي عليه السلام، ويكبر هذا الشعب ويتواضع أمامه وأمام تضحياته وصموده تواضعاً غريباً.

٥ ـ تأكيده المستمر على الدور الذي يجب أن يضطلع به الشعب الإيراني على الساحة العالمية، بحمله مشعل الإسلام إلى الضالّين، ودفاعه عن المستضعفين، وإعطاء القدوة والمثل الأعلى للآخرين؛ وهذا الدور الذي يريده الإمام للأمّة في إيران يجعلها تستشعر دورها الرائد القائد على ظهر الأرض.

٦ ـ تخطيط الإمام لإعادة الحياة والروح إلى العبادات الإسلامية، فقد رسم للحج ولصلاة الجمعة وللمساجد تصويراً جديداً يعيد إليها الحياة لتكون كما كانت في عصر الرسالة الأوّل، مبعث عز للمسلمين، ومظهر قوّة وصمود وتكاتف لهم أمام الأعداء المتربّصين.

٧ ـ حديث الإمام المستمر عن منجزات الثورة الإسلامية في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية، وتذكير الناس بما كانت عليه الأوضاع قبل الثورة لتعميق روح الاعتزاز بالثورة الإسلامية وبالإنجاز العظيم الذي حدث على يد الشعب.

٨ ـ غرس مفهوم الشهادة في النفوس، وخلق روح طلب الشهادة في الأفراد، بتبيين منزلة الشهيد وعظمة الجهاد في سبيل الله، وما يستتبع تصاعد روح الجهاد من عزة وكرامة للمجتمع.

٩ ـ تركيز الإمام الراحل على دور المرأة في المجتمع ودورها في الثورة، وعظمة المسؤوليات التي تنهض بها في البيت والمجتمع، كلّ ذلك لخلق روح العزّة في نفس المرأة، لتغرسها بدورها في نفوس أبنائها وأفراد أسرتها.

١٠ ـ تأكيده المستمر على قدرة الايرانيين والعرب والشرقيين والأمّة المسلمة عامّة على الاختراع والابتكار، ومواكبة ركب المدنية المعاصرة على شرط الإيمان بقدراتهم وكفاءاتهم.

١١ ـ ربط الأمّة بتاريخها الثوري القديم والمعاصر، وخاصة ربطها بثورة سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام، والتركيز على روح العزّة والإباء في هذه الثورة، ودعوة الأمّة للتفاعل مع كلّ مواقف الإباء والصمود فيها.

١٢ ـ التأكيد على الطبقة الفقيرة المستضعفة، وعلى ضرورة تجنيد كلّ الطاقات للأخذ بيدها، وأنها أشرف من أصحاب القصور، وأنها هي التي حملت

العبء الجسيم في الثورة والدفاع عنها، كلّ ذلك لبعث روح العزّة في هذه الفئة التي طالما استذلّها نظام الطاغوت.

الثاني: اقتلاع روح الهزيمة والذلّ من النفوس بالأساليب التالية:

١ ـ الاستهانة بالحضارة المادية المعاصرة، وبيان زيفها وخوائها، وتخبطها، وقرب سقوطها، والطريق المسدود الذي وصلت إليه، ونصيحة المهزومين من المسلمين بفتح أعينهم على واقع الحضارة، وعدم الانبهار بظاهرها.

٢ ـ الاستخفاف بطواغيت الأرض، والسخرية منهم، وتهديدهم، وتحدّيهم، والتعامل معهم نموراً من ورق، وأطفالاً جامحين يستحقّون النصح والتحذير والتأديب.

٣ ـ حثّ الشعوب على كسر حاجز الخوف الذي اصطنعته الحكومات الظالمة، والتعامل مع هذه الحكومات كما تعامل الشعب الايراني مع الطاغوت المسيطر عليه، والتأكيد أن هذا العصر هو عصر الشعوب وتحقيق إرادتها وكسر قيودها.

٤ ـ تركيز روح العزّة في كلّ اللحظات العصيبة التي يخشى فيها تزلزل النفوس، مثل الهزيمة العسكرية أو الضغوط الاقتصادية أو اغتيال كبار الشخصيات القيادية، واستثمار هذه الحوادث لرفع المعنويات وتصعيد روح المقاومة والصمود.

الثالث: إعطاء القدوة من نفسه

وهذه القدوة قدّمها الإمام في مواقفه التالية:

١ ـ المواصلة المستمرة دون هوادة في المقاومة والصمود دون أن يتراجع قيد أنملة عن مواقفه المبدئية، ودون أن يداهن أو يهادن لحظة واحدة؛ وهذه المواصلة صَعدت روح الثورة في النفوس، واقتلعت روح طلب العافية والاسترخاء وما يستتبعها من ذل في النفوس.

٢ ـ تحمّل السجن والتعذيب والإرهاب والنفي بطيب خاطر وبرحابة صدر، متغلباً بذلك على كلّ سبل الهزيمة النفسية وإذلال الشخصية.

٣ ـ تحمّل المصائب الشخصية كفقدان الولد بروح مطمئنة صابرة مستسلمة لقضاء الله، ولا يخفى ما لهذا الموقف من تأثير في تثبيت النفوس المتزلزلة والأرواح الضعيفة.

٤ ـ ضرب المثل الأعلى في الزهد والابتعاد عن مظاهر الحياة وبهارجها وزينتها، بما يرسّخ روح الثقة والترفّع والسمو النفسي في القاعدة التي يقودها.

تلخيص واستنتاج

من كلّ ما سبق نفهم أن أكبر مرض نفسي يصيب المجتمعات البشرية هو مرض الذلّ، وهذا المرض النفسي يحتاج إلى علاج نفسي يشبه الصعقة الكهربائية يعالَج بها ذوو الأمراض النفسية في عصرنا الراهن.

إنّ مرض الذلّ لايمكن شفاؤه بالموعظة ونشر الفكر والتربية الروحية فحسب، بل يحتاج إلى صعقة، وإلى هزّة تعيد له الوعي والحياة، وتجعله يستشعر العزّة، ويرى أن هدف الحياة أسمى من خسيس العيش؛ وهذه الصعقة أنزلها بجسم الأمّة الإسلامية الحسين بن علي عليه السلام، فدبّ فيه دم جديد وروح جديدة؛ وهكذا فعل الإمام الخميني قدس سره، وكانت هذه النتائج التي يشاهدها العالم بعينه متمثّلة في عودة حثيثة دائبة إلى الأصالة والكرامة والعزّة، وهي بأجمعها من نتائج إرهاصات الصبح المرتقب، بإذن الله تعالى.

﴿أليس الصّبحُ بقريب﴾ ؟!

الهوامش

١ ـ لسان العرب، مادة عزز.

٢ ـ انظر محاضرات السيد الشهيد الصدر حول «السنن التاريخية في القرآن الكريم» ففيها عرض دقيق لنظرية المثل الأعلى في حركة التاريخ.

٣ ـ البقرة: ٦١.

٤ ـ آل عمران: ١١٢.

٥ ـ النور: ٣٩.

٦ ـ الشعراء: ٤٤.

٧ ـ النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩.

٨ ـ فاطر: ١٠.

٩ ـ المنافقون: ٨.

١٠ ـ مشكاة الأنوار: ٥٠.

١١ ـ «من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته» نهج البلاغة، الحكمة ٤٤٩.

١٢ ـ هذه الحقيقة وردت على لسان الحكماء والأدباء كثيراً، ويعبر عنها المتنبي في قوله:

وتكبر في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

١٣ ـ ولذلك يحرص الطغاة على إذلال الناس كي يكونوا آلة طيّعة بأيديهم، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في حديثه عن تعامل فرعون مع قومه إذ يقول: ﴿ فاستخفَّ قومَه فأطاعُوه ﴾ (الزخرف: ٥٤).

١٤ ـ أكثر موجات الشر التي اجتاحت العالم الإسلامي من داخله كانت تستغلّ هذه الحالة المتفشية، كما حدث في حركة الزنج والقرامطة، وحركة البابكية وأمثالها.

١٥ ـ الأبعاد المذكورة لم ندرج مصادرها لسعتها، وهي لا تخفى على القارئ المتتبع، فالقرآن مفعم بآيات تكريم الإنسان، ومكانته في الكون، واستخلافه على الأرض، ومهمّته الرساليّة على ظهرها، وقرب الله سبحانه منه، وحرمة ماله ودمه وغيرها. وهكذا السنّة فيها نهي مؤكد عن كلّ ما يذلّ الإنسان، وتركيز على حفظ عزّته وحرمته من انعقاد نطفته إلى ما بعد مواراته الثرى. وكل ذلك انعكس في الفقه الإسلامي، في أبواب أحكام الجنين والولد والاقتصاد، والحياة الزوجية، وأحكام الميت، حتى إن الواجبات تسقط إذا اقتضت «احتمال ذلة» الإنسان، كسقوط وجوب الوضوء للصلاة والطواف إذا اقتضى طلب الماء ذلة للفرد المسلم.

١٦ ـ انظر التمييز في توزيع بيت المال والعطاء، ثمّ ظهور التمييز الطبقي في المجتمع: ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة ٨: ١١١، ٢: ١٣١ ـ ١٣٢، والمسعودي: مروج الذهب ٢: ٣٤١ ـ ٣٤٣، وحسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام ١: ٣٥٨.

١٧ ـ للتوسع في الموضوع انظر: أنساب الأشراف ١: ١٨ ـ ٣٤، وفيليب حتّي: تاريخ العرب ٢: ٣٥٠ ـ ٣٥٢، وفلهاوزن: الدولة العربية وسقوطها: ١٦٥ ـ ١٧٣ و ٤٠٣ و ٤١٤ و ٤١٨ ـ ٤١٩.

١٨ ـ انظر في سياسة الأمويين تجاه القبائل، وإثارة نار الخصومة بينها: فلهاوزن: مصدر سابق: ٥٨، ١٠٥ ـ ١٠٦، ٢٠٧.

١٩ ـ انظر محمّد مهدي شمس الدين: ثورة الحسين: ٦٦ وما بعدها، فقد نقل عن شرح النهج ٢: ٦ ـ ٧، ٣ ـ ١٨، ٨٥ ـ ٨٦ و ١١ / ٤٤، ٤ / ٧٣ ما يحيّر العقول عن هذا البطش والتنكيل.

٢٠ ـ انظر: البلاذري: أنساب الأشراف، القسم الثاني: ٤، وفيليب حتّي: تاريخ العرب ٢: ٢٥٨، والدولة العربية: ١٣٧ ـ ١٣٨، وبروكلمان: تاريخ الشعوب العربية ١: ١٥٦.

٢١ ـ انظر: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٤: ٩١، ١١: ٤٤ ـ ٤٦، ابن قتيبة: عيون الأخبار ١: ٧، وانظر أيضاً عن تظاهر معاوية بالجبر والإرجاء: ابن أبي الحديد ١: ٣٤٠.

٢٢ ـ هذه أهم سمات فترة الحكم العلوي، وعلي عليه السلام أعلن منذ توليه الحكم مشروعه في تقسيم المال حين قال: «أيها الناس، إني رجل منكم، لي ما لكم وعَليَّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ فيكم ما أمر به، ألا وإن كلّ قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال، فإن الحق لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تُزوِّج به النساء ومُلك به الإماء، وفُرقّ بين البلدان لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق» ابن أبي الحديد ١: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

٢٣ ـ موقف الخراسانيين من دعوة أهل البيت، وموقف أهل البيت أنفسهم ممن سموا بالموالي، أفضل دليل على اهتمام أئمة أهل البيت بكسر العصبيات العنصرية.

٢٤ ـ انظر عهد الإمام أمير المؤمنين إلى مالك الاشتر لما ولاه مصر، وانظر أيضاً موقفه من الولاة المنصوبين قبله إذ يقول: «ولكني آسى أن يلي أمر هذه الأمّة سفهاؤها وفجّارها، فيتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً». تأمل بدقّة: «وعباده خولاً».

٢٥ ـ هذه أبرز ملامح مدرسة آل البيت عليهم السلام، حتّى إن الفقهاء في ثورة «ابن الاشعث» كانوا يفتون بوجوب الخروج على الحجاج استناداً إلى أقوال علي عليه السلام. انظر هذه الثورة في تاريخ الطبري في أحداث سنة ٨١ للهجرة.

٢٦ ـ هذا واضح في سيرة علي والحسن والحسين وكلّ الأئمة من أولاد الحسين عليهم السلام في تعاملهم مع

الحاكمين ومع أفراد المجتمع.

٢٧ ـ أئمة آل البيت تركوا لنا في مجال الدعاء والتضرع ومنهج السلوك إلى الله تراثاً ضخماً في العمل والقول، حتّى ظن بعضهم أن التصوف نشأ من التشيع، وما ذلك إلّا لهذا التركيز من أهل البيت على الارتباط المستمر بالله تعالى. انظر: الصلة بين التصوف والتشيع، والفكر الشيعي والنزاعات الصوفية للدكتور كامل مصطفى الشيبي.

٢٨ ـ كلّ ثورة الحسين وما أعقبها من مواقف لأهل بيته وللثوّار السائرين على طريقه، تدور حول محور استعادة العزّة وإبعاد الذلّ عن المجتمع الإسلامي؛ ولذلك نشير فقط إلى بعض أقوال الإمام الحسين في هذا المجال، ونحيل القارئ إلى كتب التاريخ؛ من ذلك:

«ألا وإنّ الدعيَّ ابن الدعيَّ قد ركز بين اثنتين: بين السلّة والذلّة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله، وحجور طابت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام. ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلّة العدد وخذلان الناصر...».

ثم تمثّل بأبيات فروة بن مسلك المرادي:

فإن نهزِم فهزّامون قِدماً	وإن نُغلب فغير مهزَّمِينا
وما إن طِبّنا جبن ولكن	منايانا ودولة آخرينا
إذا ما الموت رفّع عن أناس	كلاكله أناخ بآخرِينا
فأفنى ذلكم سروات قومي	كما أفنى القرون الآخرِينا
فلو خلد الملوك إذاً خلدنا	ولو بقي الكرام إذاً بقِينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا	سيلقَى الشامتون كما لقِينا

وقوله لقيس ابن الأشعث: «... لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ إقرار العبيد. عبادَ الله إني عُذت بربي وربكم أن ترجمون. أعوذ بربي وربكم من كلّ متكبِّر لا يؤمن بيوم الحساب».

وقوله مخاطباً أصحاب الحر: «أيّها الناس، إنّ رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلال الله، وأنا أحقّ من غيّر...».

وقوله بذي حسم: «إنّه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها فلم يبقَ منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحقّ لا يُعْمل به، وأن الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمنُ في لقاء الله محقّاً. فإني لا أرى الموت إلّا

سعادة، ولا الحياة مع الظالمين إلّا برماً».

وقوله للفرزدق: «رحم الله مسلماً، فلقد صار إلى روح الله وريحانه وجنّته ورضوانه. أما إنه قد قضى ما عليه وبقي ما علينا، ثمّ أنشأ يقول:

فإن تكنِ الدنيا تعدُّ نفيسةً ... فإنّ ثواب الله أعلى وأنبلُ
وإن تكُنِ الأبدانُ للموت أُنشِئت ... فقتلُ الفتى بالسيف في اللهِ أفضلُ
وإن تكنِ الأرزاقُ قسماً مقدَّرا ... فقلّة حرص المرء في السعي أجملُ
وإن تكنِ الأموال للترك جمعُها ... فما بال متروكٍ به المرءُ يبخلُ

الإمام الخميني والخطاب الكربلائي

د. علي زيتون

مدخل

تقتضي معالجة هذا العنوان العودة إلى الينابيع نتعرف إلى مائها النمير، فندرك سرّ المياه المقدّسة التي غرف الإمام الخميني ﷺ من معينها الوفير، فكانت هداه ومساره وعلامة انتصاره.

وتُشكّل خطابة آل البيت بُعيد واقعة كربلاء المرجعية الأساسية والجذر الثقافي الأوّل لذلك الحادث، حيث تقدّم لنا رؤية البيت النبوي لما حصل سواء أتعلّق الأمر بمغتصبي السلطة، أم بالمتخاذلين، أم بالأبعاد التاريخية والدينية للواقعة. وتأتي خطابة التوّابين حاشية باهتة تحاول الاستفاقة في استحياء.

وحين يطمئنّ الباحث إلى أنه قد تعرّف إلى حقيقة الجذور الحسينية العميقة، ينطلق بكثير من الثقة بالنفس إلى الخطاب الخمينيّ يبحث فيه عن تلك الجذور. وتأتي وصيّته الخالدة خير مُعين على تلك الرحلة المعرفية، لأنّها تكثّف آراءه وهمومه واهتمامه بكثير من الدقّة والحسّاسية.

الخطاب الكربلائي: مرحلة التكوّن

الفن معرفة، ولعلّه الوسيلة المعرفية الأولى التي استخدمها الإنسان قبل أن يهتدي إلى الوسيلة المنطقية، وقبل أن يصل إلى المعرفة البحتة المتخلّصة من كلّ ما هو فنّي؛ لأن المعرفة المرتكزة على الفن، وإن كانت معرفة حقيقية لها حقلها الذي تستكشفه دون أن يشاركها فيه أيّ منهج معرفي آخر، فهي قائمة على إسقاطٍ

ضمنيّ للذات وللعلاقات الاجتماعية على الطبيعة، اي على إسقاط (الأنا) الفردية و«الاجتماعية على العالم، أي على (اللا أنا)[١]. ولذلك تكون الحقائق التي تأتي بها حقائق من نمط خاصّ، مشوبةً بما هو ذاتيّ، ولا يستطيع أحد الدخول في آليّة الحقائق البحتة ووسائلها في توليد المعرفة وتكثيفها وتطويرها للتعجيل في حركة التاريخ الآليّة خدمة للإنسان في الوصول إلى دنيا الرفاه والحرية.

وحين نفهم العمل الفني بهذه الطريقة، إنما نطرح على أنفسنا سؤالاً آخر يتعلّق بماهية الأدب بوصفه عملاً فنياً.

حاول (تودوروف) أن يقدّم مفهوماً للأدب يكون موضعَ قبول الاتجاهات النقدية المختلفة؛ ولم يقصد به التعميم أو الخروج من الصعوبة التي تحدّث عنها، وهي «الاتفاق حول الهوية المحدّدة لموضوع الأدب»[٢]، ولكنّه حاول مقاربة ما تجمع عليه تلك الاتجاهات ليجعله منطلقاً لبحثه الذي يريد أن يلفت انتباهنا إليه. وهو حين قال: «إن هذا الاسم [يعني به الأدب] أو ما يجري مجراه، استُعمل دائماً للدلالة على كلام يبعث اللذة أو يثير الاهتمام لدى سامعه أو قارئه، ويكون الخلود مصيره، وبناءً على ذلك فهو قول أكثر صناعة من الكلام العادي»[٣].

لم يكن اختياره لطريقة التعبير عن أفكاره عفوياً؛ لأن استخدامه لفظة (كلام) بصيغة التنكير للدلالة على ما يرتبط بطبيعة الأدب، يقلّل كثيراً من الطبيعة اللغوية لصالح ما هو خارج عنها سواء تعلّق الأمر بالمتلقّي الذي يجب أن تُثار لذّته واهتمامه، أو التقنية الفنية التي يُتعامل بها مع القول ليكون أكثر صناعة من الكلام العادي. فالعلاقة بين النصّ والجمهور الموجّه إليه هو ما يشغل باله بشكل أساس. تلك العلاقة المعرفية التي تتأكّد من خلال إشارته إلى أن «الخصوصية الأدبية ليست من طبيعة لغوية، وإنّما من طبيعة تاريخية ثقافية»[٤].

ولا نستطيع أن نقبل هذه المقولة بأكملها، خصوصاً وأنها تدقّ باب نظرية المحاكاة الأرسطية بعد أن بدأ النقد الأدبي الحديث يتخلّى عنها لصالح العلوم اللسانية والأسلوبية.

ما هو مقبول من وجهة نظر تودوروف هذه، هو الالتفات الجدّي إلى خصوصية الأدب ذات الطبيعة التاريخية الثقافية، وإن كان لا يجوز التركيز عليها

وحدها؛ لأن ذلك لا يميّز خصوصية الأدب بما هو فن مادّته اللغة عن خصوصيّة غيره من الفنون التي تقوم على موادّ أخرى مختلفة عنها. فالأدب خصوصية نصيّة[٥] وفاعليّة لغوية تقتضي أن يكون النصّ «عمقاً ثقافياً»[٦]. وإذا كانت هذه هي السمات الأساسيّة لطبيعة الأدب، فما هو موقع النصّ الخطابي من هذه الحقيقة؟

تقوم الخطابة على الشفوية التي تقيم علاقة بين صاحب رأي ما، وجمهور يكون غالباً من الناس العاديين. وحين يكون صاحب الرأي هذا ممن ألمَّ بعلوم عصره ومعارفه، فالخطابة هي رأي الثقافة المحتضنة لموقف ما في قضيّة محددة يقدَّم إلى الجمهور بلغة يفهمها. ولذلك فإنّ خصوصية النصّ الخطابي، بما هو موقف محدّد من قضيّة محدّدة، هي من طبيعة تاريخية، وبما هو رأي الثقافة المحتضنة لموقف ما، هي من طبيعة ثقافية، وبما هو رأي يُقدَّم إلى الجمهور بلغة يفهمها عن طريق المشافهة، هي من طبيعة لغوية. فالخطابة لقاء الثقافة والتاريخ واللغة وما يتضمّنه ذلك اللقاء من تفاعل عميق.

وحين نصل إلى النصوص الخطابية التي نشأت على ضفاف كربلاء، سواء أتعلّق الأمر برجال ونساء من آل بيت الرسولﷺ وجدوا أنفسهم بُعيدَ تلك الواقعة مسوقين كما الأسارى إلى الكوفة فدمشق، أم تعلّق برجال من الكوفة دعوا الإمام الحسينعليه السلام لينصروه على أعدائه فخذلوه، ثمّ تابوا بعد أربع سنوات وأعلنوا الجهاد فسُمُّوا بالتوّابين؛ نجد الثقافة الإسلامية وقد شكّلت العمق الفكريّ الذي رأوا من خلاله أشياء العالم وأحداث التاريخ، ونجد الموقف من أحقّية الخلافة، بما هو حساسية مرهفة، قد استقطب تلك الثقافة حول محوره ومهّدها لتكون لسان حاله في مواجهة المواقف المغايرة. وتشكّل اللغة، في كلّ الأحوال، المُفصح عن ذلك الموقف التاريخي وعن عمقه الثقافي. ونعني بها اللغة الخطابية بالذات، بما تتمتع به من حساسية متناهية في علاقتها بالواقع، وشفافية بالغة في التعبير عن الهموم.

ويقتضي هذا الفهم أن نبحث في أمرين أساسيين: الرؤية التي نظر الخطيب من خلالها إلى الأمور، واللغة الفنية التي عبّر بها عن تلك الرؤية. وهذا منسجم مع خصوصية النصّ الخطابي القائمة، بشكل أساس، على تفاعل كلّ من الثقافة والموقف واللغة.

أوّلاً: رؤية كلّ من خطباء آل البيت والتوّابين

يتناول هذا المبحث رؤية كلّ من خطباء آل البيت والتوّابين لعنصرين أساسيين من عناصر واقعة الطف: الحسين وآل البيت عليهم السلام من جهة، والحادث بين الكوفيين ويزيد من جهة ثانية.

أ. صورة الحسين وآل البيت عليهم السلام

هل ستكون نظرة هذين الطرفين واحدة، أم إن مسافةً ما ستفصل بينهما، أملتها ظروف كلّ منهما؟

وقفت السيدة زينب عليها السلام أمام الكوفيين قائلة: «أنّى ترحضون[٧] قتلَ سليل خاتم النبوّة ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة، وملاذ حربكم، ومعاذ حزبكم، ومقرّ سلمكم، وأسى كلمكم، ومفزع نازلتكم، والمرجع إليه عند مقاتلتكم، ومدرة[٨] حججكم، ومنار محجتكم»[٩]، مختزلةً الشهداء جميعهم في الإمام الحسين عليه السلام. فهو الإمام والقائد والركن الشديد والمأوى. وضعت شهادتهُ المشروعَ أمام سبل متفرقة.

تلمّست السيدة الحادث من خلال شهادته، ونظرت إلى النبيّ من خلال أهمّية النبّوة والإسلام، فهي لم تذكر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم باسمه، بل كَنَّت عنه بكنايتين هما: (خاتم النبوّة)، و (معدن الرسالة) لتُبرز مقام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المتفوّق على سائر الأنبياء عليهم السلام، وهي لم تعمد إلى هاتين الكنايتين بشكل عفوي، ولكنها قصدتهما لتحمّل كلمة (سليل) التي أُضيفت إليهما، الدلالة التي تراها لذلك السليل. فلم تعد سلالة دموية جسدية فحسب، بل صارت سلالة عقيدية إيمانية وانتماءً إلى أرقى ما في النبوّة منذ وُجدت النبوّة أيضاً.

وتأتي جملة (سيد شباب أهل الجنة) المعطوفة على (سليل خاتم النبوّة) لا لتذكّر برأي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحسين عليه السلام فحسب، ولكن لتقدّم مظلومية هذا الإمام ومقامه عند ربّ العالمين أيضاً، ولتضيء كلمة (سليل) إضاءة جديدة فتجعلها (سليلاً مميزاً) تومئ إلى العصمة وإلى الدور الذي ترتّبه العصمة على المعصوم في الحياة الدنيا، ممهّدة بذلك للحديث عن صورة الحسين عليه السلام ببعدها

العملي الدنيوي عبر سلسلة من أسماء المكان المضافة إلى القضايا الأساسية التي تشغل بال الكوفيين. فإذا نحن أمام ستة منها: (ملاذ، ومعاذ، ومقر، ومفزع، ومرجع، ومنار) تعطيه هوية الحصن الحصين بالنسبة إليهم. يأمنُهم من خوف ويحميهم من ضياع. إنه البعد المقدّس المريح المطمئن.

وتأتي التشابيه (أسى كلمكم)، (مدرة حججكم) و(منار محجتكم) لتغني صورة الإمام الحسين عليه السلام بأبعاد جديدة هي قوّة الشفاء والرأي والهداية، فتخرجه من هويته البشرية مضفية عليه بعداً روحياً يصير معه قضية إيمانية كبرى تعيد الضائع إلى رشده وتقوّي منطقه في مواجهة الآخرين.

يعني كلّ ذلك أن الإمام الحسين عليه السلام كان محور القضية بالنسبة إلى السيدة زينب عليها السلام يختصر كلّ الشهداء ويعبّر عنهم ويظلّ علامة فارقة لا تلتبس بمن ينتمي إليها.

أمّا الإمام زين العابدين عليه السلام فيكفكف عبرة عمّته زينب عليها السلام قائلاً: «إن البكاء والحنين لا يردّان من قد أباده الدهر»[١٠]، وينبري مخاطباً الكوفيين، معرّفاً بنفسه من خلال بنوته للإمام الحسين عليه السلام: «أنا عليّ بن الحسين المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا ترات»[١١] مسمّياً أباه بما حدث له في كربلاء. وتضمر هذه التسمية امتلاك الروع في تلك الظروف الصعبة، لا ما قد يُتبادر إلى الذهن من أنها صرخة تفجّعية على ما جرى. وتعني تسمية الأشياء بأسمائها رباطة الجأش والشجاعة أمام الأزمات.

ويختصر مكان الذبح الذي أشار إليه (شط الفرات) كلَّ المعاناة التي واجهها الحسين عليه السلام، وقد يكون العطش أقلّها. حتّى ليُعدّ الأجر العظيم الذي ناله الإمام في مواجهة الظالمين أمارةً أساسية من أمارات تكوين هذه الصورة التي قدّمها الخطيب عن أبيه عليه السلام. وحاول زين العابدين عليه السلام حين عدّد أسماء جديدة لأبيه، «أنا ابن من انتُهك حريمه، وسُلب نعيمه، وانتُهب ماله، وسُبي عياله»[١٢] أن يعطي هذه الأسماء الصفات التي تشكّل إشارة مهانة عند العربي أبعاداً مناقضة من خلال قوله: «وكفى بذلك فخراً»[١٣]، موضحاً أن رؤيته التي تستقي من الإسلام الحنيف شعاع ضوئها، إنما تقيس الأمور بغير المقياس الجاهلي الذي يتشبث به أعداؤه.

ويؤكّد هذا ما ذهبنا إليه من أن زين العابدين عليه السلام ممتلك لروعه، ناظر إلى الإمام الحسين بالمنظار الإسلامي دون أن يكون للحدث أيُّ تأثير ضبابي عليه. ويشكّل تعريفه بأبيه الوجه الآخر (لسليل خاتم النبوّة ومعدن الرسالة). وهو موضع اعتزازه كما كان (السليل) موضع اعتزاز العقيلة الهاشميّة عليها السلام.

ولا يعني اختصار صورة آل البيت في صورة الحسين عليه السلام أنهم قد حُجبوا تماماً عن الحضور في النصوص الخطابية التي توجّه بها الأسرى إلى الكوفيين، ولكنهم حضروا معه في جوانب عديدة من تلك النصوص.

قالت فاطمة الصغرى عليها السلام، بوصفها واحدة من آل البيت عليهم السلام، إن الله قد «جعل علمه عندنا، وفهمه لدينا. فنحن عيبةُ علمه، ووعاء فهمه وحكمته، وحجّته في الأرض في بلاده لعباده. أكرمنا الله بكرامته، وفضّلنا بنبيّه على كثير من خلقه تفضيلاً»[١٤] مستندة في جانب من قولها إلى لغة علي عليه السلام حين رأت في آل البيت عليهم السلام عيبة علم الله ووعاء فهمه وحكمته[١٥]. مومئة بذلك، وبطرف خفيّ، إلى سلالة علميّة من نمط قدسي. وإضافة (العيبة) و (الوعاء) إلى (علم الله) و (فهمه وحكمته) لا تنفذ إلى وصف آل البيت بالقدرة على إدراك علم الله وحكمته فحسب، ولكن إلى وصفهم بالقدرة على حفظه واستمراريته أيضاً، وصولاً إلى وصفهم بأنهم المؤتمنون على إرث النبوّة العلمي والدينيّ.

ويفسّر لنا هذا معنى أن يكونوا حجّة الله في الأرض، وأن يكرمهم بكرامته ويفضلهم بنبيّه. وهي حين تستجمع مثل هذه الصفات إنما تريد النفاذ إلى تقديم آل البيت بقيّة لله على الأرض يستطيع أهل الكوفة أن يروا في ضوئها مقدار السوء الذي حاق بهم نتيجة ما فعلوه في كربلاء. ولم تستند فاطمة الصغرى عليها السلام في نظرتها هذه إلى الواقع وحده، إذ يعدّ قولها: «قوم زكّاهم الله وطهّرهم وأذهب عنهم الرجس»[١٦] صدىً واضحاً للآية الكريمة: ﴿إنّما يريدُ اللهُ ليُذهِبَ عنكم الرّجسَ أهلَ البيتِ، ويُطهّرَكُم تطهيرا﴾[١٧].

وحين تجد السيدة زينب عليها السلام نفسها أسيرة أمام يزيد في الشام تغيب صورة الأفراد لتتركّز صورة الجماعة والمشروع «استأصلتَ الشّأفةَ بإراقتِك دماءَ ذرِّيّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب»[١٨]. حيث يتراءى يزيد أموياً

جاهلياً تتبدّى جاهليته بموقفه مما يمثله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وذريته، وبحقده القديم على آل عبد المطلب الهاشميين. ويبدو آل البيت، في المقابل، رساليين محتضنين للرسالة.

لقد استشعرت العقيلة المستقبل، وفي أكثر المواقف سوءاً، بنظرة متفائلة ترى ما حلّ بهم في كربلاء انتصاراً. كيف لا، وهم «حزب الله النجباء»[١٩] وإنّ ﴿حزب الله هم الغالبون﴾[٢٠] كما ترى الآية الكريمة. وهي حين أشارت (بنجوم الأرض من آل عبد المطلب) إلى النسب الطاهر الذي اختاره الله حضناً لرسالته مسمّية إياهم (ذرية محمّد صلى الله عليه وآله وسلم) إنّما أبرزت البعد النبوي الإيماني المتدفّق في عروقهم، فلا تكون ثمّة أية مسافة تفصل صورتهم عن صورة الإمام الحسين عليه السلام في أذهان الأسرى، اللهم تلك المسافة التي تميّز القائد عن المقود.

أمّا التوّابون، وبعد أربع سنوات من محنة كربلاء، وبعد أن عصفت بهم ريح الندم وآنسوا أن الفرصة مؤاتية للثأر، تداعوا وتبادلوا الرأي مشيرين في كلماتهم إلى الحسين وآل البيت بتعابير عديدة: «ابن ابنة نبيّنا»[٢١] «ولده وحبيبه وذريته ونسله»[٢٢] «آل نبيّنا»[٢٣] «ولد نبيّنا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه»[٢٤] «ابن بنت نبيكم»[٢٥] «ذا صدق وصبر، وذا أمانة ونجدة وحزم، ابن أوّل المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول ربّ العالمين»[٢٦]، «أهل بيته»[٢٧]، «إخواننا بالطف رحمة الله عليهم»[٢٨].

تركّز هذه الإشارات على صلة النسب بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم دون أن تغفل طبيعة هذه الصلة وحقيقتها. فالحسين ابن بنته، والجماعة أهل بيته. وأن يكون الحسين ابن بنته؛ يعني أن يكون ولده وحبيبه وعصارته وبضعة من لحمه ودمه، وفي هذا إشارة واضحة إلى أنه امتداد للرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الوجود دينياً ودنيوياً. وأن تكون الجماعة أهل بيته؛ يعني أن تكون ذرّيته ونسله وسلالته، وفي هذا إشارة إلى أنّهم المزكّون المطهّرون من الله سبحانه وتعالى.

ينظر التوّابون إلى الحسين وأهل بيته عليهم السلام إذاً نظرة آل البيت إلى أنفسهم بوصفهم نتاجاً طهرياً إيمانياً علمياً للدوحة المحمّدية المباركة. ومن يراقب التوّابين عشية معركتهم مع ابن زياد يلاحظ روحاً جديدة تمازج تضاعيف الوصية التي

أوصى بها سليمان بن صرد رجاله: «لا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم إلّا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه، أو يكون من قتلة إخواننا بالطف رحمة الله عليهم» (٢٩).

ولا تكمن هذه الروح في النفس العلوي وحده، ولكن في تبدّل الإشارة إلى أهل الطف: من (أهل بيت نبيّنا) إلى (إخواننا بالطف). ولعلّ هذه النقلة مرتبطة بالنقلة التي تمّت داخل نفوس الكوفيين. فقد تحوّلوا من متخاذلين إلى مقبلين على الموت و ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ (٣٠). وإذا ما حملوا السلاح واتخذوا قرار الشهادة انتقاماً للطف؛ فقد أعادوا الاعتبار إلى ذواتهم فباتوا يسمّون شهداء واقعة كربلاء إخوانهم جرياً على القاعدة القرآنية التي تقول: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (٣١).

وإذا ما تراءت الصورة الحسينية عند آل البيت من خلال الاعتزاز بها والانتماء إليها؛ تراءت عند التوّابين من خلال ترجُّحهم بين عقدة الذنب والنجاح في التغلّب عليها. حتّى لكأنهم أرادوا أن يحققوا أخوّتهم للذرية النبوية الطاهرة عبر الشهادة على طريقها.

ب. الحادث بين الكوفيين ويزيد

بدت صورة الكوفيين، غداة الحادث، جليّة في مخيلة آل البيت، قدّموها في خطاباتهم بأسلوب مباشر بعيد عن أيّ شكل من أشكال التلوين الكلامي. نادتهم السيدة زينب عليها السلام: «يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر والخذل» (٣٢). وقال لهم زين العابدين عليه السلام: «كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة، وقاتلتموه وخذلتموه» (٣٣). وكانت كلمة أمّ كلثوم عليها السلام الأولى لهم: «ما لكم خذلتم حسيناً؟» (٣٤). ولئن استطاعت الصفات الأربع الأساس التي وصفوا الكوفيين بها: (الختل، والغدر، والخذل، والمخادعة) أن تقدّمهم وقد ارتكبوا خطأ غير عادي بفحاشته، إلّا أنّ هذه العناوين الأربعة، وإن سمّت ما فعلوه باسمه الذي وضعته له اللغة، فإنّها غير قادرة على تقديم خصوصية هذا الفعل بوصفه حادثاً تمّ فيه قتل الحسين عليه السلام وسَبْيُ نسائه.

وتأتي التشابيه لتعوّض قصور تلك المفردات في التعبير عن خصوصية

واقع الكوفيين: قالت لهم السيدة زينب عليها السلام: «إنّما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً» [٣٥]، فتراءوا من خلال مشابهتهم بتلك المرأة وقد أضاعوا موقفهم القويّ سدىً. ويسمُهم هذا الأمر بالغباء لتحوّلهم من الحق إلى الباطل الذي لا ينفعهم. وهذه الوضعية التي قدّمها التشبيه لم تكن معروفة من خلال المفردات الآنفة.

ولا تستعين السيدة عليها السلام بالذكر الحكيم وحده لتقديم صورة الكوفيين، ولكنها تستعين بالحديث الشريف أيضاً، حيث تشبّههم قائلة: «أو كمرعى على دمنة» [٣٦]. وإذا أشار المرعى إلى قوّة الخير والعطاء التي كان يمكن أن يمثّلها الكوفيون لو وقفوا الموقف السليم، أشارت الدمنة إلى قوّة الإتلاف والتخريب التي حوّلت ذلك المرعى من مصدر للخير إلى نفاية مؤذية، مستحضرة بهذه المشابهة حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بكل عمقه وتكامله وما ينزله على ذلك المرعى من صفات الغش والأذيّة والعواقب السيئة.

أمّا تشبيهها لهم قائلة: «أو كفضّة على ملحودة» [٣٧] فإن الفضّة وإن اختزنت من المعاني الإيجابية ما تختزنه، إلّا أنّها باتت قيمة ضائعة عندما كانت على ملحودة. فقد تعطّلت وظيفتها الأساس بوصفها زينة أو قرشاً مدّخراً.

ومن الجدير بالذكر أن التشابيه قد تدرّجت بالكوفيين من نقض الغزل، إلى مرعى على دمنة، إلى فضة على ملحودة تدرّجاً يومئ إلى بُعد إيجابي معطّل، ويحمل لوماً شديداً يُلقي على الحادث ظلالاً سوداً ويقدّمه فعلاً مستهجناً ومستنكراً. ولو عدنا إلى الصفات الأربع: (الختل والغدر، والخذل، والمخادعة) وقرأناها من جديد على ضوء التشابيه الثلاثة لرأيناها موجّهة بأذيتها إلى ذات الكوفيين بقدر توجّهها إلى الحسين عليه السلام؛ لأنّ الضعف الذي عراهم لحظة الحسم جعل موقفهم يمثّل ختلاً وغدراً وخذلاً ومخادعة لحقيقة الموقف الذي تمنّوا أن يقفوه ولم يقدروا عليه. وهو بالتالي خيانة للذات وإضاعة لصالحهم قبل أن يكون خيانة للحسين عليه السلام.

وصوّرت السيدة زينب عليها السلام هذا الضعف بواسطة تشبيهين آخرين: «ملق الإماء وغمز الأعداء» [٣٨] مقدّمة بذلك صورتهم البشعة التي لا يُحسدون عليها. فالملق المعطوف على الغمز الموجّه إلى آل البيت يكشف عن الدرك الذي انحدر إليه

الكوفيون بخذلهم الحسين عليه السلام.

والخذل هو الذي أسمته السيدة بالصفقة حين خاطبتهم: «خسرت الصفقة»[٣٩] مختصرة بهاتين الكلمتين الخطأ الفادح الذي ارتكبوه. فالخسارة مركّبة؛ لأنّ التجارة بغير مرضاة الله خاسرة وإن ربحت، فكيف إذا لم يتحقق لهم ما منّاهم به ضعفهم لحظة التخاذل؟

ولا تتكامل خصوصية الخذل الكوفي ولا تتجلّى كلّ أبعادها من خلال اللغة التصويرية وحدها، إذ لا بدّ من أن نتبيّن كلّ ذلك على مرآة الله ورسوله. خاطبتهم السيدة قائلة: «بؤتم بغضب من الله، وضُربت عليكم الذلّة والمسكنة»[٤٠] فقدّمت الحادث بصفته جريمة نكراء أثار سخط الله، وجعلهم يتراءون أمام أبصارنا على مرآة القرون البائدة من عاد وثمود وغيرهم، عبر آصرة النسب التي تربط الذلّة والمسكنة بريح الصرصر العاتية. ورأت فاطمة الصغرى عليها السلام عملهم «اجتراءً منكم على الله ومكراً»[٤١] فأضاء كلامها عناصر الحادث كلها: الإمام الحسين عليه السلام الذي تراءى موقفه ببعده الإلهي الواضح، والكوفيين الذين بلغ الإثم بهم درجة الاجتراء على الله والشجاعة في عصيانه، والحادث الذي تبدّى جريمة بحجم اجتراء قوم لوط على نبيهم. ولقد دفعها ذلك لتقول:

«فانتظروا اللعنة والعذاب فكأن قد حلّ بكم وتواترت به السماء نقمات فيسحقكم بما كسبتم ويذيق بعضكم بأس بعضٍ»[٤٢].

ويسألهم الإمام زين العابدين مستغرباً: «بأيّة عين تنظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إذ يقول لكم: قتلتم عترتي، وانتهكتم حرمتي فلستم من أمّتي»؟[٤٣] وإذا غشي النظر ما يمنعه عن الرؤية الواضحة، حضر الرسول صلى الله عليه وآله ليزيل تلك الغشاوة. فالذين قُتلوا هم عترته، والحرمةُ التي انتُهكت بسبي نساء الحسين عليه السلام حرمته.

وحين تبلغ الأمور هذا الحدّ هل تبقى من علاقة تربط القاتل بمن قُتل أبناؤه؟ إنّ تبرّأ الرسول منهم يعني أن يتبرّأ الإسلام منهم. وهل هناك صفة تعدّ أقسى من الصفة التي رآها زين العابدين للكوفيين؟

وتتكلم السيدة أم كلثوم عليها السلام باللغة نفسها: «أتدرون أيّ دواهٍ دهتكم؟ وأيّ

وزر على ظهوركم حملتم؟ وأيّ دماء سفكتموها؟ وأيَّ كريمة أصبتموها؟ وأيَّ صبية سلبتموها؟ وأيَّ أموال انتهبتموها؟ قتلتم خير رجالات بعد النبي»[٤٤].
فيخرج الاستفهام الإنكاري إلى التقريع ليشير كما أشار استفهام زين العابدين إلى عدائية عملهم للرسول، ويقدّمهم مارقين مع ما يعنيه المروق من سخط ولعنة.

وتدفعنا هذه الصورة التي تبدّت للكوفيين على لسان آل البيت لنتساءل إن كانوا يحمّلونهم المسؤوليّة كاملة عمّا جرى لهم في كربلاء. فنجد أن العقيلة عليها السلام توجّه الاتهام مباشرة إليهم: «أتدرون ويلكم! أيَّ كبد لمحمّد صلى الله عليه وآله فريتم؟ وأيّ عهد نكثتم؟ وأي كريمة له أبرزتم؟ وأي حرمة له هتكتم؟ وأي دم له سفكتم؟»[٤٥]،معيدة ضمير المخاطب في هذه العبارات إلى الكوفيين وحدهم دون أن تترك أية إشارة إلى احتمال وجود مشاركين فيه، مع أنها تعرف ويعرف الكوفيون أيضاً أن العمليّة قد تمّت بأمر من يزيد.

وهذا ما يُعطي الكلام لازماً دلالياً له؛ مفاده أن السيدة تريد أن تبرز ذنبهم على مقدار الخطأ الذي ارتكبوه. فهم يتحمّلون من مسؤوليّة القتل ما يتحمّله يزيد. فلولا رسائلهم وخذلهم لما وصلت النتائج إلى ما وصلت إليه. وهي لم تحمّلهم مسؤوليّة بسيطة عندما أسندت الأفعال إليهم، وعدّتها إلى ما يرتبط بالرسول صلى الله عليه وآله: (كبده، وعهده، وكريمة له، وحرمة له، ودم له)، فالامور التي وقع الاعتداء عليها جوانب غير منفكّة عن شخصية النبوّة، والاعتداء عليها اعتداء على الإسلام. إن اتهام السيدة للكوفيين اتهام صائب وإن تغافل عن يزيد، فهي في أثناء هذه الخطبة إنما تواجه الكوفيين ولابدّ من أن تحدثهم بما يعنيهم هم دون غيرهم. ونجد الفاعل نفسه للفعل نفسه عند كلّ من فاطمة الصغرى عليها السلام[٤٦]، وأمّ كلثوم عليها السلام[٤٧].

أمّا عند الإمام زين العابدين عليه السلام فالأمر مختلف نسبياً. يعرّف بنفسه أمام الكوفيين: «أنا ابن من انتُهك حريمُه، وسُلب نعيمُه، وانتُهب مالهُ، وسُبي عيالُه»[٤٨] مستخدماً الفعل الماضي المبني للمجهول الذي يترك الفاعل غير محدَّدٍ. ولو شاء التركيز على الكوفيين لاستخدم الصيغة المعلومة للأفعال وأسندها إليهم. ولكنه قصد استخدام الصيغة كما استخدمها؛ لأنه حدّد اتهامه للكوفيين بشكل واضح

«هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة وقاتلتموه وخذلتموه»؟[٤٩] مسمّياً الأشياء بأسمائها، حتّى كلمة (قاتلتموه) فهي لا تشكّل اتهاماً بقتله، بل جاءت موقّعه بما تدلّ عليه؛ لأنّ دلالتها غير دلالة (قتلتموه).

تبدأ مسؤوليّة الكوفيين بالمكاتبة، وتنتهي بالخذلان والمقاتلة. يعني أنهم أسهموا بكل ما جرى للحسين عليه السلام وأهل بيته، ولكنهم ليسوا وحدهم. يضمُّ الفاعل غير المحدد يزيد ومن والاه والكوفيين وربما قصد كلّ من أسهم بمسيرة الانحراف في الحياة السياسية الإسلامية؛ لأنّه أدّى، وبطريقة غير مباشرة، إلى حصول ما حصل للحسين عليه السلام. ولعل تتويجه للتعريف بنفسه قائلاً: «أنا ابن من قُتل صبراً فكفى بذلك فخراً»[٥٠] إنما هو افتخار بانتماء أهل بيت الحسين عليه السلام، الذين حلّ بهم ما حلّ، إلى مسيرة الصواب في الحياة السياسية الإسلامية في مواجهة مسيرة الانحراف. ويعني ذلك أن التضحية قد وقعت في سياقها التاريخي الإسلامي، ولذلك كانت موضع فخره. أمّا ما قام به الكوفيون فقد يقع على هامش تاريخ الانحراف لا في صلبه. وأن تكون رؤية زين العابدين عليه السلام متميّزة عن رؤية السيدة زينب عليها السلام، وفي الموقع نفسه، فهو من قبيل تميّز الإمام المعصوم على من سواه من أبناء العترة الطاهرة.

ولقد بلغ الأمر بالخطباء من آل البيت أن يصلوا حدّ تقريع الكوفيين، فترددت كلمة (تبّاً لكم) في معظم كلماتهم[٥١]. واستعاضت عنها السيدة زينب عليها السلام بالتعبير القرآني «تبّت الأيدي»[٥٢] متوصلة بذلك إلى أقصى التقريع، لأن إسناد الفعل (تبّت) إلى (الأيدي) دون إضافتها إليهم إنما تفتح الباب على مصارعيه لصبّ جام غضبها على كلّ جارحة من جوارحهم. ولقد عبّرت السيدة عليها السلام عن نقمتها هذه بأساليب مختلفة؛ دعاء: «ساخطاً»، «فلا رقأت العبرة ولا هدأت الزفرة»[٥٣]، وتبكيتاً لضمائرهم «ألا بئس ما قدّمت لكم أنفسكم»[٥٤] مستخدمة التوكيد «تعساً تعساً ونكساً نكساً»[٥٥] لتبلغ بتلك النقمة أشدّها.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأمور لم تُسَق في هذه الخطب للتنفيس فحسب، ولكنها سيقت لوظيفة محددة. فلو أن الكوفيين كانوا مصرِّين على غيّهم من

«الصلف والعجب والشنف والكذب»[٥٦] كما هي حال يزيد، لما رأى آل البيت حاجة إلى مثل هذا الكلام. والحقيقة أن الكوفيين وبعد أن «خسرت الصفقة» تنبّهوا إلى جسامة ما اقترفوه؛ فرقّت قلوبهم حتّى وجدنا شيخاً من شيوخهم تخضلّ لحيته بالدموع بعد أن استمع إلى خطبة السيدة زينبعليها السلام [٥٧]، وسمعنا أصوات الناس قد ارتفعت بالبكاء عند كلام زين العابدينعليه السلام [٥٨] وبعد خطبة فاطمة الصغرى [٥٩]، وضجّ الناس بالبكاء والنوح، ونشر النساء شعورهن وحثَونَ التراب على رؤوسهنّ وخمشنَ وجوههنّ.. وبكى الرجال ونتفوا لحاهم بُعيد خطبة أمّ كلثوم [٦٠].

ولئن دلّ هذا على شيء إنما يدلّ على أن آل البيت قد آنسوا شيئاً من التحوّل الإيجابي في نفوس الكوفيين فتوجّهوا إليهم بالتقريع لعلّه ينفع في حثّهم على الجهاد الحقيقي.

وحين وصل الموكب الحزين إلى دمشق وقفت السيدة زينبعليها السلام أمام يزيد متحدّثة، فغابت صورة الكوفيين تماماً لتحلّ محلّها صورة المسؤول الأساس عما حدث، يزيد: «وكيف ترتجى مراقبة من لفظ فوهُ أكبار الأزكياء، ونبت لحمه من دماء الشهداء، وكيف لا نُستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن والإحن والأضغان»[٦١].

وحين تستعير السيدةعليها السلام ليزيدَ فاه جدّته إنما تقدّمه حاملاً لإرث تلك الجدّة في الحقد على الإسلام. ولقد أوضحت السيدة ذلك الحقد من خلال حشد أهمّ المفردات التي وضعتها العربية للتعبير عن أنواعه ودرجاته: (الشنف، والشنآن، والإحن، والأضغان). ولم تكتفِ بتقديمه في الموقعية السلاليّة الحاقدة على الإسلام، بل عمدت إلى تقديمه ثمرة غير مباركة للتاريخ الأموي ودوره في سفك دماء الشهداء: «ونبت لحمه من دماء الشهداء».

إن إسناد الفعل (نبت) إلى الفاعل (لحمه) أكسب هذا الفاعل هويّة الشجرة الغريبة التي لا تُسقى بالماء، لأن تعدية هذا الفعل إلى (دماء الشهداء) من خلال حرف الجر (من) أعطى الدماء هوية الريّ الغريب الذي يسقي تلك الشجرة. ويخرج كلّ ذلك بلحم يزيد ليجعله الإرث الأموي المتحدّر عبر سواقي دماء الشهداء جيلاً بعد جيل. وإذا ما وضع التركيب شخصية يزيد في موضع ضدّي مع دماء الشهداء،

يعني أنه قدّمها بذرةً للشر. وشتّان ما بين بذرة الشر المتجلّية في يزيد، وروح (الختل والغدر والخذل) التي رأتها في الكوفيين.

وإذا ما تحدّثت في الكوفة وسط مناخ من الندم الذي عرا الكوفيين؛ فقد تحدّثت في دمشق في ظل مناخٍ من الصلف والتجبّر والكبرياء عند يزيد لا لتؤثر عليه وتحوّله عن موقفه، ولكن لتقول كلمتها بشجاعة، وتعلن انتصار آل البيت عليه: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تُساق الأسارى أنّ بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده؟! فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حيث رأيت الدنيا لك مستوثقة والأمور متّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلا»(٦٢) ظنُّه في غير م.حله، وذلك لسوء فهمه لحقائق الأمور وأسرارها.

ويزيد هو من ارتكب جريمة كربلاء النكراء بكل أبعادها في نظر السيدة عليها السلام مستبعدة الكوفيين عن دائرة الضوء هذه المرّة: «نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإراقتك دماء ذرّية محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ونجوم الأرض من آل عبد المطلب»(٦٣) مضيفة الإراقة إلى ضمير المخاطب يزيد، معدّيةً المصدر المضاف إلى (دماء ذرّية محمّد صلى الله عليه وآله وسلم) قصد الإشارة إلى أن استئصال الشأفة المحمّدية الإسلامية مستهدف من قبل يزيد من خلال تلك الإراقة. وتغييب الكوفيين ليس تبرئةً لهم، ولكنه بسبب التركيز على الأهداف الأساس التي أُريقت الدماء الزكية لأجلها، وهي استئصال شأفة طالما حقد عليها الأمويون ومنهم يزيد، سواء أتعلّق الأمر بشقّها النبوّي الإسلامي أم بشقها الهاشمي العائلي؟

وتحمّله مسؤوليّة أخرى: «وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هُتكت ستورهنّ، وأُبديت وجوههنّ، تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفن أهل المناهل والمناقل، ويتصفّح وجوههنّ القريب والبعيد والدني والشريف، ليس معهنّ من رجالهن ولي ولا من حماتهن حمي»(٦٤) مشيرة إلى جريمة إضافية تكاد توازي جريمة إراقة الدماء بحجمها. كيف لا، وبنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُسبين؟

ولا يعني ذلك نصراً ليزيد. فرؤية السيدة عليها السلام لنتائج ليست كما يتصور هو، واجهته قائلة: «كد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك. فو الله لا تمحو ذكرنا، ولا

تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها»[٦٥]. فإذا بها تحدّد أهداف يزيد من واقعة كربلاء بقدر ما تعلن فشله وانتصار المقتول على القاتل. فالأمور التي تقضّ مضجعه: ذكر آل البيت، والوحي الذي نزل في أبياتهم، وكرامتهم عند الله، والتي استهدفها بقتل الحسينعليه‌السلام، لم يفشل في تحقيقها فحسب، ولكنه ابتُلي بعارٍ لا يستطيع غسله مهما فعل أيضاً.

ولا تقف السيدةعليها‌السلام عند هذا الحدّ، ولكنها تستمرّ في توهين أمر عدوّها: «وهل رأيك إلّا فند، وأيامك إلّا عدد، وجمعك إلّا بدد؟»[٦٦] واضعة كلّ إنجازاته على مرآة الموت الذي سيجرده منها جميعاً فيبدو سلطانه علامة وهن خصوصاً وأنه لا يقوم على مرضاة الله.

وإذا ما اطمأنت إلى أنها قد أرته انتصاره فشلاً، أعلنت انتصارها عليه: «الحمد لله رب العالمين الذي ختم لأوّلنا بالسعادة والمغفرة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة»[٦٧]. حيث يومئ (حمد الله) إلى أعلى درجات الثقة بالنفس. فالشهادة والرحمة مثار للعزة والفخار قبالة من يتمنى الشلل والبكم لكي لا يكون قد قال ما قال وفعل ما فعل.

يبقى أن خطباء آل البيت قد رأوا الواقعة والكوفيين ويزيد على مرآة الإسلام بشكل عام. ولا يعني ذلك أنهم قدّموا صورة واحدة عما تناولوه بحديثهم. فلكل خطيب منهم موقعه الديني والقيادي الذي أعطى رؤيته خصوصية تميّزها عن رؤية سواه.

وإذا تراءى الحادث كما رأيناه عند خطباء آل البيت، تتحدّد معالمه في ضوء الخطيب مرّة: زين العابدين أو السيدة زينب أو السيدة فاطمة الصغرى، أو أمّ كلثوم وفي ضوء المخاطب مرّة أخرى: الكوفيين أو يزيد. فكيف سيتراءى عند التوّابين؟ وما هي الأمور الأخرى التي استرعت انتباههم؟.

حاول المسيّب بن نجبة الفزاري أن يرسم صورة للكوفيين في أثناء اجتماع التوّابين للتداول في أمر الثأر للحسينعليه‌السلام: «كنّا مغرمين بتزكية النفس، وتقريظ شيعتنا، حتّى بلا الله أخيارنا، فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابن ابنة نبيناصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم. وقد بلغتنا كتبه، وقدمت علينا رسله، وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً

وبدءاً، وعلانية وسراً فبخلنا بأنفسنا، حتّى قُتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا عنه بألسنتنا، ولا قوّيناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا»(٦٨).

عدّى الخطيب فعل (غرام الكوفيين) إلى أمرين بواسطة حرف الجر الباء: (تزكية النفس) و (تقريظ شيعتهم). يعني أنّ إقبالهم على هذين الأمرين قد تعدّى حدود العلاقة العادية ليصبح شغلهم الشاغل وموضع اهتمامهم، لأنه قد تجاوز دائرة الاقتناع إلى دائرة الميل النفسي. فهل ستعطي هذه العلاقة أُكُلَها؟ وهل وصلوا بتزكية أنفسهم درجة بيعها الله؟ وهل بلغ بهم تقريظهم لشيعتهم درجة الشهادة؟

ما حصل يدلُّ على فشلهم إزاء التجربة. وفي محاولة منه لمحاسبة النفس قال: «وبلغتنا كتبه وقدمت علينا رسله، وأعذر الينا يسألنا نصره»(٦٩). وأوّل ما يلفت انتباهنا في هذا الكلام أن المسيّب قد ذكر كتب الإمام إليهم ولم يذكر كتبهم إليه ووعدهم إياه بالنصرة. يحمّل نفسه المسؤوليّة بحدود التزامه بالتشيّع، فيكون التقصير، من وجهة نظره، محصوراً بعدم نصرهم إياه بأيديهم، ومجادلتهم عنه بألسنتهم، وتقويتهم إياه بأموالهم وعشائرهم، أي بعدم إمدادهم إياه بأي شكل من أشكال الدعم أو العون.

وإذا أراد أن يسمّى حقيقة هذا الموقف، استخدم كلمتي (الكذب) و (البخل). ولئن ألمحت الكلمة الأولى إلى الغدر، فإنها لم تسمّه باسمه وأبقته احتمالاً غير مؤكد. ولا تشكّل الكلمة الثانية توغلاً أشد في القساوة من (الكذب). فهي وإن احتملت الخذل في تضاعيفها إلا أنها لا تحتمل الكلمات التي أطلقتها السيدة زينب عليها السلام على الكوفيين: الختل والغدر والمخادعة. يعني أن المسيّب لم يستطع أن يصل بنفسه وبالكوفيين إلى الصورة التي قدّمها آل البيت عليهم السلام عنهم. فهي صورة مخفّفة للخطأ تحمل في طياتها دعوة إلى النهوض والثأر.

أما سليمان بن صرد فيقول: «إنّا كنّا نمدّ أعناقنا إلى قدوم آل نبينا، ونمنّيهم بالنصر، ونحثُّهم على القدوم، فلما قدموا وَنَيْنا وعجزنا وأدْهَنّا وتربَّصنا وانتظرنا ما يكون حتّى قُتل فينا... إذ جعل يستصرخ النَّصَفَ فلا يعطاه... ألا انهضوا فقد سخط ربكم... والله ما أظنّه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تبيروا»(٧٠).

إنّه يُشير إلى مسألة أغفلها المسيّب، وهي حقيقة دعوتهم الحسين عليه السلام

للقدوم. أن يمدوا أعناقهم إلى قدوم آل نبيهم كناية عن شوقهم الشديد إليهم وتمسّكهم القوي بهم. وهذا ما أدّى إلى أن منّوهم بالنصر وحثّوهم على القدوم إلى الكوفة. وحين يواجه سليمان بن صرد إخوانه الكوفيين بهذه المعلومات فإنه لا يقدّم لهم معلومات يجهلونها، ولكنه يريد النفاذ من خلال كلامه هذا إلى الاعتراف، باسمهم، بالخطأ الكبير، خصوصاً وإنه يلجأ إلى الحجّة، يعرض القول ثمّ يقارنه بالفعل (فلما قدموا ونَيْنا)، لكي لا يكون ثمة مجال للنقاش. حتّى لكأنه يقول: أفحمنا الحادث ولا نملك ما ندافع به عن أنفسنا، نفاذاً من كلّ ذلك إلى تقريع الأنفس وحثّها على الجهاد. ولكن بم وصف هذا الخطأ؟: «ونَينا وعجزْنا، وأدْهَنّا، وتربصنا وانتظرنا ما يكون». حيث نجد كلمتين مترادفتين تقريباً في البداية (ونَينا) و (عجزْنا) وهما لا تدلّان على أن التقصير قد جرى بسبب الوني والعجز الموجودين، ولكنهما تدلّان على أن الكوفيين قد اصطنعوهما اصطناعاً. وهذا ما ينفي العذر عن التقصير.

ونجد كلمتين أخريين مترادفتين تقريباً (تربَّصنا) و (انتظرنا) وهما تشيران إلى الحيادية التي اصطنعها الكوفيون حيال الحادث طلباً لحفظ رؤوسهم. وتتوسط الكلمات الأربع كلمة (أدهنّا) التي تختزن الخبث الذي يتدخّل في توجيه دلالة تلك الكلمات ودفعها تجاه مزيد من السلبية ملمّحة إلى الختل والغدر والمخادعة وإن لم تسمّ هذه المعاني بأسمائها. وسليمان بن صرد وإن تقدّم المسيّب في اتهام نفسه واتهام الكوفيين إلا أنه لم يصل إلى ما وجّهه إليهم آل البيتعليهم السلام.

حاول الكوفيون أن يقدّموا صورة مخفّفة نسبياً عن خطأهم وإن رأوا أنهم قد اقترفوا «الذنب العظيم»[٧١] مستقلّين قتل النفس في سبيل الخروج منه لو كان قتل النفس محلّلاً[٧٢].

وحاول التوّابون مراقبة ما جرى في ضوء الإسلام فرأى عبيدالله بن عبدالله أن الذين ارتكبوا القتل «لم يراقبوا فيه ربّهم ولا قرابته من الرسول»[٧٣]. ولم يحمّل مسؤوليّة هذا السلوك غير الإسلامي الأمويين وحدهم، لأن «الله لم يجعل لقاتله حجّة، ولا لخاذله عذراً»[٧٤] مفرّقاً بين القاتل والخاذل، محمِّلاً كلّاً منهما ما يجب أن يتحمَّله.

وتضيق هذه المسافة عند رفاعة بن شداد عندما يسمّي موقف الكوفيين إزاء الحادث (الذنبَ العظيم). ولا توضّح هذه التسمية عمق العلاقة التي تربط الحسين بالله وقوتها فحسب، ولكنها تقدّم الحادث بصفة تفوق كلّ تصوّر، وتقدّم الكوفيين طرداء الله على أرضه، فكيف يكون الأمر بمقترفها من الأمويين. ويترك سليمان بن صرد الباب مفتوحاً على غير احتمال: «ألا انهضوا فقد سخط الله... والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تبيروا»(٧٥).

ولئن اختزن هذا الكلام بعداً تحريضياً تثويرياً يتوخّى دفع الكوفيين إلى القتال ثأراً للحسين عليه السلام إلا أن إسناد الفعل (سخط) إلى (الله) دون تعديته إلى موضوع لذلك السخط يضع الكوفيين على قدم المساواة مع الأمويين في موقف الله منهما. وهذه المساواة عامل تثويري يضع التوّابين أمام تحدّي تمييز الذات عن الأمويين وتحدّي دفع سخط الله عنهم، خصوصاً وأن (قد) التي تلعب دوراً تحقيقياً للفعل رسّخت ذلك السخط في أذهانهم.

وميّز التوّابون أنفسهم عن قتله آل البيت. ويعني هذا التمييز نظرة محددة إلى القتلة، فما هي؟

استخدم التوّابون في وصف يزيد وابن زياد والموالين لهما ألفاظاً عديدة أهمّها: المحلّون، والمارقون، والفاسقون، والقاسطون. وتحدّد هذه الألفاظ موقع هؤلاء القوم من الدين إمّا تجاوزاً لحدوده، وإمّا عصياناً لأمر الله، وإمّا جوراً عن خطّ العدالة المستقيم. وهي كلمات لا تقفل الباب تماماً أمام هؤلاء القوم، بل تبقي خيط أملٍ، ولو كان دقيقاً جداً، يربطهم بالدين. فهل كان هذا حقيقة رأي الكوفيين بيزيد ورجاله؟

عندما سمّى عبيدالله بن عبدالله قتالهم جهاداً في قوله: «إنّا ندعوكم... إلى جهاد المحلّين والمارقين»(٧٦). إنما أسبغ على ذلك القتال صفة القداسة التي ستسبغ بدورها بعداً عدائياً للإسلام على المحلّين المارقين. ولا يعني استخدام المسيّب بن نجبة كلمة (قاتل) في وصفهم تخفيفاً عنهم: «وقد قُتل فينا ولدُه وحبيبه وذريته ونسله، لا والله، لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه... فعسى ربّنا أن يرضى عنا عند ذلك»(٧٧)؛ لأنه وإن تبادر إلى الذهن بأن هذه التسمية تسمية

حيادية موضوعية، إلّا أنها سرعان ما تستخلص حقيقتها الدلاليّة من مختلف أجزاء التركيب. وقوله «فعسى ربّنا أن يرضى عنّا» إنما يقدّمهم مذنبين ذلك الذنب الذي قد يكون خارج دائرة الذنوب التي يغتفرها الله. وحين يربط إمكانية الغفران بقتل قاتل الحسين عليه السلام إنما يعود ليضيء كلمة (قاتل) التي تبدّت لأول وهلة مخففة. فإذا كان قتل القاتل قد لا يرضي الله تعالى ولا يشكّل كفارة عما اقترفه الكوفيون وهو دون القتل، فما هي وضعية القاتل عند الله؟ إنها وضعية غير قابلة للتصوّر تذهب بالخيال كلّ مذهب.

بات التوّابون أسيري عقدة الذنب إذاً، فبأي اتجاه سيندفعون؟ وهل سينصب سخطهم على الدنيا وعلى التمسك بأهدابها؟ هل سيتّخذون قرار الموت؟ بادر المسيّب بن نجبة إلى رسم الطريق الذي يجب أن يسلكه التوّابون: «لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تُقتلوا في طلب ذلك»[٧٨]. إنها الدّعوة إلى الجهاد يعلنها الخطيب دون أن يكون مهتماً بأبعادها السياسية. كلّ ما في الأمر أن إحساساً بغضب الله قد انتابهم، وعليهم أن يحاولوا كسب مرضاته (فعسى ربّنا أن يرضى عنّا). وإذا تطلّب الجهاد قائداً طلب المسيّب: «أيها القوم ولّوا عليكم رجلاً منكم»[٧٩] محدّداً الأولويات المطلوبة: الجهاد وقائد مسيرة ذلك الجهاد.

وكان أن أمّروا سليمان بن صرد الذي اتّخذ قرار الموت: «ألا انهضوا فقد سخط ربّكم، لا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتّى يرضى الله، ما أظنّه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تبيروا»[٨٠].

والذي يلفت الانتباه في هذا الكلام أن القائد قد وضع قرار الموت في موقع ضدّي مع الدنيا «لا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتّى يرضى الله» ولن يرضى إلّا «أن تناجزوا من قتله أو تبيروا». ويشكّل الانتصار على الدنيا انتقاماً منها، لأنها حالت بينهم وبين نصرة ابن بنت نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم.

وتأتي استجابة خالد بن سعيد بن نفيل نموذجية على هذا القرار: «إن كلّ ما أصبحت أملكه، سوى سلاحي الذي أُقاتل به عدوّي، صدقةٌ على المسلمين أُقويهم به على قتال القاسطين»[٨١]. وتحويل كلّ ما يملكه، سوى سلاحه، إلى صدقة يعني قطع كل صلة له بالدنيا، واندفاعةً لا هوادة فيها تجاه الموت، حتّى لكأن الدنيا منافية

لمرضاة الله.

ولعل من رسم الطريق بهدوء وقدّمه هادفاً يرمي إلى تحقيق الأهداف التي استشهد دونها الحسين عليه السلام هو عبيدالله بن عبدالله: «إنّا ندعوكم... إلى جهاد المحلّين والمارقين، فإن قُتلنا فما عند الله خيرٌ للأبرار، وإن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبيّنا» (٨٢). لم تعُد القضية عنده ردّاً عفوياً ينحو منحىً ثأرياً، بل صارت مشروعاً سياسياً. والذي جعل رؤية عبيدالله أكثر وضوحاً هو أنه لم يكن كوفياً. كان الكوفيون مغرمين بتزكية أنفسهم، وتقريظ شيعتهم حتّى بلا الله أخيارهم، فكانت النتيجة تخاذلاً سبّب لهم عقدة ذنب لم يعرفها الشيعة من غير الكوفيين. ففي المدائن كانوا «مجمعين مزمعين على نصر الحسين... والله مثيب [هم] على حسن النية» (٨٣). وإذا عاش الكوفيون أزمة عقدة الذنب فإنه لم يعشها الشيعة الآخرون وكانوا قادرين على وعي الأبعاد السياسية لعملهم الجهادي.

ومهما يكن من أمر، فإن خطابة آل البيت قد فعلت فعلها ونجحت في تسعير عقدة الذنب الكوفية وتحويلها إلى فعل جهادي. فانتقلوا من خاذلين متخاذلين إلى توّابين عازفين عن الدنيا مقبلين على الموت. واستطاعت خطابتهم في الشام أن تنغّص على يزيد نشوة انتصاره وأن تحوّله إلى أسير جريمته.

ولم يقلّ دور خطابة التوّابين نجاحاً عن خطابة آل البيت. فقد استطاعوا أن ينتصروا على ذواتهم وعلى الدنيا وأن يتّخذوا القرار الصعب، قرار الموت أو قتل القتلة.

ثانياً: اللغة الخطابية بين آل البيت والتوّابين

اكتشف الرمّاني، ومنذ القرن الرابع للهجرة، الإمكانات التي يختزنها التركيب فقال: «إن دلالة الأسماء والصفات [أي الكلمات] متناهية، أمّا دلالة التأليف فلا نهاية لها» (٨٤)، محدداً من خلال هذا الفهم كيف تكون الكتابة ناجحة تتصف بالإبداع، وكيف لا تكون.

إنَّ لا نهائية الدلالة التي يقدّمها التأليف تضعنا أمام إمكانية مفتوحة للإنتاج أبكار الدلالات وتوجب علينا ألّا نكرر ما قلناه، أو ما قاله سوانا. فالمتسع الذي تتيحه

آليّة التركيب متوفّر للجميع، خصوصاً إذا أدركنا أن تعديل وضعية كلمات التركيب نفسه تقديماً أو تأخيراً، تعريفاً أو تنكيراً يجرّ إلى تعديل واضح ودقيق في الدلالة [٨٥]. وإذا أضفنا إلى هذا الأمر أن مفردات اللغة التي تشكّل بطبيعتها عناوين شديدة العمومية لأشياء الوجود وهي في موقع ضدّي مع حاجاتنا التعبيرية حيث كل شيء نسبيّ وشديد الخصوصية؛ لمسنا بدقةٍ البعد الإبداعي في الكتابة. فالإنسان الذي يواجه أمور الحياة وقضاياها بشكل حيادي غير موجود.

تتم قراءاتنا للحادث أو لأشياء العالم من خلال شبكة معقدة لعلّ أهمّ أمرين فيها هما: الثقافة والموقف، وقلما نرى الوجود من خارج هذين العاملين. فالثقافة هي كلّ ما حصّله الإنسان من المعرفة وتقنياتها وأدواتها، والموقف هو تلك القناعات التي ترسّخت في نفسه بناءً على ثقافته الخاصّة ومنطقه الخاص. وحين يكون الأمر على هذه الشاكلة فلابدّ من أن يرى كلّ منّا أبعاداً خاصة من الحادث أو من أشياء الوجود لا يستطيع الآخرون أن يروها. يعني أن «تنتمي أشياء الوجود عنده إلى عالمه الخاص وتستقي منه دلالاتها» [٨٦].

وتكمن قدرة المبدع في استخدام اللغة استخداماً يمكّنه من تقديم تلك الأبعاد الخاصّة التي رآها. وبناءً على ذلك، فاللغة بدلالة مفرداتها هي حركة مستمرة لا تعرف الانقطاع، وهي موازية لحركة الإنسان ونموه النفسي والخلقي والاجتماعي والاقتصادي والمعرفي. يعني أنها مرتبطة بقدرتنا على اكتشاف أبعاد جديدة لأشياء العالم. حيث نجد الكلمات (العناوين) غير قادرة على التعبير عن خصوصية ما رأيناه، ولابدّ من أن نلجأ إلى ما أوجدته اللغة نفسها لتعويض هذا القصور. عنيت بذلك الاستعارة والتشبيه والمبالغة والطباق وغير ذلك.

ونحن في كربلاء أمام حادث فريد له خصوصيته الواضحة بكل جزئياته وعناصره البشرية والنفسية والسياسية والدينية. فهل استطاع الخطباء من آل البيت والتوّابين، أن يعبّروا عن هذه الخصوصية؟ وهل كانت تسميتهم لمختلف عناصر هذا الحادث منتمية إلى ثقافتهم وموقفهم، وإلى خصوصية ذلك الحادث؟

لغة آل البيت الخطابية

كان لخطابة آل البيت معجم خاص بها، استقطب المفردات اللغوية المتعلّقة بخصوصية واقعة كربلاء من جهة[٨٧] وبخصوصية الأطراف المرتبطة بهذا الحادث سلباً[٨٨]، أم إيجاباً[٨٩] من جهة أخرى، فكان معجماً دالّاً على مدى الإبداع الذي يتمتع به هؤلاء الخطباء. فهل سيكون التركيب اللغوي موازياً لذلك المعجم من الناحية الإبداعية؟

من يتصفّح النصوص الخطابية التي تحدّث بها آل البيت بُعيد الواقعة؛ يجد نفسه أمام لغة خاصة لها مقوماتها سواء أتعلق الأمر باستنطاقهم المشاهد للتعبير عن مشاهداتهم، أم بإعادة شحن الكلمات بدلالات جديدة خاصة، أم بتحميلها مهمة التعبير عن نظرتين متناقضتين:

أولاً: استنطاق المشاهد

حاول هؤلاء الخطباء من خلال تقديم بعض المشاهد أن ينفذوا إلى التعبير عن نظرتهم إلى بعض عناصر الحادث الكربلائي: خاطبت السيدة زينب عليها السلام الكوفيين قائلة: ﴿لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السماوات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّاً﴾[٩٠] فلم تكتف بوصف عملهم بالشيء الإدّ (الفظيع)؛ لأن ذلك يدرجه بين أمور فظيعة كثيرة. وتسمية الحادث بهذه الطريقة هي مجرد تقديم عنوان عام لا يضعنا أمام حرارة التفاصيل أو خصوصية ما جرى. ويأتي الفعل الناقص (تكاد) لتجعلنا المقاربة التي ينطوي عليها نترقّب مقدار فظاعة ذلك الحادث من خلال الخطورة التي كان يمكن أن نواجهها لو أن تلك الفظاعة كانت أكثر من ذلك بقليل.

فالمسألة غير قابلة للحصر أو التقدير، لأنَّ تفطُّر السماء وانشقاق الأرض وانهداد الجبال ليست من الأمور التي يصادفها الجيل أو مما يحدث كلّ عدّة أجيال. إنها غضب الله الكبير الذي أرادت الخطيبة أن ترينا على مرآة صورة كلٍّ من الكوفيين ويزيد التي رأتها لهم. ولا يقدم هذا المشهد صورة مَنْ غضب الله عليهم فحسب، ولكنه يقدّم صورة مَنْ غضب الله لأجلهم أيضاً. تلك الصورة التي تقارب

صور الأنبياء، الذين أباد الله لأجلهم الأمم والقرون الخالية.

وتقف بنا السيدةعليها السلام أمام مشهد آخر، وإن كان عند يزيد هذه المرّة: «فهذه الأيدي تنطف من دمائنا، والأفواه تتحلّب من لحومنا» [٩١].

يحمّل المجاز المرسل في التركيب الأوّل والثاني يزيد المسؤوليّة الكاملة عمّا حدث لآل البيت في كربلاء. والتركيبان تجاوزا العلاقة السببية ليقدّما لوحة ناطقة ببشاعة ما أقدم عليه يزيد. فهما كنايتان: تشير الأولى منهما إلى كثرة ما أريق من دماء آل البيت، وتبدّل الثانية هويّة الأمويين الموضوعية بهوية فنية موحية؛ هي هوية الكواسر. وتتعاون هاتان الكنايتان مع المجاز المرسل لتقدّم صورة مجزرة رهيبة، وجزّاراً من طراز فريد.

لعبت المشاهد التي رسمها الخطباء وظيفة بالغة الأهمية في خطاباتهم، لأنها استطاعت أن تقدّم لنا خصوصية بعض العناصر الكربلائية التي لا تستطيع اللغة العادية أن تسميها لنا سواء أتعلّق الأمر بوضعية الكوفيين في ضوء غضب الله، أم بوضعية يزيد في ضوء الأيدي التي تنطف دماً، والأفواه التي تتحلّب من لحوم آل البيت.

ثانياً: اعادة شحن الكلمات

هل نجح آل البيت في شحن الكلمات التي استخدموها في خطاباتهم بدلالات جديدة تعطيها أبعاداً خاصة بهم وبواقعة الطف؟

وصفت السيدةعليها السلام الكوفيين قائلة: «ملق الإماء، وغمز الأعداء» [٩٢].

تستدعي كلمة (إماء) نقيضها (الحرائر)؛ لأن الإضافة (ملق الإماء) إشارة إلى علاقة الأمَة بسيدها ووليّ نعمتها. فإذا تأسست علاقة الحرائر بالأزواج على قاعدة الاعتزاز بالانتماء والتكافؤ الاجتماعي، فإنّ علاقة الإماء بأسيادهنّ تأسست على قاعدة الذلّة والإحساس بالدونيّة. يضاف إلى ذلك أن الملق قائم على الافتعال لا على العفوية والاستجابة الطبيعية. ويرتب كلّ ذلك دلالة قائمة على المكر والختل والمخادعة. وإذا عرفنا أن السيدةعليها السلام تصف رجالاً بهذا النوع من الملق؛ أدركنا الوضعيّة السيئة التي قدّمهم التركيب من خلالها، خصوصاً إذا نظرنا إليها في ضوء

الحديث الشريف: «ليس من خُلق المؤمن الملق».

أمّا كلمة (غمز)، فإنها تشكّل إشارتين في إيماءة واحدة: الأولى إلى اعوجاج الآخر وخطئه، والثانية إلى ترفّع الغامز وتعاليه عن الخوض بالمغمز. وفي الحالين إيلام للآخر وإثارة لنقمته، وإذا اقترنت هذه الكلمة بالملق بواسطة حرف العطف، تبادلت معها الإضاءة والاستضاءة، وتزاوجت دلالتاهما، فتبدّت شخصية الكوفيين شخصية غريبة يصعب التعامل معها حتّى لكأنها الرمال المتحركة يُستدرج الحسين عليه السلام إلى الخوض فيها.

ومما يجدر ذكره أن وضعية الكوفيين التي قدمتها لغة السيدة زينب عليها السلام من خلال هذين التركيبين هي وضعية خاصة بهم وفي تجربة محدّدة. وهي لا تعني مختلف أجيال الكوفيين ولا أية جماعة كوفية ممن لا علاقة لهم بما جرى في كربلاء، إنها تخصّ أولئك الذين راسلوا الحسين عليه السلام ودعوه ثمّ خذلوه وقاتلوه. يعني أن كلمات النصّ (ملق / إماء / غمز / أعداء) بما أدّته من دور وبما حمّلها التركيب من دلالة قد باتت منتمية إلى هذا النصّ دون سواه.

ويتكيّف الفعل (رحض) مع خصوصية الذنب الكوفي في كلام السيدة نفسها عليها السلام: «أبليتم بعارِها، ومنيتم بشنارها، ولن ترحضوها أبداً، وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوّة ومعدن الرسالة»[٩٣]. لقد أسندته إلى الكوفيين وعدّته إلى الجريمة التي اقترفوها، فأعطت الذنب هوية الوسخ، والتخلّص منه هوية الاغتسال. ويشكّل الاغتسال تعبيراً أكيداً عن الرغبة في التخلّص من الوسخ. وهو عمليّة سهلة يمارسها جميع الناس، ولأنها كذلك استعارتها السيدة عليها السلام للتعبير عن رغبة الكوفيين في التخلص من الذنب، ولتضعهم بين ما يتمنّونه من (سهولة التخلّص) ويفكرون فيه من (الرحض)؛ وبين استحالة تحقيقه (أنّى ترحضون؟). فالاستفهام الإنكاري المتلبّس بهذه الاستعارة تعدّى الإنكار إلى الاستحالة؛ لأن ما يرغبون رحضه غير قابل للرحض (قتل سليل خاتم النبوّة). ولقد سبق هذا الاستفهام الإنكاريّ نفيٌ لهذا الفعل (لن ترحضوها) بعد توضيح لهوية ما يراد غسله (أبليتم بعارها ومنيتم بشنارها). فلا يكمن هذا الوسخ فوق جلود الكوفيين ولكنه يمازج أرواحهم حتّى صار ميسماً لها وعلامة تُعرف بها وجزءاً من هويتها. وهذا ما جعل

الفعل (رحض) محمَّلاً بالقلق الذي انتاب الكوفيين إزاء ذنبهم، والغصّة الّتي يتجرّعون حرقها، وعقدة الذنب التي حوّلت حياتهم مرارة وجحيماً. كيف لا؟ وهي لم تكتفِ بإضافة كلمة (قتل) إلى (سليل خاتم النبوّة ومعدن الرسالة) فحسب، ولكنها أضافتها إلى كلّ الاسماء التي تعبّر عن الحسين عليه السلام. فهو سيد شباب أهل الجنّة، وملاذ حربهم، ومعاذ حزبهم، ومقرّ سلمهم، وأسى كلمهم، ومفزع نازلتهم، والمرجع إليه عند مقاتلتهم، ومدرة حججهم، ومنار محجتهم. وبقدر ما تتراكم هذه الصفات النوعية معبّرةً عن حقيقة الحسين عليه السلام المقدّسة يُشحن هذا الفعل بمعاني الصعوبة والاستحالة؛ حتّى نشعر كأنه يُستعمل لأوّل مرّة في اللغة العربية.

وتأخذ كلمة (مدرة) مثل هذا البعد في وصف الإمام الحسين عليه السلام «مدرة حججكم». لأن إضافة (مدرة) إلى (حججكم) إنما أبدلت هوية الحجّة الموضوعية بهوية فنّية هي هوية المدر أي (الطين). ولم يجرِ هذا الإبدال بشكل عبثيٍّ ولكنه وُظّف توظيفاً دلالياً محكماً. فمدر الحوض يجعله محكماً ويمنع تسرّب الماء منه، وكذلك الحجّة المأخوذة من مدرة الإمام الحسين عليه السلام حجّة قائمة على الإحكام والدقّة. وتضيء الحجّة المدرة مثل ما أضاءتها. فلا تحتفظ المدرة بهويتها الموضوعية بل تستبدلها بهوية فنّية هي علوم الحسين عليه السلام ومعارفه التي تكسبها المدرة صفة الاتساع والعمق وعدم النفاد.

ولا تسمّي زينب عليها السلام الحسين عليه السلام «مدرة حجج» الناس إلّا لأنّها مقتنعة بأنه وريث علم الرسول صلى الله عليه وآله. فهي تسمية شديدة الخصوصية أكسبت كلمة (مدرة) دلالة خاصة لا نجدها لها خارج هذا النصّ، خصوصاً إذا أدركنا دور الحجة الكبير في الجدل الذي كان دائراً في حياة المسلمين الدينيّة والسياسيّة في تلك الحقبة.

وتتصف كلمة (لتوَدّنّ) التي وجّهتها السيدة زينب عليها السلام إلى يزيد بمثل هذه الخصوصيّة، قالت له: «فلتردنّ وشيكاً موردهم ولتودّن أنك شللت وبكمت، ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت» (٩٤)، معدّية الفعل (لتودّن) إلى مفعولين هما: اسم أنّ وخبرها، وحين يتعدّى هذا الفعل إلى الفعلين الواقعين في محل نصب مفعول به ثانٍ (شللت) و (بكمت) إنما يحيلهما من دلالتهما السلبية المخيفة (الشلل والبكم) إلى دلالة محببة إيجابية. وحين يصير الشلل والبكم أمرين مرغوبين يعني أننا أمام

قول وفعل ليزيد ينطويان على ذنب لا يمكننا تصوّر حجمه. ويعود كلّ ذلك ليضيء الفعل (لتودّنّ) إضاءة جديدة، فلا يبقى قائماً على الراحة النفسية، بل ينتفي منه كلّ بعد إيجابي. أن يودّ المرء ما لا يودّ يعني أن الوداد قد دخل مناخاً مرضيّاً يقدّم يزيد في أقصى درجات الوهن والضعف.

ويدخل في هذا السياق موقف السيدة زينبعليها السلام من (مخاطبة) يزيد: «لئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك. إنّي لاستصغر قدرك واستعظم تقريعك، واستكثر توبيخك»[٩٥].

تنتمي كلمة (مخاطبتك) في هذا النصّ إلى خصوصية الموقف النفسي الزينبي من يزيد، فإسناد الفعل (جرّت) إلى (الدواهي) وتعديته إلى (مخاطبتك)، إنّما يقدّم تلك المخاطبة مخاطبة خاصة لا يمكن أن نجدها خارج هذا التركيب، لأن ارتباط المخاطبة بالدواهي جلعها مخاطبة بالغة الصعوبة حتّى لتكاد تساوي ما تخشاه السيدةعليها السلام وهي لا تخشى الموت. والسبب في ذلك أن السيدة تستصغر قدر يزيد وتستعظم تقريعه وتستكثر توبيخه. وهذا ما يجعلنا نحسّ وكأننا نسمع هذه الكلمة لأوّل مرّة.

يتبيّن مما تقدّم أن آل البيت، ومن موقع البداهة التي واجهوا بها الحادث الكربلائي، كانوا مخلصين للكلمة، بقدر إخلاصهم لأنفسهم ولدينهم؛ فجاءت مخلّصة مما حمّلته إياها التجربة الإبداعية قبلهم ليعاد شحنها بما يتناسب وثقافتهم وموقفهم ورؤيتهم.

ثالثاً: كلمات اللغة أمام دلالتين متناقضتين

تشير نصوص آل البيت الخطابية إلى وجود لغتين: لغتهم، ولغة الأخرين. ويتجلّى هذا الأمر من خلال المفردات التي وضعتها هذه النصوص أمام رؤيتين متناقضتين. حيث ينشقّ الفعل (ابتلى) في كلام فاطمة الصغرىعليها السلام: «إنّا أهل بيت ابتلانا الله بكم وابتلاكم بنا فجعل بلاءنا حسناً»[٩٦] إلى بعدين دلاليين مختلفين من خلال تعديته إلى آل البيت في مواجهة الكوفيين مرّة، وتعديته إلى الكوفيين في مواجهة آل البيت مرّة أخرى. حتى لنحسَّ أن جدلاً يدور داخل دلالة هذا الفعل. إنه

امتحان الطرفين. ولكن شتّان ما بين مضموني الامتحانين. ابتدأت السيدة فاطمة من الفعل نفسه (ابتلى)؛ لتبرهن على أن لغة آل البيت مناقضة للغة الكوفيين، مؤكّدة أن التمايز اللغوي قائم على تمايز نفسي وعقائدي يضعنا أمام جدل (المنصور / النصير) و (المقدم / الخاذل) و (الخاسر / الرابح) و (المنتصر / المهزوم)، نواجه سلّمين للقيم يستدعي كلّ واحد لغته الخاصّة به.

ونجد هذه الحقيقة عند زين العابدين عليه السلام: أنا ابن من انتُهك حريمه، وسُلب نعيمه، وانتُهب ماله، وسُبي عياله، أنا ابن من قُتل صبراً، فكفى بذلك فخراً» (٩٧)، حيث عدّل الافتخار دلالة الأفعال السلبية بأبعاد دلاليّة إيجابية. والذي أدّى إلى هذا التعديل نظرته المختلفة إلى الأفعال التي رآها وقد أكسبت آل البيت آجراً متناسباً بسموّه عكسياً مع مقدار بشاعتها. حوّلها الأجر إلى موضع فخر الإمام عليه السلام على عكس ما يراه يزيد برؤيته ولغته.

وتتجلّى قدرة رؤية الإمام على تحويل دلالة الكلمات إلى أضدادها في قوله: «خدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة وقاتلتموه وخذلتموه» (٩٨). فلو وُجد التركيب (أعطيتموه) مع ما تعدّى إليه من مفاعيل منفرداً لأدّى دلالة إيجابية. أما وقد عُطِفَ على (خدعتموه)، وأُسنِد مثله إلى الفاعل نفسه (أهل الكوفة) وتعدّى مثله إلى المفعول نفسه الإمام الحسين عليه السلام، صار امتداداً للخديعة متلبساً السلبية متخلياً عن كلّ بعد إيجابي.

وكذلك الفعلان: (قرّت) و (فرحت) في كلام السيدة فاطمة الصغرى عليها السلام: «قرّت بذلك عيونكم، وفرحت قلوبكم اجتراءً منكم على الله» (٩٩) نظرت إلى حالهم في ضوء مرضاة الله فوجدتها اجتراءً منهم عليه، فدفع هذا الاجتراء الفعلين لكي يتخلّيا عن مضمونهما الحقيقيين وما يستتبعه ذلك من راحة وطمأنينة ليتحوّلا إلى عهر نفسي يُخفي أبعاداً مأساوية تضجّ بالقلق ويعصرها الحزن، وتصبح بذلك قرارة العيون وفرح القلوب حالاً مَرَضِيَّةً لا دليل صحّة وعافية.

وتقرأ السيدة زينب عليها السلام جذل يزيد وسروره بلغتها قائلة: «فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً» (١٠٠). وهي حين تسوق ليزيد خيراً يعرفه، إنما تريد النفاذ إلى دلالة تكمن فيما وراء ذلك الخبر.

ينفي الفعل (ظننت) المسبوق بهمزة الاستفهام أن يكون على الله هوان بآل البيت وكرامة بيزيد. وحين ينتفي الظنّ الذي بنى يزيد شموخه وجذله وسروره عليه؛ تصبح هذه المشاعر مفرغة من مضمونها الحقيقي وتتحوّل إلى حال مرَضيّة تضع السيدة زينب في موضع الهازئة الساخرة. وهذا من أقوى المواقف التي يقفها أسير في مواجهة جلّاده.

وتأخذ القسمة بين اللغتين أبعاداً أخرى. فكما انشقّت الكلمة الواحدة إلى دلالتين مختلفتين، التقت الكلمتان المتناقضتان حول دلالة واحدة، تقول السيدة ليزيد «لئن اتخذتنا مغنماً لتجدنا وشيكاً مغرماً»(١٠١). فالمغنم في عين يزيد هو مغرم في عين آل البيت. والعكس بالعكس؛ لأننا أمام رؤيتين متناقضتين ننظر من خلالهما إلى هاتين الكلمتين اللتين أُلغيت ضدّيتهما. فالمغنم مغنم ومغرم، والمغرم مغرم ومغنم.

ونجد مثل هذا في قولهاعليها السلام ليزيد أيضاً: «ما فريت إلّا جلدك، ولا حززت إلّا لحمك»(١٠٢)، حيث يكون قتل الحسينعليه السلام فرياً لجلده وحزّاً للحمه في عين الدنيا، وفرياً لجلد عدوّه وحزاً للحم ذلك العدوّ في نظر الآخرة.

لقد وحّدت الرؤيتان المتناقضتان دلالة ما تناقض من الكلمات كما فرّقت دلالة ما ائتلف منها. ولنعد إلى النصوص نجد أن كلّ كلمة قد انقسمت على نفسها لتجرّ اللغة كلها إلى مثل ذلك الانقسام: النصر، الهزيمة، القتل، السبي، الانتهاك، الانتهاب، الجذل، السرور، الهوان، الكرامة، الصفاء. لكل واحدة دلالتان: واحدة تخص آل البيت وأخرى تخصّ الآخرين.

لقد استطاع آل البيت أن يعبِّروا عن نظرتهم إلى الخَطْب الذي ألمَّ بهم في كربلاء بلغةٍ تخصّهم. نطقت بثقافتهم وموقفهم وطبيعة التجربة التي خاضوها. إنها لغة شديدة الخصوصية. وفي ذلك تكمن قيمتها الفنّية الراقية.

لغة التوّابين الخطابية

التقى معجم التوّابين مع معجم آل البيت حول حقل الدِّين(١٠٣)، متدخّلاً مثله في توجيه دلالة سائر المفردات. وكان لهذا المعجم خصوصيته سواء أتعلّق الأمر

بانتشار كلمات حقل القوّة [١٠٤]، وما يعنيه من تمسّك بأهدابها خصوصاً بعد أن أفاق الندم من رقدته [١٠٥]، أم بانتشار كلمات حقل الدنيا التي طالما دفعتهم إلى ربقة ذلك الندم [١٠٦].

ويدلّ هذا المعجم على أمرين رئيسيين: حرارة الموقف الذي استدعى الكلمات التي تناسبه، وعقدة الذنب التي حكمت سلوكهم ولغتهم. تلك العقدة التي استقطبت مفردات خطاباتهم حول مناخها، فجاءت وفق دلالة تخصّهم بوصفهم جماعة ترى نفسها في صفّ آل البيت وقد دعت الحسين عليه السلام ثمّ خذلته حتّى قُتل مع جمع من أهل بيته ورجاله فاستُبيحت حرمته.

وهذه المفردات هي أشبه ما تكون بعناوين تعبّر عن همومهم الأساسية في تلك المرحلة: (التوبة، القائد، الذات، العدوّ، الدنيا، الآخرة، الحق، الجهاد، الشهادة، الحرب، الموت) وإن كنت سأقتصر من بينها على: الذات والتوبة والعدوّ لأنها قادرة على إعطائنا فكرة واضحة عن لغة التوّابين الخطابية في تلك المرحلة.

كان المطلوب، في بداية الأمر أن يعي التوّابون ذاتهم. وتجلّى هذا الوعي في حديث سليمان بن صرد: «من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة، فذلك منّا ونحن منه»[١٠٧] الذي اكتشف في أثناء بحثه عن مضمون الخروج (ذات) التوّابين. فليس المهم أن يكون خروجٌ، مع أهمّية الخروج بالنسبة إلى من تخاذل يوم الطف ولم يخرج، ولكن المهم أن تكون إرادة وجه الله وثواب الآخرة وراء ذلك الخروج.

لقد وضع الخطيب الخروج في آليّة الجدل الكبير الدائر فيما بين الدنيا والآخرة، حاسماً إياه لصالح الآخرة. ونلمح قبالة (أخرجته إرادة الله...) الضدّ (أخرجته إرادة الدنيا...). ولا يمكننا أن نفهم ما رمى إليه سليمان بن صرد إلّا من خلال تعريضه بالدّنيا مميّزاً من يكون من التوّابين عمّن لا يكون منهم، ونحسُّ وراء هذه القسمة عقدة الذنب التي أوقعتهم بها الدنيا. ويخصّ تعريفه هذا للذات التوّابية الكوفيين في ذروة الندم الذي عصف بهم بعد مقتل الحسين عليه السلام دون أية مرحلة أخرى. وإذا أرادوا لذواتهم أن تكون على هذه الحال، فكيف سيكون سلوكهم؟ تأتي (التوبة) على رأس المفردات التي تخصّ ذلك السلوك. فهل سيكون لهم توبتهم

الخاصّة، خصوصاً وإنهم قد استقوا اسمهم (صفتهم) منها؟

انتشرت الكلمة بشكل لافت في خطاباتهم. وأوّل من طالعنا بها رفاعة بن شداد في أثناء تعقيبه على المسيّب بن نجبة: «إن الله هداك لأصوب القول، ودعوت إلى أرشد الأمور... دعوت إلى جهاد الفاسقين، وإلى التوبة من الذنب العظيم» (١٠٨). يدلّ كلامه على أنه قد عنى بـ (أصوب القول) و (أرشد الأمور) (جهاد الفاسقين). وهو لم يُعدّ دعوة المسيّب إلى (جهاد الفاسقين) فقط، بل عدَّاها إلى (التوبة من الذنب العظيم) أيضاً. يعني أن التراكيب جميعها مترادفة تنطوي على حقيقة واحدة هي (السلوك المطلوب) من الكوفيين.

وإذا كان (الجهاد) من خلال صيغتي أفعل التفضيل: (أصوب) و (أرشد) هو الحقيقة الكبرى الباقية في حياتهم، كانت (التوبة) هي (جهاد الفاسقين) ولا شيء غيره. وهذه التوبة التي تلبّست بدلالة الجهاد وقرار الموت ليست أية توبة. إنها التوبة التي لا تنفي سلوكاً فحسب ولكنها التوبة (الكفّارة). وتعطي هذه الدلالة التوبة بعداً شديد الخصوصية لا يتعدّى نصوص التوّابين إلى غيرها.

ولا تقوم هذه التوبة عند عبيدالله بن عبدالله على طمأنينة المستريح إلى باب الله يدقّه ساعياً إلى عفوه إذ يقول: «فويل للقاتل، وملامة للخاذل. إن الله لم يجعل لقاتله حجّة، ولا لخاذله معذرة إلى أن يناصح لله في التوبة فيجاهد القاتلين وينابذ القاسطين، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقيل العثرة» (١٠٩). صحيح أنّه ميّز القاتل عن الخاذل، فأقفل باب العفو في وجه الأوّل وتركه مشرعاً أمام الثاني. إلّا أن ذلك بشروط. فلا معذرة للخاذل «إلّا أن يناصح لله في التوبة». ولا يعني ذلك أن الأمر قد هان، طالما أن باب التوبة مفتوح. الأمر غير ذلك، إذ لم يكتف الخطيب بخصوصية التوبة التي عرفناها عند رفاعة (التوبة / الجهاد) و (التوبة / الكفارة)، ولكنه أمعن أكثر فأكثر في تخصيصها: «فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقبل العثرة» فهذه التوبة، وإن كانت نصوحاً، إلا أنها لا تحمل على الطمأنينة والرّاحة؛ لأنَّ (عسى) تختزن من احتمالات الرفض بقدر ما تختزنه من احتمالات القبول. وإذا أرتنا (عسى) حجم الذنب الاحتمالي، فإنها قد أرتنا، في الوقت نفسه، إن هذه التوبة توبة منغّصة بعقدة نفسية مرّة لا تلبث أن تكشف عن نفسها على لسان صخير:

«مالنا خير في صحبة مَنِ الدنيا هِمَّتُهُ ونيّتُهُ. أيّها الناس! إنّما أخرجتنا التوبة من ذنبنا والطلب بدم ابن بنت نبينا» (١١٠). إذ لا تقتصر دلالة (التوبة) على البعد الجهادي التفكيري الذي يقدّمه إسناد الفعل (أخرجتنا) إليها؛ ولكنها تكتسب من النفي الذي يطالعنا به هذا النص أبعاداً أُخَرَ. فالخروج للطلب بدم ابن بنت نبيهم سلوك مضادّ لصحبة «مَنِ الدنيا همَّتُه ونيتُه». وضدّية الخروج المسند إلى التوبة مع الدنيا يكسب التوبة نفسها هذه الضدّية لأنها فاعل الخروج. والتوبة العادية لا تعني في أي حال من الأحوال معاداة الدنيا. وحين تكون توبة الكوفيين معادية للدنيا، فإنها توبة خاصة بهم تنطلق من عقدة الذنب التي عرفناها لهم.

والتوبة المعقدة بهذا القدر المتلبّسة بالجهاد والتكفير تفترض عدوّاً له خصوصيته. فما هي الدلالة التي أضفتها خطاباتهم على كلمة (عدوّ)؟.

استخدم التوّابون مفردات كثيرة في تسمية ذلك العدوّ فهو: المحلّ، والفاسق، والقاسط، والقاتل. وتتناول هذه الكلمات صفات متعددة تشمل مختلف الخصائص التي يراها التوّابون لقتلة الإمام الحسين عليه السلام، وهي خصائص عامة لا تقدّم لنا العدوّ الذي يتوجهون إلى قتاله بلحمه ودمه والجرم الذي ارتكبه، ويستدعي ذلك أن نتوغل أكثر في النصّ التوّابي لاكتشاف خصوصية ذلك العدوّ.

وصف سليمان بن صرد التوّابين قائلاً: «من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منّا ونحن منه» (١١١) وهو لم يصفهم بالإقبال على الأخرى فحسب، ولكنه وصفهم بالعزوف عن الدنيا أيضاً: «فوالله ما نأتي فيئاً نستفيئه ولا غنيمة نغنمها ما خلا رضوان الله ربّ العالمين» (١١٢).

وحين يستأنف كلامه قائلاً: «وما هو إلّا سيوفنا في عواتقنا، ورماحنا في أكفِّنا، وزاد قدر البلغة إلى لقاء عدوّنا» (١١٣) إنما يريد أن يوحي إلينا بأن هذا العدوّ يتّصف بصفات مضادّة لصفات التوّابين حتّى لكأنه الدنيا التي يجب أن يُثأر منها. والعدوّ في نظرهم كما يراه خالد من خلال كلامه: «إن كلَّ ما أصبحت أملكُهُ، سوى سلاحي الذي أقاتل به عدوّي، صدقةٌ على المسلمين أقوِّيهم به على قتال القاسطين» (١١٤). عدوّ ذو أبعاد جديدة. فحين سمّى التوّابين (المسلمين) ولم يسمّهم (الشيعة) أخرج الصراع من دائرة الفتنة الداخليّة ليعطيه أبعاداً جهادية في

مواجهة الكافرين. ويعني أن (القاسطين) لم يظلّوا في حدود الجور داخل الدائرة الإسلامية، ولكنهم خرجوا من الانتماء الإسلامي إلى انتماء مضادّ له؛ لأنّ ماله «صدقة على المسلمين [يقوّيهم] به على قتال القاسطين» أي غير المسلمين بالطبع.

فهل يعني ذلك أن عددهم قد تحدّد في ضوء مشروع سياسي يعيد السلطة إلى آل البيت؟

تستفيق عقدة الذنب قوية حين يتشاور التوّابون في أمر من يتوجّهون إلى قتاله أوّلاً، أهو عمر بن سعد الموجود في الكوفة نفسها، أم عبيدالله بن زياد؟ حيث يرى سليمان بن صرد أوّليّة الخروج إلى ابن مرجانة على حدّ تعبيره: «فسيروا إلى عدوّكم على اسم الله»(١١٥) فهل يعني كلامه هذا أن ابن زياد هو العدوّ دون عمر بن سعد؟ نعم، العدوُّ في نظره هو من يعني قتلُه ثأراً لدم ابن بنت النبيّ ﷺ. تتحدّد أبعاده الدلاليّة على ضوء مشروع التوّابين الذي لا يهدف إلى رد أمر الخلافة إلى آل البيت، لأنهم لم يقصدوا يزيد. كما أنه ليس فورة عاطفية تكتفي بعمر بن سعد. قتلُ ابن زياد يعني الثأر لابن بنت نبيهم ﷺ. فهو العدوّ المقصود. يعني أن دلالة كلمة (عدوّ) متناسبة مع مشروعهم الثأري. وهذه خصوصية لا نراها لهذه الكلمة في أي نص ما خلا نصوصهم.

نستنتج مما تقدّم أن للتوّابين لغتهم الفنيّة الخاصّة بهم التي تنتمي إلى ثقافتهم وموقفهم الحادث الذي يحاورونه، تماماً كما كان لآل البيت لغتهم الفنية الخاصّة بهم.

خاتمة

ومهما يكن من أمر، فإن النتاج الخطابي الذي نجم عن واقعة كربلاء، وإن تغذّى بلبان القرآن والحديث والنهج فإنه يتمتع بخصوصية فنّية تميزه عنها، وتشدّه إلى المرحلة التي نشأ فيها، وإلى الحادث الذي كان سبباً لوجوده. وينتمي هذا النتاج كما النهج إلى مرحلة التأسيس النثري لكلام المسلمين على ضوءالإسلام.

ولعل أهمّية الرجال المؤسسين لذلك النثر: النبيّ ﷺ، وعليّ وغيره من رجالات آل البيت عليهم السلام قد أدّت على نحو ما إلى نجاح الخطابة في أن تكون اسلامية،

وأن تكون مختلفة عن الخطابة الجاهليّة موضوعاً ولغة فنّية، بعكس الشعر الذي لم يستطع أن يتخلّص من المثال الجاهلي الذي استمر في الوجود بشكل من الأشكال وبمستوى من المستويات.

وهكذا وجدنا نتاج كربلاء الخطابي اسلامياً برؤيته ولغته. استطاع أن يؤسس لمنهج رؤيوي واضح، يرى في الإسلام قاعدة راسخة تتحدد على أساسها المواقف، وأن يقدم فهماً شفافاً للتاريخ يتبيّن على أساسه السداد والاستقامة والارتداد والانحراف.

وإذا وقع التوّابون فريسة عقدة الذنب التي انتابتهم فكانت رؤيتهم للمستقبل غائمة ترى الأمور من منظار الثأر والتكفير، فقد استطاعت رؤية آل البيت، مع قرب خطاباتهم من زمان الحادث أن تتخلّص من شائبة الحزن والغيظ وهول المفاجأة وأن تكون واضحة في استيعاب الواقعة، وإدراك أبعادها وما تحمله للمستقبل من مواسم واعدةٍ. سمّوا الخلافة حقّهم، ورأوا في انتصار يزيد هزيمة، وفي قوته ضعفاً، وفي صفاء ملكه عكراً.

ولعل خطابتهم التي عبّرت عن معارك الإسلام المبكّرة مع أعدائه الذين تلبّسوا بلبوس شتى، كانت التأسيس السليم للرؤية الإسلامية المستقبليّة. خصوصاً وإن لغة تلك الخطابة كانت عناد الحقّ في وجه الباطل، عرّت الكلمات من كل ما تحمله من أوهام الرؤية الغائمة التي رأيناها عند التوّابين لتجعلها تشفّ بحساسية متناهية عن صدق الموقف وحرارته. ولذلك وجدنا أنفسنا، ونحن نواجه خطابتهم، نحسّ بوجود مواجهة قاسية بين لغتين: لغة آل البيت، ولغة الآخرين. حتى لكأنَّ المواجهة العسكرية التي شهدتها كربلاء قد انتقلت إلى جسد الخطاب الكربلائي، فجعلت الكلمة الواحدة تنشقّ على نفسها، فهي الحقيقة وهي ضدّها، كما أزالت الضدِّيَّة من بين الكلمات المتناقضة: فالحقّ والباطل هما الباطل والحقّ. ولا يُعدُّ ذلك غريباً فكلام آل البيت أول حاشية على هامش ما سطّره الحسين عليه السلام بالدم. كيف لا، وهناك آصرة واضحة النسب ممتدّة من وقفة السيدة عليها السلام في الشام، إلى وقفة الحسين عليه السلام في كربلاء. وهذا ما أسس لخطابة حمّالة للهموم بعيداً عن كلّ مظهر من مظاهر الترف التي شهدها غيرها من الفنون الأدبية.

الخطاب الخميني

يجب علينا أن نبدأ كلامنا بالحديث عن ماهية الوصية، لأن «الوصيّة الخالدة» مرجعنا الوحيد في دراسة الخطاب الخميني ﷺ.

فالوصيّة صيغة شرّعها الإسلام لكي يضع المسلم جميع أموره في نصابها، خصوصاً بعد الوفاة، وهي ذات طابع شخصي عند الناس يتناول فيها المقبل على الموت توزيع ثروته على الورثة، ويحمِّلهم ما يمكن أن يكون قد لحقه من تقصير في واجباته الدينية في أثناء الحياة الدنيا. يعني أن الوصيّة عبارة عن تحمّل الإنسان لهموم متعلّقة بالدنيا بعد الخروج منها، والمسألة مختلفة جداً مع رجل كالإمام الخميني ﷺ. ارتفع في أثناء حياته الدنيوية فأحلّ هموم الأُمة الإسلامية وهموم الإنسان على الأرض محلّ همومه الشخصية. فكان أن أعاد للإسلام وللإنسان دولته على الأرض بعد أن تصرّمت لأمد طويل. ومن يجعل حياته حيزاً لهموم الجماعة لابدّ من أن يشعر بدقّة مسؤولياته تجاه تلك الهموم في آخر أيام حياته خصوصاً إذا ما اتّخذ من عاشوراء وما أنتجته من ثقافة إنسانية عميقة منهجاً وثقافة يستضيء بهما في مختلف أدوار حياته.

ولابدّ من أن يأتي خطابه على رأس الكلام المغموس بحبر كربلاء. وإذا كان الهمّ الذي حكم تفكيره، في أثناء حياته، هو تفجير الثورة الحسينية من أجل إقامة أركان الدولة الإسلامية، فإن الهموم التي ستنتابه، من خلال وصيته، في ذبالة العمر المتبقية هي هموم ذات طبيعة مختلفة، مع محافظتها على النفَس الحسيني، إذ يوجد بين زمن نجاح الثورة وزمن كتابة الوصية السياسية الخالدة مسافة من جهة، وغير آصرة من جهة أخرى.

نجاح الثورة عملٌ دؤوب محكوم بهمّ، والوصيّة همّ محكوم بانتهاء العمل، بسبب انقضاء العمر. الوصيّة نظرة إلى الزمن الآتي الذي يلي الحياة تراقب استمرارية الثورة الحسينية، وعمليّة استكمال أهدافها التي تتعدى إيران، إلى مصير الإنسان على الأرض، تراقب ما يمكن أن يعترضها من معوقات وصعوبات ومزالق، فتقدّم النصح والإرشاد وتعطي الحبل الذي يعصم في أثناء التعرّض

للأزمات المحتملة.

يقول: «إنني كسائر إخوتي في الإيمان لي الأمل بهذه الثورة وبقاء منجزاتها وتحقق المزيد من أهدافها»، وصيته موجّهة «إلى الجيل الحاضر والأجيال العزيزة القادمة»، وآماله مبنّية على فهم عميق للثورة التي اجترحها في إيران: «إن الثورة الإسلامية في إيران تختلف عن جميع الثورات في التكوّن، وفي طريقة الصراع والمبارزة، وفي هدف الثورة والنهضة».

وإذا تكوّنت الثورة التي تمّت تحت شعار الاشتراكية في الماضي، وهي من أكثر الثورات التي سبقتها قدرة على التماسك والنظرة الشموليّة، إذ تكوّنت اعتماداً على فهم خاصٍ للتاريخ والإنسان يصطنع القوانين العلمية منهجاً له، فإن الثورة الإسلامية قد تكوّنت اعتماداً على معرفة الله المتجليّة في قرآنه الكريم، وسنّة نبيّه وسيرة أوليائه وهي معرفة يمثّل ما اكتشفه الإنسان من قوانين نزراً يسيراً من بنيتها الكلّية؛ لذلك تعدّ الثورة التي تمّت على يد الرّسول الثورة الأولى والأخيرة في تاريخ البشرية. وإذا حصل تردٌّ ما في مسار التاريخ، فالعودة إلى ذلك النبع هي الثورة المتجدّدة.

وإذا شكّلت ثورة الإمام الحسين في كربلاء عودة إلى ذلك النبع ومحاولة لإعادة مياه الإسلام إلى مجاريها الحقيقية بعد أن حكم الدولة الإسلامية، وباسم الإسلام، أمويون لا علاقة لهم به، فإن الثورة الخمينية تواجه الأعداء أنفسهم. وما تلك الإشارة إلى كيفية تكوّن الثورة الإسلامية الايرانية وإلى طريقة الصراع والمبارزة إلّا تأكيد بأنها حسينية التكوّن والطريقة والهدف.

وإذا اعتمد الاشتراكيون على الطبقة العاملة قوّة في مصارعة الأعداء، وعلى الموت وسيلة لرفع الاستغلال، حيث يرى المقتول فيها خلاصاً له من الفقر والظلم على الأقل وإن كانت حياته عزيزة، لأنه غير مؤمن بما وراءها، فإن طريقة الصراع والمبارزة مختلفة في الثورة الإسلامية، فالمؤمنون بالله واليوم الآخر الذين حدّد لهم الإمام الحسين طريقهم، هم قوّة هذه الثورة، وهم يشكّلون فئة اجتماعية أكثر اتساعاً من طبقة العمال. والقتال في سبيل الله عندهم، كما كان عند

الحسينعليه السلام ، هو فوز بإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

فهل يقارن أولئك الرجال الذين دخلوا حرم الإمام الرضاعليه السلام باكين يطلبون شفاعته عند الله لكي يأذن باستشهادهم بعد أن فاتتهم الشهادة في كلّ المرّات التي ذهبوا فيها إلى الجبهة. هل يقارن هؤلاء الكربلائيون بأولئك الذين يرون في القتال نصراً أو موتاً ينجيهم من فاقتهم المادّية؟

وإذا كان هدف الثورة الاشتراكية الأخير هو إقامة المجتمع الإنساني الموحّد القائم على العدالة بقيادة الإنسان نفسه حيث لا وازع له سوى ضميره الذي يخضع في المحصّلة للأوضاع والظروف التي تضغط على سلامته فتحرفه عن الجادّة، فإن هدف الثورة الإسلامية الحسينية الأخير هو تعميم الإسلام على الأرض وإقامة العدالة كما رسمها القرآن الكريم، وكما تطلّع إليها الحسينعليه السلام عشية كربلاء، خصوصاً إذا عرفنا أن راعي هذه العدالة الأخير هو بقية الله على الأرض حيث لا ظلّة ولا شطط.

وإذا كان فهم الإمام للثورة عميقاً عمق النجاح الكبير الذي أدارها به فإن حرصه عليها سيكون شديداً. يلفت انتباهنا إلى كيفية استمرارها: «إن سر بقاء الثورة الإسلامية هو سرّ النصر نفسه ويعرف الشعب سرّ النصر، وستقرأ الأجيال الآتية أن ركنيه الأصليين هما: الدافع الإلّهي والهدف السامي للحكومة الإسلامية من جهة، واجتماع الشعب في جميع أنحاء البلاد مع وحدة الكلمة من أجل ذلك الدافع وذلك الهدف»؟ فهل يمثّل الدافع الإلّهي والهدف السامي هنا بعداً متميزاً عن البعد الكربلائي للإمام الحسينعليه السلام؟

يختزن هذا التوضيح لسرّ بقاء الثورة كلّ هموم الإمامقدس سره في أيامه الأخيرة، سليلة هموم سيد الشهداءعليه السلام ، سواء أتعلّق الأمر ببنية الثورة الفوقية، فكرها الإسلامي الحسيني الذي تعتقد به، أم ببنيتها التحتية، وحدة الناس ووحدة قوتهم.

وحين تكون الثورة بحجم فهم الإمام لها، فإن همومه التي سجلها في وصيته السياسية ستكون بهذا الحجم أيضاً. فهي هموم تخصّ العقيدة، ولذلك أوصانا بالتمسّك بالثقلين وما يمثله ذلك التمسّك من حساسية بالغة الدقة

والخطورة في حياة المسلمين السياسية، فهو حفظ الإسلام نفسه. وأوصانا بالعودة إلى طريق الأنبياء العظام وأوصانا بأن يكون البعد الكربلائي حاضراً باستمرار في حياتنا، لأنه طريقة الصراع والمبارزة الوحيدة الناجعة.

ولا تخصّ همومه البعد الايراني وحده، حين دعا إلى حفظ الجمهورية وحسن استخدام الإعلام، ولكنها تخصّ المسلمين أينما كانوا، فالجمهورية الإسلامية قدوة وطريقة ومؤشر واضح باتجاه الوحدة الإسلامية واستمرار الدعوة والتبليغ، خصوصاً وأن الدعوة الإسلامية لم تُقفل في يوم من الأيام، وهي واجب المسلمين في كلّ عصر. ولم ينسَ أن يوصي بمقاطعة الاستكبار العالمي سياسياً واقتصادياً وثقافياً.

ولا تكمن هموم الإمام فيما يراه مناسباً لسيرورة الثورة الإسلامية فحسب، ولكنها تعدّتها إلى ما أثاره أعداء الإسلام من غبار في وجهها سواء أتعلّق الأمر بالاستكبار العالمي المستفرد بالشعوب المستضعفة، أم بالبعد الأموي للقيادات المتلبّسة بالإسلام، أم بالإعلام المضادّ وما يفرزه من سموم: كمحاولة تحييد القرآن عن عمليّة المواجهة، وفصل الدين عن السياسة وغيرها من الأضاليل والحبائل والمكائد التي وقع كثير من رجال الدين ضحيتها. وهذا ما ميّز موقف الإمام الخميني ﷺ حيث تجاوز هذه الوضعية المرَضية من خلال الارتكاز على النهج الحسيني الذي يرى في الخروج على الظلم موقفاً اسلامياً لا محيد عنه.

ولعلّ أهمّ ما شغل بال الإمام ﷺ وهو في أيامه الاخيرة هو الهمُّ الثقافي الذي احتلّ الحيز الأكبر من الوصيّة. وأن يحتلّ هذا الهمّ ما يقارب السبع عشرة صفحة في وصيّة عدد صفحاتها ثمانون، يعني أن الإمام قد رأى في الثقافة سلاحاً خطيراً ذا حدّين يمكنه أن يقود إلى النصر أو إلى الفشل. ولكي نتبيّن أهمّية هذا الهمّ وخطورته في ذهن الإمام علينا أن ندرك أن الثقافة جملة العلوم والمعارف والآراء التي اكتسبها الإنسان بالإضافة إلى التجارب التي تعرّض لها منذ الطفولة. وهذا يعني أن الثقافة قوام العقيدة والشخصية تحدّد الموقف من القضايا والسلوك إزاء الحدثان. فالإنسان هو الثقافة التي تلقّاها، والخميني ﷺ قرآني الثقافة، مهاجر في

سبيل الله، كربلائي الوجدان والموقف يدرك بعمق أهمّية التكوين الثقافي السليم للأمّة، وهو يعرف أن عمليّة تصويب المسيرة الثقافية لا يمكن أن ينجزها جيل واحد، حتّى ولو كان جيل الخميني نفسه. خصوصاً وأن ثقافة هذا الجيل نتاج لتاريخ طويل من تغييب الإسلام عن حياتنا الواقعية بفعل البعد الأموي المتأصل في ساستنا من جهة، ومن حضور الثقافة الغربية بفعل الحركتين: الاستشراقية والاستعمارية من جهة أخرى.

والذي فعله الإمامﷺ في وصيته أنّه أكّد الأصول التي تقوم عليها عمليّة التصويب، أولها: سلُّ حياتنا الثقافية من بين خيوط التغريب التي تغلغلت في تضاعيفها وأوصالها، وثانيها: العودة إلى الينابيع الإسلامية الصافية وإلى الثقة العارمة بالنفس، وثالثها: إيلاء التربية ما تستحقّه من عناية، ورابعها: إقامة علاقة تواصل وتكامل بين الحوزة والجامعة.

ونتذكّر مما فعله التغريب بثقافتنا، أوّل ما نتذكّر، كتب المستشرقين التي جهدت لكي تُدخِل في خلدنا أن العقليّة المشرقية عقليّة سطحية لا تهتمّ بالتحليل ولا قدرة لها عليه، عبر مقارنات كانت تجريها بين نتاجنا الأدبي والنتاج الغربي موظفة أرقى النتاجات الأدبية الغربية قبالة صورة مشوّهة لبعض نتاجاتنا التي ليست من أرقى ما انتجته عبقريتنا. أضف إلى ذلك أنها قد سلّطت أضواءَ سوداً على تراثنا؛ محاولة إظهاره تراثاً عقيماً بالياً لا يستأهل القراءة الجدّية، لأنّه لم يعد صالحاً أو حتى مقبولاً في حياتنا الحاليّة التي شهدت تحوّلات مهمّة بفعل الثقافة الغربية.

وقبالة هذا الموقف الموجّه والمدروس من إنساننا وتراثنا طفقت الأبواق الإعلامية الغربية ومنابرهم الثقافية تصوّر الإنسان الغربي إنسان التفوّق، دافعة بذلك إلى بعده العنصري الذي أفقد إنساننا ثقته بنفسه. وكان ذلك مناخاً مؤاتياً اندسَّت الوجودية والماركسية من خلاله إلى حياتنا الثقافية لكي تقبض على ناصيتنا وتجعل من سلوكنا سلوكاً هجيناً، وطفقنا نمارس استهلاك الثقافة الغربية تماماً كما نستهلك كلّ منتجاتهم التقنية وبضائعهم.

وعلى صعيد دعوة الإمامﷺ إلى ينابيعنا الصافية، دعا إنساننا لكي يستعيد

ثقته بنفسه وأن يعود إلى تراثنا الغنيّ، خصوصاً فيما تعلّق بإرث آل البيت الفكري والجهادي الكربلائي، يقرأه قراءة جديدة يستقصي عوامل الحياة فيه، لأن مبارزة الغربي تقتضي أن نكون منتجين للثقافة. ولا يكون إنتاج الثقافة مؤسساً على تراث غير تراثنا، إذ لابدّ من قراءة جدّية وجديدة له تصل بنا إلى آخر عطاءاته التي ترتبط بتاريخنا الثقافي والجهادي، وتعبّر عن مكوّنات روحنا ووعينا فنتّخذها أساساً نبني عليه ثقافتنا الجديدة، ثقافة العصر. ولن تكون ثقافة العصر فاعلة وقوية، كما يرى الخميني ﷺ إلا بحضور القرآن الكريم حضوراً قوياً، لأنّه القراءة الكاملة والدقيقة للعالم لا يأتيها الباطل لا من أمامها ولا من ورائها.

ولكي تكون تلك الثقافة أقرب إلى الخطّ الحسيني، رأى الإمام أن تقوم علاقة تواصل وتكامل بين الحوزة والجامعة فبقدر ما تعطي الحوزة علوم العصر بعداً اسلامياً في الجامعة، تعطي الجامعة العلوم الدينية في الحوزة بعداً واقعياً مجتمعياً عصرياً. ولعل الإمام يهجس من خلال هذه العلاقة بوحدة محتملة لهما. قد تكون في زمن تجلّي الثورة الإسلامية بكل أبعادها في مختلف أصقاع المعمورة.

وتبقى مسألة مهمة شغلت بال الإمام ﷺ يلاحظها من يقرأ مختلف النقاط التي عالجتها الوصيّة، وهي تفجير الطاقة الإسلامية الإبداعية. ولن يكون ذلك بغير إنشاء مراكز ثقافيةٍ اسلاميةٍ متخصّصةٍ ترصد المشكليات المعاصرة التي تواجه الإسلام والمسلمين فتفهمها فهماً عميقاً لكي تحدّد الموقف والحلّ. وهذه المراكز كفيلة بالعودة إلى تراثنا تحقيقاً وقراءة وتأصيلاً لكي يكون الأساس المتين الذي نبني عليه نتاجنا الثقافي المعاصر.

وهي قادرة على رصد المنابر الثقافية المعادية تستخلص مآربها وتصف الدواء الناجع منها. وهي مؤهلة لكي تقرأ المعوّقات التي يتخبّط فيها المسلمون على ضوء القرآن الكريم فتكون قراءتها تلك تفسيراً موضوعياً للقرآن الكريم ينتجه هذا العصر من خلال ما توافر له من ثقافة وتجربة فلا يكون قرآننا مهجوراً. وبذلك نكون قد انتمينا إلى الثقافة الإسلامية والطريقة الحسينية اللتين تفيّأ الإمام ﷺ ظلالهما الوارفة، وبذلك نكون أيضاً قد لبّينا حاجته المبرمة إلى دعائنا له بالخير.

كلمة أخيرة

يمثّل الكلام الذي أطلقه رجال ونساء من آل البيت بُعيد واقعة الطفّ، مرحلة التكوّن الأولى للثقافة التي ارتبطت بموقف الحسين عليه السلام في مواجهة الانحراف والظلم، وما نجم عنه من ثبات وصبر بلغا حدّ الشهادة. وإذا كشف ذلك الكلام عن رؤية واضحة مخلّصة من كلّ شوائب الانفعال والغيظ الذي يرافق مشهد الأهل وهم يقتلون عادة، فإنه قد أوجد لغته الخاصّة بكربلاء معجماً ودلالةً. وحين ينطلق الكلام من رؤية بمثل وضوح الرؤية الإسلامية النبوية، ويختار لنفسه المفردات التي تخصّه دون سائر الكلام، فإنّه يمثّل ثقافة أصيلة سوف تعطي أكُلها في مستقبل الأيام.

وإذا مثّل كلام التوّابين عقدة ذنب بلغت من القوّة أن أوجدت مفرداتها اللغوية التي تخصّها، فإنّه كلام منتمٍ إلى ردّة الفعل على الذات الحائرة التي أتعبها الترديد وأوهنها ضعف الثقة بالنفس. وستشكّل حركة التوّابين درساً قاسياً يدفع المسلم الحقيقي لكي يتحاشي أن يضع نفسه في سياقها.

ولعلّ النّماء الذي شهدته ثقافة كربلاء على أيدي علماء المسلمين جيلاً بعد جيل كان يهجس بشخصية ثقافية تمثّل بداية تحوّل النصر الذي حقّقه الدم على السيف من مرحلة التجريد إلى مرحلة التحقّق والتجسيد. فكان الإمام الخميني قدس سره، المسلمَ الذي طال انتظاره نتاجاً تاريخياً حتمياً لتلك الثقافة، لأنّها لو لم تتمثّل بالخميني، لتمثّلت بالخميني تلك الشخصيّة الإسلامية الحسينيّة.

وإذا تركنا تفاصيل كلامه الذي بدأه يوم صدع بما أمره به الإسلام، أو ذاك الّذي أطلقه في أثناء مهاجرته في سبيل الله، وبعد عودته مظفّراً، لأنّه أوسع من أن يلمّ به بحث وأدقّ من أن تتناوله مقالة، مكتفين بالوصيّة، فذلك لأنّ الوصية تمثّل تكثيفاً غير عادي للرؤية، وتعتمد مفرداتٍ ما بعدها مفردات في دقّة الدلالة وانتمائها إلى الثقافة الكربلائية.

وإذا مثّلت تلك الوصيّة هموم الإمام في آخر أيّامه، فإنها قد شفّت عن أمرين

واضحين: الإسلام بما يعنيه من قراءة متجدّدة للحياة، وكربلاء التي أُنتجت ثقافة التصويب والموقف، خصوصاً وأن الإسلام يمثّل الثقافة التي اختارها الله لعبده بينما تمثّل عاشوراء الثقافة القادرة على حماية الثقافة الإسلامية الأم من التمويه والسير باسمها على طريق الانحراف.

ولقد أمّنت وصيّة الخميني حاجة المرحلة إلى التبصّر بشؤون هذا العصر على ضوء الثقافة الكربلائية سواء أتعلّق الأمر بالنبع النمير، حديث الثقلين، أم بطبيعة الثورة الإسلامية في إيران، بنظرته إلى كلّ من المستكبرين والمستضعفين، أم بموقفه الثقافي التربوي، بدعوته إلى الثقة بالنفس والابتعاد عن التغريب أم بكيفية ممارسة الديموقراطية.

لقد سطّرت وصيته الخالدة رؤية الثقافة الإسلامية الحسينية إلى المرحلة بمختلف همومها وأدقّ تفاصيلها.

الهوامش

١ ـ غيورغي غاتشف، الوعي والفن، ترجمة نوفل نيوف، مجلة عالم المعرفة، العدد ١٤٦، سنة ١٩٩٠، ص ١٨.

٢ ـ تزفيتان تودورف، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت، ورجاء بن سلامه، دار تـوبقال للـنشر، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ١٩٩٠، ص ١٠.

٣ ـ المصدر نفسه

٤ ـ المصدر نفسه، ص ١٦.

٥ ـ كمال أبو ديب، في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص ١٨.

٦ ـ أدونيس، سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، ص ٦٠.

٧ ـ ترحضون، تغسلون. ابن منظور، لسان العرب، مادة رحض.

٨ ـ المدرة: المكان الذي يؤخذ منه المدر اي الطين للتطيين، المصدر نفسه، مادة مدر.

٩ ـ السيدة زينب عليها السلام في الطبرسي، الاحتجاج، شركة الكتبي للطباعة والنشـر، بـيروت، ١٩٩٣، ٢ / ٣٠.

١٠ ـ الطبرسي، الاحتجاج، الطبعة الحجرية في النجف، ص ١٦٥.

١١ ـ زين العابدين عليه السلام، في الطبرسي، الاحتجاج، ٢ / ٣٢.

١٢ ـ المصدر نفسه.

١٣ ـ المصدر نفسه.

١٤ ـ المصدر نفسه. فاطمة الصغرى عليها السلام ٢ / ٢٧.

١٥ ـ علي بن أبي طالب عليه السلام، نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، دار الهجرة، قم، ١٤١٢ / هـ، ص ٤٧.

١٦ ـ فاطمة الصغرى عليها السلام، في: م.س. ٢ / ٢٧.

١٧ ـ الأحزاب: ٣٣ / ٣٣.

١٨ ـ السيدة زينب (ع) في: م.س، ٢ / ٣٦.

١٩ ـ المصدر نفسه.

٢٠ ـ المائدة: ٥٦.

٢١ ـ المسيّب بن نجبة الفزاري في: جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت، دار الحداثة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، ص ٥٩.

٢٢ ـ المصدر نفسه.

٢٣ ـ سليمان بن صرد في: المصدر نفسه، ص ٦٠.

٢٤ ـ المصدر نفسه.

٢٥ ـ عبيدالله بن عبدالله المري في: المصدر نفسه، ص ٦٣.

٢٦ ـ المصدر نفسه.

٢٧ ـ المصدر نفسه، ص ٦٤.

٢٨ ـ سليمان بن صرد في: المصدر نفسه، ص ٧٢.

٢٩ ـ المصدر نفسه.

٣٠ ـ الرعد: ١١.

٣١ ـ الحجرات: ١٠.

٣٢ ـ السيدة زينب عليها السلام في، م.س، ٢ / ٢٩.

٣٣ ـ زين العابدين عليه السلام في: م.س، ٢ / ٣٢.

٣٤ ـ أمّ كلثوم عليها السلام في: عباس القمي، نفس المهموم، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٩٩٢، ص ٣٦٣.

٣٥ ـ السيدة زينب عليها السلام في: م.س، ٢ / ٣٩ ـ ٣٠.

والتشبية إشارة واضحة إلى آية قرآنية: «ولا تكونوا كالّتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً» النحل: ٩٢.

٣٦ ـ المصدر نفسه. والتشبيه إشارة إلى الحديث الشريف: «إيّاكم وخضراء الدمن».

٣٧ ـ المصدر نفسه.

٣٨ ـ المصدر نفسه.

٣٩ ـ المصدر نفسه.

٤٠ ـ المصدر نفسه.

٤١ ـ فاطمة الصغرى في: م.س، ٢ / ٢٨.

٤٢ ـ المصدر نفسه.

٤٣ ـ زين العابدين في: م.س، ٢ / ٣٢.

٤٤ ـ أم كلثوم في، عباس القمي، نفس المهموم، ص ٣٦٣.

٤٥ ـ زينب عليها السلام في: م.س، ٢. ٣٠.

٤٦ ـ فاطمة الصغرى عليها السلام في: م.س، ٢ / ٢٧ ـ ٢٨.

٤٧ ـ أم كلثوم عليها السلام في: القمي، نفس المهموم، ص ٣٦٢.

٤٨ ـ زين العابدين عليه السلام في : م.س ، ٢ . ٣٢.

٤٩ ـ المصدر نفسه .

٥٠ ـ المصدر نفسه .

٥١ ـ المصدر نفسه ، فاطمة الصغرى في : المصدر نفسه ، ٢ / ٢٨ ، أمّ كلثوم في : القمي ، ص ٣٦٣.

٥٢ ـ زينب عليها السلام في : م.س ، ٢ / ٣٠.

٥٣ ـ المصدر نفسه .

٥٤ ـ المصدر نفسه .

٥٥ ـ المصدر نفسه .

٥٦ ـ المصدر نفسه .

٥٧ ـ عباس القمي ، نفس المهموم ، دار المحجة البيضاء ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٩٢ ، ص ٣٥٩.

٥٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٦٠.

٥٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٦٣.

٦٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٦٤.

٦١ ـ زينب عليها السلام في : م.س ، ٢ / ٣٦.

٦٢ ـ المصدر نفسه ، ٢ / ٣٤.

٦٣ ـ المصدر نفسه ، ٢ / ٣٦.

٦٤ ـ المصدر نفسه ، ٢ ٣٥.

٦٥ ـ المصدر نفسه ، ٢ / ٣٧.

٦٦ ـ المصدر نفسه .

٦٧ ـ المصدر نفسه .

٦٨ ـ المسيّب بن نجبة في : جمهرة خطب العرب ، ص ٥٨ ـ ٥٩.

٦٩ ـ المصدر نفسه .

٧٠ ـ سليمان بن صرد في : المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

٧١ ـ رفاعة بن شداد في ، المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

٧٢ ـ خالد بن سعد ، في : المصدر نفسه ، ص ٦١ .

٧٣ ـ عبيدالله بن عبدالله في : المصدر نفسه ، ص ٦٣ .

٧٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٣.

٧٥ ـ سليمان بن صرد في : المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

٧٦ـ المصدر نفسه.
٧٧ـ المسيّب في: المصدر نفسه، ص ٥٩.
٧٨ـ المصدر نفسه.
٧٩ـ المصدر نفسه.
٨٠ـ سليمان بن صرد في: المصدر نفسه، ص ٦٠.
٨١ـ خالد بن سعيد في: المصدر نفسه، ص ٦١.
٨٢ـ عبيدالله بن عبدالله في: المصدر نفسه، ص ٦٤.
٨٣ـ سعد بن حذيفة في: المصدر نفسه، ص ٦٢.
٨٤ـ الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ثلاث رسائل، تحقيق خلف الله وسلام، دار المعارف، مصر ١٩٧٦، ص ١٠٧.
٨٥ـ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمّد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٠٨ و ١٣٦.
٨٦ـ علي زيتون، مقاربة من معجم النهج، المنطلق، العدد ١١١، ١٩٩٥، ص ١٦١.
٨٧ـ مثل: «فرثتم، نكثتم، سفكتم، انتهك، سُلب، سبيَ، قُتِلَ، ذبحوا، المذبوح، المسلوب، المقتول، كذبتمونا، انتهبتم، سبيتم، نكبتموه، تساق، سوق، هتكت، ستورهن، وجوههن، يتصفح، نكأت، استأصلت. (اراقتك، فريت، حززت)» تستحضر هذه المفردات إلى الذاكرة كلَّ جلّادي التاريخ وسفّاحيه بكل ما ارتكبوه من بشاعات وجرائم.
٨٨ـ مثل: (تزرون، خاب، تبّت، خسرت، بؤتم، بغضب، اجتراء، نقمات، العذاب، الختل، الغدر، الخذل، الصلف، الشنف، العجب، الكذب، الملق، الغمز، العار، الشنار، المكر، الشهوة، الخيلاء، الحقد، الظلم، القساوة، الغلظة، الشنآن، الإحن، الأضغان) وتلخص هذه المفردات واقع حال كلٍّ من الكوفيين ويزيد غداة كربلاء.
٨٩ـ مثل: (ملاذ، معاذ، مقر، مفزع، مرجع، مدرة، منار، العلم، الفهم، الحجة، الكرم، الفضيلة، التزكية، الطهر، الأخيار، الطيبون، المحمود، المشهور، هداية، زهد، استقامة، سليل، سيد، أكرم، النبوّة، الرسالة) وتشير هذا المفردات إلى مقام آل البيت ودورهم الرسالي.
٩٠ـ زينب عليها السلام في: م.س، ٢ / ٣٠.
٩١ـ المصدر نفسه، ٢ / ٣٥.
٩٢ـ المصدر نفسه، ٢ / ٣٠.
٩٣ـ زينب عليها السلام، م.س، ٢ / ٣٠.

٩٤ ـ المصدر نفسه، ٢ / ٣٦.

٩٥ ـ المصدر نفسه، ٢ / ٣٧.

٩٦ ـ فاطمة الصغرى عليها السلام في: المصدر نفسه، ٢ / ٢٧.

٩٧ ـ زين العابدين في: المصدر نفسه، ٢ / ٣٢.

٩٨ ـ المصدر نفسه.

٩٩ ـ فاطمة الصغرى عليها السلام في: المصدر نفسه، ٢ / ٢٨.

١٠٠ ـ السيدة زينب عليها السلام : في: المصدر نفسه، ٢ / ٣٥.

١٠١ ـ المصدر نفسه، ٢ / ٣٧.

١٠٢ ـ المصدر نفسه، ٢ / ٣٦.

١٠٣ ـ مثل: (ربنا، تزكية، شيعتنا، نبيّنا، الأبرار، الصديقون، الرشد، السداد، الصواب، التوبة، الجهاد، خلق، حقّ، الله، المرسلون، رسول الله، ثواب، الآخرة، رضوان، ساع، قائم، قاعد، راكع، ساجد، ذكر، عقوبة، ابتلاء، الذنب).

١٠٤ ـ مثل: (قاتل، الخيل، يجاهد، الجهاد، عواتق، رماح، كف، دم، تبيروا السيوف، الأسنّة، الصبر، السلاح، الحدّ، يقتلون، يحفون، تفزعون، الجنود، شوكة، العزيمة، الخروج).

١٠٥ ـ مثل (أعذر، عذر، ملامة، معذرة، التوبة، همّه، نصح، مشورة).

١٠٦ ـ مثل: (العمر، اخرنا، الدهر، الحلائل، الابناء، الدنيا، حرثها، فيئنا، بلغة، دينار، درهم، تجار، يشترون، ثمناً).

١٠٧ ـ سليمان بن صرد في: جمهرة خطب العرب، ص ٦٨.

١٠٨ ـ رفاعة بن شداد في: المصدر نفسه، ص ٦٣.

١٠٩ ـ عبيدالله بن عبدالله في، المصدر نفسه، ص ٦٣.

١١٠ ـ صخير بن حذيفة في: المصدر نفسه، ص ٦٨.

١١١ ـ سليمان بن صرد في: المصدر نفسه، ص ٦٨.

١١٢ ـ المصدر نفسه.

١١٣ ـ المصدر نفسه.

١١٤ ـ خالد بن سعد في: المصدر نفسه، ص ٦١

١١٥ ـ سليمان بن صرد في: المصدر نفسه، ص ٦٩.

امتداد عاشوراء في الزمن الشعري العربي

عبد المجيد فرج الله

حين تشترك مفردة أو فكرة ما في الحضور الإبداعي وتفرض نفسها على شاعرَين أو ثلاثة، فإنها تستحقّ التأمّل والاهتمام؛ وتزداد أهميتها إذا كانت محطّ رؤى لشعراء كبار يلمسونها بأنامل رقيقة التصوير وألوان مثيرة الظلال؛ ثمّ تفرض وجودها بل خلودها إذا ظلّت مهيمنة على الأفق الشعري، نجمةً تخلب ألباب أكثر من جيل شعريٍّ تفصل بينهما عشراتٌ أو مئات من السنين.

فما بالنا بالحضور الشعري «الحسيني» الذي ناهز الألف وربع الألف من السنين الطويلة المليئة بالمتغيرات والتفاعلات والتأثيرات. وليس هذا وحسب، بل الذي يستحقّ الدراسة والاستكشاف هو مدى الزوايا الفنية وآفاق الرؤى المتجدّدة التي ظلّت تحوم حول الحسين. وهي لمّا تزل حبلى بالإبداع والمزيد من السحر والجمال.

ولكي تكون تأمّلاتنا أكثر قرباً من أنفاس الشعراء، وأنضج فهماً لنفثاتهم الملوّنة بشتى الالوان، فسنقسمها ثلاث مراحل رئيسة هي:

١ ـ الحسين.. الواقع والمعايشة.

٢ ـ الحسين.. الذكرى والحلم.

٣ ـ الحسين.. الرمز والتثوير.

أولاً: الحسين.. الواقع والمعايشة

إذا توغّلنا في عمق التاريخ، وبالتحديد إلى منتصف القرن الأوّل الهجري، فإننا نجد الإمام الحسين عليه السلام محوراً تطوف حوله القلوب والعقول والعيون، لأنّه ـ وأخاه ـ بقية البيت المحمّدي الطاهر الذي أذهب الله عنه الرجس. وقد نميا في أحضان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وسمع المسلمون من هذا الحبيب ـ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحيٌ يوحى ـ مئات الأحاديث والذكريات والتوصيات بحقّ هذين السبطين الحسنين لعلّ من أشهرها: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»[1] و «الحسن والحسين إبناي، من أحبّهما فقد أحبّني ومن أحبّني أحبّه الله»[2].

وحين رحل الإمام الحسن إلى ربّه شهيداً، بقي أخوه الإمام الحسين عليهما السلام ظِلاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووجهاً حيّاً له، فوجوده يصرّح بالمقولة الشريفة «حسين مني وأنا منه... أحبّ الله من أحبَّ حسيناً».[3]

وكان من النتائج ـ غير المقصودة ـ التي تمخّضت عن التجاوزات والانتهاكات الأموية الجسمية لحرمة الإسلام وشريعة الله الخالدة، أن شُدَّت الأنظار والأفئدة بالإمام الحسين عليه السلام والبيت الهاشمي الذي يذكّر برحمة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وطيبته وتواضعه وتفانيه من أجل سعادتهم ومواساتهم ورفع الحيف والظلم والجهل عنهم، بروح أبوية حانية، وقلب رؤوف عطوف. ولم تَعْدُ الأحابيل

والدعايات والمفتريات الأموية التي شُنَّت ضدّ الإمام عليٍّ وابنائه عليهم السلام تفعل فعلها، بعدما تبدّى الزيف وسقطت الأقنعة وحُصّل ما في الصدور. فاتّجه الناس إلى الإمام الحسين عليه السلام ملاذاً وملجأً ودواءً ناجعاً لابدّ منه لانتظام الأنفاس وعودة الحياة من جديد. وهذا ما يفسّر الكمّ الهائل من الرسائل والرسل التي وصلت الإمام من أهل العراق ـ خاصّة ـ تطالبه بالتحرّك من أجل الإنقاذ وإحقاق الحقّ.(٤)

ولا نعدم في طيّات كتب التاريخ نصوصاً شعرية ـ على الرغم من التعتيم والمصادرة والكبت الأموي ـ تناولت ما ذكرناه؛ منها ما رواه ابن عساكر في تاريخه حيث قال:

«خرج سائل يتخطى أزقّة المدينة حتّى أتى باب الحسين بن عليٍّ، فقرع الباب وأنشأ يقول:

لم يخب اليوم مَنْ رجاك ومَنْ	حرّك من خلف بابِك الحلَقَة
فأنتَ ذو الجود، أنت معدنُهُ	أبوك قد كان قاتل الفسَقَة

وكان الحسين بن علي واقفاً يُصلّي فخفّف من صلاته وخرج إلى الاعرابي فرأى أثر ضرٍّ وفاقة، فرجع ونادى بقنبر، فأجابه: لبّيك، يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال: ما تبقّى معك من نفقتنا؟ قال: مئتا درهم، أمرتني بتفريقها في أهل بيتك. قال: فهاتها فقد أتى من هو أحقّ بها منهم. فأخذها وخرج فدفعها إلى الأعرابي وأنشأ يقول:

خذها فإني إليك معتذر	واعلم بأني عليك ذو شفَقَة
لو كان في سيرنا الغداة عصاً	كانت سمانا عليك مندفقَة
لكنَّ ريبَ الزمان ذو نكدٍ	والكفُّ منّا قليلةُ النَفقَة

فأخذها الأعرابي وولّى وهو يقول:

مطهَّرون نقياتٌ ثيابُهُمُ	تجري الصلاة عليهم أينما ذُكروا
فأنتمُ أنتمُ الأعلَون، عندكُمُ	علمُ الكتاب وما جاءَت به السُّوَرُ
من لم يكن علويّاً حين تنسبُهُ	فما لَهُ في جميع الناس مفتخرُ(٥)

الحضور الشعري في منعطف عاشوراء الخطير

لا نحتاج إلى سرد أحداث كربلاء، فلا نظنّ أن أحداً يجهل ما روي وحكي عنها، ولذا فإننا سنقتصر على استنطاق ودراسة بعض النصوص الشعرية التي وصلتنا عن ذلك الحادث العظيم وما ارتبط به تاريخياً كردّة فعل أولى على ما جرى.

ولعلّ أول عقبة كأداء تقف في وجه الباحث تتلخّص في هذين السؤالين:

* ما الدليل الموضوعي على صحّة هذه النصوص؟
* وكيف نبرهن على أنّها قد صدرت فعلاً من أولئك المنسوبة إليهم؟

والحقّ أن هذين السؤالين يحظيان بالاهتمام والتقدير والإرضاء لعدّة أسباب، منها:

١ ـ انّ البحث العلمي التاريخي المعاصر قد قطع أشواطاً طويلة جداً وهو يعتمد على أدقّ المعلومات عن طريق الحفريات والمكتشفات التاريخية والأثرية والنصوص الخطية، إلى درجة أننا نستطيع إثبات صحة قصيدة الفرعون المصري «اخناتون» أو ملحمة «جلجامش» أو شريعة «حمورابي» بدقة كبيرة ومقنعة. لكننا نواجه صعوبة بالغة في إثبات أنّ هذا البيت الشعري أو ذاك هو فعلاً لهذا الشاعر الجاهلي أو ذاك الشاعر المخضرم.

٢ ـ اعتماد التاريخ العربي ـ والشعر العربي خاصّة ـ على الرواية الشفهية التي سبقت مرحلة التدوين، مما نتج عنه اختلاف عدد الأبيات وكثير من المفردات بين راويتين يرويان قصيدة واحدة لشاعر واحد؛ هذا فضلاً عن نسبة قصيدة واحدة لأكثر من شاعر.

ومما لا شك فيه أن اعتماد كثير من شعراء تلك الفترة على رواة خاصّين ناتج عن تلك المشكلة الكبيرة، ولعلّ أوضح الأدلة على ذلك مدرسة أوس بن حجر الكندي الشعرية.(٦)

٣ ـ التخريب المتعمّد والتزوير المدعوم من قبل السلطة الحاكمة واللذان طالا كثيراً من الأحاديث الشريفة والقصائد الشعرية، خاصّة تلك التي تخصّ أهل بيت

النبي ﷺ أو الخصوم السياسيين للعائلة الأموية إلى درجة أننا نجد أحاديث موضوعة على الرسول الكريم ﷺ تمجّد بالأصنام!.. وأخرى تؤكّد أنّ الإمام علياً عليه السلام كان يصلّي مجنباً!!.. إلى كثير من الأمثلة المضحكة ـ المبكية؛ ناهيك عن منع رواية الأشعار المقولة في أهل البيت عليهم السلام حتّى إنّنا نجد عدداً من النصوص الشعرية قد أسقطت من دواوين شعراء مشهورين[٧] أو من الكتب التاريخية التي تناولت سيرة الرسول ﷺ فضلاً عن الحوادث الجانبية الأخرى التي كان بالإمكان تزويرها والتعتيم عليها.

وقد حفظ لنا التاريخ قصيدة «سرّيّة» قالها كعب بن زهير في حقّ الإمام علي عليه السلام، مع تصريح بأن بني أمية كانوا يمنعون من روايتها كاملة؛ لأنها تتعارض مع السبّ الأمويّ العلني لخليفة المسلمين (الإمام علي عليه السلام).[٨]

والأنكى من ذلك أنّ ديواناً مهمّاً لشاعر كبير هو عبد الله بن رواحة الشهيد في مؤتة قد ضيّع بعدما نُهِي عن رواية أشعاره التي كانت ضدّ مواقف قريش من الرسول ﷺ؛ مع أنها مليئة بمدح وتمجيد الرسول ﷺ وطافحة من قلب مليء بالإيمان والتضحية والشاعرية.[٩]

٤ ـ اعتماد المؤرخين في نقل النصوص الشعرية والأرجاز المقولة في يوم عاشوراء على أفراد الجيش الأموي أنفسهم؛ وهذا يعني اضطراباً لابدّ منه في أمانة النقل، قد يضيّع كثيراً من الأشياء التي لا يرتضيها الناقل (العدو).

ويمكن الجواب عن ذلك ـ على الترتيب ـ بالقول:

١ ـ إن الخدمة الجليلة التي قدّمتها نصوص الآثار والحفريات والألواح الطينية والمتحجرات لا تعني أنها تنفي ما سواها من وسائل الحفظ والتوثيق التاريخي. ثمّ إن هناك قرائن وأسراراً في كلّ نصّ شعري قد توصل إلى صاحبه الحقيقي؛ لأنها بمثابة البصمات التي لا يمكن تزويرها.

٢ ـ الاعتماد على الرواية الشفهية السابقة للتدوين كان يُعنى ـ أساساً ـ بعدد من الرواة المعروفين بشدة الحفظ ودقته، ولم يكن معتمداً على كلّ من هبّ ودبّ. وهذا ما يفسّر ما ورد من أنّ الشاعر يهتمّ بروايته إلى درجة أن يقول فيه شعراً

يرفع من قدره وينوّه باسمه.[١٠]

ثم إنّ التاريخ القديم ـ بل المعاصر أيضاً ـ قد حفظ لنا أسماء عدد من الرجال والنساء ممن امتازوا بموهبة حفظ عجيبة. وقد أدركتُ أحدَهم.[١١]

٣ ـ مع أنّ السلطات الأموية قد فعلت فعلها في التزوير والتحريف والتخريب، إلّا أن مساعيها تلك لم تكن تنجح جميعها. بل سرعان ما انكشف الزيف وبانت الحقيقة، ثمّ إنّ الأشعار التي سوف نتناولها كانت قد بلغت من الشهرة والشياع ما جعل من المستحيل تطويقها ومحوها من ذاكرة الأجيال والتاريخ؛ ولعلّ وصولها إلينا على الرغم من كلّ ذلك دليل على صحّتها وصدق نسبتها إلى أصحابها.

٤ ـ لم تكن رواية الأشعار مقتصرة على أفراد الجيش الأموي فقط، بل إن عائلة الإمام الحسين عليه السلام الكبيرة ـ المتميّزة بسرعة الحفظ ودقته ـ كانت تسمع وترى كلّ ما يقال ويجري.

ثمّ إن عدداً من المشتركين في قتال الإمام الحسين عليه السلام قد ندم على ما فعل، ولعلّه روى بعضاً من تلك النصوص تحت وطأة وخز الضمير.

ويضاف إلى ذلك أيضاً أن أحد أفراد أهل بيت الحسين عليه السلام قد نجا من القتل بعد أن أصيب بجروح بليغة في المعركة وهو الحسن المثنى ابن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام الذي تداوى عند أخواله قبل أن يعود إلى أهله.[١٢]

٥ ـ وجود شخصية تدّعي الحياد كانت تنقل الأحداث وترويها وهي شخصية حميد بن مسلم. وقد أخذ عنه الطبري وغيره.

٦ ـ وصول أحاديث صحيحة عن الإمامين زين العابدين وولده الباقر عليهما السلام تحدث عن جوانب من حوادث عاشوراء، بما في ذلك بعض النصوص الشعرية. وكانا قد شهدا المعركة.

٧ ـ خطّتنا الأساس في نقل النصوص الشعرية معتمدة على المصادر السنّية المشهورة، لا لأننا لا نثق بالمصادر الأخرى بل لأنّ المؤرخين وأصحاب الكتب من أهل السنة كانوا ـ في الأعمّ الأغلب ـ ينقلون الحوادث على أساس عدم تكفير الجانب الأموي. وهذا له أهمّية قصوى في إثبات صحة نسبة النصوص الشعرية لقائليها

عند من يحاول تبرير كلّ ما حصل ضمن إطار شرعي أو شبه شرعي، ويُحيل حساب الأشخاص وحكمهم إلى الله، غير مستبعد ـ إن لم يكن مقتنعاً ـ بإمكان أن يرضى الله عنهم جميعاً ويغفر للقاتلين والمحرّضين وقادة الفتن كما يغفر للمقتولين ويثيبهم.

وهذا الرأي على غرابته أفادنا كثيراً في الاطمئنان إلى تلك النصوص الشعرية التي رواها. إذ إننا نحصل على أشعار من مؤرخين محايدين مشفقين يحاولون الجمع والتأليف والتقريب بين ما فرّقت السيوف والأسنّة، مما يعني أنه يرفض كلّ نص لم تثبت عنده صحّته، حتّى لا يسمح بدخول نصوص منحازة أو مزوَّرة أو موضوعة.

وحين وصلنا إلى هذه المرحلة من الاطمئنان والاستئناس بصحّة كلّ نص نختاره، نحاول الآن استنطاقها وتحليلها وتسجيل بعض الملاحظات والاستنتاجات والقناعات من خلال نقدها ودراستها.

وبعد ذلك سنتناول بعضاً من النصوص الشعرية القريبة من هذا الحادث العظيم زمنياً باعتبارها ردّة فعل أولى على ما جرى. ثمّ نعرّج على ظاهرة تاريخية ـ اجتماعية ـ نفسية ظلّت مهيمنة على تراثنا التاريخي يتناقلها الرواة بكل ثقة واطمئنان وتصديق، تلك هي شعر الهواتف المجهولة ونواح الجنّ على قتل الإمام الحسين عليه السلام.

ومع أننا لا نقطع بحدوث هذا بل نظنّه صوتاً معارضاً خائفاً من الجهر ظلّ يعيش في وجدان المسلمين العرب، لذلك راحوا يصرّحون بمكنوناتهم الخطرة ملقين تبعتها الباهظة على عالم الجن المجهول ليتخلصوا من المطاردة والتنكيل الأموي، لكننا مع ذلك نذكرها لأنها أمست حالة حيّة مسيطرة على الأدب الشعبي والعقليّة العربية الإسلامية قروناً عديدة، بل إننا نجد كثيراً من الناس في هذا الزمان مع ما فيه من تطوّر وتنوّر ما يزال يعتقد بصحة ما روي من نوح الجن ويأخذ به أخذه بالمسلّمات.

سمات الشعر العاشورائي

حين نستقرئ نصوص الأشعار والأرجاز التي قيلت في عاشوراء المحرم سنة (٦١) للهجرة نجد قسَمات مشتركة بينها أعطتها التميّز والصبغة الخاصّة بها بالشكل الذي جعلها أكثر تطوّراً عمّا كانت عليه في الفترات السابقة. والذي لمسناه أنها ضاهت حتى تلك النصوص المقولة في صفين على الرغم من أنّ أدب معركة صفين كان قد بلغ مكانة سامقة بين أدب الحروب والمعارك الأخرى حتّى إنه يكاد يكون ملحمة شعرية واقعية اشترك فيها عشرات الشعراء والرجّاز.

ومن أوضح قسمات أدب يوم عاشوراء ما يلي:

١ ـ وضوح الرؤية من منظار إيماني

حيث نلاحظ طغيان حالة من الإيمان العميق عكست أرقى صُوَر التقوى والارتباط الحي الواعي مع الله من خلال رؤية صحيحة واضحة للكون والحياة متأثرة غاية التأثر بالقرآن الكريم والتعاليم الإسلامية المقدسة. وهذا الأمر نراه جلياً في أغلب تلك النصوص. وكأمثلة على ذلك قول الإمام الحسين عليه السلام في ليلة عاشوراء:

يا دهرُ أفٍّ لك من خليلِ	كم لك بالإشراق والأصيلِ
من صاحب أو طالب قتيلِ	والدهر لا يقنع بالبديلِ
وإنّما الأمر إلى الجليلِ	وكلُّ حيٍّ سالكُ السبيلِ[١٣]

وقول محمّد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

نشكـــو إلى اللهِ مــــنَ العــدوانِ فِـعالَ قَـوْمٍ فـي الردى عِـمْيانِ
قَـــد بـــدَّلُوا مـــعالِمَ الفُـرقانِ وَمُـــحكمَ التـــنزيلِ والتِّـــبيانِ
وأظهروا الكـفر مع الطُّغيـانِ(١٤)

وواضحة في هذا النص الأهداف الإصلاحية التي أرادت تحقيقها ثورةُ الإمام الحسين عليه السلام للرجوع إلى محكم التنزيل وتطويق ووأد مظاهر الكفر والطغيان.

٢ ـ التضحية من أجل الإمام الشرعي

إذ انطوت نصوص كثيرة على بوح صريح واعتقاد راسخ بأنّ التضحية من أجل الإمام الحسين هي واجب شرعي، وأن الاستشهاد دونه هو أقصر الطرق للفوز برضوان الله ونعيمه، وبأن الإمام عليه السلام هو خليفة المسلمين الشرعي وإمام زمانهم والقائم بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله فيهم؛ ومن تلك النصوص قول الطرمّاح حين حدا بركب الإمام الحسين عليه السلام:

يا ناقتي لا تذعري من زجْري وشـمِّري قـبل طلوع الفـجرِ
بـخيرِ ركـبانٍ وخـيرِ سفرِ حـتى تـحلّي بكـريم النـجْرِ
المـاجدِ الحـرِّ رحيبِ الصـدرِ أتـــى بـــه اللهُ لخـيرِ أمـرِ
ثمّـةَ أبقـاهُ بقـاءَ الدهـرِ(١٥)

وقول عبد الرحمن بن عبد الله اليزني:

أنـــا ابـــن عـــبد الله مـن آل يـزنْ ديـــني عـــلى ديـن عـليٍّ وحسـن
أضـــربكم ضـــرب فـتىً مـن اليـمنْ أرجـو بـذاك الفوز عـند المؤتمنْ(١٦)

وقول قرة بن أبي قرة الغفاري:

قـد عـلمتْ حـقّاً بـنو غفارِ وخـــندفٌ بـعد بـني نـزارِ
بأنّـــني اللـــيث لدى الغـبارِ لأضـــربنَّ مـــعشرَ الفـجّارِ
بكـــلّ عـــضب ذكـر بـتّارِ ضرباً وحتْفاً عن بني الأخيارِ
رهط النبيّ السادةِ الأبرارِ(١٧)

وقول جون مولى أبي ذر الغفاري:

كيف ترى الكفار ضرب الأسودِ ... بالمشرفيّ القاطعِ المهنّدِ

بالسيفِ صلنا عن بني محمّدِ ... أذبُّ عنه باللسان واليدِ

أرجو بذاك الفوز يوم الموردِ ... من الإله الواحد الموحّدِ

إذ لا شفيع عنده كأحمدِ(١٨)

وقول زهير بن القين الجبلي:

أنا زهير وأنا ابن القينِ ... أذودكم بالسيف عن حسينِ

إنّ حسيناً أحد السبطينِ ... من عترة البرّ التقيّ الزينِ

ذاك رسول الله غير المينِ ... أضربكم ولا أرى من شينِ(١٩)

٣ ـ الانغماس الكامل في عالَم الآخرة والجنة

ويبدو ذلك جلياً في عدّة نصوص، حيث تحدّثت عن عالم الغيب (الآخرة والجنة والموتى) بلسان الخبير البصير السميع، وكأن هناك ساعة امتزاج واقعي بين عالَمي الغيب والشهادة تكسر حدود الزمان والمكان والأبعاد، يقول سعيد بن عبد الله الحنفي:

أقدمْ حسين اليوم تلقى أحمدا ... وشيخك الخير علياً ذَا الندى

وحسَناً كالبدر وافَى الأسعدا ... وعمَّك القرْن الهجان الأصيدا

وذا الجناحين، هنوا وسعدا ... وحمزة الليث الهزبر الأسدا

في جنة الفردوس يعلو صُعُدا(٢٠)

ويقول الحجاج بن مسروق أو زهير بن القين:

أقدم هُدِيتَ هادياً مهديّا ... فاليومَ تلقى جدَّك النبيّا

ثمّ أباك ذا الندى عليّا ... ذاك الذي نعرفه الوصيّا

والحسنَ الخير التقي الوفيّا ... وذا الجناحين الفتى الكميّا

وأسد الله الشهيد الحيّا(٢١)

ويقول عبد الله بن مسلم بن عقيل:

اليوم ألقى مسلماً وهو أبي وفتيةً ماتوا على دين النبيّ
ليس كقوم عرفوا بالكذبِ لكن خيارٌ وكرامُ النسبِ
من هاشم الساداتِ أهل الادبِ(٢٢)

٤ ـ البطولة الواقعية

امتازت تلك النصوص بصدق بطولي بعيد عن الادّعاء والتكلّف، إضافة إلى ما امتازت به من صدق عقيدي وروحي. وقد كان لاتساق وتطابق القول مع الفعل رنين خاص زاد من بهاء النص الشعري حيث تتلازم الشجاعة مع المفردة حتّى النَفَس الاخير متوّجةً بنبل الموقف وشرف الأمانة ومسؤوليّة الكلمة. وفي هذا الإطار نسمع ـ مثلاً ـ قول عمر بن مطاع الجعفي:

انا ابن جعفٍ وأبي مطاعْ وفي يميني مرهف قطّاعْ
وأسمرٌ في رأسه لمّاعْ ترى له من ضوئه شعاعْ
اليومَ قد طاب لنا القراعْ دون حسين الضرب والنطاعْ
نرجو بذاك الفوز والرفاعْ عن حَرِّ نارٍ حين لا امتناعْ(٢٣)

وقول هلال بن رافع البجلي:

أنَا الغلامُ التممي البجليّ ديني على دين حسين بن عليّ
أنْ أقتل اليوم وهذا عملي وذاك رأيي أو الاقي أملي(٢٤)

وقول أبي بكر بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

شيخي عليٌّ ذو الفخار الأطولِ من هاشم الخير الكريم المفضلِ
هذا حسين ابنُ النّبي المرسلِ عنه نحامي بالحسام المصقلِ
تفديه نفسي من أخٍ مبجّلِ يا ربِّ فامنحني ثواب المنزلِ(٢٥)

وقول عمر بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

خلّوا عداة الله خلّوا عن عمَرْ خلّوا عن الليث العبوس المكفهرّ
يضربكم بسيفه ولا يفرّ وليس فيها كالجبان المستجرّ(٢٦)

وقول علي بن الإمام الحسين عليه السلام:

أنا عليُّ بن الحسين بن عليّ نحن وربّ البيت أولى بالنّبيّ
تالله لا يحكم فينا ابن الدعيّ[٢٧]

٥ ـ حيوية الإيقاع والقافية

تميّزت النصوص بمميزات فنية عديدة من حيث الايقاع واختيار المفردة وانتقاء القافية لتشكّل نمطاً منسجماً يتفاعل كلّ جزء فيه مع الآخر بحيوية جميلة وتلوّن شفاف. نرى ذلك من خلال عدة ايقاعات من بحر الرجز غلب عليها ضرب ليّن ينبئ عن الاستقرار النفسي والامتزاج الروحي المشعّ بالاطمئنان والذوبان في سبيل الهدف الأسمى، تُضارعه قافية هادئة دافئة توحي بالكثير وتشي بالأروع والأبهج وكمثال على ذلك قول الإمام الحسين عليه السلام المتقدم «يا دهر أفٍّ لك من خليل» وقول سعيد بن عبد الله الحنفي «أقدم هُدِيت هادياً مهدياً» والمقاطع المنسوبة إلى العباس بن الإمام علي عليه السلام[٢٨] التي تبدأ بهذه المطالع.

* والله ان قطعتمُ يَميني
* يا نفس لا تَخْشَيْ من الكفّارِ
* يا نفس من بعد الحسين هوني
* لا أرهب الموتَ إذا الموتُ رقى

الشعر ما بعد عاشوراء

الفترة التي تلت أحداث عاشوراء المحرم كانت تجمعها معه وشائج قربى نفسية وأدبية فضلاً عن الوشيجة التاريخية الملاصقة تماماً بل كأنها امتداد تاريخي عضوي بلا فاصل. وبلحاظ كثير من السمات والمميزات المشتركة بين حدث كربلاء الخالد وبين هذه الفترة التالية يمكن أن نصنّفها أدبياً ضمن هذا الفصل من الدراسة «الحسين.. الواقع والمعايشة».

ولعل حضور الإمام بكثافة على الساحة الشعرية ينمّ عن أنّ الشعراء والشواعر لم يهضموا بعد خبر مقتله أو لم يريدوا الرضا بهذا الأمر الواقع. ولعلّ

منهم من ناغى وتر تكذيب هذا الخبر داخلياً لما سمع الأخبار المذهلة عن طريقة قتل الإمام المأساوية التي لا يدركها التصور فضلاً عن التصديق.

لكن هذه الحالة كانت مؤقتة، إذ سرعات ما اكتسحتها القصائد العنيفة العويل التي أغرقت ـ دون ملل أو هبوط فني ـ في وصف الوحشة التي تركها رحيل سيد شباب أهل الجنة عن الدنيا، أو في الحديث عن هول تلك الرزية الجليلة. والمثال البارز على ما ذكرنا أوّلاً أبيات السيدة فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام:

نعق الغرابُ فقلت مَنْ	تنعاه ويحك يا غرابْ؟
قال: الإمام. فقلت: مَنْ؟	قال: الموفّق للصوابْ
قلت: الحسين. فقال لي	.. بمقال محزونٍ أجابْ:
إنّ الحسين بكربلا	بين الأسنّة والحرابْ(٢٩)

ولغة الحوار قد أضفت على الأبيات جمالاً ظاهراً وحركة فنية موحية.

وكمثال آخر على ذلك الأبيات الشجية الرائعة التي قالتها أمّ البنين (أمّ العباس وإخوته) زوجة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، والتي كانت عامرة بصورة ولدها العباس وهو يقاتل في يوم عاشوراء. وقد برعت في مستهلها حينما ركّزت على صورتَين متحرّكتَين معاً تمثّلان ولدها الشهيد من خلال مفردتين لكل منهما إيحاءان يتبادران إلى الذهن لانصراف اللفظ إليهما معاً بسبب تلازم القرينتين. وقد مهّدت لذلك باستفهام كبير يستبطن المعرفة المسبقة، مما ركّز حالة الأسى والشجو أكثر فأكثر. وأولى المفردتين هي «العبّاس» ذات الإيحاءَين المتلاصقين، فهي توحي أولاً باسم ولدها، وثانياً بالأسد، لأن العباس من أسماء الأسد والثانية «النقد» وهي تعبّر عن الهمج الرعاع الذين حشدهم الأمويون لقتال الإمام الحسين عليه السلام، وتحمل معنى آخر هو «الغنم القصار الأرجل». وبين هذين المديين يتحرك الخيال راسماً صورةَ بطلِها الشهيد:

يا من رأى العباس كرّ	على جماهير النقدْ
ووراه من أبناء حيـ	ـدر كلُّ ليث ذي لبدْ
أنبئت أن ابني أصيـ	ـب برأسه مقطوع يدْ

ويلي على شبلي أما ... لَ برأسه ضرب العمد
لو كان سيفك في يدي ... لك لما دنا منه أحد(٣٠)

لكن هذه الحالة قد غطّت عليها صرخات اللوعة والاحتجاج والثأر، فكان حضور الإمام الحسين عليه السلام فيها حضوراً تحريضياً وتثويرياً، بدءاً من حالة الندم والاستغفار، وانتهاءً بالتصميم على الثورة، حتّى الفناء الأخير، كما حدث في ثورة التوّابين.

ومن الأمثلة على ذلك قصيدة عبيد الله بن الحر الجعفي الذي دعاه الإمام إلى نصرته لكنه لم يفعل، وفيها يقول:

فيالك حسرةً مادمت حياً ... تردّد بين حلقي والتراقي
حسينٌ حين يطلب بذْل نصري ... على أهل الضلالة والنفاقِ
غداةَ يقول لي بالقصر قولاً ... أتتركنا وتزمع بالفراقِ؟
ولو أنّي أواسيه بنفسي ... لنلت كرامةً يوم التلاقي
مع ابن المصطفى روحي فداهُ ... تولّى ثمّ ودّع بانطلاقِ
فلو فلق التلهّفُ قلب حيٍّ ... لهمّ اليوم قلبي بانفلاقِ
فقد فاز الأُلى نصروا حسيناً ... وخاب الآخرون إلى النفاقِ(٣١)

وقصيدته الأخرى التي أوّلها:

يقول أميرٌ غادرٌ وابن غادرٍ ... ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمه
ونفسي على خذلانه واعتزالهِ ... وبيعةِ هذا الناكث العهد لائمه(٣٢)

وقد كان لركب سبايا الإمام دور مهم في تأجيج ذكريات المأساة من ثلاثة طرق:

الأوّل: الوصف الحي للحدث.

الثاني: الرثاء بوتائر عالية مليئة بالأسى واللوعة والحنين.

الثالث: المحاجحة العقليّة والعاطفية في ضوء القرآن وسنة الرسول.

ولعلّ من أوضح الأدلة التي جمعت بين هذه الطرق الثلاثة أبيات أمّ لقمان

بنت عقيل بن أبي طالب على قلّتها وسرعة التناول فيها، وهي هذه:

مــــاذا تــقولون إن قــال النـبيُّ لكُـمْ ... مــــاذا فـــعلتم وأنـــتم آخـر الأمــمِ

بـــعترتي وبأهـــلي بـــعد مـفتقدي ... مــنهم أسـارى ومـنهم ضُـرِّجوا بـدمِ

مـا كـان هـذا جـزائي إذ نـصحتُ لكـم ... أن تخلفوني بسوءٍ في ذوي رحمي(٣٣)

وكتلك قول الشاعر الهاشمي المعروف الفضل بن العباس اللهبي:

بكـــيتُ لفـــقد الأكـــرمين تـتابعوا ... لوصـــل المـــنايا دارعــون وحسّــرُ

مـن الأكـرمين البـيض مـن آل هـاشمٍ ... لهـم سَـلَفٌ مـن واضـح المـجد يُـذكرُ

بـهم فـجعتنا والفـواجـع كـاسمها ... تـــميم وبكـــر والسكــون وحـمْيرُ

وفــي كـلّ حـيّ نـضحة مـن دمـائنا ... لبـــني هـــاشم يـعلو سـناها ويُشـهرُ

فـــلله مـــحيانا وكـــان مـــماتنا ... ولله قـــــتلانا تــــدان وتـــنشرُ

لكـــل دمٍ مـــولى ومـــولى دمـائنا ... بـــمرتقب يـــعلو عـــليكم ويـظهرُ

فســـوف يـرى أعـداؤنـا حـين نـلتقي ... لأيّ الفـــــريقين النـــبيّ المـــطهّرُ

مـــصابيح أمـــثال الأهـــلّة إذ هُـمُ ... لدى الحرب أو دفع الكريهة أبصرُ(٣٤)

وقصيدة أبي دَهْبَل الجمعي (وهب بن زمعة) قد جمعت كلّ ذلك أيضاً في أبيات كثيرة نقتطع منها هذه:

إليك أخـا الصبّ الشـجيّ صـبابةً ... تذيب الصخور الجامدات همومُها

أولئك آل الله آل مـــــحمّدٍ ... كـرام تـحدّت مـا حداهـا كـريمُها

ضـياغم أعـطين الضـياغم رفـعةً ... فـحمد العـلى لولا عـلاهم ذميمُها

يـخوضون تـيار المـنايا ظـواميـاً ... كما خاض في عذب الموارد هيمُها

فأقســم لا تــنفك نـفسي جـزوعةً ... وعـيني سـفوحاً لا يـملّ سـجومُها

حـــياتي أو تـــلقى أمّـيةُ وقـعةً ... يـذل لهـا حـتّى المـمات قرومُها

لقد كان في أُمّ الكتاب وفـي الهـدى ... وفي الوحي لم ينسخ لقومٍ علومُها

فـرائـض فـي القـرآن قـد تـعلمونها ... يلوح لذي اللبّ البصير أرومُها(٣٥)

ونجد من النصوص ما اختصت بواحدة من هذه الثلاث فأودع فيها قائلها كلّ ما يثور في قريحته، لتكون بدايات تأسيسية لبحر الشعر الحسيني المتلاطم

الأمواج، المفعم العواطف والذي شهد تحولات وتطورات لم تترك آثارها على هذا الشعر وحده؛ بل طبعت بطابعها وجهة الشعر العربي بأكمله منذ القرن الأوّل الهجري سواء كان ذلك عن طريق مباشر أو غير مباشر.

شعر الجن والهواتف المجهولة

لقد عاشت أحداث عاشوراء بالوجدان الشعبي مزيجاً قد يستحيل فصلُهُ بين الواقع والخيال، حتّى إنّ الباحث يجد كثيراً من العناء والعنت وهو يحقّق في تاريخ تلك الحوادث. ومما يزيد في الصعوبة والحرج هو ربط الخيال بالعقيدة الإسلامية، والثوابت المقدسة من قرآن وسنة.

والمدهش أن المسلمين جميعاً يشتركون في هذا وغيره الذي يحظى بنصيب في الواقع على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ومراتبهم. حتّى إننا نجد في كلّ كتب التاريخ أشياء تُروى وتُذكر وكأنها من المسلّمات، بل أقوى من المسلّمات لأنها مدعومة بحديث عن الرسول ﷺ. ومؤكّدة في محضر خليفة أموي. والخليفة يؤيدها بكل قوّة. ومثال على ذلك الروايات الكثيرة التي تقول: إنّ كلّ حجر رُفِعَ في بيت المقدس وُجِدَ تحته دم في يوم عاشوراء حين قتل الحسين عليه السلام. وتنصّ على ذلك كتب أهل السنة نقلاً عن الزهري الذي ذكرها في مجلس عمر بن عبد العزيز الذي أيّدها بقوّة.(٣٦)

وكذلك ما كثرت روايته عن أُمّ المؤمنين أُمّ سلمة (رضي الله عنها) التي أعطاها رسول الله ﷺ حفنة من تراب كربلاء في قارورة كان قد جاءه بها الأمين جبرئيل عليه السلام لتكون علامة قتل سبطه الحسين عليه السلام إذا ما تغيّر ذلك التراب وصار دماً.

وقد أعطى هذا الكمّ الموثّق تاريخياً والقابل للتصديق بحدّ ذاته، دعماً وزخماً لتصديق ما يقال عن شعر (الجن) مع أنّه بعيد عن دائرة التصديق. وهكذا ظهرت وشاعت (الأشعار الجنية) وصرخات (الهواتف الغيبية) التي أعطت صورة واضحة عمّا يعتمل في قلوب الرأي العام إبّان تلك الفترة الحرجة القاسية.

ومن الأمثلة على ذلك ما رواه الطبري في تاريخه(٣٧) وابن الأثير في

كامله،(٣٨) من أن أم سلمة سمعت هاتفاً يقول:

أيّـها القـاتلون جـهلاً حسـيناً   أبشـــروا بـالعذاب والتـنكيلِ
قد لُعنتم على لسان ابـن داوود   ومــوسى وصـاحبِ الانــجيلِ

وقد نقل ابن حجر(٣٩) والسيوطي(٤٠) وابن عساكر(٤١) وصاحب الصواعق المحرقة(٤٢) وغيرهم، أنّ القوم لما ساروا برأس الحسين وبسباياه نزلوا في بعض المنازل ووضعوا الرأس فلم يشعروا إلّا وقد ظهر قلم حديد من الحائط وكتب بالدم:

أتــرجـو أمّـةٌ قـتلتْ حسـيناً   شفاعةَ جدِّهِ يومَ الحسـابِ؟

وأمثال هذا كثيرٌ مثير تغصّ به كتب التاريخ، ولا نذكر المزيد خشية الإطالة. هذا فضلاً عمّا أكّده الأوائل من هبوب الريح العاصفة الحمراء فـي يـوم عـاشوراء، ومطر السماء دماً، وبكاء الشمس على الإمام الشهيد، والحمرة التي تصبغ السماء. وما إلى ذلك(٤٣) حيث انطبع على أدب الفترات اللاحقة، وتوثّقَ في آلاف النصوص الشعرية.

الهوامش

١ ـ كنز العمال. علاء الدين علي المتقي ٧ : ٢٦ ، ١٢ : في خمسة مواضع ، ١٣ : ٦٦١ .

٢ ـ أعلام الورى . للطبرسي ٢١٩ .

٣ ـ كنز العمال. علاء الدين المتقي ، ١٢ : ١١٥ .

٤ ـ يذكر الأستاذ الشيخ أسد حيدر في كتابه « مع الحسين في نهضته » أن بعض الرسائل قد أحصى مئة ألف مقاتل منضوين تحت أسماء عشائر معروفة .

٥ ـ تاريخ دمشق لابن عساكر . ومختصر تاريخ ابن عساكر للعلامة ابن منظور (٧ : ١ ـ ١٣٢) .

٦ ـ وهي مدرسة شعرية معروفة تضرب بجذورها في عمق العصر الجاهلي وتمتدّ إلى ما بعد القرن الهجري الأوّل وشعراؤها فحول كلٌّ يروي شعر سابقه .

٧ ـ أوضح الأدلة على ذلك أشعار حسّان بن ثابت في حقّ الإمام علي عليه السلام ومنها القصيدة المرتجلة في يوم غدير خم ، ومطلعها :

يناديهمُ يومَ الغدير نبيُّهُمْ ... بخمٍّ وأسمعْ بالرسول مناديا

وللمزيد من التفصيل راجع كتاب الغدير للأميني ـ بداية الجزء الثاني .

٨ ـ لقد أرفقت القصيدة هذه في إحدى طبعات الديوان . والمقطع المحذوف يبدأ بقوله :

إنّ عـــلياً لمـــيمون نــقيبتُهُ ... فكلّ من رامه بالفخر مفخورُ .

٩ ـ للمزيد من التفصيل راجع كتاب « النبي وآله في الشعر العربي » الذي تعدّه للطبع الآن دار الأدب الإسلامي .

١٠ ـ كما قال كعب بن زهير بيته الشهير في الحطيئة حين طلب منه أن يقول فيه شعراً :

فمن للقوافي................. ... إذا ما قضى كعب وفوّز جرول

١١ ـ هو الشيخ عبد الكريم فرج الله توفي عام ١٤١١ . كان يحفظ المجلس الحسيني كاملاً من بدايته إلى آخر كلمة يلفظها الخطيب ، حينما كان صبياً . ومرةً سمع من الشيخ عبد المنعم الفرطوسي قصيدةً ناهزت ثمانين بيتاً فأعادها عليه كاملةً بعد نزوله من منصة الاحتفال ، فقال له الفرطوسي : والله لقد كتبتها البارحة ولم يطّلع عليها أحد

١٢ ـ يروي الطبري أن مولى الرباب بنت امرئ القيس الكلبية زوجة الإمام الحسين عليه السلام واسمه عقبة بن سمعان لم يقتل أيضاً .

١٣ ـ تاريخ الطبري ٣ : ٣١٦ . والبداية والنهاية ٨ : ١٦٧ ؛ والكامل في التاريخ ٣ : ٢٨٥ .

١٤ ـ الفتوح لابن أعثم ٥ : ١١١ .

١٥ ـ تاريخ الطبري ٣ : ٣٠٧ ؛ البداية والنهاية ٨ : ١٦٤ ؛ الكامل في التاريخ ٣ : ٢٨١ .

١٦ ـ الفتوح لابن أعثم ٥ : ١٠٦ .

١٧ ـ هكذا روي في الفتوح ، لكنه في تاريخ الطبري هكذا :

قد علمت حقاً بنو غفارِ ... وخندق بعد بني نزارِ

لنضر بنّ معشر الفجّار ... بكلّ عضب صارم بتّارِ

يا قوم ذو دوا عن بني الأحرار ... بالمشرقيّ والقنا الخطّارِ .

١٨ ـ الفتوح ٥ : ١٠٨ .

١٩ ـ الفتوح لابن أعثم . ولم يذكر الطبري سوى البيت الأوّل .

٢٠ ـ الفتوح ٥ : ١٠٩ . لكن الطبري نسبها إلى زهير بن القين على هذا الترتيب :

أقدم هديت هادياً مهديّا ... فاليوم تلقى جدّك النبيّا

وحسناً والمرتضى عليّا

وذا الجناحين الفتى الكميّا

وأسد الله الشهيد الحيّا

وقد ذُكرت في البداية والنهاية أيضاً ٨ : ١٧٤ .

٢١ ـ الفتوح ٥ : ١١١ . وعلى منوالها رجز حبيب بن مظاهر الاسدي الذي رواه الطبري في تاريخه ٤ : ٢٣٥ . ولم نذكره للاختصار .

٢٢ ـ الفتوح ٥ : ١٠٧ . وقد ذُكر الشطر قبل الأخير هكذا : نرجئ بذاك الفوز والرفاع .

٢٣ ـ الفتوح ٥ : ١١٠ .

٢٤ ـ الفتوح ٥ : ١١٢ .

٢٥ ـ الفتوح ٥ : ١١٣ .

٢٦ ـ تاريخ الطبري ٤ : ٢٤٠ ؛ مروج الذهب ٣ : ٧٣ . مع بعض الاختلاف .

٢٧ ـ لم أجد في أغلب المصادر السنية ذكراً لأرجاز العباس عليه‌السلام ولذا لم أذكر ما أُثر عنه في المصادر الشيعية إلّا المطالع حسب خطة البحث . ومن شاء فليراجع في تلك المصادر وما أكثرها .

٢٨ ـ الدر المنثور في طبقات ربات الخدور . وأدب الطف للسيد جواد شبر .

٢٩ ـ أدب الطف ١ : ٧١ .

٣٠ ـ أدب الطف ١ : ٩٦ ـ ٩٧ .

٣١ ـ تاريخ الطبري ٤ : ٣٦٠؛ أدب الطف ١ : ٩٧؛ الكامل في التاريخ ٤ : ٢٣٧.

٣٢ ـ مروج الذهب ٢ : ٧٥، تاريخ الطبري ٤ : ٣٥٧، الكامل في التاريخ ٤ : ٣٩.

٣٣ ـ أدب الطف ١ : ١٢٦.

٣٤ ـ أدب الطف ١ : ١٣٣.

٣٥ ـ نقل ابن عبد ربه في العقد الفريد القصة بالكامل ٢ : ٣٦١. كما نقلها كثير غيره.

٣٦ ـ راجع كنز العمال وغيره من كتب التاريخ.

٣٧ ـ ٦ : ٢٦٩.

٣٨ ـ ٤ : ٤٠.

٣٩ ـ الخصائص ٢ : ١٢٧.

٤٠ ـ مجمع الزوائد ٩ : ١٩٩.

٤١ ـ تاريخ ابن عساكر ٤ : ٣٤٢.

٤٢ ـ ص ١١٦.

٤٣ ـ يوجد تفصيل ذلك في كتب التاريخ التي تناولت تلك الأحداث. فمن أرادها فليطلبها في مظانّها.

ثقافة عاشوراء
وجذور الوعي عند النخبة

ماجد الغرباوي

أفرزت عمليّة تعيين من يخلف رسول الله ﷺ بعد ارتحاله أحداثاً أرخت بظلالها على الواقع الإسلامي، فخلّفت وراءها انقسامات لم تزل تفتّ بعضد المسلمين حتّى الآن، وتركت حالة من الشك تجسّد في ردّة بعض القبائل المسلمة في أوّل تجربة لهم بعد غياب الرسول ﷺ، وتخلّف نخبة من الصحابة، بدوافع مختلفة عن البيعة.

ورغم قرب المسلمين من عهد النبيّ ﷺ إلاّ أنّ حداثة الأغلب في الإسلام أفرز ضبابية أعاقت تحديد الموقف السياسي الصحيح، ربّما على الجميع، باستثناء رموز الوعي في الخط الإسلامي الأصيل.

وليس هدفنا هنا متابعة سياق الأحداث والنتائج التي تمخضت عنها إلّا بقدر ما تقتضيه الضرورة، كشواهد لما تقصده هذه الدراسة، أي تلمّس البدايات الأولى لتكوّن الوعي عند النخبة المؤمنة، وانعكاسه على الأمّة، وقدرته على تفعيل الأحداث وتحريك الساحة، ابتداءً من العصر الأوّل وانتهاءً بالثورة الإسلامية المباركة في إيران.

الدور التاريخي للنخبة

رغم الضبابية التي اكتنفت الأحداث، إلّا أنّها لم تنطلِ على المبدئيّين من الصحابة، بل استطاعوا تحديد الموقف الصحيح وتشخيص المسؤوليّة الشرعية تجاه تلك الأحداث، التي تمخّضت عن استبعاد الإمام عليّ عليه السلام وخطّه السياسي.

فالنخبة من أمثال (أبي ذر الغفاري وعمّار بن ياسر ومالك الأشتر وغيرهم) قد أدّوا دوراً تاريخياً في عمليّة التغيير والوعي الذي أحدثوه في صفوف الأمّة الإسلامية، لاسيّما بعد التحوّلات السياسية والاجتماعية التي حدثت في زمان الخليفة الثالث.

ولكي نقف على الأبعاد الحقيقية لأولئك النفر من الصحابة، ينبغي أن نعود إلى المبادئ التي تمّ في ضوئها انتخاب الخليفة الأوّل؛ ولعلّ أفضل من بيَّن تلك المبادئ بصراحة كاملة هو الخليفة عمر بن الخطاب، حيث قال لعبد الله بن عباس حينما دار بينهما حديث عن ملابسات السلطة السياسية آنذاك، فقال: «إنّ الناس قد كرهوا أن يجمعوا لكم النبوّة والخلافة، وإنّ قريشاً اختارت لنفسها فأصابت»(١).

هذا هو المنطق الذي ساد يوم السقيفة، وهو المنطق القرشي الذي اعتمد المقياس القبلي في ترشيح الخليفة، فسارت الأحداث وفق المسار الذي خُطّ لها، فأنتجت واقعاً كان له آثار سيئة، اتّضحت أكثر في زمان الخليفة الثالث، حيث استطاع الحزب الأموي أن يستغل ضعف الخليفة وتساهله ليمتدّ في أرجاء الخلافة الإسلامية وأمصارها.

وفي ظل تلك الظروف تحرّكت النخبة لتجسّد المبادئ الإسلامية عبر السلوك المشرق وإشاعة المفاهيم الصحيحة وسطَ الأمّة وتقديم الإرشادات والنصائح لخليفة المسلمين.

فكان أوّل موقف لهم بعد (السقيفة) هو مساندة الحكم الإسلامي والحفاظ على وحدة المسلمين، وهذا ما أكّده الإمام علي عليه السلام حينما قال:

«لا سلمت ما سلمت أُمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلّا عليّ خاصّة»(٢).

وقد حفظ التاريخ مواقف مبدئية كثيرة للإمام علي عليه السلام في الرأي والقضاء والحكم، سواء في زمن الخليفة الأوّل أو الثاني أو الثالث. فمبدئية الإمام علي لم تسمح له أن يتخلّى عن دوره الرسالي رغم إقصائه عن موقعه الحقيقي. ولعل مبدئيته عليه السلام كانت سبباً آخر للتواطؤ ضدّه، يقول الدكتور محمّد عمارة بهذا الصدد:

«ونحن نعتقد أن نفراً من قريش قد مالوا بالخلافة عن علي بن أبي طالب،

لأنّهم كانوا يخشون من علي نهجاً اجتماعياً ثورياً ومتقدّماً ـ على الأقل كان هذا موقف قلّة قليلة منهم لايكنّون له المحبّة ولا الولاء ـ ونعتقد كذلك أن هذا التيّار القرشي القديم الذي يمثّله هذا النفر من الأغنياء ومن سار في طريقهم، قد عجزوا عن أن يحقّقوا مطامحهم الاجتماعية والطبقية في زمن أبي بكر وزمن عمر بن الخطاب، لأسباب كثيرة... ولكنّهم حقّقوا مطامحهم الاجتماعية على حساب التعاليم الاجتماعية الثورية التي بشّر بها الإسلام، وعلى حساب جماهير الفقراء، عندما تولّى الخلافة عثمان بن عفّان. فلقد حدثت يومئذ التحوّلات الاجتماعية التي عارضها علي وأنصاره، والتي استفاد منها أغنياء قريش القدامى، ومن سار في طريقهم الاجتماعي، وهي التحوّلات التي ثار عليها الناس حتّى بلغوا في ثورتهم حدّ قتل الإمام*، ثمّ فرضوا على بقايا رؤوس قريش مبايعة علي بالخلافة كي يقوم بالتغيير لما وقع في ظل حكم عثمان بن عفان»(٣).

ورغم الحصار السياسي الذي حدّد حركة الإمام، إلّا أن معالم خطّه السياسي أخذت تتضح رويداً رويداً، وبدأت تتجسّد عبر مواقف النخبة المؤمنة من أمثال: سلمان وعمّار وأبي ذر الغفاري والمقداد وحجر بن عدي... وغيرهم. فإبان الشورى التي عيّنها عمر بن الخطاب والتي كان يُراد لها انتخاب الخليفة الثالث، انبرى عمّار بن ياسر مشيراً على المسلمين: «إن أردتم ألّا يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا عليّاً»(٤)، في ردّه على عبدالله بن سعد بن أبي سرح الأموي الذي كان يقول: «أيّها الملأ إن أردتم ألّا تختلف قريش فيما بينها فبايعوا عثمان»(٥).

فمنطق أنصار عثمان هو منطق السقيفة نفسه، حيث اعتبر الحكم مؤسسة قرشية تتداولها قريش، بعيداً عن مبادئ الإسلام في الحكم؛ لذا يُجيب عبدالله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي المقداد بن عمرو، الذي كان يُعدّ من أقطاب النخبة آنذاك، بقوله: «يابن الحليف العسيف، ومتى كان مثلك يجترئ على الدخول في أمر قريش»(٦).

فالمقداد كان يتحرّك بمنطق إسلامي، حيث شخّص الفرد المناسب في ضوء

---

* يقصد عثمان.

الأصالة الإسلامية، وفي إطار المبادئ الإسلامية.

ومن جهة أخرى نرى أبا ذر يقف في زمان الخليفة الثالث مواقف رساليّة لم تستطع مؤامرات السطو على التاريخ إخفاءها أو تمريرها بالشكل الذي ينسجم مع مصالحها ورغباتها.

فأبو ذر صحابي جليل، ومن الأوائل الذين أسلموا مبكراً، ورافق الرسولﷺ خلال مسيرته الخالدة فتزوّد من علمه، وتخلّق بأخلاقه، لذلك اتضحت عنده معالم الرسالة وأبعادها الحقيقية، وعرف ما ينبغي أن يكون عليه خليفة المسلمين من سلوك متّزن وحنكة وشجاعة في ذات الله، وكان أبو ذر صادق اللهجة، يعيش حالة من التوازن بين ما يحمله من مفاهيم رسالية وإنسانية، وبين سلوكه الذي عبّر عنه بمواقف جريئة وشجاعة. كما يتمتّع أبو ذر بوعي يحول دون أن تنطلي عليه الأساليب اللاإسلامية، فكان‏رضي الله عنه يعي ما سيؤول إليه الوضع الإسلامي من أجواء سيطرة الحزب الأموي على مقاليد الحكم، سواء في المدينة أو في الأمصار الإسلامية، ذلك الحزب الذي استغلّ ضعف الخلافة آنذاك، فانطلق يتحرّك بسرعة، يحكمه منطق العصبية القبليّة التي عبّر عنها أبو سفيان في مجلس عثمان بُعيد انتخابه للخلافة، إذ قال لبني أُمية وكان قد كُفَّ بصره: «أفيكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يابني أُمية، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، مازلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة...»(٧).

فتشخيص أبي ذر كان وفق رؤية واضحة وانطباع متكامل عن الحزب الأموي وسابقته مع بداية الدعوة الإسلامية، وموقفه العدواني من شخص الرسولﷺ. وقد صدق أبو ذر بذلك فـ«في زمن قصير من خلافة عثمان، تغيّرت الحالة الروحية في الأمّة تغيّراً محسوساً، وأشدّ ما كان منها ظهوراً في سير العمال والأمراء وذوي القربى من الخليفة، وأرباب الثروة بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى أُمراء، وطبقة أشراف، وأخرى أهل ثروة وثراء وبذخ.

وانفصل عن تلك الطبقات: طبقة العمّال وأبناء المجاهدين، ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحمية والسابقة في تأسيس المُلك الإسلامي وفتوحاته، ونشر الدعوة، وصار يعوزهم المال الذي يتطلّبه طرز الحياة، والذي أحدثته الحضارة

الإسلامية، إذا كانوا مع جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لايستطيعون اللحاق بالمنتمين إلى العمّال ورجال الدولة، وقد فشت العزّة والاثرة والاستطالة، وتوفّرت مهيئات الترف في حاشية الأمراء، وأهل عصبتهم، وفي العمال، وبمن استعملوهم وولوه من الأعمال... إلخ. فنتج عن مجموع تلك المظاهر التي أحدثها وجود الطبقات المتميّزة عن طبقة العاملين والمستضعفين من المسلمين، تكوّنُ طبقة أخذت تتحسس بشيء من الظلم، وتتحفّز للمطالبة بحقهم المكتسب من موارد النصّ...

وكان أوّل من تنبّه لهذا الخطر الذي يتهدّد الملك والجامعة الإسلامية الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري...»[٨] حيث وقف الرجل بكل شجاعة ليحول دون سيادة مفاهيم غريبة على الواقع الإسلامي. ففي أوّل خطوة جريئة بهذا الاتجاه صعّد أبو ذر الموقف في مجلس الخليفة الثالث ضد التنظير الخاطئ لموارد صرف الأموال وتوزيع الثروات. فكان رأيه ﷺ ضد إطلاق اليد لعثمان وولاته في التصرّف بأموال المسلمين، وكان يرى وجوب فرض ماهو أكثر من الزكاة في أموال الناس، فالتاريخ يروي لنا قصّة المواجهة الأولى بين خطّين فكريين وجبهتين سياسيتين، الأوّل: خطّ النخبة التي مثّلها هنا أبوذر الغفاري، والخطّ الآخر هو الذي مثّله عثمان بن عفّان وكعب الأحبار. وقصّة المواجهة كالآتي:

قال عثمان: أرأيتم من زكّى ماله، هل فيه حقّ لغيره؟

فقال كعب: لا يا أمير المؤمنين.

فدفع أبوذر في صدر كعب، وقال له: كذبت يابن اليهودية ثمّ تلا: ﴿ليس البرّ أن تولُّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب...﴾.

فقال عثمان: أترون بأساً أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أُمورنا، ونعطيكموه؟

فقال كعب: لا بأس بذلك.

فرفع أبو ذر العصا، فدفع بها في صدر كعب، وقال: يابن اليهودية ما أجرأك على القول في ديننا؟

فقال عثمان: ما أكثر أذاك لي! غيّب وجهك عنّي فقد آذيتنا.

فخرج أبو ذر إلى الشام[٩].

فهذا الموقف يعبِّر عن وعي متطوّر لدى أبي ذر. فهو لا يرى أن للخليفة حق التصرّف في أموال المسلمين في ضوء ما تمليه عليه المحسوبية والمنسوبية ومراتب الولاء لشخص الخليفة، بل إنّ أموال الله ينبغي أن تُصرف في مصالح المسلمين، ولسدّ حاجة الفقراء منهم.

وقد انعكس وعي النخبة، المتمثّلة بالإمام علي عليه السلام وأصحابه على وعي الأمّة وشعورها بمسوؤليتها تجاه الإسلام وحقوق المسلمين. ففي الشام لم تسمح مبدئية أبي ذر باتخاذ مواقف مسالمة إزاء مايجري هناك، بل رفع الرجل عقيرته عالياً يحرّض الناس ضد السياسية الأموية، حتّى نجح في خلْق معارضة قِوامها الفقراء والمساكين، تطالب باسترداد الحقوق من السلطة والأغنياء على السواء، حيث صوَّر لنا ذلك ابن الأثير حينما قال عنه: «مازال حتّى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وشكا الأغنياء ما يلقونه منهم»[١٠].

ورغم ما لاقاه أبو ذر من تعذيب ومحاصرة، إلّا أنّه استطاع أن يؤسّس وعياً جماهيرياً ساهم في تأجيج الثورة ضد الحكم الارستقراطي الذي استأثر بأموال المسلمين وأوجد نظاماً إقطاعياً مقيتاً برزت فيه مظاهر الثراء والبذخ على عدد كبير من الصحابة؛ فقد أُحصيت ثروة الزبير بن العوّام عند وفاته بـ(٥٠) ألف دينار، وألف فرس، وألفاً من الإماء والعبيد[١١]. ودخْل طلحة بن عبيد الله في اليوم الواحد ألف دينار[١٢]. وأصبحت ثروة عبدالرحمن بن عوف مضربَ الأمثال[١٣]، وثروة زيد بن ثابت يوم مات من الذهب والفضة ما كان يُكسَّر بالفؤوس، غير ما خلّفه من الأموال والضياع بقيمة مئة ألف دينار[١٤]. وترك عثمان ١٥٠ ألف دينار، ومليون درهم عدا الضياع والخيل والإبل[١٥].

تكامل الوعي لدى الأمّة

أفرزت جهود النخبة المكثّفة وسط الأمّة تيّاراً جماهيرياً قاد التحرّك ضد الانحراف والتحوّل الذي طرأ على المجتمع بسبب السياسة غير المتوازنة للخليفة

الثالث، وسيطرة الحزب الأموي المعادي أساساً للإسلام ومبادئه على مقاليد السلطة في أرجاء الدولة الإسلامية.

ولعلّ أبرز ما حققته النخبة على مستوى وعي الأمّة مايلي:

١ ـ أعادت للأمّة حقّ النقد وعلى جميع المستويات، إذا كانت الممارسة النقدية ممارسة إيجابية وبنّاءة.

٢ ـ وعي الأمّة لحقيقة الحكم والسلطة في الإسلام، ومعرفة حدود الدائرة التي يتمكّن الخليفة التحرّك فيها.

٣ ـ تعميق الشعور بالمسؤوليّة لدى الأمّة تجاه الإسلام ومبادئه.

٤ ـ تصحيح المفاهيم الخاطئة عن الحكم والسلطة وتوزيع الثروات والأموال.

٥ ـ إفشال محاولات تزييف الوعي، وبيان حقائق الأمور للأمّة في إطار الرسالة السماوية.

٦ ـ إنّ قدسية الخليفة مرهونة بمدى تمسّكه بالمبادئ الإسلامية الصحيحة.

٧ ـ تمكّن الأمّة من التدخّل المباشر لإنقاذ الموقف، وإعادة المياه إلى مجاريها الطبيعية.

وفي ضوء الوعي الجديد، قامت الأمّة الإسلامية بعملين:

الأوّل: الثورة على الخليفة وقتله.

الثاني: الإصرار على تولّي الإمام علي عليه السلام خلافة المسلمين باعتباره الشخص الوحيد الذي تتمثّل به خصائص القيادة الإسلامية.

وقد انطلقت الأمّة ـ رغم المؤامرات المتتالية ـ مع الإمام في مسيرته الإسلامية وفْق مبادئ الإسلام ومفاهيمه في العدل والحرية.

وهكذا استطاع خطّ الوعي أن يكوّن دولة رساليّة بعد أن خاض معركة تصحيح المفاهيم بضراوة، وبدأ يشقّ طريقه لبناء مجتمع العدل الذي تسوده القيم الإلهية والإنسانية، لذلك لم تنجح جميع المحاولات لحرف الإمام عن مبادئه التي آمن بها، فالمحاولات التي كانت تجري لتزييف الوعي، كان الإمام عليه السلام يواجهها بوعي رسالي يكشف عن نواياها ويضعها في مواجهة الحقيقة. وقد خلّد لنا التاريخ

مواقف جليلة للإمام عليه السلام في هذا المضمار لابدّ من التعرّض لجانب منها للوقوف على الحقيقة من خلال أحداث التاريخ. ففي مجال إدارة البلاد أصرّ (الامام) عليه السلام على عزل ولاة عثمان، الذين كانوا سبباً رئيسياً في تأجيج الثورة على عثمان، ورفض كلّ المساعي لإبقائهم. وليس إصرار الإمام على إقصاء أولئك الولاة بدوافع غير مبررة، وإنّما جعل الأولوية في ذلك للكفاءة وليس للولاء. وقد أوضح الأسباب في خطبته الآتية:

«ولكني آس أن يلي أمر هذه الأمّة سفهاؤها وفجّارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإنّ منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حدّاً في الإسلام، وإنّ منهم من لم يُسلم حتّى رضخت له على الإسلام الرضائخ...»(١٦).

ولو أنّ الإمام استجاب لضغوط بعض الصحابة بالإبقاء على ولاة عثمان لساهم ذلك في إضعاف المعارضة وتفتيتها، إلّا أنّ الإمام عليه السلام يعي جيّداً أنّ تلك الاستجابة ستكون على حساب المبادئ والمفاهيم الصحيحة، وستزيّف وعي الأمّة، لذا قبل بالمواجهة من أجل أن تعي الأمّة مسؤوليتها تجاه الدين والرسالة الإسلامية الخالدة.

وفي مجال السياسة الماليّة ساوى الإمام في العطاء بين جميع الطبقات، ووفق مقياس التقوى، ولم تستأثر النخبة بشيء من العطاء، على خلاف سياسة عثمان التي ساهمت في نشوء الطبقة الارستقراطية. فالنخبة في سياسة الإمام علي عليه السلام ساهمت في تشكيل وعي الأمّة إلّا أنّها لم تتحوّل إلى طبقة حاكمة مستأثرة بالأموال والثروات؛ لذا قام الإمام بخصوص السياسة الماليّة بالمساواة في العطاء بعد مصادرة الأموال والثروات التي وهبها عثمان بن عفان للطبقة الارستقراطية.

وقد أعلن الإمام عن سياسته الماليّة بقوله عليه السلام:

«أيّها الناس إنّي رجل منكم، لي ما لكم وعليّ ما عليكم، وإنّي حاملكم على منهج نبيّكم، ومنفِّذٌ فيكم ما أمر به، ألا وإنّ كلّ قطيعة أقطعها عثمان، وكلّ مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال. فإنّ الحق لايُبطله شيء، ولو وجدته قد تُزوِّج به النساء ومُلك به الإماء وفُرّق في البلدان لرددته، فإنّ في العدل سعة، ومن ضاق

عليه العدل فالجور عليه أضيق»[١٧].

وقال: «... وأيّما رجل استجاب لله وللرسول فصدّق ملّتنا ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عبادُ الله، والمالُ مالُ الله، يُقسَم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب...»[١٨].

وبهذا أراد الإمام الحؤول دون تزيّف الوعي، من خلال إرساء قواعد أساسية للعطاء، ونفي أي صفة تسمح باستغلال الأموال والثروات، بما في ذلك صفة التقوى والورع.

وأمّا في مجال الحقوق فقد نادى الإمام عليه السلام بأن «الذليل عندي عزيز حتّى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتّى آخذ الحقّ منه»[١٩].

وبذلك سقطت القيمة القبليّة المعتمدة في سياسة الخليفة الثالث عثمان بن عفان، والتي بسببها ضاعت بعض الحقوق، وتجاوز بعض الولاة في سلوكه من دون أن يردعه رادع، فأدّى ذلك إلى تشويه سمعة الدولة الإسلامية التي كان يتوخى فيها الناس العدل والإنصاف.

السياسة الأموية والنّخبة

استطاع الأمويون عبر سياسة التضليل التي طالت جميع المستويات، من تحطيم وتدمير وعي الأمّة، حتّى تمكّنوا من تحويل تيّار الثورة ـ الذي أطاح بعثمان بن عفّان وقاتل إلى جنب الإمام علي عليه السلام ـ إلى مجتمع ساكن، خائف، متقاعس، مقتنعٍ بالسياسة الأموية أو معارض لها يخشى بأسها وبطشها.

وقد عملت سياسة الأمويين بهذا الاتجاه على صعيدين؛ صعيد الممارسة، وصعيد الفكر.

أمّا على صعيد الممارسة فقد اتبع الأمويون سياسة التجويع والإرهاب مع كلّ من لم يُضمن ولاؤه للحكم الاموي أو شُكَّ في ولائه للإمام علي عليه السلام، بينما أغدق معاوية الأموال والثروات على مناصريه وأعوانه فألقت سياسته الرعب في قلوب معارضيه، وتعميق أواصر المحبة والنصرة والولاء مع أعوانه ومريديه. وبذلك

حوّل معاوية المجتمع إلى طبقة حاكمة بيدها مقاليد الخلافة الإسلامية، وهي بعيدة عن الإسلام ومبادئه، وطبقة محكومة تشكّل أغلبية الأمّة الإسلامية، وهي طبقة محرومة ومسحوقة، ليس لها حول ولا قوّة سوى تنفيذ أوامر السياسة الأموية. تلك السياسة التي قضت على وحدة الأمّة وأطاحت بروابط الألفة والمحبة.

وأمّا على الصعيد الفكري فقد انتهج معاوية سياسة أحدثت تحوُّلاً فكريّاً أتى على جميع مقوّمات الشخصية الإسلامية، ولم ينج من ذلك إلّا ثلّة قليلة تمثّل نماذج من وعي الأمّة لواقعها المرير.

ويمكن أن نذكر بهذا السياق أهم ركائز السياسة الأموية على الصعيد الفكري:

١ ـ تسخير بعض الضعفاء ممّن سوّلت لهم أنفسهم الكذب على الله ورسوله

فرووا أحاديث كاذبة لغرض:

أ ـ تشويه سمعة الإمام علي عليه السلام وأصحابه البررة، وبالتالي كبح الموالين له عن الثورة برادع داخلي هو الدين، قال ابن أبي الحديد:

«ذكر شيخنا أبو جعفر الاسكافي أنّ معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يُرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه؛ منهم: أبو هريرة وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير»[٢٠].

ومن تلك الروايات المختلَقة المشهورة مارواه سمرة بن جندب[٢١] وأبو هريرة[٢٢].

ب ـ تمجيد بني أُمية، في محاولة لإضفاء الشرعية على الحكم الأموي، الذي ظلّ يفتقر إلى الغطاء الشرعي طيلة الفترة السابقة. فمن تلك الروايات المكذوبة ما رواه أبو هريرة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله ائتمن على وحيه ثلاثاً: أنا، وجبريل، ومعاوية»[٢٣].

ج ـ التحذير من الثورة والقبول بسياسة الولاة والرضوخ لأحكامهم، من ذلك ما رواه عبدالله بن عمر، قال:

«قال رسول الله ﷺ: إنّكم سترون بعدي أثرة وأُموراً تنكرونها.

قالوا: فماذا تأمرنا يا رسول الله؟

قال: أدّوا إليهم حقّهم وسلوا الله حقكم»[٢٤].

وقال: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنّ من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة جاهليّة»[٢٥].

د ـ «تكشف بعض النصوص أنّ من ملامح سياسة معاوية وجهازه إلغاء الرموز ذات المحتوى التاريخي الذي يعبّر عن قيمة دينية معيّنة ذات أثر اجتماعي، وذلك بما يعكس الرمز ويثيره في الأذهان من صور تاريخية تتصل بحياة النبيّ ﷺ وبالكفاح من أجل انتصار الإسلام»[٢٦].

٢ ـ تأسيس فرقة المرجئة

وهي فرقة دينية تقدّم تفسيرات تخدم السلطة الأموية وتبرّر أعمال ولاتهم، وبذلك تمكّن الأمويون من إضفاء شرعية على حكمهم الذي كانت تهدّده الفرق الإسلامية الأخرى.

وهذه الفرقة تعتقد أنّ الإيمان عمل قلبي، لاتضرّ معه معصية كما لاتنفع مع الكفر طاعة[٢٧]، وبهذا سيكون الأمويون مؤمنين مهما ارتكبوا من كبائر[٢٨]، كما لايجوز محاربتهم لأنّهم حكومة شرعية.

وكان الأمويون يتجاهرون بهذه الأفكار، كما كان معاوية يتظاهر بالجبر والإرجاء حتّى كفّره المعتزلة لذلك[٢٩].

٣ ـ استغلال الشعر وتسخير الشعراء

وذلك للتحدّث بأمجاد بني أُمية، وذمّ أعدائهم والتشهير بهم وتركيز مصطلح (خليفة الله)، الذي أُطلق على معاوية، في أذهان الناس حتّى قيل في معاوية وبني أُمية أشعار كثيرة جدّاً. وقد أثّرت النصوص التي رويت في مدح معاوية والتستّر على جرائمه، إضافة إلى الشعر، تأثيراً مباشراً باتجاه توطيد دعائم الحكم الأموي.

وهكذا استطاعت السياسة الأموية عبر الركائز التي استخدمت في ذلك، من

تدمير وعي الأمّة، وتحطيم روح الثورة والشجاعة لديهم، فخمدت الأنفاس إلّا من قلّة قليلة ممّن عجزَ الإعلام الأموي من تغيير قناعاتهم أو إحداث تحوّل أو خلل في منظومتهم الفكرية.

وقد تمثّلت النخبة آنذاك بالإمامين الحسن والحسين عليهما السلام وعدد من أصحابهما من أمثال حجر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي.

وكان عمل النخبة في ظل تلك السياسة الإرهابية يتمثّل في بثّ الوعي في صفوف الأمّة، وإن كان على نطاق ضيّق، وتعريف الناس بحقيقة الحكم الأموي. لكن العمل كان يواجه ملاحقةً مستمرة وضغوطاً متتالية من قبل شخص معاوية وولاته.

ولعل أبرز عمل ثوري للنخبة هو الاحتجاجات التي كانت تنبعث بين فترة وأخرى، حتّى أودَتْ بحياة الإمام الحسن عليه السلام وبعض الصحابة من أمثال حجر بن عدي[٣٠] الذين قتلهم معاوية بن أبي سفيان صبراً دون أن يتنازلوا عن مبادئهم التي آمنوا بها.

النخبة وثقافة عاشوراء

اتّضح من المراجعة السريعة للسياسة الأموية صعوبة العمل الجماهيري والتحدّي الثوري، كما اتّضح أنّ عمل النخبة آنذاك لم يتجاوز حدود دائرة التبليغ والاحتجاج. أمّا العمل العسكري فلم يتوافر في ظل تلك الحقبة على أي مبرّر لوجوده، لذا كان إعراض الإمامين الحسن والحسين وفق رؤية سياسية صحيحة.

ولم يتأثّر الوضع العام بموت معاوية بالمستوى الذي يسمح بحدوث انقلاب عام في أرجاء الدولة الإسلامية، لكن كانت هناك فرصة أمام النخبة يمكن الاستفادة منها لتحقيق أهداف قد لاتبدو آثارها إلّا بعد فترة زمنية أخرى، لذلك استغلّها الإمام الحسين عليه السلام.

لقد واجهت النخبة في عملها صعوبات كبيرة، فالسياسة الأموية لازالت تُلقي بظلالها على الوضع العام، ولا زال هناك تخوّف كبير من أي بادرة تحرك مناوئ، عدا مناطق العراق التي خضعت لظرف خاص.

ورغم تعقيدات الوضع العام إلّا أنّ الموقف الواعي كان يتطلّب تحرّكاً عسكرياً من أجل إعادة الثقة للأمّة التي خضعت طويلاً للسياسة الأموية التي حوّلتْها إلى ركام متخاذل ذي نفسٍ ميتة وقلب خائر وضمير مخدَّر لايؤثر فيه الكلام. لذا أعلنها الإمام عالية «إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتّى يحكم الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين»(٣١).

وقد التفّت النخبة المؤمنة حول القائد وتفهّمت الوضع السياسي، والدور التاريخي الذي ينبغي القيام به من أجل مبادئ الرسالة الإسلامية، بينما لم يفهم كثير من علماء الأمّة ورجالها موقف الإمام الحسين عليه السلام، لذا طرحوا علامات استفهام كثيرة على تحرّك الإمام عليه السلام منهم عبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر ومحمّد بن الحنفية، وطالبوه بمراجعة موقفه وإعادة النظر به.

وأمّا على مستوى الأمّة، فما زال وعي الأمّة (في العراق التي هي أفضل ساحة للعمل الثوري) غير متكامل بل كان هناك ولاء جبان، لم يتحرّر بعد من سلطة الحكم الأموي، وقد عبّر عنه الفرزدق عندما قابله الإمام الحسين عليه السلام وسأله عن أهل العراق، قال له: «قلوبهم معك والسيوف مع بني أُمية»(٣٢).

وبهذا يتّضح أنّ الإمام قد واجه وضعاً معقّداً على مستوى الأمّة وعلى مستوى علمائها ورجالها، فهذا عمر الأطرف بن أمير المؤمنين يقول له: حدّثني أبو محمّد الحسن عن أبيه أمير المؤمنين أنّك مقتول فلو بايعت لكان خيراً لك. فقال له الحسين عليه السلام: «إني لا أُعطي الدنية في نفسي»(٣٣)، كما أجاب محمّد بن الحنفية الذي أثناه عن المسير بقوله: «يا أخي لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية»، وهكذا فعل مع عبدالله بن عمر وابن عباس وغيرهم(٣٤).

وفي مقابل هذه المواقف اللاواعية هناك النخبة التي رافقت الإمام الحسين عليه السلام حتّى الشهادة، والذي يكشف استشهادها مع الإمام عليه السلام عن تكامل منظومة الوعي لديها.

فالنخبة الواعية عندما وجدت أنّ الموقف يقتضي التضحية بالنفس من أجل

المبادئ سارعت في تقديم الأموال والأنفس بهذا الاتجاه، ولم تمتاز عن الأمّة لتستأثر بالأموال والثروات وإنّما فرض عليها وعيها مسؤوليات تاريخية فاستجابت لمتطلبات المرحلة الراهنة بدون أي شك أو ترديد ولم تنتظر الموقف من الأمّة، وإنّما تحرّكت بوحي المبادئ وتوجيهات القائد الذي آمنت به، لذا جاءت النتائج قوية جدّاً ومؤثّرة رغم تطاول الأيام والسنين.

فما انقضت واقعة كربلاء حتّى تحرّك التوّابون في الكوفة يطالبون بدم الحسين عليه السلام ويثأرون من قاتليه(٣٥).

ثم ثورة المدينة(٣٦).

وثورة المختار الثقفي(٣٧).

وثورة مطرف بن المغيرة(٣٨).

وثورة ابن الأشعث(٣٩).

وثورة زيد بن علي(٤٠).

وهكذا استمرّت الحركات الإسلامية والثورات الدينية تستمد عزمها من وحي ثورة الإمام الحسين، وغدت واقعة كربلاء تمدّ النخب المؤمنة عبر التاريخ بوعي ثوري قادر على تحريك الأمّة باتجاه الثورة. فما من تحرّك سياسي، في دائرة مدرسة أهل البيت إلّا ولثورة كربلاء ووعي أنصارها دخل في تكوينها وتفعيلها.

كما أن الوعي عند أنصار الإمام الحسين عليه السلام امتاز بقدرته على تحدّي الوضع السياسي القمعي، بعد فهمها لتعقيدات الساحة على جميع المستويات، السياسية والاجتماعية والعسكرية، وهنا تكمن أهمّية هذه الثورة وسرّ خلودها.

ومن نتائج وعي الثورة الحسينية، الثورةُ الإسلامية المباركة في إيران بقيادة الإمام الخميني قدس سره، فعاشوراء كانت تشكّل النسبة الأكبر من طاقة الأمّة، كما أنّ الإمام رحمه الله استطاع أن يوظّف المشاعر الحسينية باتجاه الثورة وباتجاه بناء الدولة والمجتمع، وإنّما عمد الإمام قدس سره إلى الشعائر الحسينية بصورة خاصّة لأنّ قضية الحسين ومارافقها من مشاهد مأساوية تعيش في ضمير كلّ فرد شيعي، يتفاعل معها تفاعلاً كبيراً، ويعبِّر عنها بأشكال مختلفة، وما المظاهر التي نشاهدها أيّام عاشوراء إلّا تجسيد لتلك المشاعر الجيّاشة تجاهها.

فالتيّار الإسلامي الناهض قد استلهم من عاشوراء روح التضحية والفداء والإصرار على الطريق مهما كلّف غالياً، والصدق في تبنّي الشعارات المرفوعة. فلا غرابة أن يعلن الإمام من اليوم الأوّل: «لقد قامت ثورتنا في سبيل تحقيق الأهداف الإلهية واستقرار حكومة الأنبياء العظام، الذين ضحّوا في سبيلها، وسعى لها نبيّ الإسلام العظيم بكل ما آتاه الله من قوّة حتّى آخر لحظات حياته المباركة، كما ضحّى أئمّة الإسلام العظام بكل مايملكون لإحيائها. ونحن ـ أيضاً ـ من أتباع أولئك ونعتبر أنفسنا من أُمّة محمّد ﷺ وعلينا أن نقتدي بهم ونتحمّل ونصبر صبراً ثوريّاً، لكي نتمكّن من إعادة بناء حضارتنا التي شيّدها المسلمون الأوائل من قبل»[(٤١)].

مناشئ تكوّن الوعي لدى النخبة

عندنا نستقرئ حركة النخبة عبر المراحل التاريخية من بعد وفاة الرسول محمّد ﷺ حتّى بعد الثورة الإسلامية المباركة في إيران نجد أن مناشئ الوعي لدى النخبة مناشئ رساليّة خالصة، وإنّ تحرّك النخبة كان دائماً في دائرة المبادئ الإسلامية الخالدة.

ولم يتكوّن تكوّن الوعي لدى النخبة إلّا بعد أن امتلكوا شروطه، وهنا لابدّ من مراجعة سريعة لخلفية تكوّن الوعي لديهم:

١ ـ الاستعداد الذاتي لدى النخبة.

٢ ـ تجاوز الذات والانفتاح على المبادئ والرسالة.

٣ ـ استيعاب الواقع وتعقيداته وتناقضاته.

٤ ـ وجود القدوة الصالحة.

٥ ـ التوفر على الفكر والثقافة القادرَين على بناء وعي رسالي.

٦ ـ التخلي عن الفئوية وعن الانكفاء على الذات.

هذه هي أهمّ مكوّنات الوعي لدى النخب الرساليّة عبر التاريخ، وقد لاحظنا دور ثقافة عاشوراء في تكوّن الوعي بعد واقعة كربلاء، التي من ثمارها قيام نظام الجمهورية الإسلامية، وانبعاث حركات التحرّر الإسلامية.

الهوامش

١ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣١.

٢ ـ الإمام علي، نهج البلاغة، بيروت، دار الأندلس، ط ٢، ١٩٦٨م، ج ١، ص ١٥١.

٣ ـ عمارة، الدكتور محمّد، مسلمون ثوار، مصر، دار الشروق، ط ١٩٨٨، ص ١٠٦.

٤ ـ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمّد أبي الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية، ط ٩، ص ٥٢.

٥ ـ المصدر نفسه.

٦ ـ المصدر نفسه.

٧ ـ المسعودي، مروج الذهب، ط القاهرة ١٩٥٨م، ج ٢، ص ٣٥١.

٨ ـ الأفغاني، السيد جمال الدين، الأعمال الكاملة، تحقيق د. محمّد عمارة، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٤٢١.

٩ ـ مروج الذهب، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٤٨.

١٠ ـ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ١١٤.

١١ ـ مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٤٢.

١٢ ـ المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٩.

١٣ ـ المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٩.

١٤ ـ المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٢.

١٥ ـ المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤١

١٦ ـ نهج البلاغة، ج ١، ص ٢١٧.

١٧ ـ نهج البلاغة، ج ١، ص ٥٩.

١٨ ـ نهج البلاغة، ج ٧، ص ٣٧.

١٩ ـ نهج البلاغة، ج ١، ص ٢١٧.

٢٠ ـ شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٦١.

٢١ ـ المصدر نفسه، ج ٤، ص ٧٣.

٢٢ ـ المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٤.

٢٣ ـ عنز، الدكتور نور الدين، منهج النقد في علوم العربية، دمشق، دار الفكر، ط ١٩٧٢، ص ٣٠٢.

٢٤ ـ صحيح البخاري، تحقيق عبدالله بن باز، دمشق، دار الفكر، ج ٨، ص ١١٢، ح ٧٠٥٢.

٢٥ ـ صحيح البخاري، المصدر السابق، ج٨، ص١١٢، ح ٧٠٥٤.

٢٦ ـ شمس الدين، الشيخ محمّد مهدي، ثورة الحسين، بيروت، دار التعارف، ص ١١٠.

٢٧ ـ الشهرستاني، الملل والنحل، قم، الشريف الرضي، ج ١، ص ١٢٥.

٢٨ ـ حتي، فيليب، تاريخ العرب، ج ٢، ص٣١٦.

٢٩ ـ شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٣٤٠.

٣٠ ـ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٢٣٣.

٣١ ـ الخوارزمي، المقتل، ج ١، ص ١٨٨.

٣٢ ـ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١٦.

٣٣ ـ المقرم، عبدالرزاق، مقتل الحسين، نقلاً عن اللهوف، ص ١٤٩.

٣٤ ـ المصدر نفسه، ص ١٥٠.

٣٥ ـ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١٥٨.

٣٦ ـ المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١١.

٣٧ ـ المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦٨.

٣٨ ـ المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٣٣.

٣٩ ـ المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٦١.

٤٠ ـ المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٢٩.

٤١ ـ منظمة الاعلام الإسلامي، الإمام في مواجهة الصهيونية، ص ١٣٠.

الإمام الحسين ومصلحة الإسلام العليا

فؤاد المقدادي

درس الكثيرون سيرة أهل البيت عليهم السلام وتأريخهم المشرق بالفضائل والكمالات والكرامات وأبدعوا في إبراز دورهم الرائد في العلم والبناء والتضحية والفداء، ووقفوا كثيراً أمام حقيقة الأهداف وسرّ التنوّع في الأدوار التي اضطلع بها أئمة أهل البيت عليهم السلام ، إلّا أنّ القليل منهم وضع يده على السرِّ الأساسي والحقيقة الجوهرية المعبّرة عن قاسم أعظم وخطّ مشترك بين جميع هذه الأدوار، وما زخرت به من مواقف إسلامية كبرى، على اختلاف صورها وأشكالها، سواء أكانت في حرب أم في سلم، وسواء أكانت قولاً أم فعلاً، سلباً أم إيجاباً، صريحة كانت أم تقيّة، ألا وهي مصلحة الإسلام العليا.

وهذا القليل لم يتناول من هذا السرِّ وتلك الحقيقة سوى مفردات جزئية متفرقة لا تعطي الصورة عظمتها وكمالها، الذي لا يتمّ إلّا بالنظرة الشموليّة المترابطة والرؤية العميقة الكاشفة.

ولعلّ من أبرز هذه المحاولات النادرة التي مهّدت وشرّعت منهج الدراسة الشموليّة التكامليّة، هي مجموعة محاضرات ومقالات للشهيد السعيد آية الله العظمى السيد محمّد باقر الصدر قدس سره عن أدوار أهل البيت عليهم السلام ومواقفهم والتي لم يكتب لها الدوام حتّى أشواطها الأخيرة وغايتها الكبرى، فقد أبت هذه الشخصية الإسلامية الفذّة إلّا أن تترجم هذا السرّ المذكور والجوهر المزبور في مسيرة أهل البيت عليهم السلام الرائدة، بالصراع مع الطاغوت والنصرة لله عزّ وجلّ، من خلال التضحية بنفسها الزكيّة، من أجل مصلحة الإسلام العليا، وصلاً بتلك المسيرة العظمى والسيرة الشريفة.

ونريد هنا أن نسلّط ضوءاً كليّاً عاماً على هذا القاسم الأعظم والخطّ المشترك في موقف الإمام الحسين(عليه السلام) ودوره خصوصاً من خلال نهضته الكبرى، ضمن مواقف أئمة أهل البيت(عليهم السلام) وأدوارهم على مدى التاريخ والعصور التي اكتنفتهم؛ ذلك هو لحاظهم أوّلاً وآخراً، وقبل كلّ شيء وبعد كل شيء، مصلحة الإسلام العليا، فدونها أرواحهم الطاهرة وأهل بيتهم الكرام، وأموالهم ما كثرت، وجهادهم وجهودهم ما عظمت، وهجرتهم في سبيل الله في أكناف الأرض وتخومها ما وسعت، وكظمهم الغيظ وصبرهم الجميل حتّى يتبين الحق من الباطل.

إن سيرة سيد الشهداء هي من أبرز مصاديق وحدة الهدف في تحقيق وحفظ مصلحة الإسلام العليا التي اتسمت بها أدوار أئمة أهل البيت(عليهم السلام) ، رغم تنوعها في الطريقة وتباينها الظاهري في المواقف، وقد تمثّلت سيرة الإمام الحسين(عليه السلام) الأجلى في حفظ مصلحة الإسلام العليا، في أربعة مواقف كبرى شملت عهد إمامة أبيه(عليه السلام) وعهد إمامة أخيه الحسن(عليه السلام) وعهد إمامته(عليه السلام) :

١ ـ في عهد إمامة أبيه أمير المؤمنين(عليه السلام):

والذي جسّد فيه الطاعة التامّة والامتثال الكامل لأوامر إمامة أمير المؤمنين(عليه السلام) في زمن الخلافة بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ، وخصوصاً أيام الفتنة الطخياء على عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، التي انتهت بقتله، وكذلك في خوضه حروب الدفاع عن دولة الإسلام وخلافة أمير المؤمنين(عليه السلام) والتي كان أبرزها حرب الناكثين المعروفة بحرب الجمل، وحرب القاسطين المعروفة بحرب صفين، وحرب المارقين المعروفة بحرب النهروان.

٢ ـ في عهد إمامة أخيه الحسن بن علي(عليه السلام):

حيث كان ظهيره الأمين وساعده الأيمن في مواجهة الباغي معاوية بن أبي سفيان، وكان شريكه في دفع الفتنة الكبرى التي وقع فيها أصحابه وأتباعه بسبب الصلح الذي أوقعه اضطراراً مع معاوية حقناً لدماء أهل البيت(عليه السلام) ودماء أصحابهم التي مثّلت في حينها سناء مصلحة الإسلام في بقاء من يصدع بحق الثقلين ويذبّ عن أهل بيت النبوّة والعصمة، ويدفع عن الإسلام غائلة التحريف والتزوير.

٣ ـ في عهد إمامته عليه السلام:

وهنا تتجسد لدينا روح الثبات والقدم الراسخة على مبادئ الإسلام ومصلحته العليا، حيث كان له سلام الله عليه موقفان متواليان، قد يلحظان متخالفين ظاهرياً، من الخلافة الأموية منذ اليوم الأوّل لصيرورة الإمامة إليه بعد استشهاد أخيه الإمام الحسن عليه السلام؛ الأوّل: موقفه من معاوية بن أبي سفيان والثاني: موقفه من يزيد بن معاوية.

أ: الموقف الأوّل، من معاوية بن أبي سفيان

وله في موقفه هذا صورتان تكامليتان كلاهما تحكيان مبدأيته العصماء في لحاظ مصلحة الإسلام العليا:

الصورة الأولى: التزامه عليه السلام بعهد أخيه الإمام الحسن عليه السلام ووفاؤه ببنود صلحه المبرم مع معاوية بن أبي سفيان لاعتقاده أن المصلحة الإسلامية ما تزال في ذلك، ولأن مبادئ الإسلام وأحكامه تأبى عليه نقض العهود والتحلل من الوفاء بالعقود إلّا إذا أُخلّ بشروطه أو انتهت مدّته، لقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾[(١)] وقوله أيضاً: ﴿وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولاً﴾[(٢)].

فممّا رواه الكلبي والمدائني وغيرهما من أصحاب السير قالوا: «لما مات الحسن بن علي تحركت الشيعة بالعراق وكتبوا إلى الحسين عليه السلام في خلع معاوية والبيعة له، فامتنع عليهم وذكر أنّ بينه وبين معاوية عهداً لا يجوز له نقضُه حتّى تمضي المدّة، فإن مات معاوية نظر في ذلك»[(٣)].

الصورة الثانية: إظهار الحق وإعلانه في وجه معاوية بن ابي سفيان والتصدّي له بالحجّة البالغة وتعرية انحرافه عن كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ودرء البدع التي أحدثها في الدين واستنكار الظلم والجور الذي أوقعه على صفوة الأصحاب والتابعين من شيعة أهل البيت عليهم السلام وسفك دمائهم الطاهرة. وممّا روي في ذلك:

١ ـ تصدّيه عليه السلام لأمر معاوية وولاته وعماله بلعن امير المؤمنين عليه السلام على المنابر واضطهاد شيعته، وقتل من يروي شيئاً من فضائله.

عن سليم بن قيس قال: « ... نادى منادي معاوية أن قد برئت الذمّة ممّن يروي حديثاً من مناقب علي وفضل أهل بيته، وكان أشدّ الناس بلية أهل الكوفة، لكثرة من بها من الشيعة، فاستعمل زياد ابن أبيُه وضمّ إليه العراقين: الكوفة والبصرة، فجعل يتبع الشيعة وهو بهم عارف. يقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وصلبهم في جذوع النخل وسمل أعينهم وطردهم وشرّدهم، حتّى نفوا عن العراق فلم يبقَ بها أحد معروف مشهور؛ فهم بين مقتول أو مصلوب أو محبوس أو طريدأو شريد.

وكتب معاوية إلى جميع عمّاله في جميع الأمصار: أن لا تجيزوا لأحد من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة، وانظروا قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه ومحبي أهل بيته وأهل ولايته، والذين يروون فضله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا بمن يروي من مناقبه واسم أبيه وقبيلته، ففعلوا حتّى كثرت الرواية في عثمان، وافتعلوها لما كان يبعث إليهم من الصّلات والخلع والقطايع من العرب والموالي، وكثر ذلك في كلّ مصر، وتنافسوا في الأموال والدنيا، فليس أحد يجيء من مصر من الأمصار فيروى في عثمان منقبة أو فضيلة إلّا كتب اسمه وأجيز، فلبثوا بذلك ماشاء الله.

ثم كتب إلى عمّاله: إنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كلّ مصر، فادعوا الناس إلى الرواية في معاوية وفضله وسوابقه، فإن ذلك أحبّ الينا وأقرّ لأعيننا، وأدحض لحجّة أهل البيت وأشدّ عليهم، فقرأ كلّ أمير وقاضٍ كتابه على الناس. فأخذ الرواة في فضائل معاوية على المنبر في كلّ كورة وكل مسجد زوراً، وألقوا ذلك إلى معلمي الكتاتيب فعلّموا ذلك صبيانهم، كما يعلّمونهم القرآن، حتّى علّموه بناتهم ونساءهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

وكتب زياد بن ابيه إليه في حقّ الحضرميين؛ أنّهم على دين عليّ وعلى رأيه. فكتب إليه معاوية: اقتل كلّ من كان على دين عليّ ورأيه. فقتلهم ومثّل بهم.

وكتب كتاباً آخر: انظروا من قبلكم من شيعة عليّ واتّهموه بحبّه فاقتلوه وإن

لم تقم عليه البينة فاقتلوه على التهمة والظنة والشبهة تحت كلّ حجر، حتّى لو كان الرجل تسقط منه كلمة ضُربت عنقه، حتّى لو كان الرجل يُرمى بالزندقة والكفر كان يكرّم ويعظّم ولا يتعرض له بمكروه، والرجل من الشيعة لا يأمن على نفسه في بلد من البلدان لاسيما الكوفة والبصرة، حتّى لو أن أحداً منهم أراد أن يلقي سرّاً إلى من يثق به لأتاه في بيته فيخاف خادمه ومملوكه، فلا يحدّثه إلّا بعد أن يأخذ عليه الأيمان المغلظة، ليكتمنّ عليه، ثمّ لا يزداد الأمر إلّا شدّة. حتّى كثر[٤] وظهر[٥] أحاديثهم الكاذبة، ونشأ عليه الصبيان يتعلمون ذلك[٦].

وكان أشدّ الناس في ذلك القرّاء المراؤون المتصنّعون الذين يظهرون الخشوع والورع. فكذبوا وانتحلوا الأحاديث وولّدوها، يحظون بذلك عند الولاة والقضاة ويدنون مجالسهم، ويصيبون بذلك الأموال والقطايع والمنازل، حتّى صارت أحاديثهم ورواياتهم عندهم حقاً وصدقاً! فرووها وقبلوها وتعلّموها وعلّموها، وأحبّوا عليها وأبغضوا من ردّها أو شكّ فيها، اجتمعت على ذلك جماعتهم وصارت في يد المتنسّكين والمتدينين منهم الذين لا يحبون الافتعال إلى مثلها، فقبلوها وهم يرون أنها حق، ولو علموا بطلانها وتيقّنوا أنها مفتعلة لأعرضوا عن روايتها ولم يدينوا بها، ولم يبغضوا من خالفها، فصار الحقّ في ذلك الزمان عندهم باطلاً والباطل عندهم حقّاً، والكذب صدقاً والصدق كذباً.

فلمّا مات الحسن بن علي ازداد البلاء والفتنة، فلم يبقَ لله ولي إلّا خائف على نفسه، أو مقتول أو طريد أو شريد، وكان قبل موت معاوية بسنتين حجّ الحسين بن علي عليه السلام وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس معه. وقد جمع الحسين بن علي عليه السلام بني هاشم؛ رجالهم ونساءهم ومواليهم وشيعتهم، مَنْ حج منهم ومَنْ لم يحج. ومن الأنصار ممّن يعرفونه، وأهل بيته، ثمّ لم يدع أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن أبنائهم والتابعين ومن الأنصار المعروفين بالصلاح والنسك إلّا جمعهم. فاجتمع عليه بمنى أكثر من ألف رجل، والحسين عليه السلام في سرادقه عامتهم التابعون وأبناء الصحابة، فقام الحسين عليه السلام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

أمّا بعد فإنّ الطاغية قد صنع بنا وبشيعتنا ماقد علمتم ورأيتم وشهدتم وبلغكم، وإنّي أريد أن أسألكم عن أشياء فإن صدقت فصدقوني، وان كذبت

فكذبوني، اسمعوا مقالتي واكتموا قولي، ثمّ ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم من أمنتموه ووثقتم به فادعوهم إلى ما تعلمون، فإني أخاف أن يندرس هذا الحق ويذهب، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون.

فما ترك الحسين شيئاً أنزل الله فيهم [أهل البيتعليهم السلام] من القرآن إلّا قاله وفسّره، ولا شيئاً قاله الرسول في أبيه وأمّه وأهل بيته إلّا رواه و [في] كلّ ذلك يقول الصحابة: «اللهم نعم، قد سمعناه وشهدناه» ويقول التابعون: «اللهم قد حدثنا من نصدقه ونأتمنه» حتّى لم يترك شيئاً إلّا قاله، ثمّ قال:

أنشدكم بالله إلّا رجعتم وحدّثتم به من تثقون به، ثمّ نزل وتفرق الناس على ذلك (٧).

٢ ـ استنكارهعليه السلام على معاوية قَتْلَهُ الصفوة من صحابة رسول الله وتابعيهم من شيعة أهل البيت:

فقد روى صالح بن كيسان قال: لما قَتل معاويةُ حجرَ بن عدي وأصحابه حجّ ذلك العام فلقي الحسين بن عليعليه السلام فقال: يا أبا عبدالله: هل بلغك ما صنعنا بحجر وأصحابه وأشياعه وشيعة أبيك؟ فقالعليه السلام: وما صنعت بهم؟ قال: قتلناهم، وكفناهم، وصلّينا عليهم.

فضحك الحسينعليه السلام ثمّ قال: خَصَمَكَ القوم يا معاوية، لكننا لو قتلنا شيعتك ما كفنّاهم ولا صلّينا عليهم ولا قبرناهم. لقد بلغني وقيعتك في عليّ وقيامك ببغضنا، واعتراضك بني هاشم بالعيوب، فإذا فعلت ذلك فارجع إلى نفسك، ثمّ سلها الحق عليها ولها، فإن لم تجدها أعظم عيباً فما أصغر عيبك فيك، وقد ظلمناك يا معاوية فلا توترنّ غير قومك، ولا ترمينّ غير غرضك، ولا ترمِنا بالعداوة من مكان قريب، فإنّك والله لقد أطعت فينا رجلاً ما قدم اسلامه، ولا حدث نفاقه، ولا نظر لك. فانظر لنفسك أو دع. ـ يعني: عمرو بن العاص ـ (٨).

وجاء في سيرة أهل البيت لأبي علم: «إن مروان بن الحكم كتب إلى معاوية وكان عامله على المدينة: أمّا بعد فإن عمرو بن عثمان ذكر أن رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن عليعليه السلام وأنه لا يؤمن وثوبه، وقد

بحثت عن ذلك فبلغني أنه يريد الخلاف يومه هذا فاكتب إليّ برأيك.

فكتب إليه معاوية: بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر الحسين فإيّاك أن تتعرض له بشيء، واترك حسيناً ما تركك، فإنّا لا نريد أن نتعرض له ما وفى ببيعتنا ولم ينازعنا سلطاننا، فأمسك عنه ما لم يبدِ لك صفحته.

وكتب إلى الحسين عليه السلام: أمّا بعد؛ فقد انتهت إليّ أمور عنك إن كانت حقاً فإني ارغب بك عنها، والله إنّ من أعطى الله عهده وميثاقه لجدير بالوفاء، وإن أحق الناس بالوفاء من هو مثلك في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله بها فاذكره وبعهد الله أوفِ، فإنك متّى تنكرني أنكرك ومتى تكدني أكدك، فاتقِ شقّ عصا هذه الأمّة، وإن يردّهم الله على يديك في فتنة فقد عرفت الناس وبلوتهم، فانظر لنفسك ولدينك ولأمّة جدك ولا يستخفّنك السفهاء الذين لا يوقنون.

فكتب إليه الحسين عليه السلام في جوابه: «أما بعد؛ فقد بلغني كتابك أنه بلغك عني أمور أن بي عنها غنى؛ وزعمت أني راغب فيها، وأنا بغيرها عنك جدير. أمّا ما رقى إليك عني، فإنه رقاه إليك الملّاقون المشاءون بالنمائم، المفرّقون بين الجمع، كذب الساعون الواشون، ما أردت حربك ولا خلافاً عليك وأيمُ الله إنّي لأخاف الله عزّ ذكره في ترك ذلك، وما أظنّ الله تبارك وتعالى براضٍ عني بتركه ولا عاذري بدون الاعتذار إليه فيك وفي أولئك القاسطين الملبّين حزب الظالمين، بل أولياء الشيطان الرجيم.

ألستَ قاتل حجر بن عدي أخي كندة وأصحابه الصالحين المطيعين العابدين؛ كانوا ينكرون الظلم ويستعظمون المنكر والبدع ويؤثرون حكم الكتاب، ولا يخافون في الله لومة لائم، فقتلتهم ظلماً وعدواناً بعدما كنت أعطيتهم الأيمان المغلّظة والمواثيق المؤكّدة، لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم، ولا بإحنة تجدها في صدرك عليهم!

أو لستَ قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله، العبد الصالح الذي أبلته العبادة فصفرت لونه، ونحلت جسمه، بعد أن أمنته وأعطيته من عهود الله عزّ وجل وميثاقه مالو أعطيته العصم ففهمته لنزلت إليك من شعف الجبال، ثمّ قتلته جرأة على الله عزّ وجل واستخفافاً بذلك العهد؟!

أو لستَ المدّعي زياد بن سمية، المولود على فراش عبيد عبد ثقيف، فزعمت أنه ابن أبيك وقد قال رسول الله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، فتركت سنّة رسول الله واتبعت هواك بغير هدى من الله، ثمّ سلّطته على أهل العراق فقطع أيدي المسلمين وأرجلهم وسمل أعينهم، وصلبهم على جذوع النخل كأنك لست من هذه الأمّة وليسوا منك؟! أو لست صاحب الحضرميين الذين كتب إليك فيهم ابن سمية أنّهم: على دين عليّ ورأيه، فكتبت إليه اقتل كلّ من كان على دين عليعليه السلام ورأيه فقتلهم ومثّل بهم بأمرك؟ ودين علي ـ والله ـ وابن عليّ، الذي كان يضرب عليه أباك، وهو أجلسك بمجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك لكان أفضل شرفك وشرف أبيك تجشم الرحلتين اللتين بنا مَنَّ الله عليكم فوضعها عنكم.

وقلت فيما تقول: انظر نفسك ولدينك ولأمّة محمدّصلى الله عليه وآله وسلم واتّقِ شقّ عصا هذه الأمّة وأن تردهم في فتنة.

فلا أعرف فتنة أعظم من ولايتك عليها، ولا أعلم نظراً لنفسي وولدي وأمّة جدي أفضل من جهادك، فإن فعلته فهو قربة إلى الله عزّ وجلّ، وإن تركته فأستغفر الله لذنبي وأسأله توفيقي لإرشاد أموري.

وقلت فيما تقول: إن أنكرك تنكرني، وإن أكدك تكدني، وهل رأيك إلّا كيد الصالحين منذ خلقت؟ فكدني ما بدا لك إن شئت فإني أرجو أن لا يضرّني كيدك، وأن لا يكون على أحد أضرّ منه على نفسك، على أنك تكيد فتوقظ عدوّك وتوبق نفسك، كفعلك بهؤلاء الذين قتلتهم ومثّلت بهم بعد الصلح والأيمان والعهد والميثاق، فقتلهم من غير أن يكونوا قتلوا إلّا لذكرهم فضلنا، وتعظيمهم حقّنا بما به شرفت وعرفت، مخافة أمر لعلك لو لم تقتلهم متّ قبل أن يفعلوا. أو ماتوا قبل أن يدركوا.

أبشر يا معاوية بقصاص، واستعدَّ للحساب، واعلم أنّ لله عزّوجل كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، وليس الله تبارك وتعالى بناس أخذك بالظنّة وقتلك أولياءه بالتهمة، ونفيك إيّاهم من دار الهجرة إلى الغربة والوحشة، وأخذك الناس ببيعة ابنك غلام من الغلمان، يشرب الشراب، ويلعب بالكعاب، لا أعلمك إلّا قد خسرت نفسك وشريت دينك وغششت رعيّتك، وأخزيت أمانتك، وسمعت مقالة السفيه الجاهل وأخفت التقي الورع الحليم.

قال: فلمّا قرأ معاوية كتاب الحسين عليه السلام قال: لقد كان في نفسه غضب عليّ ما كنت أشعر به، فقال ابنه يزيد، وعبد بن أبي عمير بن جعفر: أجبه جواباً شديداً تصغر إليه نفسه، وتذكر أباه بأسوأ فعله وآثاره.

فقال: كلّا، أرأيتما لو أنّي أردت أن أعيب عليّاً محقّاً ما عسيت أن أقول، إنّ مثلي لا يحسن به أن يعيب بالباطل وما لا يعرف الناس، ومتى عبت رجلاً بما لا يعرف لم يحفل به صاحبه ولم يره شيئاً. وما عسيت أن أعيب حسيناً وما أرى للعيب فيه موضعاً، إلّا أنّي قد أردت أن أكتب إليه وأتوعّده وأهدده وأجهّله ثمّ رأيت أن لا أفعل (٩).

٣ ـ إظهاره وإعلانه لفضائل أهل البيت عليهم السلام وحقهم في ولاية المسلمين:

فعن موسى بن عقبه أنه قال: «لقد قيل لمعاوية أنّ الناس قد رموا أبصارهم إلى الحسين عليه السلام، فلوقد أمرته يصعد المنبر ويخطب فإن فيه حصراً أو في لسانه كلالة.

فقال لهم معاوية: قد ظننا ذلك بالحسن، فلم يزل حتّى عظم في أعين الناس وفضحنا، فلم يزالوا به حتّى قال للحسين: أبا عبد الله لو صعدت المنبر فخطبت.

فصعد الحسين عليه السلام المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فسمع رجلاً يقول: من هو الذي يخطب؟ فقال الحسين عليه السلام: نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأقربون، وأهل بيته الطيبون، وأحد الثقلين اللّذين جعلنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كتاب الله تبارك وتعالى، الذي فيه تفصيل كلّ شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعوّل علينا في تفسيره. لا يبطينا تأويله، بل نتبع حقايقه، فأطيعونا فإنّ طاعتنا مفروضة، أن كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة. قال الله عزّ وجلّ: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأُولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول﴾ وقال: ﴿ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبّعتم الشيطان إلّا قليلاً﴾.

وأحذّركم الإصغاء إلى هتوف الشيطان بكم فإنّه لكم عدوّ مبين، فتكونوا

كأوليائه الذين قال لهم لا غالب لكم اليوم من الناس وإنّي جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنّي بريء منكم، فتلقون للسيوف ضرباً وللرماح ورداً وللعمد حطماً وللسهام غرضاً، ثمّ لا يقبل من نفسٍ إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً (١٠).

ب : الموقف الثاني، من يزيد بن معاوية

وفي هذا الموقف الرسالي الفريد جسّد الإمام الحسين عليه السلام أحد أبرز مصاديق وحدة الهدف في تحقيق مصلحة الإسلام العليا؛ في أدوار أئمة أهل البيت عليهم السلام رغم تنوّعها وتباينها في الطريقة والأساليب حين نهض عليه السلام في وجه الخليفة الفاجر يزيد بن معاوية مسترخصاً كلّ شيء في سبيل مصلحة الإسلام العليا، لأن تنصيب يزيد من قبل أبيه معاوية خليفة للمسلمين سيصبح أكبر قضية تهدد أساس العقيدة الإسلامية بالمحق، ويعرّضها للزوال، وذلك من خلال الانحراف الخطير الذي سيطر على مسألة الحكم الإسلامي وخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فإن تنصيب مثل يزيد للخلافة، وهو المتجاهر بالفسق والفجور والزنا وشرب الخمور، وبتلك الطريقة التي سلكها معاوية، وهي إخراج الخلافة عن أصولها حتّى على مبنى الخلافة الراشدة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجعلها وراثية في بني أمية وعى أسس الجاهليّة ومقولاتها، يعني على أقل تقدير، وقوع الحكم الإسلامي في خطر التحوّل الجذري، والانقلاب الكلّي في الحكم الالهي الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما يقوم على أساسه من عدل وقسط وفلاح، إلى عصبيات الجاهليّة القبليّة وحكم الطاغوت الوراثي الذي سيكون للهوى والرأي المستبدّ الملاك التام والمقياس في قيامه وحاكميته على المسلمين. ولم تكن المشكلة آنذاك في إدراك مجمل هذه الحقيقة، فقد كان المسلمون المخلصون حينئذ وعلى رأسهم كبار الصحابة والتابعين، من الموالين لأهل البيت عليهم السلام ومحبيهم، مدركين لها ولخطورتها، إلّا أنّ الإرادة العامة للمسلمين لم تكن بمستوى هذا الإدراك، مما دفع الإمام الحسين عليه السلام لتحمّل هذه المسؤوليّة الكبرى، فانبرى لبذل دمه ودماء أهل بيته وأصحابه لتكون وقوداً يلهب تلك الإرادة الهامدة، وتعرية حقيقة الجاهليّة الكامنة في خلافة يزيد بن

معاوية التي استبدل فيها حاكمية كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام بحاكمية الجاهليّة وسنّة القبيلة والآباء والأجداد من بني أمية وأبي جهل؛ وبدأت منذ نهضته وبعد استشهاده عليه السلام مرحلة المواجهة والجهاد العنيد لهذا الخطّ المنحرف، ليقوم للدين عود ولتستقيم كلمته في العباد.

ولابدّ لنا من إلقاء نظرة على نماذج من الوقائع الخاصّة لنهضة الإمام الحسين عليه السلام الكبرى لنتلمس من خلالها المحتوى المبدئي في حفظ مصلحة الإسلام العليا ورعايتها التي ضحّى الإمام الحسين عليه السلام بنفسه وأهل بيته وأصحابه من أجلها، منها:

١ ـ لا بيعة ليزيد (شارب الخمر وقاتل النفس المحرمة)

فقد جاء في كتب التاريخ أن معاوية لما هلك في دمشق للنصف من رجب سنة ستين هجرية كان ابنه يزيد في «حوران» فقام الضحاك بن قيس بتكفينه ثمّ صلى عليه ودفنه بمقابر باب الصغير وأرسل البريد إلى يزيد يعزّيه بأبيه والإسراع في القدوم ليأخذ بيعة مجددة من الناس[١١] فسار يزيد إلى دمشق فوصلها بعد ثلاثة أيام من دفن معاوية.. وأقبل الناس عليه يهنّونه بالخلافة ويعزّونه بوفاة أبيه، فقال يزيد: أبشروا يا أهل الشام فإن الخير لم يزل فيكم وستكون بيني وبين أهل العراق ملحمة وذلك أني رأيت في منامي منذ ثلاث ليال كأنّ بيني وبين أهل العراق نهراً يطرد بالدم جرياً شديداً، وجعلت أجهد نفسي لأجوزه، فلم أقدر حتّى جازه بين يدي عبيد الله بن زياد وأنا أنظر إليه.

فصاح أهل الشام: امض بنا حيث شئت، معك سيوفنا التي عرفها أهل العراق في صفين. فجزّاهم خيراً وفرّق فيهم أموالاً جزيلة.

وكتب إلى العمال في البلدان يخبرهم بهلاك أبيه وأقرّهم على عملهم وضمّ العراقَين إلى عبيد الله بن زياد بعد أن أشار عليه بذلك سرجون مولى معاوية، وكتب إلى الوليد بن عقبة وكان على المدينة:

أما بعد: فإن معاوية كان عبداً من عباد الله أكرمه واستخلصه ومكّن له، ثمّ قبضه إلى روحه وريحانه ورحمته ... وقد كان عهد إليّ وأوصاني بالحذر من آل

أبي تراب لجرأتهم على سفك الدماء، وقد علمت يا وليد أن الله تبارك وتعالى منتقم للمظلوم عثمان من آل ابي سفيان لأنهم أنصار الحق وطلاب العدل، فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة على أهل المدينة.

ثم أرفق الكتاب بصحيفة صغيرة فيها: خذ الحسين وعبد الله بن عمر وعبدالرحمن بن أبي بكر وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً و من أبى فاضرب عنقه وابعث إليَّ برأسه (١٢).

وقام العامل بهذه المهمة فبعث على الحسين وابن الزبير نصف الليل رجاء أن يغتنم الفرصة بمبايعتهما قبل الناس، فوجدهما رسوله عبد الرحمن بن عمرو بن عثمان بن عفان (١٣) في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فارتاب ابن الزبير من هذه الدعوة التي لم تكن في الوقت الذي يجلس فيه للناس (١٤).

ووضح لابن الزبير ما عزم عليه الحسين من ملاقاة الوالي في ذلك الوقت فأشار عليه بالترك حذار الغيلة فعرفه الحسين عليه السلام القدرة على الامتناع (١٥) وصار إليه الحسين في ثلاثين (١٦) من مواليه وأهل بيته وشيعته شاكين السلاح ليكونوا على الباب فيمنعونه إذا علا صوته (١٧) وبيده قضيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولما استقر المجلس بأبي عبد الله عليه السلام نعى الوليد إليه معاوية ثمّ عرض عليه البيعة ليزيد فقال عليه السلام: مثلي لا يبايع سراً فإذا دعوت الناس إلى البيعة دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً (١٨).

فاقتنع الوليد منه لكن مروان ابتدر قائلاً: إنْ فارقك الساعة ولم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتّى تكثر القتلى بينكم ولكن احبس الرجل حتّى يبايع أو تضرب عنقه.

فقال الحسين عليه السلام: يا ابن الزرقاء (١٩) أنت تقتلني أم هو؟ كذبت وأثمت (٢٠).

ثم أقبل على الوليد وقال: أيها الامير: إنّا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا يختم ويزيد رجل شارب الخمور وقاتل النفس المحرّمة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحق بالخلافة (٢١).

فأغلظ الوليد في كلامه وارتفعت الأصوات فهجم تسعة عشر رجلاً قد

انتضوا خناجرهم وأخرجوا الحسين إلى منزله قهراً[٢٢] فقال مروان للوليد: عصيتني فو الله لا يمكنك على مثلها. قال الوليد: (ويحَ غيرك) يا مروان اخترت لي ما فيه هلاك دبني أقتل حسيناً إن قال لا أبايع؟! والله لا أظن امرءاً يحاسَب بدم الحسين إلا خفيف الميزان يوم القيامة[٢٣] ولا ينظر الله إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم[٢٤].

٢ ـ الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان

وفي هذا دلالة على حرمة الخلافة على أساس قبلي جاهلي، فقد نقلت كتب التاريخ أن الإمام الحسينعليه السلام بعد أن رفض بيعة يزيد، لقيه مروان عند صباح اليوم الثاني فعرفه النصيحة التي يدخرها لأمثاله وهي البيعة ليزيد فإن فيها خير الدين والدنيا. فاسترجع الحسينعليه السلام وقال: على الإسلام السلام إذا بُليت الأمّة براعٍ مثل يزيد، ولقد سمعت جدي رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم يقول: الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان[٢٥] فإذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه. وقد رآه أهل المدينة على المنبر فلم يبقروا فابتلاهم الله بيزيد الفاسق. وطال الحديث بينهما حتّى الضرف مروان مغضباً[٢٦].

٣ ـ لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيداً

فقد جاء أنّ محمّد بن الحنفية قال للإمام الحسينعليه السلام: يا أخي أنت أحبُّ الناس إليَّ وأعزّهم عليَّ، ولست أدَّخر النصيحة لأحد من الخلق إلّا لك وأنت أحق بها، تنحَّ ببيعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت ثمّ ابعث برسلك إلى الناس فإن بايعوك حمدت الله على ذلك، وإن اجتمعوا على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ولم تذهب مروءتك ولا فضلك، وإني أخاف عليك أن تدخل مصراً من هذه الأمصار فيختلف الناس بينهم فطائفة معك وأخرى عليك فيقتتلون فتكون لأول الأسنة غرضاً؛ فإذا خير هذه الأمّة كلها نفساً وأباً وأُمّا، أضيعها دماً وأذلّها أهلاً.

فقال الحسينعليه السلام: فأين أذهب؟ قال: تنزل مكة، فإن أطمأنت بك الدار وإلّا لحقت بالرمال وشعف الجبال وخرجت من بلد إلى آخر حتّى تنظر ما يصير إليه

أمر الناس فإنك أصوب ما تكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً ولا تكون الأمور أبداً أشكل عليك منها حين تستدبرها استدباراً (٢٧).

فقال الحسينعليه السلام: يا أخي! لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية. فقطع محمّد كلامه بالبكاء. فقال الحسينعليه السلام: يا أخي! جزاك الله خيراً. لقد نصحت وأشرت بالصواب، وأنا عازم على الخروج إلى مكة وقد تهيأت لذلك أنا وإخوتي وبنو أخي وشيعتي، أمرهم أمري ورأيهم رأيي، وأما أنت فلا عليك أن تقيم بالمدينة فتكون لي عيناً عليهم لا تخفي مني شيئاً من أمورهم (٢٨).

٤ ـ إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدي محمّدصلى الله عليه وآله وسلم

كتب الحسينعليه السلام قبل خروجه من المدينة وصيّة قال فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم ـ هذا ما أوصى به الحسين بن عليعليه السلام إلى أخيه محمّد بن الحنفية، أن الحسين يشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله جاء بالحق من عنده وأن الجنة حق والنار حق والساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور. وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين. وهذه وصيتي إليك يا أخي وما توفيقي إلا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب»، ثمّ طوى الكتاب وختمه ودفعه إلى أخيه محمّد (٢٩).

٥ ـ ما الإمام إلّا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله

فقد ذكر المؤرخون أن الحسينعليه السلام وافته في مكة كتب أهل الكوفة، من الرجل والاثنين والثلاثة والأربعة يسألونه القدوم عليهم لأنهم بغير إمام ولم يجتمعوا مع النعمان بن بشير في جمعة ولا جماعة، وتكاثرت عليه الكتب حتّى ورد عليه في يوم واحد ستمئة كتاب واجتمع عنده من نوب متفرقة اثنا عشر ألف كتاب وفي كلّ ذلك يشددون الطلب وهو لا يجيبهم، وآخر كتاب ورد عليه من شبث بن

ربعي وحجّار بن أبجر ويزيد بن الحارث وعزرة بن قيس وعمرو بن الحجاج ومحمّد بن عمير بن عطارد وفيه: إن الناس ينتظرونك لا رأي لهم غيرك فالعجل العجل يا ابن رسول الله، فقد اخضرّ الجناب وأينعت الثمار وأعشبت الأرض وأورقت الأشجار، فأقدم إذا شئت فإنّما تقدم على جند لك مجندة (٣٠).

ولما اجتمع عند الحسين ما ملأ خرجين، كتب إليهم كتاباً واحداً دفعه إلى هاني بن هاني السَبُعي وسعيد بن عبد الله الحنفي وكانا آخر الرسل، صورته: بسم الله الرحمن الرحيم. من الحسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين. أمّا بعد! فإن هانئاً وسعيداً قدما عليّ بكتبكم وكانا آخر من قدم علي من رسلكم وقد فهمت كل الذي قصصتم وذكرتم ومقالة جلّكم أنّه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق. وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم فإن كتب أنه قد اجتمع رأي مَلَئِكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليّ به رسلكم في كتبكم أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله. فلعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله، والسلام.

٦ ـ رضا الله رضانا أهل البيت

فقد ورد أن الحسين عليه السلام لما بلغه إنفاذ يزيد عمرو بن سعيد بن العاص في عسكر وأمّره على الحاج وولاه أمر الموسم وأوصاه بالفتك بالحسين أينما وُجد (٣١)، عزم على الخروج من مكة قبل إتمام الحج، واقتصر على العمرة كراهية أن تستباح به حرمة البيت (٣٢).

وقبل أن يخرج قام خطيباً فقال: الحمد لله وما شاء الله ولا قوّة الا بالله وصلّى الله على رسوله، خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطعها عُسلان الفلاة بين النواويس وكربلا فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفّينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته بل هي مجموعة له في

حضيرة القدس تقرّ بهم عينه وينجز بهم وعده، ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى [٣٣].

وكان خروجه عليه السلام من مكة لثمان مضين من ذي الحجة، ومعه أهل بيته ومواليه وشيعته من أهل الحجاز والبصرة والكوفة الذين انضمّوا إليه أيام إقامته بمكة، وأعطى كلّ واحد منهم عشرة دنانير وجملاً يحمل عليه زاده [٣٤].

٧ ـ نحن أهل بيت محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أولى بولاية هذا الأمر

فقد جاء أن الحسين عليه السلام بعد خروجه من مكة سار حتّى نزل شراف، وعند السحر أمر فتيانه أن يستقوا من الماء ويكثروا، وفي نصف النهار سمع رجلاً من أصحابه يكبّر فقال الحسين عليه السلام: لم كبّرت: قال: رأيت النخل، فأنكر من معه أن يكون بهذا الموضع نخل وإنما هو أسنّة الرماح وآذان الخيل، فقال الحسين عليه السلام: وأنا اراه ذلك، ثمّ سألهم عن ملجأ يلجأون إليه فقالوا: هذا «ذو حُسَمَ» [٣٥]. عن يسارك فهو كما تريد، فسبق إليه الحسين وضرب أبنيته. وطلع عليهم الحرّ الرياحي مع ألف فارس بعثه ابن زياد ليحبس الحسين عن الرجوع إلى المدينة أينما يجده أو يقدم به الكوفة. فلما رأى سيد الشهداء ما بالقوم من العطش أمر أصحابه أن يسقوهم ويرشفوا الخيل فسقوهم وخيولهم عن آخرهم.

وكان علي بن الطعان المحاربي مع الحر فجاء آخرهم وقد أضرّ به العطش فقال له الحسين: أنخ الرواية وهي الجمل بلغة الحجاز فلم يفهم مراده فقال له: أنخ الجمل، ولما أراد أن يشرب جعل الماء يسيل من السقاء فقال له «ريحانة الرسول»: اخنث السقاء. فلم يدر ما يصنع لشدّة العطش، فقام عليه السلام بنفسه وعطف السقاء حتّى ارتوى وسقى فرسه.

ثم إن الحسين عليه السلام استقبلهم فحمد الله وأثنى عليه وقال:

إنّها معذرة إلى الله عزّ وجل وإليكم، وإني لم آتكم حتّى أتتني كتبكم وقدمت بها عليّ رسلكم أن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام ولعل الله أن يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك، فقد جئتكم فأعطوني ما أطمئن به من عهودكم ومواثيقكم، وإن كنتم لمقدمي كارهين؛ انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم.

فسكتوا جميعاً. وأذَّن الحجاج بن سروق الجعفي لصلاة الظهر فقال الحسين للحر: أتصلي بأصحابك قال: لا، بل نصلي جميعاً بصلاتك، فصلّى بهم الحسين عليه السلام.

وبعد أن فرغ من الصلاة أقبل عليهم فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وقال: أيها الناس: إنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل بيت محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين بالجور والعدوان، وإن أبيتم إلّا الكراهية لنا والجهل بحقّنا، وكان رأيكم الآن على غير ما أتتني به كتبكم؛ انصرفت عنكم.

فقال الحر: ما أدري ما هذه الكتب التي تذكرها. فأمر الحسين عقبة بن سمعان فأخرج خرجين مملوَّين كتباً.

قال الحر: إني لستُ من هؤلاء، وإني أُمِرتُ أن لا أفارقك إذا لقيتك حتّى أقدمك الكوفة على ابن زياد.

فقال الحسين عليه السلام: الموت أدنى إليك من ذلك.

وأمر أصحابه بالركوب، وركبت النساء، فحال بينهم وبين الانصراف إلى المدينة (٣٦).

٨ ـ من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنّة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يُدخله مدخله

فقد ورد أن الإمام الحسين عليه السلام خطب في أصحاب الحر في البيضة (٣٧). فقال بعد الحمد لله والثناء عليه:

أيها الناس! إنَّ رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول؛ كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله وحرموا حلاله، وأنا أحق ممن غيّر، وقد أتتني كتبكم وقدمت عليّ رسلكم

ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم علي بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله، نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم ولكم في أُسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم؛ فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، فالمغرور من اغترّ بكم، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته [٣٨].

٩ ـ إنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برما

لقد كان نزول الإمام الحسينعليه السلام في كربلاء في الثاني من المحرم سنة إحدى وستين [٣٩] فجمع ولده وإخوته وأهل بيته ونظر إليهم وبكى وقال: اللهم إنّا عترة نبيك محمّد قد أُخرجنا وطُردنا وأُزعجنا عن حرم جدّنا وتعدّت بنو أمية علينا، اللهم فخذ لنا بحقّنا وانصرنا على القوم الظالمين.

وأقبل على أصحابه فقال: الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم فإذا مُحّصوا بالبلاء قلَّ الدَّيّانون [٤٠].

ثم حمد الله وأثنى عليه، وصلّى على محمّد وآله وقال: أمّا بعد. فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها، ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به وإلى الباطل لا يُتناهي عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما [٤١].

١٠ ـ لا أفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق

عندما بعث الحر بن يزيد الرياحي إلى ابن زياد يخبره بنزول الحسين في كربلاء كتب ابن زياد إلى الحسين: أما بعد يا حسين! فقد بلغني نزولك كربلاء، وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يزيد أن لا أتوسد الوثير ولا أشبع من الخمير أو ألحقك باللطيف الخبير أو تنزل على حكمي وحكم يزيد والسلام.

ولما قرأ الحسين الكتاب رماه من يده وقال: لا أفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق، وطالبه الرسول بالجواب فقال: ما له عندي جواب لأنه

حقت عليه كلمة العذاب.

وأخبر الرسول ابن زياد بما قاله أبو عبدالله عليه السلام فاشتد غضبه[٤٢] وأمر عمر بن سعد بالخروج إلى كربلاء لقتال الإمام الحسين عليه السلام.

١١ ـ لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفرّ فرار العبيد

عندما أقبل عمر بن سعد نحو الحسين عليه السلام في ثلاثين ألفاً دعا الإمام الحسين عليه السلام براحلته فركبها ونادى بصوت عالٍ يسمعه جلُّهم: أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتّى أعظكم بما هو حق لكم عليَّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدّقتم قولي وأعطيتموني النصف من أنفسكم كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم علي سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم؛ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمة ثمّ اقضوا إليَّ ولا تنظرون. إنَّ وليّي الله الّذي نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين.

ثم قال: الحمد الله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرّته والشقي من فتنته، فلا تغرّنكم هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها وتخيب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلَّ بكم نقمته. وجنّبكم رحمته، فنعم الربّ ربّنا وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ إنكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتباً لكم ولما تريدون، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين[٤٣].

أيّها الناس! انسبوني من أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟ أو ليس جعفر الطيار عمّي؟ أو لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ فإن صدقتموني بما أقول وهو الحق فوالله ما تعمدت الكذب منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله ويضرّ به من اختلقه، وإن كذبتموني فإنّ فيكم من

إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك يخبرونكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟

ثم قال الحسينعليه السلام: فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكّون أني ابن بنت نبيكم فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم، ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته؟ أو مال لكم استهلكته؟ أو بقصاص جراحة؟

فأخذوا لا يكلمونه.

فنادى: يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر. ويا قيس بن الأشعث. ويا زيد بن الحارث! ألم تكتبوا إليَّ أن أقدم قد أينعت الثمار واخضرَّ الجناب، وإنّما تقدم على جند لك مجنَّدة؟

فقالوا: لم نفعل.

قال: سبحان الله بلى والله لقد فعلتم.

ثمّ قال: أيها الناس! إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض.

فقال له قيس ابن الأشعث: أو لا تنزل على حكم بني عمك؟ فإنهم لن يروك إلّا ما تحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه.

فقال الحسين عليه السلام: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم أكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أُعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أفرّ فرار العبيد، عباد الله إنّي عذت بربي وربكم أن ترجمون. أعوذ بربي وربكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب.

ثم أناخ راحلته وأمر عقبة بن سمعان فعقلها (٤٤).

١٢ ـ هيهات منّا الذلّة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون

وخطب الإمام الحسينعليه السلام خطبته الثانية فيمن جاء لقتاله حيث ركب فرسه وأخذ مصحفاً ونشره على رأسه ووقف بإزاء القوم وقال: يا قوم! إن بيني وبينكم كتاب الله وسنّة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٤٥).

ثم استشهدهم عن نفسه المقدسة وما عليه من سيف النبيّ ﷺ ودرعه وعمامته، فأجابوه بالتصديق، فسألهم عما أقدمهم على قتله؛ قالوا: طاعةً للأمير عبيد الله بن زياد، فقال عليه السلام:

تبّاً لكم أيتها الجماعة وترحا! أحين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم؟ وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوّكم فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم؟ فهلّا لكم الويلات، تركتمونا والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة[٤٦] الدبا، وتداعيتم عليها كتهافُت الفراش، ثمّ نقضتموها، فسحقاً لكم يا عبيد الأمة وشذّاذ الأحزاب ونبذة الكتاب ومحرّفي الكلم وعصبة الاثم ونفثة الشيطان ومطفئي السنن. ويحكم! أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون؟! أجل والله غدر فيكم قديم وُشجث عليه أصولكم وتأزرت فروعكم، فكنتم أخبث ثمر، شجىً للناظر وأكلة للغاصب.

ألا وإن الدعيّ ابن الدعيّ قدر ركز بين اثنتين: بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية؛ من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام. ألا وإني زاحف بهذه الأُسرة على قلة العدد وخذلان الناصر.

أما والله لا تلبثون بعدها إلّا كريثما يركب الفرس حتّى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور، عهد عهده أبي عن جدي رسول الله ﴿فأجمعوا أمركم وشركاء كم ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمّة ثمّ اقضوا إليّ ولا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراط مستقيم﴾ [٤٧].

ثم رفع يديه نحو السماء وقال: اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبرة، فإنهم كذّبونا وخذلونا وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك المصير [٤٨].

والله لا يدع أحداً منهم إلا انتقم لي منه قتلة بقتلة وضربة بضربة وإنه لينتصر لي ولأهل بيتي وأشياعي [٤٩].

١٣ ـ يا أمّة السوء! بئسما خلفتم محمّداً في عترته

فقد روي أن الإمام الحسين عليه السلام عندما ودّع عياله أمرهم بالصبر ولبس الأزر وقال: استعدّوا للبلاء، واعلموا أنَّ الله تعالى حاميكم وحافظكم وسينجيكم من شر الأعداء، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير، ويعذب عدوّكم بأنواع العذاب، ويعوضكم عن هذه البليّة بأنواع النعم والكرامة، فلا تشكوا ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص من قدركم[٥٠].

ثم صاح في القوم بصوت عالٍ: يا أُمَّة السوء! بئسما خلفتم محمّداً في عترته. أما إنكم لا تقتلون رجلاً بعدي فتهابون قتله، بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إياي. وأيم الله إنّي لأرجو أن يكرمني الله بالشهادة ثمّ ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون.

فقال الحصين: وبماذا ينتقم لك منا يا ابن فاطمة؟

قال: يلقي بأسكم بينكم، ويسفك دماءكم، ثمّ يصبُّ عليكم العذاب صبّاً[٥١].

١٤ ـ اللهم احكم بيننا وبين قومنا فإنَّهم غرّونا وخذلونا وغدروا بنا وقتلونا ونحن عترة نبيك:

وحتى اللحظات الأخيرة التي كان الإمام الحسين عليه السلام يجود بنفسه وهو مضمّخ بدمه على أرض كربلاء لم يغفل أبداً عن مبدأيته الرساليّة، فكانت آهاته وآلامه وهو في تلك الحالة هي تسليم لأمر الله، ونظر إلى مستقبل الرسالة والأمّة، وبيان لحقيقة موقفه وموقعه من الرسالة التي حملها، والدور الذي اضطلع به، فمما روي أنّ هلال بن نافع قال: كنت واقفاً نحو الحسين وهو يجود بنفسه فوالله ما رأيت قتيلاً قط مضمّخاً بدمه أحسن منه وجهاً ولا أنور، ولقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله، فاستقى في هذه الحال ماء فأبوا أن يسقوه.

وقال له رجل: لا تذوق الماء حتّى ترد الحامية فتشرب من حميمها.

فقال عليه السلام: أنا أرد الحامية؟ وإنّما أرد على جدي رسول الله وأسكن معه في داره في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأشكو إليه ما ارتكبتم مني وفعلتم بي.

فغضبوا بأجمعهم حتّى كأن الله لم يجعل في قلب أحدهم من الرحمة شيئاً[٥٢].

ولما اشتدّ به الحال رفع طرفه إلى السماء وقال: «اللّهم متعال المكان، عظيم

الجبروت، شديد المحال، غنيّ عن الخلايق، عريض الكبرياء، قادر على ما تشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء، قريب إذا دُعيت، محيط بما خلقت، قابل التوبة لمن تاب إليك، قادر على ما أردت، تدرك ما طلبت، شكور إذا شُكرت، ذكور إذا ذُكرت أدعوك محتاجاً وأرغب إليك فقيراً، وأفزع إليك خائفاً وأبكي مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً وأتوكّل عليك كافياً. اللّهمَّ احكم بيننا وبين قومنا فإنّهم غرّونا وخذلونا وغدروا بنا وقتلونا، ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمّد ﷺ الذي اصطفيته بالرسالة واتمنته على الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً يا أرحم الراحمين (٥٣). صبراً على قضائك يا ربِّ، لا إله سواك يا غياث المستغيثين (٥٤). ما لي ربّ سواك ولا معبود غيرك، صبراً على حكمك يا غياث من لاغياث له، يا دائماً لا نفاد له، يا محيي الموتى، يا قائماً على كلّ نفس بما كسبت، احكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين» (٥٥).

المأساوية الفريدة لواقعة كربلاء عنصر أساس في تحقيق مصلحة الإسلام العليا

لقد كان للصورة المأساوية التي تميّزت بها واقعة الطف الدامية في كلّ وقائعها ومفرداتها دور مرسوم وأثر بليغ شاءه الله سبحانه لتتحقّق للإمام الحسين عليه السلام أهدافه الإلّهية من خلال نهضته الكبرى. والمتصفّح لكتب التاريخ التي تسرد تفاصيل واقعة الطف الأليمة سيهتز ضميره ويعتريه الحزن والألم الشديد، بل وتجري دمعته مع كلّ مفردة من مفردات الواقعة المأساوية منذ حركة الإمام الحسين بأهل بيته وأصحابه من مكة المكرمة، وحتى استشهاده على أرض كربلاء وسبي نسائه وأطفاله فيما بعد. وفي الوقت نفسه يستعر غضباً وغيظاً على الطاغية يزيد وابن زياد وعمّالهم من قتله الإمام الحسين عليه السلام لشدة قسوتهم وظلمهم الذي لا حدّ له في طريقة مواجهة الإمام عليه السلام وقتله وقتل أهل بيته وأصحابه وسبي نساء عترة الرسول ﷺ وأطفالهم...

ولقد أثّرت الحادثة أثرها في تأجيج عواطف المسلمين خصوصاً أهل الكوفة وغيرها في حواضر العراق والحجاز، وخلقت الأرضية الواسعة لأيّة مبادرة تعبوية

لمواجهة الخلافة الأموية وكسر هيبتها وتعرية تستُّرها بستار الخلافة الإسلامية، ولهذا نجد أن مرحلة المواجهة والجهاد العنيد لهذا الخط المنحرف قد بدأت منذ أن بدأت النهضة الحسينية الكبرى واشتدّت بعد استشهاده عليه السلام، وكلها تنادي بشعار الرضا من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وهو شعار الإمام الحسين عليه السلام الشهير الذي أطلقه في نهضته حيث قال «رضا الله رضانا أهل البيت».

ولم أجد أبلغ من وصف الإمام الحسن عليه السلام لمأساة الإمام الحسين عليه السلام، فقد روى أبو عبد الله الصادق عليه السلام أن الحسين دخل على أخيه الحسن في مرضه الذي استُشهد فيه، فلما رأى ما به بكى. فقال له الحسن: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ قال: أبكي لما صُنع بك، فقال الحسن عليه السلام: إن الذي أُوتي إليّ سمّ أُقتل به، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله وقد ازدلف إليك ثلاثون ألفاً يدّعون أنّهم من أمّة جدنا محمّد، وينتحلون دين الإسلام، فيجتمعون على قتلك وسفك دمك وانتهاك حرمتك، وسبي ذراريك ونسائك، وانتهاب ثقلك، فعندها تحلّ ببني أمية اللعنة، وتمطر السماء رماداً ودماً، ويبكي عليك كلّ شيء حتّى الوحوش في الفلوات والحيتان في البحار [٥٦].

ولم يقف الأثر التعبوي للنهضة الحسينية عند حدٍّ مقطعيّ من مسيرة الأمّة، بل تواصل وبنمو نوعيٍّ وكميٍّ مضطرد وعبر العصور، حتّى إننا نستطيع القول بأن من أبرز الأدلّة الواقعية على الأثر الدائم لهذه النهضة الخالدة في أعماق المسلمين وتحقيقها للهدف الشامل في تقويم المصلحة الإسلامية العليا على مستوى الرسالة والأمّة جمعاء؛ هو هذا الإجماع المطلق في جميع العصور على تأييدها والتفاعل مع معطياتها، والإدانة المطلقة ليزيد بن معاوية موقفاً ومنهجاً، فهذه كتب الحديث والتاريخ والسير لكل المذاهب والفرق الإسلامية تجتمع على ذلك، وهذه كتب المحدثين من إسلاميين وغيرهم ممن تناول قيام الإمام الحسين عليه السلام ونهضته بالدراسة والتحليل، تجتمع على ذلك أيضاً، حتّى لقد جاء على لسان أحدهم وهو الزعيم الهندي المعروف (غاندي) قوله: «لقد عرف الحسين كيف يكون مظلوماً فينتصر».

الهوامش

١ ـ المائدة : ١ .

٢ ـ الإسراء : ٣٤.

٣ ـ الشيخ المفيد ، الإرشاد : ٢٠٠ .

٤ ـ هكذا وردت في النص .

٥ ـ الطبرسي ، الاحتجاج ، ٢ : ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

٦ ـ الطبرسي ، الاحتجاج ، ٢ : ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

٧ ـ الحسيني ، هاشم معروف ، سيرة الأئمة الاثني عشر ، ٢ : ٤٥ . والطبرسي الاحتجاج ، ٢ : ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

٨ ـ الطبرسي ، الاحتجاج ، ٢ : ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

٩ ـ البداية ٨: ١٤٣ .

١٠ ـ مقتل الخوارزمي ج ١ ص ١٧٨ ـ ١٨٠، طبع النجف .

١١ ـ ابن عساكر ، ج ٤ ، ص ٣٢٧.

١٢ ـ الطبري ، ج ٦ ، ص ١٨٩ .

١٣ ـ ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٦.

١٤ ـ اللهوف للسيد رضي الدين ابن طاووس .

١٥ ـ مقتل الخوارزمي ، ج ١ ، ص ١٨٣ ، فصل ٨.

١٦ ـ الطبري ، ج ٦ ، ص ١٨٩ .

١٧ ـ في تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ٢٢٩ طبع إيران والاداب السلطانية للفخري ص ٨٨: كانت جدة مروان من البغايا ، وفي كامل ابن الاثير : كان الناس يعيّرون ولد عبد الملك بن مروان بالزرقاء بنت موهب لانها من المومسات ومن : ذوات الرايات .

١٨ ـ تاريخ الطبري ؛ وابن الأثير

١٩ ـ مثير الأحزان لابن نما الحلي من أعلام القرن السادس .

٢٠ ـ مناقب ابن شهرآشوب ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

٢١ ـ تاريخ الطبري ، ج ٦ ، ص ١٩٠ .

٢٢ ـ اللهوف ، ص ١٤ .

٢٣ ـ اللهوف ص ١٣ ؛ ومثير الأحزان ص ١٠ .

٢٤ ـ مقتل الخوارزمي ، ج ١ ، ص ١٨٥ فصل ٩ .

٢٥ ـ الطبري، ج ٦، ص ١٩١، وكامل ابن الاثير، ج ٤، ص ٧.

٢٦ ـ مقتل محمّد بن ابي طالب ولم يذكر أرباب المقاتل هذا العذر واعتذر العلامة الحلي في أجوبة مسائل ابن مهنا بالمرض.

٢٧ ـ مقتل العوالم، ص ٥٤؛ والمقتل للخوارزمي، ج ١، ص ١٨٨، فصل ٩.

٢٨ ـ ابن نما، ص ١١.

٢٩ ـ الطبري ج ٦ ص ١٩٨؛ والأخبار الطوال ص ٢٣٨.

٣٠ ـ المنتخب، ص ٣٠٤، الليلة العاشرة.

٣١ ـ ابن نما، ص ٨٩؛ وتاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٧٧.

٣٢ ـ اللهوف ص ٣٣، وابن نما، ص ٢٠.

٣٣ ـ نفس المهموم ص ٩١.

٣٤ ـ حُسَم (بضم الحاء المهملة وفتح السين بعدها ميم) جبل كان النعمان بن المنذر يصطاد به وفيه للنابغة أبيات.

٣٥ ـ في جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ٢١٥: الحر بن يزيد بن ناجية ين قعنب بن عتاب الردف بن هرمي بن رياح يربوع.

٣٦ ـ إرشاد المفيد؛ وابن شهر آشوب في المناقب ٢: ١٩٣.

٣٧ ـ البيضة: ما بين واقصة إلى عذيب الهجانات وهي أرض واسعة لبني يربوع بن حنظلة.

٣٨ ـ الطبري، جزء ٦، ص ٢٢٩.

٣٩ ـ نص عليه الطبري في التاريخ، ج ٦، ص ٢٣٣؛ وابن الاثير في الكامل، ج ٦، ص ٢٠؛ والمفيد في الإرشاد.

٤٠ ـ البحار، ج ١٠، ص ١٩٨؛ والمقتل للخوارزمي، ج ١، ص ٢٣٧.

٤١ ـ هذا في اللهوف، وعند الطبري، ج ٦، ص ٢٢٩: أنّه خطب به بذي حُسم؛ وفي العقد الفريد، ج ٢، ص ٣١٢؛ وحليّة الاولياء ج ٢ ص ٣٩؛ وابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٣ مثل اللهوف؛ وفي مجمع الزوائد، ج ٩ ص ١٩٢ وذخائر العقبى ص ١٤٩؛ وحلية الأولياء لأبي نعيم ج ٢ ص ٣٩؛ و العقد الفريد ج ٢ ص ٣١٢ يظهر منه أنّه خطب ذلك يوم عاشوراء، وفي سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٣، ص ٢٠٩: لما نزل عمر بن سعد بالحسين خطب أصحابه.

٤٢ ـ البحار ج ١٠، ص ١٨٩؛ ومقتل العوالم، ص ٧٦.

٤٣ ـ مقتل محمّد بن أبي طالب.

٤٤ ـ تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٤٣.

٤٥ ـ تذكرة الخواص، ص ١٤٣.

٤٦ ـ بالكسر كالفتح، تاج العروس.

٤٧ ـ تاريخ ابن عساكر، ج ٤، ص ٣٣٤، والمقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٧، واللهوف ص ٥٤. والآيتان في سورتي يونس: ٧١، وهود: ٥٦ على التوالي.

٤٨ ـ اللهوف، ص ٥٦، طبعة صيدا؛ والمقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٧.

٤٩ ـ مقتل العوالم، ص ٨٤.

٥٠ ـ جلاء العيون للمجلسي بالفارسية.

٥١ ـ مقتل العوالم، ص ٩٨؛ نفس المهموم، ص ١٨٩؛ ومقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣٤.

٥٢ ـ ابن نما، ص ٤٩.

٥٣ ـ مصباح المتهجد والإقبال؛ وعنهما في مزار البحار، ص ١٠٧، باب زيارته يوم ولادته.

٥٤ ـ أسرار الشهادة، ص ٤٢٣.

٥٥ ـ رياض المصائب، ص ٣٣.

٥٦ ـ أمالي الصدوق، ص ٧١، المجلس ٣٠.

الأدوار السياسية والاجتماعية

للمراسم الحسينية في منظور الإمام الخميني

طالب الأحمد

وردت عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أحاديث كثيرة تحثّ المسلمين على إقامة المراسم والمراثي الحسينية لما لها من دور مهم في إحياء قيم ومفاهيم نهضة الإمام الحسين عليه السلام التي حفظت الرسالة المحمّدية السمحاء من تيّارات التحريف والتضليل طيلة عقود التسلّط والبغي التي مرّت على الأمّة الإسلامية.

وقد كان الأئمّة عليهم السلام «يتحرون أساليب مختلفة من البيان توجب توجيه النفوس نحو التذكارات الحسينية لما لها من العلاقة التامّة لحفظ المذهب عن الاندراس، فعبّروا عنها بالعموم تارة وبالخصوص أخرى، فيقول الإمام الباقر عليه السلام: رَحِمَ الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكرا في أمرنا فإنّ ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما اجتمع اثنان على ذكرنا إلّا باهى الله بهما الملائكة فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر فإنّ اجتماعكم ومذاكرتكم إحياؤنا، وخير الناس بعدنا من ذكّر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا»(١).

وورد في كتب الأحاديث أيضاً حوار للإمام الصادق مع أحد أصحابه، يحثّه فيه على إحياء المراسم الحسينية.

يقول الإمام للفضيل بن يسار: «أتجلسون وتتحدّثون؟ قال: نعم، فقال عليه السلام: أمّا إني أُحب تلك المجالس فأحيوا أمرنا فإنّ من جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»(٢). وهناك أحاديث أخرى عديدة تصبّ في هذا الاتجاه.

وفي عصر الغيْبة، دأب علماء الإسلام على اتّباع تعاليم ووصايا الأئمّة عليهم السلام الداعية إلى إحياء النهضة الحسينية، وتثوير الواقع الاجتماعي بوجه قوى الاستبداد

والانحراف. فعملوا على توعية الأمّة الإسلامية ـ عبر القنوات والمنابر المتاحة ـ بأبعاد النهج الحسيني، وديمومة عطائه، وأثره في حفظ الرسالة الإسلامية حتّى وقتنا الحاضر.

ومن أهمّ القنوات التي تمكّن عبرها العلماء من تحقيق أهدافهم تلك، المنبر الحسيني، ومراسم التعزية التي تُقام كلّ عام في أوساط المجتمع الإسلامي الشيعي خلال شهري محرّم وصفر.

حيث أصبحت هذه المراسم ـ بما تتضمّنه من قيم ومفاهيم تدعو للإصلاح والنهوض الحضاري ـ من أهم السمات التي تميّز الوجود الاجتماعي لشيعة أهل البيت عليهم السلام.

وقد أدّى ذلك إلى أن يلجأ الطغاة على مرّ العصور إلى قمع المسلمين الشيعة وحرمانهم من إقامة الشعائر الحسينية، خوفاً من «الروح الثورية» التي تحييها المراسم في الأوساط الاجتماعية وتجعلها في مواجهة مستمرة مع كلّ أشكال الظلم والاستبداد السياسي.

ومع أن المراسم الحسينية وأدوارها الوظيفية تحظى بأهمية في الحفاظ على الهوية الحضارية للمجتمع الإسلامي، وفي انبثاق حركات التغيير الاجتماعي والسياسي، إلّا أنها لم تحظ بالدراسة الاجتماعية ـ العلمية المنصفة من قبل الباحثين والمفكرين في العالم العربي.

وعلاوة على هذا التجاهل، «فقد دأب بعض المستشرقين وعلماء الانثروبولوجيا المهتمين بدراسة الأديان والمجتمعات الشرقية، على تصوير «المراسم الحسينية» بهيئة الطقوس الفولكلورية البدائية التي تغذي الخيال الشعبي بتصوّرات أُسطورية خرافية عن أبطال التاريخ.

وتبعهم على هذا المنهج الخاطئ الكتّاب العلمانيون العرب الذين تأثّروا بما قرأوه عن طقوس الديانات الطوطمية، ونظريات «فرويد» و «يونج» و «فريزر» و«مرغريت ميد» عن «اللاوعي الجمعي» وأثره في تشكيل مشاهد الطقوس والاحتفالات الدينية ومضامينها. إذ حاولوا إسقاط قراءاتهم تلك على المراسم الإسلامية عموماً والمراسم الحسينيّة بشكل خاص»(٣).

وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩، اتجهت أنظار الإعلاميين والكتّاب والباحثين إلى إيران، لتبحث عن السرّ الكامن وراء انتصار «شعب أعزل» أمام أعْتى قوّة تسلّطية وقمعية في منطقة الشرق الإسلامي.

ولأسباب سياسية وطائفية، وأخرى تتعلّق بقصور مناهج البحث، لم يدرك كثير ممّن تناولوا الثورة الإسلامية في إيران بالبحث والتحليل، الدور الكبير للمراسم الحسينية في تثوير مختلف قطاعات الشعب الإيراني ضد سلطات الشاه الإرهابية، وتوحّده في حركة تغييرية شاملة خلف قيادة الإمام الخمينيّ الذي جعل من مبدأ «انتصار الدم على السيف» عقيدة سياسية راسخة للملايين من أبناء الشعب الإيراني المسلم.

في هذا المقال المتواضع، نحاول ـ جهد الإمكان ـ أن نوضِّح الأدوار الوظيفية للمراسم الحسينية، وفقاً لمنظور الإمام الخميني، لاعتقادنا بأهمية هذا المبحث في فهم الأبعاد الحضارية التي تشتمل عليها المراسم الحسينية وأثرها في نهضة المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

الأدوار الوظيفية للمراسم الحسينية في منظور الإمام الخميني

لقد تنبّه الإمام الخمينيّ في وقت مبكر من تاريخه الجهادي ضد سلطات الشاه إلى مكانة المراسم الحسينية في بنية المجتمع الإيراني المسلم وأثرها في تعميق الولاء المذهبي لقطاعاته المختلفة. فعمل على استثمار هذه المكانة بما تنطوي عليه من قيم ومفاهيم؛ لأجل أن تؤدي «المراسم» جملةً من الأدوار الوظيفية في الميادين السياسية والاجتماعية.

ومن أهم أدوار المراسم التي أكّد الإمام على إحيائها، وسعى لتفعيل آثارها الاجتماعية والسياسية في خطبه وتوجيهاته للشعب الإيراني أثناء قيادته لحركة التغيير الحضاري في مرحلتي ماقبل انتصار الثورة الإسلامية وبعدها:

١ ـ إسقاط شرعية حكم الشاه محمّد رضا بهلوي، وتثقيف قطّاعات الشعب الإيراني، من خلال المنبر الحسيني بأهمية إقامة حكومة إسلامية بديلة تتمثل قيم وأهداف الثورة الحسينية.

٢ ـ تمتين الأواصر المذهبية والاجتماعية بين قطاعات المجتمع الإيراني وتكتيلها في حركة موحَّدة لمواجهة طغيان الشاه وأجهزته القمعية ـ السلطوية؛ حيث تحوّلت «المراسم الحسينية» في تلك المرحلة، بفضل توجيهات الإمام الخميني‌قدس‌سره إلى مسيرات جماهيرية حاشدة تنطلق فيها نداءات الإسلام الثورية، ويعبّر الشعب من خلالها عن رفضه لحكومة الشاه الطاغوتية.

ورغم ضخامة الجهاز القمعي «الشاهنشاهي» وتعدّد مؤسساته، تواصلت مسيرات الاحتجاج العاشورائية، وتعمّق معها ارتباط الأمّة بالإمام، حيث أصبح لأحداث واقعة كربلاء حضور معاصر تمثّل في أحد أبعاده بإصرار أنصار الإمام الخميني ومؤيديه على الوقوف معه في مواجهة الشاه مهما كان الثمن، مقتدين بمواقف أنصار الإمام الحسين في ملحمة عاشوراء حيث آثروا «مصارع الكرام على طاعة اللئام» كما ورد في النصوص التاريخية عن الواقعة المخلَّدة.

ونشير هنا إلى أنّ الإمام الخميني حرص طوال حياته الشريفة على استثمار هذه الحالة الإيجابية من التلاحم الجماهيري أثناء المراسم الحسينية حتى في المرحلة التي تلت انتصار الثورة الإسلامية وسقوط النظام الملكي العميل، حيث أصبحت المراسم الحسينية إحدى ساحات «حزب الله» التي تتجدّد فيها بيعة الجماهير لقيادتها الشرعية، وتؤكّد فيها أيضاً حرصها على الدفاع عن قيم الثورة الإسلامية، التي قدّمت قوافل من الشهداء لأجل ديمومتها.

٣ ـ من الأدوار المهمّة أيضاً ـ وفق منظور الإمام ـ إحياء «روح الجماعة» عند المشاركين في المراسم الحسينية، بحيث تصبح أيّام عاشوراء الفرصة المناسبة لقيام «كتلة تاريخية» من الموظفين والعمّال والعلماء والتّجار والطلبة وغيرهم من قطاعات المجتمع وفئاته، تأخذ على عاتقها مهمّة إحياء قيم الثورة الحسينية والنهوض بالمجتمع الإسلامي.

وهذا ما يفسِّر لنا لجوء الأنظمة الطاغوتية إلى تفتيت بنية المجتمع الشيعي، ومنعه من التفاعل مع الرموز الدينية حتّى أصبحت محاربة المراسم الحسينية العنوان الأبرز للمواجهة بين شيعة أهل البيت والنظم الاستبدادية[٤].

يقول الإمام الخمينيّ ـ قدّس سرّه ـ عن دور المراسم الحسينية في تحقيق وحدة الكلمة، وجمع فئات الأمّة في إطار مشروع التغيير: «إنّ وحدة كلمتنا التي أدّت إلى انتصارنا كانت بفضل مجالس العزاء الحسيني هذه، وهي مجالس تبليغ ونشر للإسلام. إنّ سيّد المظلومين قد هيّأ أفضل فرصة لاجتماع الناس؛ حيث إنّ الإسلام ينظر إلى المساجد كمعاقل تنطلق الجموع منها بعد تأديتها لصلوات الجمعة والجماعة. وهو صلوات الله وسلامه عليه عبّد أمامنا كلّ السُبل التي تضمن تقدّم الإسلام وإشعال الثورة»(٥).

ومن خلال هذا النصّ الخميني يتّضح لنا أنّ للمراسم الحسينية دوراً كبيراً في تحقيق وحدة وانتصار الشعب الإيراني المسلم على سلطة الشاه الاستبدادية، ومن المنطلق ذاته يمكن فهم عبارة الإمام المأثورة «كلّ ما لدينا فهو من عاشوراء».

٤ ـ تعمل المراسم الحسينية على نشر الثقافة الاستشهادية في أوساط المجتمع الإسلامي، وإحياء روح الجهاد ضد الأنظمة التسلطية. ويمكن اعتبار التعزية الحسينية من أهمّ قنوات التنشئة الاجتماعية التي تغذّي المجتمع بقيم التضحية والإيثار والشهادة في سبيل الله بالنظر لحيوية التفاعل الاجتماعي بين «الجمهور» و«المنبر الحسيني» الذي يجعل جذوة الثورة تتّقد في نفوس المؤمنين.

يقول الإمام الخمينيّ ﷺ: «إنّ دم سيّد الشهداء هو الذي جعل الدماء تغلي في عروق كلّ الأمم الإسلامية، وإنّ مراسم عاشوراء هي التي تثير حماس الناس وتهيئهم لصيانة الأهداف الإسلامية»(٦).

ويعبّر الإمام الخميني عن فلسفة البكاء على شهداء الطف بقوله: «إنّ البكاء على الشهيد هو إحياءٌ للنهضة الإسلامية، إذ إن من بكى على الحسين أو أبكى الآخرين أو تباكى فإنّ ثوابه الجنّة، كما يقول الحديث الشريف، لأنّ البكاء والتباكي على سيّد الشهداء عليه السلام يعني الحفاظ على جذوة هذه النهضة في القلوب»(٧).

٥ ـ وهناك دور تربوي واجتماعي آخر للمراسم الحسينية في مضمار التنشئة، وهو ربط الأجيال الجديدة بمنظومة القيم الإسلامية والميراث الجهادي والعلمي لأئمّة أهل البيت عليهم السلام، وتحصينها من تيّارات التضليل والتغريب التي

تقودها في العصر الحديث وسائل الإعلام التسلطية، والمؤسسات التربوية الرسمية الخاضعة لخطاب الأنظمة القمعية العلمانيّة.

فلولا المراسم الحسينية لنشأت الأجيال الجديدة في غربة عن دينها وتاريخها العريق، ولوَهَنَتْ صلتها بالإمامة وتعاليم أهل البيت عليهم السلام، والمرجعية الدينية النائبة عن الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأنظمة العلمانية في العصر الحديث راهنت على إبعاد الأجيال الجديدة من الناشئين والشباب عن ميادين الثقافة الإسلامية، وإخضاعها لإغواءات خطابها الثقافي السلطوي فعمدت في هذا السياق إلى إشاعة أفكار مضلِّلة عن المراسم الحسينية وبقيّة المراسم الدينية ذات الطابع الجماعي، كاعتبارها نمطاً من أنماط السلوك الجمعي البدائي وتصويرها بهيئة الطقوس المتخلّفة المتعارضة مع قيم الحداثة في العصر الحديث، كما أنّها استعانت بوعّاظ السلاطين لحثّ الشباب والأجيال الجديدة على النفور من المراسم الحسينية والعزوف عن المشاركة فيها بعد إفراغها من مضامينها الحقيقية، وهذا ماقامت به حكومة الشاه في عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن الميلادي الحالي.

وقد تنبّه الإمام الخميني إلى مخاطر هذا التوجّه السلطوي الساعي لإلغاء الدور الطليعي للمراسم الحسينية في استنهاض همم الشباب الذين يمثّلون الفئة الاجتماعية الأكثر حيوية واندفاعاً للبذل والعطاء في أي مجتمع بشري.

يقول الإمام في هذا الصدد: «إنّ من يقف بوجه إقامة مثل هذه المجالس ويحول دون قراءة مراثي الإمام الحسين عليه السلام ومصيبته أمام الناس، لايعرف في الواقع معالم مدرسة سيّد الشهداء عليه السلام، ويجهل أن هذه المجالس هي التي حفظت هذه المدرسة الإسلامية إلى الآن. أجل إنّ هذه المنابر والمجالس والمراسم والشعائر التي تقام بهذه المناسبة هي التي حفظت لنا الإسلام خلال ألف وأربعمئة عام.. وليعلم بعض الشباب السُذّج الذين يدّعون لعرض كلام جديد في هذا العصر، ويخالفون مثل هذه الأمور، أنّ نداء سيّد الشهداء هو نداء هذا العصر، وهو دوماً يتميّز بالحداثة والعصرية؛ بل إن نداء العصر والحداثة هو نداء الإمام الحسين عليه السلام(٨).

ومن هذا المنطلق يوصي الإمام الخميني علماء الدين المجاهدين، وخطباء المنبر الحسيني، وقرّاء التعزية بإظهار الأبعاد والمقاصد الحقيقية للنهضة الحسينية أمام جميع فئات المجتمع، لاسيما فئة الشباب. يقول الإمام: «إنّ كلمة (لا) التي أطلقها الإمام الحسين عليه السلام قبل حوالي أربعة عشر قرناً لابدّ أن تبقى حيّة مدى الدهر. وهي تعني رفض كلّ الجبابرة والظلمة، وإنّ مجالسنا التي نقيمها لابدّ أن تؤكد هذا الرفض. وينبغي لشبابنا الواعي ألّا يتصوّر أنّ القضية تكمن في البكاء بحدّ ذاته؛ لأنّ الآخرين أشاعوا بيننا مثل هذه الأوهام ليَصِفُوا شعبنا بأنّه شعب بكّاء. ولكن الحقيقة تكمن في أنّهم يخافون من أمثال هذا البكاء لأنّه بكاء على المظلوم وصرخة ضد الظالم.. حيث إنّ الأيدي التي ترفع اليوم موجهة ضدّ الظالم، ولابدّ من الحفاظ عليها مرفوعة؛ فهي من الشعائر الإسلامية والسياسية»(٩).

وفي الوقت ذاته يوصي الإمام فئة الشباب المسلم ألّا ينخدعوا بشعارات الخطاب السلطوي التضليلي ومفاهيمه التغريبية، داعياً إيّاهم للمساهمة في المراسم الحسينية والاندكاك بقيمها الثورية المعطاءة.

يقول الإمام في هذا الصدد: «ينبغي لشبابنا الرسالي أن يعي مثل هذه الأمور المهمّة، ويتفاعل مع مجالس العزاء التي يركّز فيها على المظالم التي حلّت بأهل البيت وأنصارهم والسائرين على نهجهم عبر التاريخ حتّى يعرف الناس ما حلّ بنا، حيث إنّ مثل هذه الشعائر والمراسم ذات جوانب سياسية واجتماعية عديدة»(١٠).

٦ ـ تمثّل المراسم الحسينية في أوساط المجتمع الشيعي الإسلامي قناةً مهمّة من قنوات التنشئة السياسية أيضاً، إذ إنّها تسهم في تنمية الوعي السياسي لدى جمهور المنبر الحسيني، وتحفّزه لاتخاذ مواقف مبدئية تجاه مظاهر الانحراف والظلم والاستبداد السياسي، وتدعوه أيضاً إلى الوقوف إلى جانب المستضعفين والمحرومين ونصرة قضاياهم العادلة.

وعن دور المراسم الحسينية في التنشئة السياسية، يقول الإمام مخاطباً العلماء والخطباء:

« لابدّ للعلماء الأعلام والوعّاظ والخطباء أن يستفيدوا من هذه التجمّعات

الكبرى التي تعقد في محرّم وصفر وباقي الأشهر ليوضّحوا للناس واجبهم الشرعي في هذا العصر الذي تكالب علينا الأعداء فيه من كلّ حدبٍ وصوب، ويشرحوا لهم القضايا السياسية والاجتماعية»[١١].

٧ ـ وفضلاً عن دور المراسم في حفظ وحدة الكيان الشيعي فقد أدّت دوراً مهمّاً في توسيع الأفق الديموغرافي «السكاني» والثقافي لهذا الكيان في إطار المجتمع الإسلامي الكبير. وترسيخ أواصر الأخوّة والتآلف بين أبناء الأمّة الإسلامية.

ونشير هنا على سبيل المثال إلى أثر المراسم الحسينية في نشر التشيّع لمذهب أهل البيت عليهم السلام في المناطق الغربية من وسط وجنوب العراق، حيث تأثّرت أعداد كبيرة من القبائل البدوية القادمة إلى العراق بالقيم والمفاهيم التي تتضمّنها المراسم الحسينية واعتنقت إثر ذلك مذهب أهل البيت عليهم السلام. ومن هذه القبائل، بني تميم، الخزاعل ،زبيد، بني كعب، ربيعة، بني عمير، الخزرج، شمّر طوقة، بني لام، الدفافعة، آل بدير، الجبور وغيرها[١٢]. وتشكّل هذه القبائل الأغلبية السكانية في العراق في الوقت الحاضر. كذلك أسهمت المراسم الحسينية في تحقيق التضامن الاجتماعي بين السُنّة والشيعة وتوحيد جهودهما لمواجهة الأنظمة الاستبدادية.

لقد دعا الإمام الخميني خطباء المنابر الحسينية في أكثر من مناسبة إلى تعميق روح الأخوّة بين أبناء الأمّة الإسلامية واستثمار المراسم الحسينية لإظهار وحدة الصفّ والكلمة. يقول الإمام: «عليكم ألّا تفقدوا روح التنسيق والتآلف والأخوّة التي تتولّد في المراسم التي تقام في ذكرى الإمام الحسين عليه السلام في كلّ مكان، في إيران وفي الباكستان والهند والعراق وأفغانستان وفي أندونيسيا»[١٣].

وبفضل هذه التوصيات الهادية وتجاوب العلماء والمراجع، وقطّاعات الأمّة معها، أصبحت المراسم الحسينية بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران من أبرز مظاهر وحدة الشعب الإيراني ومن أهم دعامات هذه الوحدة الراسخة.

٨ ـ أدّت المراسم الحسينية دوراً أساسياً في الحفاظ على هوية المجتمع الإسلامي الحضارية، وتحصينه من تيّارات التغريب الاجتماعي والثقافي.

يقول الإمام ﷺ: «لولا عاشوراء لم نكن ندري ماذا كان سيحلّ بالقرآن الكريم والإسلام العزيز؟»

وفي إحدى بياناته يخاطب الإمامُ العلماءَ والوعّاظ وقرّاء التعزية الحسينية بقوله: «عليكم أن تُفهِموا الناسَ أنَّ الهدف ليس البكاء والتباكي على سيّدالشهداء عليه السلام، بل إنّهما الوسيلة الضامنة لحفظ الإسلام واستمراره عبر الأجيال»[١٤].

وإضافة إلى هذه الأدوار التي ذكرناها، هناك أدوار وظيفيّة أخرى للمراسم الحسينية تتعلّق بالتكامل الاجتماعي، ومشاركة المرأة في العمل السياسي والتبليغي والتنشئة الاجتماعية للأطفال وغيرها من الميادين الاجتماعية والسياسية المهمّة والتي أكّد أهمّيتها الإمام الخميني فيخطبه وبياناته للأمّة طوال حياته الشريفة، تتطلّب من الكتّاب والمفكّرين تناولها بالبحث والتحليل لأجل إدامة التواصل الثقافي والعقائدي بين الأمّة ومرجعيتها الدينية.

الهوامش:

١ ـ عبد الرزاق الموسوي المقرّم « مقتل الحسين عليه السلام » منشورات الشريف الرضي. طبعة ١٤١٤ هـ، ص٩٦.

٢ ـ المصدر نفسه ص٩٦.

٣ ـ طالب الأحمد: « رؤية سوسيولوجية معاصرة للمراسم الحسينية » مجلة « الوحدة ». العدد ١٦٩. صفر ١٤١٥هـ.

٤ ـ نشير هنا أيضاً إلى دور المراسم الحسينية في المواجهة البطوليّة للشعب اللبناني مع قوات الاحتلال الصهيوني في جنوب لبنان، حيث تتحوّل مراسم عاشوراء في كلّ عام إلى مسيرات احتجاجية ضد الاحتلال، وكثيراً ما تقترن المراسم بعمليات جهادية ضد مواقع الصهاينة العسكرية، الأمر الذي جعل قوات الاحتلال تدخل في حالة الإنذار القصوى في كلّ عاشوراء.

٥ ـ « نهضة عاشوراء في كلام الإمام الخميني قدس سره ». مجلة « الثقافة الاسلامية » العدد ٤٤. محرم ـ صفر ١٤١٣هـ، ص١٠.

٦ ـ « عاشوراء ومجالس العزاء »، مقتطفات من أقوال الإمام الخميني قدس سره، نشرت في مجلة « الثقافة الإسلامية » العدد ٥٦ سنة ١٤١٥ هـ، ص٩.

٧ ـ الثقافة الإسلامية، العدد ٤٤، ص١٤.

٨ ـ المصدر نفسه ص١٢.

٩ ـ المصدر نفسه ص١٤.

١٠ ـ المصدر نفسه ١٥.

١١ ـ المصدر نفسه ص١١.

١٢ ـ ينظر الفصل التاسع من كتاب « طبيعة المجتمع العراقي » للدكتور علي الوردي.

١٣ ـ الثقافة الإسلامية، العدد ٤، ص١٥.

١٤ ـ المصدر نفسه ص١٣.

عاشوراء عند المغاربة

د. عبّاس الجراري

تمهيد

يقع يوم عاشوراء في شهر محرم، وهو من الأشهر الأربعة الحرم التي هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ثمّ رجب.

وقد شرَّع الله تحريم هذه الأشهر منذ عهد إبراهيم عليه السلام، حتّى يتسنَّى الحج، وحتى يُتاح للناس قضاء مصالحهم. فهي بذلك مفضَّلة عند الله بما يجعل فيها من استجابة وأجر، كما هو الشأن مثلاً بالنسبة لليلة القدر التي هي «خير من ألف شهر».

وكان العرب يتحايلون على هذا التحريم الذي يستمرّ ثلاثة أشهر متوالية هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، فيرجئون حرمة بعضها إلى شهر آخر، وبذلك يُحلُّون شهراً حراماً ويحرِّمون شهراً حلالاً، وهو ما يسمى «النسيء». واعتبره الحقّ سبحانه زيادة في الكفر، يقول تعالى: ﴿إنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرُم ذلك الدين القيِّم فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة. واعلموا أن الله مع المتّقين. إنّما النسيء زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحلُّونه عاماً ويحرِّمونه عاماً ليُواطئوا عدة ما حرَّم الله فيُحلُّوا ما حرَّم اللهُ زُيِّنَ لهم سوءُ أعمالهم، والله لا يهدي القومَ الكافرين﴾ (١).

يضاف إلى هذا أنّ المسلمين اتّخذوا التقويم الهجري مفتتحينه بأوّل محرم. وهم في ذلك خالفوا التقليد العربيّ الذي كان شائعاً، والذي كان يقتضي التأريخ

بالوقائع الكبرى في حياتهم، كانهيار سد مأرب وتجديد بناء الكعبة وعام الفيل، في وقت كان اليهود قد اتّخذوا التقويم العبريّ الذي يبدأ من العام الذي خرج فيه اليهود من مصر فارّين من فرعون بعد أن نجَّى الله نبيَّه موسى عليه السلام من الغرَق، وكان النصارى يؤرِّخون بدءاً بميلاد المسيح عليه السلام، وكذا كان لكلّ من الفرس والروم تقويم خاصّ بهم مرتبط بأحداث تاريخهم.

وقد شرع المسلمون في التأريخ بالهجرة في عهد عمر بن الخطاب في السنة السابعة عشرة، وكانت لذلك دوافع مباشرة بعد أن اتّسعت رقعة الدولة الإسلامية ونُظِّمت الإدارة والدواوين وبيت المال، وكثرت المكاتبات والمراسلات مع الولاة وغيرهم في الداخل والخارج، مما جعل المسلمين يشعرون بضرورة التأريخ لذلك كلّه. ويقال إن أبا موسى الأشعري كتب لعمر يلاحظ أنّه تأتي رسائل من أمير المؤمنين ليس لها تاريخ.

وهذا لا يعني أن المسلمين لم يكونوا يؤرخون بإطلاق، فمن المعروف أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أرَّخ بالهجرة في كتابه لنصارى نجران، إذ طلب من علي بن أبي طالب أن يكتب عليه «إنه كتب لخمس من الهجرة». وفي عهد أبي بكر وقع التاريخ بالوفاة وكذلك بالسنوات التي قضاها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة.

مهما يكن، فقد قُدِّمت لابن الخطاب عدة اقتراحات تدعو إلى التأريخ بميلاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو مبعثه أو وفاته أو ببعض الأحداث الكبرى كغزوة بدر وفتح مكة، واقترح ابن أبي طالب التأريخ بالهجرة سيراً على ما كان خطَّه بيده بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كتابه لنصارى نجران، فوقع الاتفاق على هذا الاقتراح باعتبار أن الهجرة هي التي أظهرت الإسلام ودخلت به إلى مرحلة جديدة، أي أنّها هي بدايته الفعليّة والحقيقية.

وإذا كان التقويم قد بدأ بشهر محرم مع أن الهجرة تمت في ربيع، فلأنه أول شهور العدة، ولأنه يصادف انصراف الناس من الحج، بالإضافة إلى أنه شهر حرام. ثمّ إنه قد وقع اللجوء إلى التقويم القمري وليس الشمسي، اعتماداً على ما نص عليه القرآن الكريم في اعتبار الأهلّة أساساً للحساب ولأداء عدد من العبادات، إذ يقول: «هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدَّره منازل لتعلموا عدد

السنين والحساب»[٢] ويقول: «يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيتُ للناس والحج»[٣].

هذا، وإن من بين أيام هذا الشهر المحرم يوماً متميزاً بفضله، يقع في العاشر منه، وهو الذي يسمى «عاشوراء»، ويطلق عليه: «العاشوراء» و «العشوراء» و «العاشورا» و «العشورا» و «العاشور». وهي كلها أسماء يعرف بها عاشر المحرم، وقد تطلق على تاسعه.

وقد وردت حول عاشوراء أحاديث ونقلت أقوال تذهب إلى أنه في هذا اليوم خلق الله السموات والأرض وآدم والجنة، وأنه فيه أدخل آدم الجنة وفيه تاب عليه، وأن فيه ولد إبراهيم، وفيه نجّاه الله من النار، وأن فيه كشف البلاء عن أيوب، وأن فيه كذلك ولد عيسى ورُفع إلى السماء، وما إلى ذلك مما يغلب عليه الوضع ولا يثبت للنقد والتصحيح، وإن كان لا يقصد منه إلا إلى إبراز عظمة هذا اليوم وفضله.

مهما يكن فإن يوم عاشوراء ـ على ما فيه من فضل ـ لم يلبث أن اكتسى أهمّية خاصة منذ صادف يوم مقتل الحسين عليه السلام في عاشر محرم سنة إحدى وستين للهجرة. ومع أهمّية هذا الحادث وبسببه، ظهر خلاف بين المسلمين توارثوه انطلاقاً من مواقف سياسية مرتبطة به.

وأما أهل السنة ـ والمغرضون منهم ولا سيما أولئك الذين كانوا موالين للأمويين ـ فإنهم يتخذون هذا اليوم مناسبة لإظهار الفرح والسرور ويبالغون في ذلك.

وقد لاحظ المؤرخون هذه الظاهرة في مختلف العصور على نحو ما قال أبو الريحان محمّد البيروني في القرن الخامس الهجري وهو يتحدث عن شهر محرم: «اليوم الأوّل منه معظَّم لأنه غرّة الحول ومفتتح السنة، واليوم التاسع منه يسمى تاسوعاء على مثل عاشوراء وهو يوم يصلّي فيه الزهاد من الشيعة، واليوم العاشر منه يسمى عاشوراء، وهو يوم مشهور الفضل، وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: أيها الناس سارعوا إلى الخيرات في هذا اليوم فإنه يوم عظيم مبارك قد بارك الله فيه على آدم. وكانوا يعظمون هذا اليوم إلى أن اتفق فيه قتل الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام وفعل به وبهم ما لم يفعل في جميع الأمم بأشرار الخلق من القتل

بـالعطش والسـيف والإحـراق وصـلب الرؤوس وإجـراء الخـيول عـلى الأجسـاد فتشـاءموا به. فأما بنو أمية فقد لبسوا فيه ما تجدد وتزينوا واكتحلوا وعيّدوا وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلاوات والطيبات وجرى الرسم في العامة عـلى ذلك أيام ملكهم وبقي فيهم بعد زواله عنهم. وأما الشيعة فإنهم ينوحون ويـبكون أسـفاً لقتل سيد الشهداء فيه، ويظهرون ذلك بمدينة السلام وأمثالها مـن المـدن والبـلاد ويزورون فيه التربة المسعودة بكربلاء. ولذلك كره فيه العامة من تجديد الأوانـي والأثاث»(٤).

★ ★ ★

وقد شاعت في المغرب عادات ارتبطت بيوم عاشوراء، وهي عادات ترسخت في التقاليد الاجتماعية سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي، منها ما ورد عـن أبي عبيد عبد الله البكري وهو يصف مدينة «أصيلة» فـي عـصره الذي هـو القـرن الخامس الهجري، فقد قال عنها أن الناس قد اتخذوا موضعها «رباطاً فانتابوه مـن جميع الأمصار وكانت تقوم فيه سـوق جـامعة ثـلاث مـرات فـي السـنة وهـو وقت اجتماعهم وذلك في شهر رمضان وفي عشر ذي الحجة وفي عاشوراء»(٥).

وقرناً بعد ذلك، يتحدث عبد الواحد المراكشي عن عادة ختن أطـفال الأيـتام بمناسبة عاشوراء، وكان اتخذها يعقوب المـنصور المـوحدي وسـنَّ إجـراءَهـا، إذ «كان كلما دخلت السنة يأمر أن يكتب له الأيتام المنقطعون فيجمعون إلى مـوضع قريب من قصره فيختنون ويأمر لكل صبي منهم بمثقال وثوب ورغـيف ورمـانة، وربما زاد على المثقال درهمين جديدين»(٦).

وهو ما أكّده ابن عذاري بقوله: «وفي سنة خمس وتسعين وخـمسمئة أمـر المنصور بإعذار الأطفال بمراكش وأن يجعل في يد كلّ واحد منهم دينار من الذهب ودرهم من الفضة وحبة من الفاكهة الخضراء ليشتغل بها الطفل عن ألمه ويصرف الدينار في مداواته، فكان يذهب في ذلك كله فوق الألف ألف ما بين ذهب وفـضة، فكان هذا من مكارمه التي لم يسبقه أحد إليها من الملوك المتقدّمين»(٧).

ويبدو أن سنّة الختان هذه قد ترسّخت ولقيت اهتماما مـن الدولة المـرينية، لاسيما في عهد السلطان أبي الحسن الذي ذكر معاصره الخـطيب مـحمّد مـرزوق

التلمساني في القرن الثامن الهجري أن «من صدقاته الجارية وحسناته المستمرة التي سنَّها هو أنّ في كلّ عاشوراء من سائر بلاده يجمع الأيتام الذين يفتقرون إلى الختّان فيختن كلّ واحد ويكسوه قميصاً وإحراماً ويعطى عشر دراهم وما يكتفى به من اللحم، فيجتمع في كلّ عاشوراء من الأيتام من سائر البلاد ما لا يحصى. وهو عمل مستمر في بلاده وسُنَّة جارية قام بها الخلفاء من أولاده»[٨].



وبعيداً عن هذا التقليد الذي استمر عبر القرون وما زال حتّى الآن، والذي ينمُّ عن جانب إحسانيّ يقوّي الجوانب الأخرى التي حثَّت عليها السُنَّة النبوية، فإننا نجد خليطاً من العادات شاعت عند المغاربة هي في ظاهرها ـ وحتى عندما يعمق تحليلها ـ مزيج من طقوس قديمة، ومما كان يقوم به الأمويون وما كان لهم من أثر في المغرب عبر دولتهم في الأندلس، وكذا مما تناقلوه عن الشيعة أو حمله إليهم هؤلاء منذ قدوم الأدارسة إلى المغرب أواخر القرن الثاني للهجرة.

ويمكن التقاط أهمّ هذه العادات وتحديد الموقف حيالها من كتابات بعض العلماء المنتمين إلى عهود متباينة، ونقتصر منهم على:

الأوّل: محمّد بن محمّد بن الحاج العبدري المالكيّ الفاسيّ المتوفّى سنة ٧٣٧هـ، فقد تحدّث في «المدخل» عن هذه العادات فقال: «وأما ما يفعلونه اليوم من أن عاشوراء يختص بذبح الدجاج وغيرها ومن لم يفعل ذلك عندهم فكأنه ما قام بحقِّ ذلك اليوم وكذلك طبخهم فيه الحبوب وغير ذلك...

ثمّ إنهم يضمُّون إلى ذلك بدعةً أو محرَّماً وذلك أنه يجب على بعضهم الزكاة مثلا في شهر صفر أو ربيع أو غيرهما من شهور السنة فيؤخِّرون إعطاء ما وجب عليهم إلى يوم عاشوراء، وفيه من التغرير بمال الصدقة ما فيه...

ومن البدع التي أحدثها النساء فيه استعمال الحنّاء على كلّ حال، فمن لم يفعلها منهن فكأنّها ما قامت بحقِّ عاشوراء...

ومن البدع أيضاً مهرهن فيه الكتان وتسريحه وغزله وتبييضه في ذلك اليوم بعينه، ويشلنه ليخطن به الكفن ويزعمن أنّ منكراً ونكيراً لا يأتيان من كفنُها مخيطاً بذلك الغزل، وهذا فيه من الافتراء والتحكّم في دين الله ما هو ظاهر بيِّن...

ومما أحدثوه فيه من البدعِ البخورُ فمن لم يشتره منهنّ في ذلك اليوم ويتبخّر به فكأنه ارتكب أمراً عظيماً، وكونه سنَّة عندهنّ لابدّ من فعلها وادّخارهن له طول السنة يتبرّكن به ويتبخَّرن إلى أن يأتي مثله يوم عاشوراء الثاني ويزعمن أنه إذا بخّر به المسجون خرج من سجنه، وأنه يُبرئ من العين والنظرة والمصاب والموعوك..»[٩].

الثاني : قاضي الجماعة بمراكش في منتصف القرن ١٣ هـ. محمّد بن محمّد العربي الرشاي عاشور الرباطي الذي وضع رسالته[١٠] «في ردّ ما اشتهر في مراكش ليلة عاشوراء من أمور أحدثوها وسمّوها الافراجة تشتمل على مناكر هي لهدم بنائها وقلعها من أصلها محتاجة، وذلك كتشبّه الرجال بالنساء وتشبّه الرجال باليهود والنصارى، وكالمحاكاة لأناس معينين من قبيلة أو بلد أو تجّار، وكاتّخاذ الصُّوَر وضرب الرجال آلات اللهو من اجوالات ومزامير وغيرها، وأخذهم بذلك أموالاً من غير طيب أنفس أهلها، بل يعطونهم حماية للعرض وتوقّياً من الضرب والشتم، وسائر أنواع الأذايات، وكأخذ الكراء على تدوير الصبيان وغيرهم بالنواعير وما ينشأ عن ذلك من الضرر والجراحات»[١١].

الثالث : محمّد بن محمّد الموقت المراكشي المتوفّى عام ١٣٦٩ هـ. (١٩٤٩ م) فقد ذكر في «الرحلة المراكشية» أن من عوائدهم الشنيعة شراؤهم لأولادهم يوم عاشورا، ونصف رمضان صوراً محرَّمة من الصُّور الحيوانية القائمة بنفسها ولها ظلّ وليس بها نقص، وهذه الصُّور النظر إليها حرام ولا تدخل الملائكة بيتاً هي فيه...

ومن مثالبهم في يوم عاشوراء تبرّج النساء الجميلات بأنواع الزينة لزيارة القبور فيتأهّبن يوم ذلك من طلوع الفجر بالزينة الفاخرة والملابس الزاخرة ويقصدن المقابر للزيارة، ومنهن من لا قصد لها بذلك وإنما غرضها الأهمّ ما يحدث فيها من كثرة تلك الجموعات على اختلاف أنواعها المعدَّة في هذا اليوم المعروفة بالحلاق المهيَّأة للعب واللهو وجميع أنواع الباطل.

ومن المناكر الشنيعة في ليلة عاشوراء وقبلها بنحو عشرة أيام استعمالهم للعبة المعروفة عندهم بالدقة..[١٢].

الرابع: محمّد المختار السوسي المتوفى سنة ١٣٨٣ هـ. (١٩٦٣ م) صاحب كتاب «المعسول» حيث تحدث عن بلده إلغ فذكر أن الإلغيين اعتادوا «أن يعمد بعضهم في سحر عاشوراء إلى استقاء الماء من الآبار ظنّاً من الساقين أن الآبار تستمدّ من بئر زمزم في ذلك الوقت ومن ذلك اليوم فيرشّ بذلك الماء جميع زوايا الديار تبرّكاً خصوصاً أهراء الزرع وحظائر المواشي.

وفي ليلة عاشور يخرج رعاع الشباب زمراً زمراً إلى بعيد من قريتهم فينادون - فيما زعموا - على الذئب أن يبعد عن غنمهم، فيبنون هناك أحجاراً في القرية فيبيتون على لعب أحواش. وفي صبيحة عاشوراء يبكر جميع الناس رجالاً ونساءً إلى زيارة المقابر من غير اختلاط يترحمون على أهاليهم ويتصدقون. والغالب أن يصبح الرجال وغالب النساء صائمين، بل ترى الفقهاء والمتنسكين يحرصون على الاثنتي عشرة خصلة التي ذكرها العلماء من خصائص عاشوراء من صوم وصدقة وزيارة عالم وصلة رحم ومسح رأس يتيم وصلاة ركعتين وتوسعة النفقة واغتسال وعيادة مريض واكتحال وقلم أظفار وقراءة سورة الإخلاص ألفاً، وأهل الحديث يعلنون أنه لا يصحّ من هذه إلا الصوم وإلا التوسعة على العيال الذي ورد في حديث حسن.

وقد رأيت أحد عمد الإلغيين من أهل العلم يوصي بغسل ثيابه ذلك اليوم. وكذلك يجتمع أهل القرى على توزيع بقرة ونحوها يفرّقونها على الديار ويؤجّلون في ثمنها بضمان. ومن كانت لهم غنم لها راعٍ فإن مغرس ذنب كبش عيد الأضحى الذي جعل قديداً يعطي في يوم عاشوراء للراعي وهو يأكله في ذلك اليوم. وهم يحرصون على أن يستدير شيء من قيد الأضحية على دور السنة في ديارهم تبرُّكاً به»(١٣).

واستناداً إلى هذه الكتابات وما إليها يمكن تتبُّع العادات المصاحبة لعاشوراء وتقديمها مصنَّفة على هذا النحو:

١ - الشروع منذ فاتح محرم في تنظيف داخل المنزل وتبييض جدرانه الخارجية وغسل الثياب والاستحمام، مع إمكان تجديد هذه العمليّة ليلة عاشوراء، ويطلق عليها «لعواشر».

٢ ـ قيام النساء والفتيات قبل هذا اليوم بتخضيب شعر رأسهن بالحنّاء وكذا تزويق أيديهن وأرجلهن بها، مع وضع شيء منها في أكفّ الأطفال الذكور وكذلك بعض الرجال.

ومن مردّدات النساء وقد جمّلن شعرهن بالحنّاء وأطلقنه:

عاشوري عاشوري

اعليك نطلق اشعوري

كيف احبال الجراري

ومنها:

يا بابا عاشوري

اعليك دليت اشعوري.

٣ ـ الامتناع في هذا اليوم ـ وكذا اليومين بعده أو أكثر عند بعضهم ـ عن تنظيف البيت وغسل الثياب والاستحمام والتطبيل والتزمير وإيقاد النار واقتناء فحم أو مكنسة واستعمالها إن وجدت، بل يصل الأمر في بعض الأُسر الشريفة إلى عدم ذكر اسم المكنسة، وقد تتخذ منها دمية تزين وتوضع في ركن من المنزل، وإلى جانبها الجفاف الذي تمسح به الأرض، ويقال في ذلك بأن «الشطابا اعروسا والجفافا انفيسا» أي أن المكنسة عروس والجفافة نفساء، للدلالة على تعطيل عملهما في هذا اليوم. وإن وقع الاضطرار إلى شراء المكنسة في عاشوراء، فإن ذلك يتمّ بصمت مع البائع. ولكي لا تدخل إلى الدار من الباب، تُلقى من السور الخارجي إلى وسط الدار أو الفناء وفق ما هو معروف في الهندسة التقليدية للمنازل. وقد ينسحب ذلك حتّى على بعض حاجيات البيوت وبصفة خاصة على الملح الذي لا ينبغي أن يؤخذ أو يعطى أو يسلف. ولا ينتهي هذا الامتناع في الأسر المذكورة ـ والمقصود منه إظهار الحزن ـ إلا بعد انتهاء أيام عاشوراء التي قد تستمر إلى العشرين من المحرم وربما آخره. ويعلن عن هذا الانتهاء بضرب الطبل وعزف المزمار(الغيطة).

٤ ـ فتح الكتاتيب القرآنية صباح يوم عاشوراء إلى الضحى لتحصل البركة طوال العام ثمّ تعطيلها بعد ذلك بقية اليوم، وقد تمتدّ العطلة أياماً ثلاثة أو عشرة،

ويطلق على هذه العطلة لفظ «لعواشر»، ومنه اشتقّ فعل «عوشر». ويكون الانصراف إلى هذه العطلة مصحوباً بتبرع الآباء على فقيه الكتاب بما يتيسر من المال وكذا التوسعة على أطفالهم.

ولنفس السبب تفتح المتاجر ثمّ تغلق، وإن شاع بين الناس أن التجار يفعلون ذلك ـ وقد لا يفتحون نهائياً ـ هرباً من التصدّق على السائلين الذين يكثرون في هذا اليوم.

٥ ـ اتخاذ سوق أو أسواق خاصة لبيع لوازم عاشوراء من حنّاء وبخور وكحل وفواكه جافّة ولعب للأطفال وآلات التطبيل. وغالباً ما تهيأ لعرض هذه اللوازم بدءاً من فاتح محرم، ويطلق عليها «سوق العاشور».

٦ ـ أكل الفواكه الجافّة وهي التمر والتين والزبيب واللوز والجوز «الكركاع» وأنواع من الحلويات، وغالباً ما تتناول بعد عشاء ليلة عاشوراء، إثر طعام «الكسكس» الذي «يفور» على «الليّة» وهي مؤخر الخروف وذنَبه، ويحتفظ بها من أضحية العيد ميبّسة ومملّحة لهذا الغرض. وقد يكون معها شيء من «قديد» العيد وأمعاء الكبش المجففة «لكرادل». ومن النساء من يبقين عظم الكتف من خروف العيد ويتخذنه لقراءة الحظ ثمّ يدفنه يوم عاشوراء، ويعرف بـ«بابا عاشور».

ومن مرددات النساء في هذه العادة:

قديدا قديدا

مالحا ولذيذا

منشورا عل لعواد

ابا عاشور اداه الواد

ومنهن من يبتعن مرآة شيطانية «امرايت يبليس» لهذه القراءة أو لأعمال السحر.

والغالب أن يحتفظ من الفاكهة ببعض الجوز ويطلق عليه «كركاع عاشورا» ظنّاً أنه يسهّل الولادة حين تعسّر، إذ يوضع في موقد به نار مشتعلة ويُتفاءل بفرقعته التي معها تسهل هذه الولادة، وقد يكتفى بقشوره لخلطها مع البخور.

٧ ـ استعمال البخور بقصد ردّ العين والأرواح الشرّيرة، وهو نوعان: بخور مدني يتمثل في الخزامى والشبة والحرمل والجاوي والفسوخ، وبخور بدوي كالداد والريحان وفسخ الحنش (جلده).

وتبرُّكاً ببخور يوم عاشوراء، فإنّ النساء يفضّلن الاحتفاظ بشيء منه لاستعماله على امتداد العام.

٨ ـ اكتحال النساء واستياكهن في الغالب، وإن كان بعضهن يمتنعن عن ذلك ايام عاشوراء وبدءاً من فاتح محرم، ويتهيّأن بأن يفعلن قبل حلول الشهر، وهو امتناع يرتبط بمظهر الحزن المشار إليه.

٩ ـ حثّ الأطفال على الصيام، وشراء ألهيات لهم، منها ما يكون للذكور كالطبول والمزامير واللعب النيرانية، ومنها ما يكون للإناث كالدمى والطبلات الصغيرة المعروفة بـ «لكوالات» و «التعارج» التي يردّد البنات بعض الأناشيد بشأنها كقولهن بأنّ هذه «الكوالات» توجد عند بائعها الذي هو «الكوال» ومنه يشتريها الآباء لبناتهن:

لكوالا عند الكوال

اشراهم لي بابا

والغالب أن تتخذ في السوق أو في بعض ساحات المدينة مراجح ونواعير «زعلولات» لتدوير هؤلاء الأطفال. وقد يلجأ الكبار كذلك إلى بعض الألعاب مثل «المعابزة» التي تعرف اليوم بـ «المصارعة». ومثلها «المصاقرة» التي تعني مواجهة اثنين يلعبان بالعصا وربما توسّلا بالسيف على نحو ما هو معروف اليوم بـ: «المسايفة».

١٠ ـ اقتناء ملابس جديدة أو خياطتها تيمّناً بهذا اليوم وفق ما هو شائع من أن «اللي يفصل فعاشورا يفصل العام كله». ويكثر ذلك بالنسبة للنساء والأطفال، وكذلك الرجال الذين يخيطون لهذا اليوم جلابيب بيضاء.

١١ ـ إيقاد النار في الشوارع والميادين العامة في ليلة عاشوراء ويومها، ويطلق عليها «شعالة» أو «شعايلة» أو «تشعالت» في اللهجة البربرية. وبعد

إيقادها يبدأ القفز عليها باعتبار أنّ ذلك يزيل الشرَّ ويبعده، بل إنّ البعض يشعلون النار في أفنية منازلهم ويأخذون في الدوران حولها وهم يطبلون ويزمرون ويغنُّون، وربما أحاطوها بشموع موقدة، وقد يُلقون عليها طرف «الذيل» الذي فوِّر عليه طعام «الكسكس». وفي بعض البوادي يشوى هذا الذيل في النار ويعطى للرعاة يأكلونه حتّى تكون السنة مخصبة. ومن الأسر من تعتبر رماد هذه النار مباركاً وتتّخذه لمعالجة بعض أمراض عيون الأطفال.

وتجدر الإشارة إلى ما كان يقع في بعض المدن كمراكش حيث تلقى في النار بعض الدمى والصُّوَر، ومنها ما يمثِّل قاتل الحسين، وكذا إلى ما يحدث في مناطق أخرى ولا سيما في الأطلس الصغير، إذ تتحلّق النساء حول النار ويأخذن في البكاء والندب والنواح وهن ينادين على «عاشور». وقبل أن تخمد جذوتها يقفزن عليها ويدفئن الماء عليها ليتوضأن به أو يغتسلن تبرّكاً به وعلاجاً.

١٢ ـ الإكثار من صبّ الماء على الأرض، وكان شائعاً أن يلجأ حمّالو الماء المعروفون بـ «الكرابة» إلى ملء قربهم وإفراغها في الأرض مقابل ما يعطيهم المارّة والمتجوّلون من مال، وهم يردِّدون «الما للسبيل، الله يرحم مول السبيل».

وحتى يتحقَّق هذا الإكثار من صبِّ الماء تباع جرار صغيرة من الطين يُطلق عليها «اقليلشات» يملأها الأطفال بالماء ويصبّونها على الأرض وهم يقولون «اعلى الوالدين» يقصدون رفات الأجداد. وتبرُّكاً بهذه الجرّات فإنّ بعض الأسر تحتفظ بها وتسمِّيها: «اقلالش وخويبيات العاشور». ولشدّة ارتباط هذه الظاهرة بيوم عاشوراء أطلق البعض على هذا اليوم «عاشورا أم لقليشات».

١٣ ـ صنع الدمى والصور والإلقاء ببعضها في النار كما مرّ، وفي بعض المناطق كسوس والأطلس المتوسط يمثَّل بهذه الدمى والصور لـ «عاشور» و «عاشوراء» باعتبارهما مخطوبين.

ويرتبط بهذه الظاهرة تشخيص أدوار تمثيليّة إنسانية وحيوانية اعتماداً على التنكر في جلد حيوان غالباً ما يكون خروفاً أو ماعزاً أو بقرة، وانطلاقاً من صُوَر ودمى تركَّب على هياكل خشبية مغشَّاة بقصد التسليّة والفكاهة، وقد اشتهر في هذه الأدوار شخص «بوهو» و «بوجلود» و «هرمة».

١٤ ـ التوسل بأساليب كثيرة في هذا اليوم لفكّ السحر أو ردّ فعل العين والأرواح الشرِّيرة طوال العام. من ذلك ما كان معروفاً في بعض المدن ـ كالرباط ـ من أخذ الأطفال الصغار إلى الصباغين لصبغ أطرافهم اليمنى بالسواد. ومنه أيضاً شراء «جعبة الهند» وهي وعاء حديدي صغير بقفل تحمله النساء اللائي يخشين العين أو فعل السحر بعد أن يملأنه بالفسوخ، وهو مما يوضع في البخور ـ كما مرّ ـ لفسخ السحر، إذ من هذا المفعول اكتسب التسمية. ومنه بعد هذا شراء «الخاتم اليسري» ـ أي اليساري ـ الذي يشفي من البواسير وقد يتخذ لمنع الحمل. ويذكر [١٤] أنّ الحداد الذي يصنع هذا الخاتم وتلك الجعبة يقوم بذلك بعد الفجر وقبل طلوع شمس يوم عاشوراء، ويكون وحده في دكانه على حالة خاصة إذ يكون متجرِّداً من الثياب وواقفاً على الرِّجلِ اليسرى ومغلقاً عينه اليمنى.

ومما يلجأ إليه النساء في بعض المدن الساحليّة لاسيما اللائي يعتقدن أنهن مسحورات استحمامهن في البحر هذا اليوم حتّى يزول ما أصابهن من السحر أو ما يطلق عليه: «الثقاف» وكذلك تفعل الراغبات في الزواج إذ يُصبّ عليهنّ الماء من سبع موجات. وقد يُستعاض عن ماء البحر بماء الآبار المنزليّة أو بما يكون محتفظاً به من ماء زمزم.

١٥ ـ زيارة النساء للمقابر والأضرحة ومعنّ أطفالهن وقد تزيّن البنات بأبهى ملابسهن، في استعراض يُطلق عليه «للاكسابا» أي السيدة التي تكسب وتعطي، وغالباً ما يكون داخل المقابر أو عند أبوابها وأسوارها، وكانت العادة أن يتمّ ظهر اليوم الثاني لعاشوراء. وقد كان لا شكّ فرصة الأسر لاختيار عرائس لأبنائها.

وتجدر الإشارة إلى أن الفتيات ينشدن في هذا الاستعراض بعض المردَّدات كقولهنّ وهن يطلبن من «للاكسابا» أن تمنحهنّ زوجاً في الحال تكون لحيته كالمكنسة:

أ للا كاسبا

اعطني راجل دابا دابا

الحيتو كيف الشطابا

كما أن الفتيان ينشدون راجين من «للا كسابا» أن تعطيهم زوجة على الفور:

أ للا كسابا

أعطيني امرا دابا دابا

وإذا كان يلاحظ في هذه المناسبة أنّ النساء يتمتّعن بحرية خاصّة، فما ذاك إلا بفضِل مناسبة عاشور، إذ لا يلبث الرجال أن يستعيدوا نفوذهم مع إطلالة عيد المولد، على نحو ما تعني هذه القولة التي تغني بها النساء في عاشوراء:

هذا العاشور ما اعلينا احكام أللا

سيد الميلود يتحكموا الرجال أللا

وقد سجل الشعر الشعبي المعروف بـ «الملحون» ظاهرة الاحتفال بـ «للا كسابة» في عاشوراء، على نحو ما فعل الحاج محمّد النجار (تـ١٢٤٨ هـ) وهو يتحدث عن خروج النساء في مواكب تتبعها في اقسام قصيدته ودعا إلى مشاهدتها في الحربة «اللازمة» التي يقول فيها:

أجي اتشوف يا من لا شاف الهايجات يصدارو

كيف شافت عيني حسان يوم عاشور(١٥)

★ ★ ★

إن المتأمِّل لهذه العادات أو ما يشابهها مما يقع في عاشوراء لا يلبث أن يتبين أنها مزيج من مظاهر الفرح والحزن، وخليط من ممارسات السنَّة والبدعة، وتوفيق بين الموقفين الشيعي والأموي، وكذا بعض الترسّبات المرتبطة بطقوس قديمة.

وإذا كان صعباً على الباحث في الموروثات والتقاليد الشعبية أن يجد لها تفسيراً يضعها في إطارها الصحيح، لانفصالها في الغالب عن الظروف التي أنتجتها، ولما تتعرض له عادة من تحريف وتغيير على امتداد الأزمنة والعصور، فإنّ هذه الصعوبة تزيد بالنسبة لما يكون من تلك الموروثات والتقاليد مرتبطاً في الذهن وواقع الممارسة بمعطيات تاريخية قد توجِّه فكر المفسر، مثلما قد تكون وجَّهت هذه الممارسة.

ولعله من غير المستبعد أن تكون بعض هذه العادات، لاسيما ما كان منها متَّصلاً بالأكل، من بقايا معتقدات قديمة لها صلة بالأرض وفلاحتها والاحتفال

بمواسم الجني والحصاد واختزان المحصول وتصبير أجزاء من البهائم المذبوحة والتفاؤل بالاحتفاظ ببعض هذه الأجزاء على نحو ما يفعل بذيل الخروف. كما أن التضحية بحيوان أو استعمال جلده لأداء بعض الأدوار التمثيليّة التنكّرية لا يخلو من بقايا عقدية قديمة تضع الحيوان في مرتبة التقديس، إلا أن يكون في هذه الأدوار العاشورية ما هو ممتزج بسنّة الأضحية التي جاء بها الإسلام أو مقصود به الرمز لمقتل الحسين.

وربما يكون إيقاد النار مرتبطاً كذلك ببعض تلك المعتقدات، لا سيما والنار ـ بالإضافة إلى خاصيتها التدميرية وربما بسبب هذه الخاصية ـ كانت بالنسبة لمجتمعات كثيرة رمزاً لتجدُّد الحياة وتطهير الطبيعة مما يجد مجاله عند توديع عام واستقبال آخر.

أما إلقاء الصور والدمى في النار، ومنها دمية قاتل الحسين ـ وفق ما سلف ـ فأوضح من أن تحتاج إلى تفسير.

وتستوقف الباحث في هذا السياق أنشودة يردِّدها الأطفال وهم يطوفون بالنار، ففيها ذكر لشخصيتين اثنتين هما «ابا الشيخ أو بابا علي وللا منانة» بالإضافة إلى طائر الغراب وهي تبدأ على هذا النحو:

أللامنانا
خدوج بلعمانا
والساقيا تسقيني
والواد ما يديني
بابا علي خروبا
شاشيتو مثقوبا
لغراب دايز غادي
قالو فاين غادي
قالو عند أولادي
قالو فاين هما
قالوا فجهنما

قالو اتطيح فيها

قالو آمين آمين

ثم تنتهي بهذه العبارة:

الحمد لله ربّ العالمين.

إنّ هذه الأنشودة حسب روايتها أو الصيغة التي يدار بها الحوار بين «بابا علي» و «الغراب» قابلة لإدانة أحدهما، ولكن الصيغة التي نميل إليها والتي كنا نرددها تجعل الإدانة تنصب على الغراب الذي سيلقى مصيره مع أولاده في النار بدعاء «بابا علي». ومن يدري فقد تكون هذه الأغنية الشعبية تعبيراً عن موقف مؤيِّد للحسين والعلويين من خلال حضور شخصية الإمام علي.

ولا شك أن هذا التأويل يضع الظاهرة في سياق يلتقي مع مظاهر أخرى سبقت الإشارة إليها ـ كالامتناع عن تنظيف المنزل وغسل الثياب ـ وهي كلّها تنمّ عن الرغبة في إبراز الحزن للمأساة التي عرفها المسلمون عامّة وآل البيت خاصّة في يوم عاشوراء.

إلا أن من العادات ما يبدو، معبِّراً عن موقف مناقض دالّ على الفرح والسرور، وهو موقف لا يستغرب ـ من حيث المنطلق ـ بحكم الصلات التاريخية التي كانت للأمويين في المغرب منذ الفتح الإسلامي والتي رسّختها دولتهم في الأندلس. ولكن إمعان النظر في تلك العادات ـ أو بعضها على الأقل ـ يفصلها أو يكاد عن هذا التأثير ويميل بها إلى تفسيرات أخرى تجعلها في إطارها الحق، ويكفينا أن نقتصر منها على ممارسات أربع لها حضور قوي يطبع احتفال المغاربة بهذا اليوم:

١ ـ التوسعة على العيال:

لقد شاعت هذه التوسعة عند المغاربة في يوم عاشوراء بقصد إفراح أطفالهم والبسط لهم في الإنفاق، امتثالاً لقول رسول الله ﷺ: «من وسَّع على عياله في يوم عاشوراء وسَّع الله عليه في سنته كلها» (١٦).

وهو معنى أكّدته الأدبيّات المرتبطة بهذا اليوم، على نحو ما قال عبد الملك بن حبيب السلمي الأندلسي (تـ ٢٣٩ هـ) يخاطب سلطان الأندلس (١٧):

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا | واذكره لا زلت في التاريخ مذكورا
قال النبيّ صلاة الله تشمله | قولاً وجدنا عليه الحقّ والنورا
فيمن يوسِّعُ في إنفاق موسمه | أن لا يزال بذاك العام ميسورا

وورد[١٨] أنه خاطب بها الأمير عبد الرحمن بن الحكم في ليلة عاشوراء وأنها على هذا النحو:

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا | واذكره لازلت في الأخبار مذكورا
من بات في ليل عاشوراء ذا سعة | يكن بعيشته في الحول محبورا
فارغب فديتك فيما فيه رغَّبَنا | فيه الورى كلهم حيّاً ومقبورا

٢ ـ تزيّن النساء وتصويم الأطفال وإلهاؤهم باللعب

إنّ من الإنصاف للمغاربة ولغيرهم من الذين يمارسون مثل هذه العادة بعيداً عن أيّ موقف تاريخي، أن يشار إلى أنها كانت معروفة عند العرب والمسلمين قبل مقتل الحسين، وإن وقع الحثّ على الاكتفاء بالصوم الذي هو سنّة كما مر.

٣ ـ اتخاذ البياض في اللباس

وهو غير مقتصر على يوم عاشوراء، ولا على الفرح فحسب، ولكنه اللون الذي يتّخذه المغاربة في جميع مناسباتهم حتّى ما كان منها متّسماً بالألم والحزن. ويبدو أنّ المغاربة في ذلك متأثرون بتقليد الأندلسيين الذين لم يتَّخذوا السواد على نحو ما في بلاد المشرق.

وفي هذا يقول ابن شاطر السرقسطي:[١٩]

قد كنت لا أدري لأيّة علة | صار البياضُ لباسَ كلِّ مصاب
حتى كساني الدهر سحق ملاءة | بيضاء من شيبي لفقد شبابي
فبذا تبيّن لي إصابة من رأى | لبس البياض على نوى الأحباب

ويقول الحصري:[٢٠]

إذا كان البياض لباس حزن | بأندلس فذاك من الصواب
ألم ترني لبست بياض شيبي | لأني قد حزنت على الشباب

٤ ـ الاكتحال

وهو كلباس البياض يحتمل التزين وعكسه، على نحو ما تكشف الأدبيات المرتبطة به، فقد ذكر عبد الملك المراكشي في ترجمة نجم الدين يونس بن مهذب الدين عثمان الحسني المازندراني أنه حكى في مجلس الرشيد الموحدي بمراكش ما حدث للواعظ أبي الفرج ابن الجوزي «ببغداد يوم عاشوراء وقد اكتحل فقام إليه أحد الشيعة وقال له: لم تجد متى تكتحل إلا في اليوم الذي قتل فيه الحسين وسفك فيه دمه، أو ما علمت أنّ الكحل من الزينة التي تناسب السرور وكأنّ ذلك كان نذراً عليك. فأجابه أبو الفرج بهذين البيتين ارتجالا:

ولائمٍ لامَ في اكتحالي	يومَ استحلُّوا دم الحسينِ
فقلتُ دعْني أحق عضوٍ	يحظى بلِبْس السوادِ عيني

فاستظرفهما الرشيد وبهج بهما وأشار بالأخذ في تذييلهما»[٢١] فتسابق الشعراء للقول. من ذلك أبيات أبي علي الحسن بن محمّد بن حازم أخي حازم القرطاجني:[٢٢]

وهل لباس السواد إلا	شعار حزن لا زيّ زينِ
كأنّ عينيَ بعد رزئي	بمقتل السبط تحت دينِ
يقضي غريم الغرام دمعاً	كالتبر ذوباً لا كاللُّجَينِ
لو أنني يوم كربلاء	شهدت ما حان فيه حيني
حتى أبيد العدا ضراباً	بالسيف طوراً وبالرُدَيْنِي

وقول أبي عبد الرحمن عبد الله بن زغبوش المكناسي:[٢٣]

أقصرْ فإنّ الذي تراه	مِنِ اكتحالٍ بالمقلتَيْنِ
دخانُ قلبٍ قد أحرقتْهُ	نيرانُ حزْنٍ بغيْر ميْنِ
فصعَّدتْهُ أنفاس وَجْدي	فَحَلَّ منهُ بالناظِرَيْنِ
وانظر إلى ذَا الرمادِ منهُ	كيفَ تبدى بالمفرقَيْنِ
فحبُّ آل النبيِّ حتمٌ	علَى البرايا وفرضُ عَيْنِ

وفي نفس الموضوع قال أبو عبد الله بن يوسف المصانعي خمس مقطوعات منها هذه:[٢٤]

وشـــاهدي حـبه بأنّــي كـحلتُ للـحزن لا لِـزيْنِ
فأمْرُ قتلِ الحسينِ صـعبٌ عـــليَّ واللهِ غـــيرُ هَـيْنِ
وقدْ بكيتُ الحسينَ حتّى قـرحت جـفني دون مَـيْنِ
فكان كحلي، لسترِ ما بِـي قد يجلب الزين شرَّ شـيْنِ
فــلا تشـنِّـع ولا تـبشِّع فـلستُ مسـتوجباً لِـذَيْنِ

★ ★ ★

لعله واضح بعد هذه المحاولة التفسيرية أنّ ممارسات المغاربة في يوم عاشوراء مزيج من جانب ديني وطقوس مترسبة في ذهنية المجتمع وسلوكه، بعضها سابق على المرحلة الإسلامية، وبعضها متأثر بالتقاليد التي انتقلت إلى المغرب على امتداد هذه المرحلة وتعدد العناصر العاملة فيها والمؤثرة، سياسية وفكرية واقتصادية واجتماعية. ومن ثمّ جاءت خليطاً من معالم السرور وملامح الحزن، لكن في بُعدٍ عن أي موقف مقصود لذاته. فالمغاربة منتمون للسنة ومتمسِّكون بها، بل من دعاتها وحماتها، وهم في الوقت نفسه متعلِّقون بالرسولﷺ وآل بيته ومتفانون في حبِّهم إلى أقصى حد ومغرقون في مدحهم والتوسُّل بهم.

ولا غرابة في أن يتَّجه المغاربة نحو هذا التعلُّق إلى درجة التقديس، فهم معروفون بقوّة عقيدتهم ومتانة تديُّنهم، ومعتزُّون بأن يكون الإسلام في طليعة مقوِّمات هويتهم الثقافية وكيانهم التاريخي، بل المقوم الأساسي لشخصيتهم الفردية والاجتماعية.

وإنّ من يتأمّل هذه المشاعر نحو العترة النبوية الطاهرة ليُخيَّل إليه أنّ المغاربة قد اعتنقوا التشيع، ولكن الأمر في حقيقته لا يتجاوز محبة الرسولﷺ وآله ولا سيما السيدة فاطمة الزهراء وعليّاً وابنيهما الحسن والحسين عليهم السلام، في إكبار لشجاعة ابن أبي طالب واتخاذه رمزاً للبطولة الإسلامية، وفي تألّم لمأساة الحسين، مردِّدين قوله الله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ (٢٥).

وإذا كان غير مستبعد أثر الأمويين في تقليص مجال الفكر الشيعي في

الأندلس والمغرب، فإن لذلك أسباباً أخرى تبدو أعمق وأرسخ، وتتجلى في الذهنية الأندلسية والمغربية، التي ارتبطت بالدين في غير ميل للجدل العقلي وإثارة القضايا الباطنية التي ناقشها علماء الشيعة، كما تتجلى في المناخ الجهادي الذي كان يوجِّه سلوك الأندلسيين والمغاربة وهم يواجهون باستمرار تحدّيات المدّ النصراني الذي لم تفتر مناوشاته ولا مواقفه الهجومية. ومع ذلك، فقد عرفت الأندلس بعد الأمويين فترات برز فيها المدّ الشيعي، كما عرف المغرب آثاراً قوية لبعض مبادئ المذهب الشيعي، تحفُّزاً من حب المغاربة لآل البيت. ويتبين تاريخياً أن مظاهر هذا الحب قد تجلت واضحة في الترحيب الذي لقيه المولى إدريس إثر فراره من وقعة فخ سنة ١٦٩ هـ على عهد الهادي العباسي، وتنازل عبد الحميد بن اسحاق الأوربي عن إمارته له في وليلي ودعوته القبائل أن يبايعوه، ومن ثمّ لا يستبعد أن يكون المولى إدريس ـ وهو علويّ مناضل ـ قد حمل بعض مبادئ الشيعة إلى المغرب، مما قد يدلّ على اتصال الحركة الشيعية بالمغرب قبل ظهور الداعية الاسماعيلي أبي عبيد الله المهدي مؤسس دولة العبيديين في الشمال الأفريقي.

أما في العصر الموحِّدي (القرن السادس الهجري ونصف السابع) فلا يخفي أنّ مذهب المهدي بن تومرت داعية الدولة ومؤسسها كان يقول ببعض أراء الإمامية من الشيعة كالعصة المهدوية، وإن تراجعت الدولة عن آرائه منذ عهد يعقوب المنصور.[٢٦]

والحقيقة بعد هذا أن موقف المغاربة من آل البيت في كلّ عهد ـ ومازال ـ قائم على عاطفة متأججة هي التي عبّر عنها عبدالمهمين الحضرمي السبتي حين قال: «أحبهم حب التشرّع لا حبّ التشيع»[٢٧].

الهوامش

١ ـ التوبة، الآيات ٣٥ ـ ٣٧.

٢ ـ يونس، ٥.

٣ ـ البقرة، ١٨٨.

٤ ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ٣٢٩، ط ليبزيك ١٩٢٣ (مكتبة المثنى ببغداد). ١٦٨.

٥ ـ كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من المسالك والممالك) لأبي عبيد عبد الله البكري المنشور بعناية دوسلان، ص ١١٢.

٦ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، ص ٢٨٧ ت محمّد سعيد العريان ومحمّد العربي العلمي ط الاستقامة، مصر، ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩م.

٧ ـ البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ت أمبروسي هويسي ميراندة ومشاركة محمّد بن تاويت ومحمّد ابراهيم الكتاني، (منشورات كليّة الآداب، جامعة محمّد الخامس ـ الرباط بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي وتحت إشراف معهد مولاي الحسن للبحوث بتطوان ١٩٦٠).

٨ ـ المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الحسن، ص ٤٢٠، للخطيب محمّد بن مرزوق التلمساني. تحقيق د. ماريا خيسوس بيغيرا تقديم محمود بوعياد. ط الجزائر ١٤١٠هـ. = ١٩٨١م.

٩ ـ المدخل لابن الحاج، ج ١، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ط ثانية. دار الكتاب، بيروت.

١٠ ـ مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط رقم ٢٠٢٨ (ضمن مجموع).

١١ ـ الورقة ١. وهذا وقد عقب عباس بن ابراهيم على هذه الرسالة لدى ترجمة مؤلفها بقوله: « وبقي عليه رحمه الله الكلام على إيقاد النيران في تلك الليلة وهي من البدع التي تضمنت إضاعة المال بلا فائدة، وهو ممنوع شرعاً، كما تضمنت التشبّه بالمجوس الذين يوقدونها لأنّها معبودهم، وما ذكر لي بعضهم أن أصل ذلك أن الناس كانوا يصوِّرون قاتل الحسين ويلقونها في النار فهو بدعة على بدعة، وفيه التشبه أيضاً بموقد نار سيدنا إبراهيم الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، وقد نجاه الله تعالى منها في تلك الليلة المباركة فليُحذر من ذلك كله » (الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، ج ٥، ص ٣٠٣ ط الأولى، ١٩٣٨. المطبعة الجديدة. فاس).

١٢ ـ محمّد بن الموقت = الرحلة المراكشية أو مرآة المساوئ الوقتية، ج ٢، ص ٨٧ ـ ٨٨ ـ ٨٩. مطبعة الحلبي ـ مصر ١٣٥١هـ

١٣ ـ كما عند Castells المشار إليه، وعند عبد الله الجراري والدنا رحمه الله في « القول المحتم في لبس

الخاتم » أن « ممن يقوم بصنعها في رباط فتحنا ومسقط رأسنا المفضال الحيي الأمين الموقت الشهير أبو عبد الله السيد محمّد مرسيل الرباطي وذلك وراثة عن أسلافه الكرام ويخرجها في يوم خاص من صفر الخير وذلك من تمام خاصيتها لا في يوم عاشوراء وإنما ألف الناس ذلك ليس إلا ، ويقع عليه يوم إخراجها إقبال زائد من مسلمين وغيرهم بلديين وغيرهم . هذا ولا شيء يداخل تلك الخواتم البتة فهي من فضة صرف خالصة» (ص ٢٧ ، ط الرباط ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣٢م.

١٤ ـ عني غير قليل من الدراسين ـ ومعظمهم من الأجانب ـ بظاهرة عاشوراء ، ومن أبرزهم :

1 - EDMOND DOUTTE:

-) MERRAKECH PP 370 - 370 (COMITE DU MAROC - PARIS 1905)

-) MAGIE ET RELIGION DANS L'AFRIQUE DU NORD PP 532-540 ET 569 - 570 (ALGER 1909)

2 - EUGENE AUBIN:

LE MAROC D'AUJOURD'HUI. PP 287-288 (LIBRAIRIE ARMAND COLIN - PARIS 1908)

3 - F CASTELLS: NOTE SUR LA FETE DE ACHOURA A RABAT (ARCHIVES BERBERES 1916)

4 - E. LAOUST: NOMS ET CEREMONIES DES FEUX DE JOIE CHEZLES BERBERES DU HAUT ET DE L'ANTI ATLAS. (HESPERIS 1921, 1ER ET 3EME TRIM)

5 - L, BRUNOT ET Med BeN DAOUD: L'ARABE DIALECTAL MAROCAIN P 28 (2 ED RABAT 1932)

٦ ـ محمّد بخوشة في : أدب المغاربة وحياتهم الاجتماعية والدينية وبعض خرافاتهم . (ط ثالثة . الدار البيضاء ١٣٦٣هـ. ١٩٤٣م)

7 - L. BRUNOT: TEXTES ARABES DE RABAT: T II P 524 (PARIS - LIBRAIRIEE ORIENTALISTE 1952).

١٥ ـ انظر كتاب (الزجل في المغرب : القصيدة) لصاحب هذا البحث ص ٣٢٥ (ط الرباط ـ ١٩٧٠) وانظر نصّ القصيدة في الكناش رقم ١٦٥ ص ٣٧٥ (مخطوط الخزانة العامة بالرباط) .

١٦ ـ أورده الطبراني والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد.

١٧ ـ نفح الطيب، ج ٢ ، ص ٦.

١٨ ـ نفح الطيب، ج ٤، ص ١٠٩.
١٩ ـ المصدر نفسه.
٢٠ ـ الذيل والتكملة، س ٨ ق ٢ ص ٤٦٥ ت د. محمّد بنشريفة. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ـ الرباط ١٩٨٤.
٢١ ـ المصدر نفسه، ص ٤٦٦.
٢٢ ـ المصدر نفسه.
٢٣ ـ الصدر نفسه ص ٤٦٩.
٢٤ ـ الأحزاب: ٣٣.
٢٥ ـ انظر في هذا الموضوع دراسات للمؤلف، ومنها:
ـ المغرب وتيار المذاهب الإسلامية. مجلة الإيمان. السنة ٣، الأعداد ٤، ٥، ٦ (١٩٦٦).
ـ في الشعر السياسي، ص ١٣٥، فما بعد (نشر دار الثقافة ـ البيضاء، ط ثانية ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢).
ـ الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي (فصل: ثورة سياسية ومذهبية) ابتداء من ص ١١ ط ثانية. دار الثقافة ـ البيضاء ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤.
ـ وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ. منشورات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي ـ ط دار الثقافة ١٣٩٦ـ١٩٧٦.
ـ الفكر والوحدة (فصل: أسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره في المغرب) ابتداء من ص ٧٩. ط مكتبة المعارف ـ الرباط ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.
ـ بحوث مغربية في الفكر الإسلامي (فصل: اسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب).
٢٦ ـ نفح الطيب، ج ٥، ص ٤٦٩.
٢٧ ـ إنّ حبّ التشيّع هو حبّ التشرّع لأن اتّباع علي وآله هو الحق والصراط المستقيم. فأهل البيت هم عدل الكتاب، وسفينة النجاة، وهم العروة الوثقى التي لا انفصام لها والله سميع عليم. [محرّر الكتاب]

طرق إحياء عاشوراء في كلام الأئمّة

مرتضى الايرواني

سعى أئمّة أهل البيت عليهم السلام دائماً إلى إبقاء واقعة عاشوراء حيّة في ضمائر الشيعة على الخصوص والمسلمين على العموم، لما فيها من دروس وعبر، وما يمكن أن يُستفاد منها ويُستثمر، لتوعية الأمّة، ودفعها إلى غاياتها المطلوبة.

وقد كان الأئمّة عليهم السلام لا يَدعون فرصة تمرّ دون أن يستفيدوا منها، ويوضّحوا من خلالها لشيعتهم حقيقةً من الحقائق.

وتضمّ كتب الحديث والتاريخ أقوالاً ومواقف صدرت من أئمة أهل البيت عليهم السلام كان الهدف منها إحياء ذكرى عاشوراء، وإبقاءها تنبض بالحياة في ضمير الناس. وبدراسة هذه المواقف والأقوال وتحليلها من جهة، وتصنيفها من جهة أخرى، يمكن استخلاص عدّة طرق قصد الأئمّة عليهم السلام من خلالها التأكيد على مسألة عاشوراء، وانبعاثها كلّ حين.

وفيما يلي بيان أشهر الوسائل التي كان الأئمّة عليهم السلام يركّزون عليها بحقّ، ويحرّضون شيعتهم على التوسّل بها، ويرجّحون لهم انتهاج سبيلها، للوصول إلى الهدف المنشود، مع ذكر الأمثلة على ذلك.

وممّا تجدر الإشارة إليه ههنا أنّ كلّ نقطة من النقاط التالية ليست مجرّد وسيلة تُمتطى، وطريقة تُسلك للوصول إلى الهدف المطلوب، دون أنْ تُراعى الصحة أو الشرعية في ذلك، بل كلّ نقطة من هذه، وكل قول يشير إليها يشكّل بحدّ ذاته حقيقة ثابتة ذات كيان مستقلّ، وموضوعيّة خاصّة، ولكنّها مع ذلك تؤدّي إلى مطلوب آخر، ومقصود أوسع، هو تجديد هذه المراسم واحياؤها.

تشويق الناس إلى إقامة المجالس الحسينية

كان الأئمّة عليهم السلام يحرّضون شيعتهم على إقامة المجالس، ويدفعونهم إلى ذلك دفعاً بذكر الثواب الذي يكتسبه الفرد بإقامتها، باعتبارها شيئاً محبوباً لله تعالى من جهة، وللرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة من أهل بيته من جهة أخرى. فما يحبّه الأئمّة عليهم السلام ويميلون إليه ويرضون به فقد ارتضاه الله؛ لقول الحسين عليه السلام في بيان نهضته وحركته المباركة الخالدة «رضا الله رضانا أهل البيت»[١] على أحد تأويليه.

رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لفضيل: تجلسون وتحدّثون؟

قال: نعم، جُعلتُ فداك.

قال: إنّ تلك المجالس أحبّها، فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيى أمرنا. يافضيل، من ذكرنا ـ أو ذُكرنا عنده ـ فخرج من عينه مثل جناح الذباب، غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر[٢].

فعبارة «تجلسون وتحدّثون» تُشير بوضوح إلى أنّهم كانوا يجتمعون فيما بينهم، ويتكلّم أحدهم في أمر أهل البيت عليهم السلام وذكر مصابهم، ومحور ذلك مصيبة الحسين عليه السلام. وكان الإمام الصادق عليه السلام بقوله «أُحبّها» و«أحيوا أمرنا» و«ذُكرنا عنده» يدفع شيعته إلى إقامة مثل هذه المجالس والتجمّعات.

وكان أئمّة أهل البيت عليهم السلام يدعون نساءهم وحرمهم إلى استماع ما يقال في الحسين عليه السلام. ومن يراجع روايات أهل البيت عليهم السلام تطالعه عبارات «مازلت أنشده ويبكي حتّى سمعت البكاء من الدار»[٣]، و«فبكى وتهايج النساء»[٤]، و«فبكى وسمعت البكاء من خلف الستر»[٥]، و «صاحت باكية من وراء الستر: يا أبتاه»[٦].

ويبدو من بعض الروايات أنّ أهل البيت عليهم السلام كانوا في بعض الأحيان يقيمون مجلساً يجمع أهلهم لسماع ما يُقال في مصيبة آبائهم عليهم السلام.

فقد ذكر محمّد بن سهل صاحب الكميت، قال: دخلت مع الكميت على أبي عبدالله جعفر بن محمّد عليهما السلام فقال له: جُعلت فداك! ألا أُنشدك؟ قال: إنّها أيام عِظام، قال: إنّها فيكم، قال: هاتِ ـ وبعث أبو عبدالله إلى بعض أهله فقَرُب ـ فأنشده، فكثر البكاء...[٧].

وليس غريباً كلّ هذا التأكيد على إقامة المحافل لذكر أهل البيت عليهم السلام عامّة، والحسين عليه السلام خاصّة؛ لأنّ في مجالسهم:

أ ـ بيان مظلومية أهل البيت عليهم السلام، وماجرى عليهم من قبل أعدائهم، والغاصبين لحقوقهم. وهذا الأمر يؤكّد أواصر الارتباط بهم عليهم السلام، والتبرّي من أعدائهم، ومحاولة السير على خطاهم، ونَهجِ طريقهم. وبهذا يصير البكاء وسيلة لبيان الرفض السياسي للواقع المُعاش، وللخطِّ المعادي لمدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وإلى هذا أشار إمام الأمّة الراحل السيّد الخميني قدس سره بما مضمونه: إننا أُمّة نبكي وبكاؤنا بكاءٌ سياسي.

ومراده أنّ البكاء على الإمام الحسين عليه السلام وسيلة سياسية للمقاومة، وأُسلوب خاصّ في بيان المعارضة.

وإذا أخذنا هذا الأمر بنظر الاعتبار، فليس غريباً سَعْي كثير من الحكومات الدكتاتورية كحكومة رضا بهلوي، وصدام التكريتي، وغيرهما من الجبابرة والطغاة، لمنع إقامة مجالس العزاء على الحسين عليه السلام؛ لأنّها ترى في ذلك تجمّعاً سياسياً تحت اسم الشعائر الحسينية، وتلمس منه رفضاً لسياساتها التي تسير عليها.

وقد كانت المجالس الحسينية في بعض الأحيان في العراق وإيران مراكز فعّاليّة سياسية آتَت أُكُلها، وأعطت ثمرتها المنشودة.

ب ـ توعية الأمّة الإسلامية، وبعث روح جديدة فيها من خلال ذكر السيرة **العطرة لأهل البيت** عليهم السلام، وبيان موقعهم القيادي الذي وضعهم الله فيه، أو شرح مواقف الرفض التي كان الأئمة عليهم السلام يقفونها ضدَّ طغاة عصرهم.

والعطاء السياسي الوافر، والنتيجة التي تفرزها مناسبة عاشوراء من خلال هذه النقطة لا تَقِلُّ أهمّية عن نتائج النقطة الأولى، إنْ لم تَزِدْ عليها. ويمكننا ملاحظة ذلك من خلال تصريح حفيد الإمام الحسين عليه السلام ووارث نهضته الإمام الراحل بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران: يجب إبقاء عاشوراء حيّةً في ضمائر الناس، وكل ما نملكه اليوم هو من عاشوراء، ومن مجالس عاشوراء.

وقال كذلك: إنّ إبقاء قضيّة عاشوراء حيّة مسألة سياسية وعبادية مهمّة جدّاً.

ج ـ **بيان المفاهيم الإسلامية الصحيحة**، وبلورة الأسس الفكرية المختلفة، وتوضيحها للناس من خلال ذكر أقوال الأئمّة عليهم السلام وشرحها، وعرض سيرتهم ومواقفهم القاطعة في شتّى مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية التي مرّت الأمّة الإسلامية بها على مرّ العصور والدهور. وجعل أقوالهم نبراساً يُنير الدرب، ويُعبّد لأفراد الأمّة طريقاً، يصعب مسلكه لولا هذه الأقوال البنّاءة.

ومن خلال مناظراتهم عليهم السلام مع خصومهم خصوصاً، وخصوم الإسلام عموماً، يمكن درك التيّارات الفكرية التي كانت تعيش في ذلك الزمان.

والواقع أنّ للمجالس الحسينيّة أثراً خاصّاً في كلّ مجالات حياة الأفراد وشؤونهم، ويُدرك هذا الأثر بالتأمّل والنظر، وبانعكاس أثر المجالس على سيرة الأفراد وسلوكهم.

أذكر أنّي حضرت عام ١٩٨٩ م مناقشة لرسالة الدكتوراه في كليّة الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة، لطالب عراقي كانت رسالته حول الأسس المنطقية للفكر السياسي الشيعيّ، ولفت انتباهي قول أحد المناقشين، ولايحضرني اسمه الآن، وكان أحد المتخصّصين المُشار إليهم بالبنان في العلوم السياسية، قال ما مضمونه: إنّ المذهب الشيعي استطاع صياغة أفكاره السياسية في كلّ عصر، وطرحها على الأفراد على مستوى جماهيري واسع، وإقناعهم بها من خلال محورين رئيسيين يمتلكهما المذهب الشيعي دون بقيّة المذاهب الإسلامية المختلفة، وهذان المحوران هما: نظام المرجعية في أُمور الدين، والمجالس الحسينية. هذان المحوران تفتقر إليهما بقيّة المذاهب الإسلامية، مما جعلها لاتستطيع قَطْعَ الشوط الذي قطعته الشيعة، لولا الدعم السياسي لها، على العكس من مذهب أهل البيت عليهم السلام، فقد كانت الحكومات دائماً وأبداً ـ ما عدا فترات قصيرة ـ على الطرف الآخر من الخط السياسي وما كانت الشيعة تستطيع قطع الشوط لولا هذان الأساسان.

وقد استطاع قادة الفكر الإسلامي المنتمي إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام مخاطبة الجماهير والتأثير عليهم من خلال هاتين النقطتين المهمّتين.

فالمنبر الهادف، والمجلس المُخطَّط له، والمحاضرات الحسينيّة المدروسة، لها من التأثير الجماهيري ماليس لغيرها من الوسائل الأخرى؛ لأنّها محل اجتماع الأفراد على اختلاف طبقاتهم وميولهم. ولايستطيع أيّ خط سياسي مهما أُوتي من تنظيمٍ تعبئة هذه الجماهير وجمعها ـ من دون إجبار ـ بالشكل الذي نراه في مجالس الحسين عليه السلام. فقد تقام عشرات المجالس في اليوم الواحد في البلد الواحد، ونراها مكتظّة بالحاضرين يسوقهم الشوق إلى الحسين عليه السلام، ويقودهم حبُّه، لا يبالون في سبيل ذلك بحرٍّ ولا بردٍ، ولا شمس، ولا مطر، ولا زحام.

د ـ **بيان الأحكام الشرعيّة المُبتلى بها،** فقد درج كثير من خطباء المنبر الحسيني على ذكر بعض المسائل الشرعية في بداية مجالسهم. وبذلك يرتفع المستوى العلمي للأفراد من هذه الجهة.

هـ ـ صيانة أفكار أفراد المجتمع من نفوذ الأفكار الضّالّة، والتيّارات المنحرفة، بذكر أحاديث الأئمّة عليهم السلام من جهة، وتحصين الناس بها، وتحليل الأفكار المعادية وردّها من جهة أخرى.

وقد أسهمت المجالس الحسينيّة خصوصاً وبقيّة المجالس عموماً في توعية الأمّة ضدّ هذه الأفكار، وكان لها أثر كبير في الحدّ منها، والوقوف في وجهها. وقد عِشنا المدّ الشيوعي، ووقوف المفكّرين الإسلاميين الرساليين أمامه، وكانت إحدى وسائلهم في ذلك، المنبر الحسيني.

و ـ ويمكن أن يقال إنّ هذه المجالس مدارس خاصّة تضمّ بين صفوفها مستويات مختلفة من الأفراد من حيث الناحية الفكرية والعلمية والاجتماعية... وكلٌّ يستفيد منها بمقدار معيّن.

ولو أردنا تتبّع النتائج العملية، والفوائد التي يمكن الحصول عليها من إقامة المجالس الحسينية لطال بنا المقام، وفي هذا كفاية.

٢ ـ دعوة الشعراء إلى قول الشعر، والاستماع إليهم

وردت روايات عدّة تُشير إلى أنّ الأئمة عليهم السلام كانوا يستنشدون الشعراء في الحسين عليه السلام ويطلبون منهم قول الشعر في ذلك. وكان الأئمّة عليهم السلام يعقدون مجلساً لذلك، وكان شعراء الشيعة يزورنهم في المناسبات ويُنشدونهم ما قالوه.

ولو تتبّعنا الروايات في هذا المقام لوجدنا فيها النقاط التالية:

أ ـ طلب الأئمّة عليهم السلام من الشعراء إنشاد الشعر في الحسين عليه السلام:

روى أبو عمارة المُنشد (عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال لي: ياأبا عمارة أنشدني في الحسين بن علي، قال: فأنشدته فبكى ثمّ أنشدته فبكى، قال: فوالله مازلت أُنشده ويبكي حتّى سمعت البكاء من الدار)[٨].

ب ـ استنشاد الأئمّة عليهم السلام الشعراء الشعر كما ينشدونه فيما بينهم:

روى أبو هارون المكفوف (قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام فقال لي: أنشدني، فأنشدته فقال: لا، كما تُنشدون، وكما ترثيه عند قبره، فأنشدته:

امْرُر على جَدَثِ الحسينِ وقُلْ لأعظمه الزّكيّة

قال: فلمّا بكى أمسكتُ أنا، فقال: مرَّ، فمررتُ، قال: ثُمَّ قال: زدني، قال: فأنشدته:

يا مريم قومي وانْدبي مولاك وعلى الحسين فأسعدي ببكاك

قال: فبكى، وتهايج النساء...)[٩].

فهذه الرواية تدّل على أن الإمام عليه السلام طلب من أبي هارون إنشاد الشعر بالطريقة التي ينشدونها فيما بينهم، القائمة على ترديد الصوت وترجيعه، إثارةً للعواطف واستدراراً للدموع.

ج ـ إدناء الشعراء وإجلاسهم إلى جانبهم:

كان الأئمّة عليهم السلام يُدْنون الشعراء، ويقرّبونهم إلى مجالسهم تعظيماً لهم، وإظهاراً لقدرهم. فقد روى (زيد الشحّام، قال: كنّا عند أبي عبدالله ونحن جماعة من الكوفيين، فدخل جعفر بن عفّان على أبي عبدالله عليه السلام فقرّبه وأدناه، ثمّ قال: ياجعفر:

قال: لبّيك! جعلني الله فداك، قال: بلغني أنّك تقول الشعر في الحسين وتُجيد، فقال له: نعم جعلني الله فداك، قال: قل. فأنشده ـ صلّى الله عليه ـ فبكى ومن حوله، حتى صارت الدموع على وجهه ولحيته)[١٠].

د ـ ذكر أجر الشعراء الذين قالوا في الحسين خاصّة وفي أهل البيت عامّة:

ممّا لاشك فيه أنّ رثاء الحسين عليه السلام وقول الشعر فيه، أمرٌ يثاب الإنسان عليه ويُؤجر، لأنّ الحسين عليه السلام خامس أهل الكساء الذين أُنزلت فيهم آية التطهير[١١]، وآية المودّة في القربى[١٢]، وسورة «هل أتى»، بالإضافة إلى الآيات الأخرى.

أمّا السُنّة فقد صرّحت بفضل الحسين عليه السلام ومنزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولو أردنا تتبّع ما رُوي فيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق أهل السُنّة لضاق بنا المقام، وخرج عن خُطّته. فإنّه جدير ببحث خاصّ.

وشخصيةٌ كالحسين عليه السلام شملته آيات عديدة من آي الذكر الحكيم، ونوّهت روايات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم باسمه وفضله، وحقّه، ومنزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يُؤْجر حتماً من يقول شيئاً فيه شعراً أو نثراً، مدحاً كان أو رثاءً.

وليس عجباً إكرام شعراء الحسين عليه السلام، بل العجب كلّ العجب إذا شكّ أحد في ذلك.

وقد صرّحت روايات عديدة أُثرت عن أهل البيت عليهم السلام بأجر الشعراء الذين يقولون في الإمام الحسين عليه السلام، وذكرت الثواب الذي يكتبه الله لهم. فإنّ في ذلك سرور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتعظيماً لشعائر الله. «ومن يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب»[١٣].

والأئمّة عليهم السلام حينما يبشّرون الشاعر بأجره إنّما يكشفون عن المثوبة التي أعدّها الله له.

فالخبر الذي ذكرناه عن أبي عمارة المُنشد جاء فيه (فقال ـ أبو عبدالله عليه السلام ـ: ياعمارة من أنشد في الحسين بن علي شعراً فأبكى خمسين فله الجنّة، ومَن أنشد في الحسين شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنّة، ومَن أنشد في الحسين شعراً فأبكى

عشرين فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى عشرة فله الجنّة، ومَن أنشد في الحسين شعراً فبكى فله الجنّة، ومَن أنشد في الحسين شعراً فتباكى فله الجنّة)(١٤).

وجاء في رواية زيد الشحّام المتقدّمة (ياجعفر والله لقد شهدت ملائكة الله المقرّبون ههنا يسمعون قولك في الحسين عليه السلام، ولقد بكوا كما بكينا وأكثر، ولقد أوْجبَ الله تعالى لك ياجعفر في ساعتك الجنّة بأسرها، وغفر الله لك.

فقال: يا جعفر ألا أزيدك؟ قال: نعم ياسيدي. قال: ما من أحدٍ قال في الحسين شعراً فبكى وأبكى به إلّا أوجب الله له الجنّة وغفر له)(١٥).

ونُقل عن الكميت بن زيد الأسدي أنّه قال (دخلتُ على أبي جعفر عليه السلام فقال: والله ياكميت لو كان عندنا مال لأعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحسّان: لايزال معك روح القدس ما ذَبَبْتَ عنّا).

ولايقتصر الأجر عند الأئمّة عليهم السلام على الأجر المعنوي وإن كان هو الأهم، ولكنّهم مع ذلك كانوا يصلون الشعراء، ويهبون لهم هبات وافرة.

وقال الكميت بن زيد الأسدي (دخلنا يوماً على أبي جعفر محمّد بن علي، فأعطانا ألف دينار وكسوة، فقال له الكميت: والله ما أحْبَبتكم للدنيا، ولو أردت الدنيا لأتيتُ من هي في يديه، ولكنّي أحْبَبتكم للآخرة، فأمّا الثياب التي أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركتها، وأمّا المال فلا أقبله، فردّه وقَبل الثياب)(١٦).

والشواهد على ذلك كثيرة أشهرها خبر الإمام زين العابدين عليه السلام والفرزدق وخبر الإمام الرضا عليه السلام ودعبل الخزاعيّ. فإذا كان أهل البيت عليهم السلام يُثيبون الشعراء ويصلونهم بقولهم الشعر فيهم - أهل البيت عليهم السلام عموماً - فصلتهم في رثائهم الحسين عليه السلام أحقُّ وأجدر وأولى.

٣ - البكاء على الحسين عليه السلام

أخذتْ مسألة البكاء على الحسين عليه السلام نصيباً وافراً من الروايات الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام. فالروايات التي تعرَّضت لذكر البكاء والتباكي عليه كثيرة

حوتها كتب الحديث والتاريخ. وقد تضمّنت هذه الروايات ذكر ثواب البكاء عليه، والجزاء الذي يكتسبه الإنسان، والأجر الذي يكتبه الله عزوجل للباكي على الحسين عليه السلام.

ولم تكتفِ الروايات بذكر أجر الباكي فقط، بل ذكرت أجر المُبكي، وهو الذي يُبكي الناس بذكر مصابهم سواء كان عن طريق قراءة المقتل أو إنشاد الشعر، كما يُلاحظ من الروايات المتقدّمة. وللمتباكي ـ وهو الذي يُظهر البكاء إنْ لم يقدر عليه ـ نصيبٌ من الأجر كذلك.

ومن الواضح والظاهر ظهور الشمس أنّ بيان أجر كلّ من الباكي والمُبكي والمُتباكي على الحسين عليه السلام يدفع الناس إلى حضور مجالس الحسين عليه السلام، والبكاء عليه، أو إظهار البكاء؛ وفي ذلك إحياء أمر الحسين عليه السلام، وإبقاء مسألة عاشوراء حيّة وقّادة في ضمير المجتمع. لذا نرى حرص الناس على إقامة المجالس، وحضورها بغية الأجر.

وما نشاهده من تفنّن بعض الناس بابتكار طريقة جديدة في المراسم، أو تنويع في الشعائر الحسينيّة ـ سواءً أَقْررنا كلّ ذلك أو تحفّظنا على بعضه ـ أقول ما نشاهده من ذلك يعكس رغبة القائمين عليها في استدرار عواطف الناس، ثمَّ حصول البكاء، واكتساب الأجر والثواب.

وقد دفع أهل البيت عليهم السلام شيعتهم وحرّضوهم على إقامة المجالس، وحضورها، أو القراءة فيها، وذلك بذكر المثوبة عليه. وما إصرار علماء كبار على نظم الشعر، وقراءة مصيبة الحسين عليه السلام إلّا أثر من آثار هذا التوجيه الذي وجّه أئمّة أهل البيت عليهم السلام شيعتهم نحوه.

وبما أنّ سلوك الأئمّة عليهم السلام وفعلهم سنّة، بها يُقتدى، ومثال يُحتذى، فقد عكس كثير من الروايات بكاء الأئمّة عليهم السلام على الحسين عليه السلام ليكون ذلك سنّة متّبعة.

ونكتفي في هذا المجال بذكر أربع روايات فقط، تاركين الأمر لمن يريد الإطّلاع على المزيد بالرجوع إلى الكتب التي تعرّضت لذلك.

أ ـ رُوي عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: أيّما مؤمن

دمعت عيناه لقتل الحسين بن عليّ دمعة حتّى تسيل على خَدّه لأذىً مسَّنا من عدوّنا في الدنيا بوَّأه الله مُبوَّأ صدق في الجنّة، وأيّما مؤمن مسّه أذىً فينا فدمعت عيناه حتّى يسيل على خدّيه من مضاضة ما أُوذي فينا، صرف الله عن وجهه الأذى، وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار)[١٧].

ب ـ وجاء في قول الصادق عليه السلام لفضيل المتقدّم (يافضيل من ذَكرنا أو ذُكرنا عنده فخرج من عينه مثل جناح الذباب غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر)[١٨].

ج ـ وعن الرضا عليه السلام: (إنّ المحرّم شهر كان أهل الجاهليّة يحرّمون فيه القتال فاستُحلّت فيه دماؤنا، وهُتكت فيه حُرمتنا، وسُبي فيه ذرارينا ونساؤنا، وأُضرمت النيران في مضاربنا وانتُهب ما فيها من ثقلنا، ولم تُرعَ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرمة في أمرنا.

إنّ يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلَّ عزيزنا بأرض كرب وبلاء، وأورثنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء، فعلى مثل الحسين فليبكِ الباكون، فإنّ البكاء عليه يحطُّ الذنوب العظام.

ثمّ قال عليه السلام: كان أبي إذا دخل شهر المحرم لا يُرى ضاحكاً وكانت الكآبة تغلب عليه حتّى يمضي منه عشرة أيّام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه ويقول: هو اليوم الذي قُتل فيه الحسين صلّى الله عليه)[١٩].

د ـ وعن الصادق عليه السلام (من ذُكرنا عنده ففاضت عيناه حرّم الله وجهه على النار).

٤ ـ زيارة الحسين عليه السلام

وردت روايات عديدة في فضيلة زيارة الإمام الحسين عليه السلام وثوابها. فقد حاول الأئمّة عليهم السلام دفْعَ الشيعة إلى زيارة الحسين عليه السلام، ببيان فضلها والأجر الذي يُكتب للزائر عند زيارته.

وممّا لا شكّ فيه أنّ بيان الأجر والثواب يُعطي الإنسان طاقة خارقة، ويبعث فيه روحاً خاصّة ممّا يجعله قادراً على تحمّل المصاعب والمشاقّ في سبيل هذا

الأمر، كما يدفعه إلى بذل كلّ غالٍ ونفيس في طريق ذلك.

لقد حدّثنا التاريخ أنّ المتوكّل العباسي حاول كثيراً صدّ الشيعة عن زيارة الحسين عليه السلام، ولكنه لم يفلح في ذلك، فحاول بأسلوب ماكر خبيث صرف الشيعة عن الزيارة بحرث قبر الحسين عليه السلام، وإعْفاء أثره ومعالمه، ليكون قصد الشيعة كربلاء بلا معنى، ولكنّ هذه الوسائل لم تُؤتِ أُكُلها، ولم يفلح أصحابها فيها؛ لإصرار الشيعة على زيارة الحسين عليه السلام مهما كلّف الأمر، عملاً بإرشاد أئمّتهم عليهم السلام.

والحقيقة أننا لسنا بحاجة إلى التاريخ لمعرفة أثَر أقوال أئمّة أهل البيت عليهم السلام ولمسه في استحباب زيارة الإمام الحسين عليه السلام وفضلها، وإصرار الشيعة على ذلك، ومقاومتهم كلّ ضغط، وتقديمهم كلّ ما يستطيعون تقديمه للإبقاء على هذه الشعيرة، وكسب الأجر والثواب من ورائها، ومدى قساوة الجبابرة والطغاة في محاولتهم صرف الشيعة عن هذه الزيارة. فقد منعت حكومة العراق سنة ١٩٧٧م توجُّه الزائرين إلى كربلاء في العشرين من صفر لزيارة الأربعين. فخرجت الجماهير غاضبة وتوجّهت إلى كربلاء من بعض المدن مشياً على الأقدام، وحدثت في الطريق أحداث دامية اضطرّت السلطة إلى الاستعانة بالطائرات والدبّابات لإرهاب الناس وإجبارهم على التفرّق، وتَمَّ اعتقال الآلاف منهم، كما أُعدم ثمانية أشخاص، ولكنّ مسيرة مُحبّي أهل البيت لم تتوقف، وعزيمتهم لم تنصرف، بل انصرفت الحكومة عن ذلك، ومضت إرادة الناس التي اكتسبوها من أقوال الأئمّة عليهم السلام إلى الأمام تشقّ طريقها حتّى يرث الله الأرض ومَن عليها.

وأظنّ بعد هذا العرض أنّ الإنسان يلمس مدى تأثير أحاديث أهل البيت عليهم السلام في إحياء عاشوراء، وإبقائها واقعاً ينبض بالحياة كلّ وقت. فلولا الأجر الذي يتوقّعه الزائر لما أقدم على كلّ ما أقدم عليه.

ويكفي في هذا المقام ذِكرُ ثلاث روايات تبرّكاً:

أ ـ روى عبدالله بن الفضل الهاشمي قال: (كُنت عند أبي عبدالله الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام فدخل رجل من أهل طوس، فقال: يابن رسول الله ما لمن زار قبر أبي عبدالله الحسين بن علي عليهما السلام؟ فقال: مَن زار قبر الحسين عليه السلام وهو يعلم أنّه

إمام من قبل الله مُفترَض الطاعة على العباد غفر الله له ماتقدّم من ذنبه وما تأخّر، وقبل شفاعته في خمسين مذنباً، ولم يسأل الله عزّوجلّ حاجة عند قبره إلّا قضاها له...)[٢٠].

ب ـ وعن الصادق عليه السلام: (إذا أردت الحجّ ولم يتهيّأ لك فائْت قبر الحسين عليه السلام؛ فإنّها تُكتب لك حجّة، وإذا أردت العمرة ولم يتهيّأ لك فَائْت قبر الحسين عليه السلام فإنّها تكتب لك عمرة)[٢١].

٥ ـ ترك العمل يوم عاشوراء

يُستفاد من بعض الروايات أنّ الأئمّة عليهم السلام أَوْصوا شيعتهم بعدم العمل، وترك السعي يوم عاشوراء. ومعلوم أنّ إغلاق المحال التجارية أبوابها، وتعطيل الدوائر الرسمية وشبه الرسمية، وتوقّف الأعمال من أبرز مظاهر إحياء عاشوراء.

فقد روي عن الرضا عليه السلام أنّه (قال: مَن ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة، ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه، يجعل الله عزّوجلّ يوم القيامة يوم فرحه وسروره وقرّت بنا في الجنان عينه، ومن سمّى يوم عاشوراء يوم بركة وادّخر لمنزله فيه شيئاً لم يبارك له فيما ادّخر، وحُشِر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد لعنهم الله إلى أسفل درك من النار)[٢٢].

وروي عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال (وإن استطعت ألّا تنشر يومك في حاجة فافعل، فإنّه يوم نحس لاتُقضى فيه حاجة مؤمن، وإن قُضيت لم يبارك له فيها، ولايرى فيها رشداً، ولايدّخرنّ أحدكم لمنزله فيه شيئاً، فمن ادّخر في ذلك اليوم شيئاً لم يُبارك له فيما ادّخر، ولم يبارك له في أهله، فإذا فعلوا ذلك كتب الله لهم ثواب ألف حجّة وألف عمرة و....)[٢٣].

٦ ـ إظهار الجزع عند ذكر الحسين عليه السلام

من الأمور التي تجعل الحسين عليه السلام حيّاً في ضمائر الناس من جهة، وتجعل عاشوراء تتكرّر كلّ حين، الاستعبار عند ذكر الحسين عليه السلام ومصابه، وإظهار الجزع

كلّما شرب المؤمن ماءً.

روى مسمع كرديت عن الصادق عليه السلام أنّه قال: (يامسمع أنت من أهل العراق أما تأتي قبر الحسين؟ قلت: لا، أنا رجل مشهورٌ من أهل البصرة، وعندنا من يتّبع هوى هذا الخليفة، واعداؤنا كثيرة من أهل القبائل من النُّصّاب وغيرهم، ولستُ آمنهم أنْ يرفعوا عليَّ حالي عند وُلد سليمان فيمثّلون عليّ.

قال لي: أفما تذكر ما صُنِعَ به؟ قلت: بلى، قال: فتجزع؟ قلت: إي والله، وأستعبر لذلك، حتّى يرى أهلي أثر ذلك عليَّ، فأمتنع من الطعام حتّى يستبين ذلك في وجهي.

قال: رحم الله دمعتك، أما إنك من الذين يُعدّون في أهل الجزع لنا...)[٢٤].

وذكر أبو عمارة المنشد (ماذكر الحسين بن علي عند أبي عبدالله عليه السلام في يوم قطّ فرئي أبو عبدالله عليه السلام متبسّماً في ذلك اليوم إلى الليل، وكان أبو عبدالله عليه السلام يقول: الحسين عبرة كلّ مؤمن)[٢٥].

٧ـ تعزية المؤمنين بعضهم بعضاً بمصاب الحسين عليه السلام

من الأمور التي دعا إليها الإمام الباقر عليه السلام، وحثَّ شيعتَه عليها تعزية المؤمنين بعضهم بعضاً يوم عاشوراء. والتعزية هذه أحد مظاهر الحزن، وفي نشرها وشيوعها تبقى ملحمة الحسين عليه السلام خالدة. فهي إحدى الوسائل التي أشار الأئمّة إليها لتكون عاشوراء قائمة تتجدّد كلّ عام.

فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: (ثمّ ليندب الحسين عليه السلام ويبكيه، ويأمر مَنْ في داره ممّن لايتّقيه بالبكاء عليه، ويُقيم في داره المصيبة بإظهار الجزع عليه، وليعزِّ بعضهم بعضاً بمصابهم بالحسين عليه السلام، وأنا ضامن لهم إذا فعلوا ذلك على الله عزّوجلّ جميع ذلك ـ يعني ثواب ألفي حجّة، وألفي عمرة، وألفي غزوة... قلتُ: وكيف يعزّي بعضنا بعضاً؟ قال: تقول: عظّم الله أُجورنا بمصابنا بالحسين عليه السلام، وجعلنا وإياكم من الطالبين بثأره مع وليّه، والإمام المهدي من آل محمّد «صلّى الله عليه وآله»)[٢٦].

٨ ـ الإمساك عن الطعام والشراب يوم عاشوراء

إنّ الإمساك عن الطعام والشراب إلى زوال الشمس يوم عاشوراء يُعتبر مواساة للحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه، وما من شكّ في أنّ لهذه السُّنّة دوراً كبيراً في التذكير بمصاب الحسين عليه السلام.

ذكر (محمّد بن المفيد في «مسارّ الشيعة» قال: وفي العاشر من المحرّم قُتل الحسين عليه السلام وجاءت الرواية عن الصادق عليه السلام باجتناب الملاذّ فيه، وإقامة سُنَن المصائب، والإمساك عن الطعام والشراب إلى أنْ تزول الشمس، والتغذّي بعد ذلك بما يتغذّى به أصحاب المصائب كالألبان وما أشبهها دون اللذيذ من الطعام والشراب)(٢٧).

٩ ـ اتّخاذ بعض أنواع الحيوان في البيت

جاء في بعض الروايات أنّ الإمام الصادق عليه السلام أشار على بعض شيعته باتّخاذ حمام راعبي، وتربيته في البيوت، لأنّه يدعو على قَتَلَة الحسين عليه السلام فكلّما رآه الشيعي يُقرقر يَتَذكّر مايقوله، فيتذكّر لذلك مصيبة الحسين عليه السلام فيكون اتخاذ هذا الحيوان سبيلاً، ووسيلة لإبقاء واقعة كربلاء في ضمائر الشيعة.

قال داود بن فرقد (كنت جالساً في بيت أبي عبدالله عليه السلام فنظرت إلى حَمام راعبيّ يقرقر، فنظر إليَّ أبو عبدالله عليه السلام، فقال: ياداود أتدري مايقول هذا الطير؟ قلت: لا والله جُعلت فداك، قال: يدعو على قَتَلَة الحسين عليه السلام فاتخذوه في منازلكم).

روى السكوني عن أبي عبدالله عليه السلام (قال: إتّخذوا الحمام الراعبيّة في بيوتكم فإنّها تلعن قَتَلَة الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، ولعن الله قاتله)(٢٨).

وممّا يدخل تحت هذا الموضوع التأكيد على لعن قاتل الحسين عليه السلام؛ فإنّ لعنَهُ يُذكِّر بمصاب الحسين عليه السلام فتتوقَّد جمرة الغضب على قاتليه، ويبقى ذِكرُ الحسين عليه السلام دائماً على الشِّفاه وفي القلوب والضمائر.

روى داود الرقي عن أبي عبدالله عليه السلام فقال (كنت عند أبي عبدالله عليه السلام إذ استسقى الماء، فلمّا شربه رأيته استعبر، وأغْرورقت عيناه بدموعه ثمّ قال لي: ياداود لعن الله قاتل الحسين عليه السلام فما من عبد شرب الماء فذكر الحسين ولعن قاتله،

إلّا كتب الله له مئة ألف حسنة، وحطّ عنه مئة ألف سيئة، ورفع له مئة ألف درجة، وكأنّما أعتق مئة ألف نسمة، وحشره الله يوم القيامة ثلج الفؤاد)[٢٩].

١٠ ـ تَذكّر الحسين عليه السلام عند شرب الماء

ممّا ذكرته الروايات الصادرة عن أئمّة أهل البيت يُستفاد أنّ المؤمن إذا تذكّر الحسين عليه السلام وعطَشه عند شرب الماء كُتبت له حسناتٌ في صحيفة أعماله، كما أشارت إلى ذلك الرواية المتقدّمة، وبما أنّ شرب الماء يتكرّر كلّ يوم مرّات فالالتزام بهذا يعني ذكر الحسين عليه السلام وعطشَه ومصيبته عدّة مرّات في اليوم ولاشيء أدلّ على بقاء اسم الحسين عليه السلام ونهضته من هذا.

هذا ما أمكنني ملاحظته من وسائل أشارت إليها الروايات الواصلة إلينا من أهل البيت عليهم السلام ولا أدّعي أنني استطعتُ الإلمام بجميع الروايات الواردة في هذا الشأن، كما لايمكنني القول إنّ هذا هو كلّ مايمكن استخلاصه من الروايات التي راجعتها. فلايستطيع أحد ادّعاء هذا أبداً؛ فكلّما توغّل الإنسان في دراسة الروايات أمكنه التوصّل إلى أمر جديد.

ويقد يقول قائل: إنّ هذه الروايات تحتاج إلى دراسة السّند أوّلاً للاطمئنان إلى صحّتها قبل استخراج هذه النقاط من الروايات. فلاينبغي الإقدام على هذا قبل التأكّد من سندها.

والجواب على هذا اننا لسنا بصدد التأكّد من واقعيّة الأجر الذي تضمّنته هذه الروايات، وإن كان غير بعيد على الله عزّوجلّ في حقّ الحسين عليه السلام فقد فدى مهجته، وقدّم أولاده وأخوته، وأهل بيته وزبدة أصحابه الذين لاتشرق الشمس على مثيل لهم، لإبقاء كلمة الله، ولإحياء أمره.

أقول لسنا بصدد الحديث عن الثواب الذي أشارت إليه هذه الروايات حتى نشغل أنفسنا بدراسة السند أوّلاً، بل نريد أن نستخلص ماحوته هذه الروايات التي يعيشها المؤمن، وتطرق سمعه كلّ حين، ويتأثّر بما ضمّته من طرق هدفها إبقاء عاشوراء وهّاجة في النفوس، وقّادة في الضمائر، باعثة على مزيد من العمل لإعلاء كلمة الحق.

الهوامش:

١ ـ كشف الغمّة ٢، ٢٠٤.

٢ ـ قرب الإسناد: ٢٦ والبحار ٤٤: ٢٨٢.

٣ ـ أمالي الصدوق، المجلس ٢٩، الحديث ٦؛ ثواب الأعمال ٤٧؛ كامل الزيارات ١٠٥؛ بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٢.

٤ ـ كامل الزيارات: ١٠٦؛ البحار ٤٤: ٢٨٧.

٥ ـ ثواب الأعمال: ٤٧؛ والبحار ٤٤: ٢٨٨.

٦ ـ كامل الزيارات: ١٠٥؛ البحار ٤٤: ٢٨٦.

٧ ـ الأغاني ١٧: ٢٤.

٨ ـ أمالي الصدوق، المجلس ٢٩، الحديث ٦؛ ثواب الأعمال: ٤٧؛ البحار ٤٤: ٢٨٢.

٩ ـ كامل الزيارات: ١٠٦؛ البحار ٤٤: ٢٨٧.

١٠ ـ رجال الكشي: ١٨٧ (ترجمة جعفر بن عثمان)؛ البحار ٤٤: ٢٨٢؛ تنقيح المقال ١: ٢١٨.

١١ ـ الأحزاب، الآية ٣٣.

١٢ ـ الشورى، الآية ٢٣.

١٣ ـ الحج، الآية ٣٢.

١٤ ـ أمالي الصدوق، المجلس ٢٩، الحديث ٦؛ كامل الزيارات: ١٠٥؛ البحار ٤٤: ٢٨٢.

١٥ ـ رجال الكشي: ١٨٧؛ وسائل الشيعة، باب المزار: ١٠٤، الحديث ١؛ البحار ٤٤: ١٨٣.

١٦ ـ الأغاني ١٧: ٢٤.

١٧ ـ تفسير القمّي ٢: ٢٩١؛ كامل الزيارات: ١٠٠؛ البحار ٤٤: ٢٨١.

١٨ ـ قرب الإسناد: ٣٦؛ البحار ٤٤: ٢٨٢.

١٩ ـ كامل الزيارات: ١٠٤؛ البحار ٤٤: ٢٨٥.

٢٠ ـ التهذيب ٦: ١٠٨، الحديث ١٩١؛ وسائل الشيعة، المزار ٣٧، الحديث ١١.

٢١ ـ كامل الزيارات: ١٥٦؛ وسائل الشيعة، المزار ٣٧، الحديث ٤٧.

٢٢ ـ علل الشرائع: ٢٢٧؛ أمالي الصدوق، المجلس ٢٧، الحديث ٤١؛ عيون أخبار الرضا ١: ٢٩٨.

٢٣ ـ وسائل الشيعة، المزار ٦٦، الحديث ٢٠.

٢٤ ـ كامل الزيارات: ١٠١؛ البحار ٤٤: ٢٨٩.

٢٥ ـ كامل الزيارات: ١٠١؛ البحار ٤٤: ٢٨٠.

٢٦ ـ وسائل الشيعة، المزار ٦٦، الحديث ٢٠.

٢٧ ـ وسائل الشيعة، المزار ٦٦، الحديث ٩.

٢٨ ـ الكافي، كتاب الدواجن، باب الحمام، الحديث ١٠؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٠٥.

٢٩ ـ الكافي، كتاب الأشربة، النوادر، الحديث ٦؛ كامل الزيارات: ١٠٦؛ والوسائل ٤٤: ٣٠٣.

خصائص آل البيت
في ضوء السنّة النبويّة

د. أحمد حسن عبد الجواد

إن البحث عن أهل البيت يعتبر من الأبحاث العزيزة والنادرة عند أهل السنّة، وقد عُني الشيعة بذلك منذ العصور الأولى مع أنهم يستحقون ذلك من أهل السنّة، لأن مقام أهل البيت مقام النبي ﷺ وهم شجرة النبوّة المباركة الذين لم يعرف التاريخ بيتاً أقرب إلى قلوب الناس منهم، وأنّ خصائصهم كثيرة لنسبهم وحسبهم وطهرهم وشرفهم لا يلوّثهم رجس ولا ينالهم دنَس فقد طهَّرهم اللهُ فضلاً منه وكرماً حتى اصطفاهم الله تعالى عن غيرهم، واشتهر لفظ آل البيت بآل محمد وصار علَماً لهم، وحرَّم اللهُ إيذاءهم وأوجب توقيرهم والتأدّب معهم والصلاة عليهم تبعاً للصلاة على النّبي ﷺ وجعل لهم حقاً معلوماً من الغنائم وحرَّم عليهم الصدقة لأنّها من أوساخ الناس، وقد أمر ﷺ التمسُّك بآل البيت وقرَن التمسُّك بهم بالهداية وكتاب الله، وأنّ التمسُّك بهما مُنقِذٌ من الضلال، وأنهما لن يفترقا إلى يوم القيامة وأنّ الأمر لهم، فأوجب طاعتهم، وقرن ﷺ حبّه بحبّ الله، وحبّ آل البيت بحبّه.

آل البيت شجرة النبوّة المباركة

المقصود بآل البيت لغة

أهل البيت: لفظ مركب من الأهل والبيت. وأهل الأمر ولاته، وأهل البيت سكانه، وأهل المذهب من يدين به، وأهل الرجل زوجته*. وللنبي ﷺ أزواجه وبناته وصهرُه عليّ عليه السلام (1).

* وأهل الرجل عشيرته وذوو قرباه، كما في (أقرب الموارد).

وذكر الأصبهاني: وأهل الرجل ما يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما، وتُعورف في أسرة النبيّ ﷺ لقوله تعالى: ﴿ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ واشتهر لفظ «آل البيت» خاصّاً بآل محمّد ﷺ حتّى صار علماً لهم، بحيث لا يفهم منه غيرهم إلا بقرينة، وهي كلمة شاملة لأزواجه وذريته [٢].

وقال ابن الأثير: تحت باب العين مع التاء «عتر»:

عترة الرجل: أخصُّ أقاربه، وعترة النبيّ ﷺ بنو عبد المطلب. وقيل أهل بيته الأقربون، وهم: علي وأولاده. وقيل: الأقربون والأبعدون منهم. وكذلك، يدخل في الأهل أعمامه ﷺ وأبناؤهم وأن بني هاشم كلهم داخلون في أهل البيت [٣]. لقوله ﷺ: «إنّما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد» [٤].

المقصود بآل البيت في الشرع

عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «من سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل اللهم صلّ على محمّد النبيّ وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته أهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد» [٥].

أقوال أهل العلم بأهل البيت

وقد اختلف أهل العلم في المراد بأهل البيت على أقوال:

القول الأوّل: أزواج النبيّ ﷺ خاصة لا رجل معهن، وعلى هذا القول ابن عباس وعكرمة وعطاء والكلبي ومقاتل وسعيد بن جبير [٦]. لقوله: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن﴾ [٧]. وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبيّ ﷺ.

وأدلّتهم على ذلك: أنّ قرينة السياق صريحة في دخولهن [٨]. لقوله تعالى: ﴿قل لأزواجك إن كنتنّ تردْنَ الحياة الدنيا﴾ ثمّ قال في خطابه لهن: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهليّة الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ ثمّ قال بعده: ﴿واذكرن ما يُتلى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة﴾ [٩].

وقد أجمع علماء الأصول على أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، فلا يصحّ إخراجها إلّا بمخصص [١٠]. والدليل على دخول أزواج النبيّ ﷺ في أهل بيته، دلالة السياق وأن الآيات نازلة في حق أزواجه ﷺ. وشبيه بذلك من دخول

الزوجات في اسم أهل البيت [١١]، قوله تعالى في زوجة إبراهيم عليه السلام: ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ [١٢].

القول الثاني: أن أهل البيت هم: علي وفاطمة والحسن والحسين خاصّة. وعلى هذا القول عائشة وأم سلمة وأنس وواثلة بن الأسقع وأبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة [١٣].

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ بالميم للجمع المذكر، ولو كان للنساء خاصة لكان قوله: «عنكن، ويطهركن فالخطاب يصلح للذكور لا للإناث وهو قوله عنكم» و «يطهركم» [١٤].

وكذلك أنّ الآية نزلت في بيت أم سلمة زوج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين، فجلّلهم رسول الله بكساء كان عليه، ثمّ قال: «هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيراً».

قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله ؟ قال: «أنت على مكانك، وأنت على خير» [١٥].

وعن أنس أنّ رسول الله كان يمرُّ على باب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى الصلاة يقول: «الصلاة يا أهل البيت، إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً» [١٦].

وذكر الإمام الطبري رواية عن أبي سعيد الخدري أنّ هذه الآية نزلت في خمسة؛ في رسول الله وعليّ وحسن وحسين وفاطمة [١٧].

القول الثالث: شمول الآية للقولين، وعلى هذا القول الإمام القرطبي وابن كثير وغيرهما [١٨]. فقالوا: أنّ الآية شاملة للزوجات ولعلي وفاطمة والحسن والحسين، أما الزوجات فلكونهن المرادات في السياق، ولكونهن الساكنات في بيوته صلى الله عليه وآله وسلم النازلات في منازله.

وأما دخول علي وفاطمة والحسن فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك الأحاديث الصريحة التي ذكرت في القول الثاني [١٩].

ومن قال أن أزواجه صلى الله عليه وآله وسلم لسن داخلات في الآية، يُردّ عليه بصريح سياق

القرآن، وأنّ من قال: أنّ فاطمة وعلي والحسن والحسين ليسوا داخلين فيها، يُرَدُّ عليه بالأحاديث الواردات في القول الثاني، ومن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل بعض ما يجب إعماله وأهمل ما لا يجوز إهماله [٢٠].

والقول الرابع: أن آل البيت: هم بنو هاشم. وقالوا: المراد بآل البيت بيت النسب [٢١]. واحتجّوا بحديث أخرجه الإمام مسلم: عن زيد بن الأرقم أن رسول الله قال: «أُذكِّركم الله في أهل بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي». فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس [٢٢].

وفي رواية: أهل بيته أصله وعصبته الذين حُرموا الصدقة بعده [٢٣].

قال ابن عباس: في قوله: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى» [٢٤]، لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ له فيه قرابة [٢٥].

قال ابن حجر: يريد بذلك من ينسب إلى جده الأقرب وهو عبد المطلب ممن صحب النبيّ ﷺ. أو من رآه من ذكر أو أنثى وهم: علي وأولاده، الحسن والحسين ومحسن و أم كلثوم من فاطمة. وجعفر وأولاده عبدالله وعون ومحمّد وأحمد. وعقيل وولده، مسلم بن عقيل. وحمزة وأولاده يعلى وعمارة وأمامة. والعباس وأولاده الفضل وعبد الله وقثم وعبيدالله والحارث ومعبد وعبد الرحمن وكثير وعون وتمام [٢٦].

وبعد هذه الدراسة ومناقشة الأقوال المختلفة في تحديد من هم أهل البيت، نرى أن سبب الخلاف هو تأويل الآية: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾.

خلاصة الأقوال في آل البيت

الأوّل : أزواج النبيّ ﷺ.

الثاني : عليّ وفاطمة وذريتهما إلى يوم القيامة.

الثالث : أزواج النبيّ ﷺ وعليّ وفاطمة وذريتهما.

الرابـع : بنو هاشم وبنو عبد المطلب ومن لحق بهما.

ويمكن الجمع بين هذه الأقول بأنّ أهل بيته ﷺ هم: الذين حرُمت عليهم الصدقة.

ويرِد على القول بأن أزواجه ﷺ قد حرمت عليهن الصدقة بطريق التبع قبل اتصالهن بالنبي ﷺ وينتفي التعارض بين الأقوال الخلافية في المسألة.

إدخال أبناء فاطمة بعصبة النبيّ ﷺ

أما بالنسبة إلى أولاد فاطمة عليها السلام إنما يدخلون في ذرية النبيّ ﷺ وذلك لكونها الوحيدة من بناته التي تركت ذرية [٢٧].

ولهذا قال ﷺ: إن ابني هذا «الحسن» سيد [٢٨]. وفي رواية عن أنس: «سُئل النبيّ ﷺ أيّ أهل بيتك أحبّ إليك؟ فقال: الحسن والحسين. وكان يقول لفاطمة: ادعي لي ابنيَّ، فيشمّهما ويضمّهما إليه» [٢٩].

وفي رواية «هذان ابناي وابنا ابنتي» [٣٠]. كذكر عيسى في ذرية إبراهيم عليه السلام وعيسى لا أب له، وذكَر السيوطي في الخصائص الكبرى: بأن أولاد بناته ﷺ ينسبون إليه وأولاد بنات غيره لا يُنسبون إليهم [٣١].

عن جابر رضي الله عنه قال: [قال رسول الله صلى الله عليه وآله] «لكل بني أمّ عصبة إلا ابنَي فاطمة أنا وليُّهما وعصبتهما» [٣٢]. وفي رواية الطبراني «إلا أولاد فاطمة، فأنا وليهم وعصبتهم» [٣٣] وفي رواية: كلّ بني آدم ينتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وأنا عصبتهم [٣٤].

شرف آل البيت وطيب أصلهم

شرف آل البيت ونسبهم

شرف آل البيت ونسبهم أمر لا يحتاج إلى إقامة دليل، فإنّ بني هاشم نخبة من خيرة قريش، وقريش من أشرف العرب.

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بُعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرنا، حتّى كنت في القرن الذي كنت منه» (٣٥).

وعن العباس قال: «قال النبيّ ﷺ: إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم ومن خير قرنهم، ثمّ تخيَّر القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثمّ تخيَّر البيوت، فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً، وخيرهم بيتاً» (٣٦).

وعن سعيد بن جبير في بيان قوله تعالى ﴿إلَّا المودَّة في القربى﴾ الآية، قال: «إنّ النبيّ ﷺ لم يكن بطن من بطون قريش إلا وله فيه قرابة» (٣٧).

اصطفاء الله لآل البيت(٣٨)

اصطفى الله هذا البيت، وخصَّ أهله بصفاتٍ توارثها ـ بسنَّة إلهية ـ الأبناءُ عن الآباء، فكان أهل بيت النبيّ ﷺ أشرفَ الناس نسَباً ولم يعرِفِ التاريخ نسباً أوضحَ ولا أطيبَ منه. فقريش: أشرف القبائل، وبنو هاشم: أشرف قبائل قريش.

فعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم» (٣٩).

قال ابن تيمية: أفاد الخبر أن جنس العرب أفضل من جنس العجم، وأن قريشاً أفضل العرب وأن بني هاشم أفضل قريش وأن المصطفى ﷺ أفضل بني هاشم، فهو أفضل الناس نفساً ونسباً(٤٠).

آل البيت من أطيب الأصلاب

أشار الله سبحانه وتعالى [لذلك]بقوله: ﴿لقد منَّ اللهُ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفُسهم﴾ (٤١). وفي قراءة: «من أنفَسِهم» أي من أشرف بني هاشم؛ وبنو هاشم من أشرف قريش. ولما كان من أشرفهم كانوا أطوَع له وأقرب إلى تصديقه (٤٢).

وقد قال ﷺ: «جئت من طيّب إلى طيّب إلى صلب عبد الله بنكاح لا سفاح من لدن آدم إلى أن ولَدني أبي وأمي فأنا خيركم نفساً وأباً» (٤٣).

وفي رواية بسند آل البيت (٤٤)، عن علي عليه السلام قال: قال النبيّ ﷺ: «خرجت

من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولَدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهليّة شيء» (٤٥).

ويبين ابن عباس (رضي الله عنهما) عند قوله تعالى: ﴿وتقلّبك في الساجدين﴾ (٤٦). فقال: من نبيّ إلى نبيّ حتّى أُخرجت نبياً، أي أن الله نقله من ساجد إلى ساجد ومن أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات (٤٧).

بقاء نسل آل البيت وقطع عدوّهم

ردّ الحقُ سبحانه وتعالى على الذين غمزوا النبيّ ﷺ بقولهم أبتر (٤٨)، فردَّ الله عليهم ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ (٤٩). أي مبغضك يا محمّد ﷺ وعدوّك هو المنقطع عن الخير على العموم، فيعمّ خير الدنيا والآخرة، فعلّق الحق حكم قطعه لذرية عدوّ النبيّ ﷺ وقطع ذكرهم على بغضهم له (٥٠).

قال ابن تيمية: تحقيق ذلك أنه سبحانه رتّب الانبتار على شنآنه، والاسم المشتقّ المناسب إذا عُلّق به حكم كان ذلك دليلاً على أن المشتقّ منه علّة لذلك الحكم، فيجب أن يكون شنآنه هو الموجب لانبتاره، وذلك أخصّ مما تضمّنه الشنآن من الكفر المحض أو نقض العهد (٥١).

خصائص نسب النبي محمد ﷺ

أما خصائص نسبه ﷺ فباقٍ إلى يوم القيامة، وقد دلّت النصوص الشرعية على أنّ كلّ نسب وسبب ينقطع نفعه وبرُّه يوم القيامة إلا نسبه وسببه وصهره. قال تعالى: ﴿فإذا نُفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ (٥٢)

وعن المسور بن مخرمة، عن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني يغيظني ما يغيظها ويبسطني ما يبسطها، وإنّ الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وسببي وصهري» (٥٣). وفي رواية «من أغضبها أغضبني».

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ما بال رجال يقولون إنّ رحم رسول الله لا ينفع قومه، بلى والله إن رحمي موصولة في

الدنيا وفي الآخرة، وإني أيّها الناس فرط لكم» (٥٤).

قال السيوطي: اختصاصه ﷺ أن كلّ سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه، وأن أمّته ﷺ ينسبون إليه يوم القيامة، وأمم سائر الأنبياء لا ينسبون إليهم (٥٥).

المهدي المنتظر من آل البيت يملأ الأرض عدلاً(٥٦)

تواطأ الخبر عن النبيّ ﷺ بخروج رجل من أهل بيته في آخر الزمان يؤيد الله به الدين، يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً، وتنعم الأمّة في عهده نعمة لم تنعمها قط، تُخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطرها، اسمه محمّد بن عبد الله، من ذرية فاطمة بنت رسول الله، من ولد الحسن بن علي عليهما السلام، وأن عيسى عليه السلام يخرج، فيساعده على قتل الدجال، وأنه يؤمّ هذه الأمّة، ويصلّي عيسى عليه السلام خلفه (٥٧).

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «أبشروا بالمهدي رجل من قريش من عترتي» (٥٨)، وفي رواية: «المهديّ منّا أهل البيت، يصلحه الله في ليلة» (٥٩).

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتّى يلي رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي ... يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

وفي رواية: «لا تنقضي الدنيا حتّى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي» (٦٠).

وعن علي عليه السلام عن النبيّ ﷺ قال: «لو لم يبقَ من الدهر إلا يوم ليبعثنّ الله رجلاً من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً»، وفي رواية «ظلماً وعدواناً» (٦١).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي منّي أجلى الجبهة، أقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، ويملك سبع سنين» (٦٢).

وعن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة» (٦٣).

وعن أنس قال: قال رسول الله: «نحن، ولد عبد المطلب، مادة أهل الجنة، أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي» (٦٤).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم» (٦٥). قال ابن حجر: «وإمامكم منكم». تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمّة، وأن عيسى عليه السلام يصلّي خلفه، وأن الشريعة المحمّدية متّصلة إلى يوم القيامة (٦٦).

ما يجب لآل البيت من حقوق

الصلاة والسلام على آل البيت

قد أمر الحقّ بالصلاة والسلام على النبيّ محمّد ﷺ وعلى آل بيته بثناء عليهم لقوله تعالى: ﴿إنّ الله وملائكته يصلّون على النّبي، يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً﴾ (٦٧).

وقوله تعالى: ﴿سلام على آل ياسين﴾ (٦٨). قال ابن عباس: إن المراد به سلام على آل محمّد ﷺ (٦٩).

قال القرطبي: الصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمّة الدعاء والتعظم لأمره وآل بيته، والسلام على الحقيقة يتضمن السلامة من كلّ نقص وآفة (٧٠).

وعن كعب بن عُجرة قال: قلنا يا رسول الله: قد عرفنا التسليم عليك فكيف نصلي عليك؟ فقال: قولوا: اللهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللهم بارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد (٧١).

ويفهم قول الصحابي (فكيف نصلّي عليك؟) أي في قوله «يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً». فكيف نصلّي عليك، أي على أهل بيتك،

لأن الصلاة عليه قد عرفت مع السلام من الآية... فكان السؤال عن الصلاة على الآل تشريفاً لهم.

وأشار الشافعي بقوله: «من لم يصلّ على النبيّ ﷺ وآل بيته من بعد التشهد الأخير قبل السلام فصلاته فاسدة».

وأن الصلاة على النبيّ ﷺ حقّ له ولآله دون سائر الأمّة، ولهذا تجب عليه وعلى آله: قال الشافعي:

يا أهل بيتِ رسولِ الله حبُّكُمُ فرضٌ من اللهِ في القرآن أنزلَهُ
كفاكمُ من عظيمِ القَدْرِ أنكمُ من لم يصلِّ عليكم لا صلاةَ لهُ

ومن لا يوجبها، فلا ريب أنّه يستحبّها عليه وعلى آله (٧٢).

كيفية الصلاة والسلام على النبيّ ﷺ وعلى آل بيته

عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «من سَرّهُ أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صلّ على محمّد النبيّ وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته من أهل بيته، كما صلّيت على آل ابراهيم إنّك حميد مجيد».

وجه الشبه بين آل محمّد وآل إبراهيم

اشتهر السؤال عن موقع التشبيه، مع أنّ المقرر أن المشبه دون المشبه به، والواقع عكسه لأن محمّداً وحده أفضل من آل إبراهيم ومن إبراهيم ولا سيما قد أضيف إليه آل محمّد، وقضية كونه أن تكون الصلاة المطلوبة أفضل من كلّ صلاة حصلت أو تحصل لغيره.

والقاعدة تقول: أن المشبه به أفضل من المشبه، وأجيب عن ذلك:

أولاً: أن الشبه إنما هو لأصل الصلاة بأصل الصلاة لا للقدر بالقدر.

ثانياً: أن آل إبراهيم منهم الأنبياء، الذين ليس في آل محمّد مثلهم.

ثالثاً: أن النبيّ محمّداً ﷺ وذريته، من آل إبراهيم، بل من أفضل آل إبراهيم، فالصلاة عليهم مكررة لآل البيت مع آل محمّد وآل إبراهيم. والمقصود بآل إبراهيم، هم ذريته من إسماعيل وإسحاق.

رابعاً : أن التشبيه بالنظر إلى ما يحصل لمحمّد وآل محمّد من صلاة كلّ فرد فرد، فحصل من مجموع صلاة المصلّين من أول التعليم إلى آخر الزمان أضعاف ما كان لآل إبراهيم.

خامساً : أن التشبيه غير منظور فيه إلى جانب زيادة أو نقص، وإنما المقصود أن لهذه الصلاة نوع تعظيم وإجلال، كما فعل في حق إبراهيم، وتقرر واشتهر من تعظيمه وتشريفه.

سادساً : قد يكون الغرض من التشبيه لبيان حال المشبه من غير نظر إلى قوّة المشبه به.

سابعاً : قد يكون التشبيه لا يقتضي أن يكون المشبه دون المشبه به على جهة اللزوم كما صرَّح بذلك جماعة من علماء البيان (٧٣).

وكان الحسن البصري يقول: من أراد أن يشرب بالكأس الأوفى. من حوض المصطفى فليقل: «اللهم صلِّ على محمّد وعلى آله وأصحابه وأولاده وأزواجه وذريته وأهل بيته يا أرحم الراحمين» (٧٤).

وفي رواية عن أبي حميد الساعدي : «اللهم صلّ على محمّد وأزواجه وذرّيته، كما صلّيت على آل إبراهيم، وبارك على محمّد وأزواجه وذرّيته، كما باركت على آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد» (٧٥).

والمراد من الصلاة في النصوص الترحّم والدعاء، وإلا لما سألوه عن الصلاة على آل البيت عقب نزولها ولم يجابوا بما ذكر، على أنه ﷺ أقام أهل البيت مقام نفسه برحمة الله عليه وعلى آل بيته وتعظيمه وتكريمه لهم بقوله «اللهم هؤلاء آل محمّد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمّد» (٧٦).

وقال لفاطمة وعلي والحسن والحسين «إنّهم مني وأنا منهم فاجعل صلواتك وبركاتك عليهم» (٧٧).

وكذلك ورد عند قوله تعالى: ﴿ورفعناه لك ذِكرك﴾ (٧٨). أي ذكر محمّد ﷺ في الدنيا والآخرة، وعند ملائكة السماء ومؤمني الأرض. ومتى ذُكر ﷺ يضاف معه آلُ بيته، فما خطبٌ خطيب ولا تشهّد مُتشهِّدٌ إلا وقد ذكر آله معه ﷺ.

وجوب برّ آل البيت ومحبّتهم

فقد ورد ما يوجب محبة واحترام وتوقير وإكرام آل البيت والبر بهم امتثالاً لما جاء في الكتاب والسنّة، قال تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى.

سُئل ﷺ عن هذه الآية؛ مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «علي وفاطمة وتبناهما». والمراد: لا أطالبكم يا قريش على البلاغ مالاً. فإن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة. والقربى هم: آل محمّد من قريش.(٧٩)

قال ابن عباس: «إلا المودة في القربى: أي تحفظوني في أهل بيتي».

قال أبو بكر: «ارقبوا محمّداً في أهل بيته والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله أحبُّ إليّ أن أصل من قرابتي»(٨٠).

ومعنى ارقبوا: أي احفظوه فيهم فلا تؤذوهم ولا تسيئوا إليهم.

وعن ابن عباس: قال رسول الله: «أحبّوا اللهَ لما يغذُوكم من نعمه، وأحبّوني بحبّ الله، وأحبّوا أهل بيتي بحبّي»(٨١).

قال علي بن أبي طالب: «أدِّبوا أولادكم على ثلاث خصال: حبّ نبيكم وحبّ آل بيته وعلى قراءة القرآن»(٨٢).

عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «أُناشدكم الله في أهل بيتي» ثلاثاً قلنا لزيد: مَن أهل بيته؟ قال: «آل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس»(٨٣).

وعن العباس بن عبد المطلب، قال: قلت لرسول الله ﷺ إن قريشاً إذا لقوا بعضهم بعضاً لقوهم ببشْر حسن وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها. قال: فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً وقال: «والّذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله»(٨٤).

وعن الشعبي قال: صلى زيد بن ثابت على جنازة أمّه ثمّ قربت له بغلة ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال له زيد: «خل عنك يا ابن عم رسول الله، فقال: هكذا نفعل بالعلماء، فقبّل زيد يد ابن عباس وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل

بيت نبينا » [٨٥].

ولا ريب أن لآل البيت حقّاً على الأمّة لايشركهم فيه غيرهم ويستحقّون من زيادة المحبة والموالاة ما لا يستحقه سائر بطون قريش من القبائل.

وقد ذكر ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربُّكَ فترضى﴾ ، قال : من رضاء محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار ، فكان أهل البيت يقولون : إنّ أرجى آية في كتاب الله : «ولسوف يعطيك ربّك فترضى» [٨٦].

عن ابن مسعود قال: قال ﷺ : «إنّا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا » [٨٧].

حياء عمر بن عبد العزيز والإمام مالك من أهل البيت

عن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: «أتيت عمر بن عبد العزيز في حاجة.. فقال لي: «إذا كان لك حاجة فارسل إليّ أو اكتب فإني أستحي من الله أن يراك على بابي» [٨٨].

وروي عن الإمام مالك لما ضربه جعفر بن سليمان ونال منه ما نال وحُمل مغشياً عليه ، دخل عليه الناس فأفاق فقال: أُشهدكم الله أن جعلت ضاربي في حل... فسُئل بعد ذلك فقال : خفت أن أموت فألقى النبيّ ﷺ فأستحي منه أن يدخل بعض آلهِ النار بسببي، وفي رواية: وقد جعلته في حل لقرابته من رسول الله [٨٩].

حرمة آل البيت ووجوب الكفّ عن أذاهم

نهى الله عن إيذاء آل البيت وأوجب احترامهم وتوقيرهم ونصّ التحريم بقوله: ﴿ولئن سألتهم ليقولون إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ [٩٠]. قال أهل العلم: لا يخلو أن يكون ما قالوه جدّاً أو هزلاً، وعلى أي حال فهو كفر ، فإن الهزل بالكفر كفر. فلا يجوز الافتراء والكذب والاستهزاء والاستهتار بآل البيت لأنه سوء أدبٍ معهم حيث إنّ الله طهّرهم من الرجس لقوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. فحرمة آل البيت حرمة رسول الله ﷺ ومحبتهم محبة رسول الله والأدب معهم أدب مع

رسول الله ﷺ.

عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ وفاطمة والحسن والحسين: «أنا سلم لمن سالمتم وحرب لمن حاربتم»(٩١).

عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال ﷺ في عليّ: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»(٩٢).

وعن المسور بن مخرمة قال: قال ﷺ: «إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها»(٩٣). وفي رواية «فإنّما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها»(٩٤).

تحريم نكاح أزواجه ﷺ من بعده وحرمتهن

قال تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾(٩٥). أي زوجاته الطاهرات أمهات المؤمنين في وجوب تعظيمهن واحترامهن وحرمتهن كحرمة الأم؛ ويدلّ له قوله تعالى: ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب﴾(٩٦). ولا يسأل أحد أمه من وراء الحجاب. وقال تعالى: ﴿إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم﴾(٩٧).

ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن فتكون بنات أزواج النبيّ ﷺ أخوات المؤمتين. وما قاله الشافعي، من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم، فلا يحل لأحد أن يتزوج بواحدة من أزواج النبيّ ﷺ كما لا يحل أن يتزوج الرجل أمه، فهذه الأمومة مختصة بتحريم النكاح لهن وبالتعظيم لجنابهن؛ لقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إنّ ذلكم كان عند الله عظيماً﴾(٩٨).

لأن ذلك يؤذيه ﷺ، وجعله الحقّ عظيماً وتعظيماً لحرمته(٩٩). وأما تحريم نكاح زوجاته ﷺ اللائي توفي عنهن فإجماعاً، وذلك لأنهن أزواجه في الجنة، فإن المرأة في الجنة لآخر أزواجها في الدنيا، فلذلك حَرُم على أزواج النبيّ ﷺ أن يتزوجن من بعده(١٠٠).

قال ابن تيمية: من أصول أهل السنّة والجماعة، أنهم يحبون أهل بيت رسول الله ويتولّونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله «أُذكّركم الله في أهل بيتي».

الاقتداء والاهتداء بآل البيت

قد أمر ﷺ بالتمسك بآل البيت؛ وقرن التسمك والهداية بهم، بالتمسك والهداية بكتاب الله، وأن التمسك بهما منقذ من الضلال؛ وأنهما لن يفترقا إلى يوم القيامة.

وقد ورد عن جعفر الصادق عند تفسير قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ [١٠١]. قال: نحن آل البيت حبل الله.

فعن أبي سعيد الخدري وزيد بن الأرقم قالا: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما» [١٠٢].

وعن جابر قال: سمعت رسول الله يوم عرفة يقول: «يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا به. كتاب الله وعترتي أهل بيتي» [١٠٣].

وعن زيد بن الأرقم أن رسول الله قال: «إني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله عزّ وجل، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به، فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه، قال: وأهل بيتي أُذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي» [١٠٤]. وفي رواية «إنّي تارك فيكم خليفتين» [١٠٥].

حجية إجماع آل البيت

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قد تنازع العلماء في إجماع الخلفاء وفي إجماع العترة، هل هو حجّة يجب اتّباعها؟ والصحيح: إنّ كلاهما حجة، فإن النبيّ ﷺ قال: عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي، تمسّكوا بهما وعضّوا عليها بالنواجذ»، وحديث «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» [١٠٦]. وهذه الأدلة تدلّ على تفخيم أمرهم، وتصويب رأيهم والشهادة لهم بالتفوق فيما يمتازون به عن غيرهم من الإصابة في العلم وحسن السيرة والاستقامة، ووصفهم بالراشدين، وهم الذين أوتوا رشدهم في مقاصدهم الصحيحة وهُدوا إلى الأقوم والأصلح في أقوالهم وأفعالهم، لا سيما

أن طريقتهم كانت على منهاج النبوّة.

وأما عترته ﷺ: فعترة الرجل أهل بيته ورهطه الأدنون بينهما. يقول: «أهل بيتي» وأراد بنسله وعصابته وأزواجه بالمعنى الشامل لهذه الكلمة، وهم أعلم بحاله وأعرف بأحواله، والمقصود إجماع علماء أهل بيته المتمسكين بهديه ﷺ.

قال ابن الأثير، في باب الثاء مع القاف عند كلمة الثقل: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي» سمّاهما ثقلين، لأن الأخذ بهما «يعني الكتاب والسنّة» والعمل بهما ثقيل، ويقال لكل خطير نفيس: ثقل، فسماهما «ثقلين» إعظاماً وتفخيماً لشأنهما (١٠٧).

وخلاصة الأمر أن أهل البيت في مقابل القرآن كذكر قوله عليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي.

ولاية آل البيت ووجوب طاعتهم واتباعهم

قال تعالى: ﴿النبي أَولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجُه أمهاتهم﴾ (١٠٨). أي هو أحقّ بهم من أنفسهم وأرأف بهم وأعطف عليهم في كلّ شيء من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ، وطاعته أوجب «وأزواجه أمهاتهم» أي زوجاته الطاهرات أمهات المؤمنين في وجوب تعظيمهن واحترامهن (١٠٩).

وعن بريدة قال: غزوت مع عليّ إلى اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله ذكرت علياً فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله تغيّر وقال: «يا بريدة ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» (١١٠).

وقد ثبت في الحديث قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين» (١١١).

فطاعته ﷺ من طاعة الله تعالى لقوله: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» (١١٢). فدلّت الآية على وجوب طاعة الله ورسوله وولاة الأمر من أهل العلم والبيت الذين أمر الله بطاعتهم.

وعن جعفر الصادق عليه السلام: الأئمة منّا أهل البيت (١١٣). قال ثابت البناني: عند

تفسير قوله تعالى: «وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى»[١١٤]. أي اهتدى واستقام ولزم ولاية آل البيت.

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديه أحد إلا كبّه الله على وجهه»[١١٥].

وفي رواية: الناس تبع لقريش[١١٦].

بعض الأحكام المتعلقة بآل البيت

حرمة الصدقة على آل البيت

كرَّم الله بيت النبوّة بتحريم الصدقات عليهم، وأحلّ لهم الهدايا لأنهم طاهرون مُطَهَّرون لا يلوِّثهم رجس ولا ينالهم دنَس.

عن أنس قال: مرّ النبيّ ﷺ بتمرة في الطريق، فقال: «لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها»[١١٧].

وعنه أيضاً قال: أخذ الحسن بن علي تمرة من الصدقة فجعلها في فيه، فقال رسول الله «كخٍ كخٍ»[١١٨]. أما علمت أن لا نأكل الصدقة؟ وفي رواية مسلم: أنّا لا تحلّ لنا الصدقة.

وعن عبد المطلب بن ربيعة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الصدقة لا تنبغي لآل محمّد، إنما هي أوساخ الناس»[١١٩].

فدلّت النصوص هنا على تحريم الصدقة على النبيّ ﷺ وآل بيته، ولا فرق بين أن يكون المزكي هاشمياً أو غيره.

والمراد بالآل هنا: قال الشافعي وجماعة من العلماء: أنهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وقد أشرك النبيّ ﷺ بني هاشم في سهم ذوي القربى.

وقال ابن حجر: والمراد ببني هاشم: آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس وآل الحارث وقوله: «لا تحلّ لنا الصدقة» أي أنها تحرم على النبيّ وآل بيته ولو كان طفلاً صغيراً سواء كانت صدقة الفرد أو التطوّع[١٢٠].

وكذلك موالي آل البيت أي من أعتقهم هاشمي، لا يُعطَون من الزكاة، ورأي

أكثر العلماء: يجوز لهم لأنهم لم يُعوَّضوا عنها بخمس الخمس.

وفي سنن أبي داود قوله ﷺ: «لا تحلّ لنا الصدقة وإن مولى القوم منهم»(١٢١)، ولأنهم ممن يرثهم بنو هاشم.

ومن قال: أنهم ليسوا بقرابة رسول الله فلا يمتنع ثبوت حكم تحريم الصدقة فيهم. وهم بمنزلة القرابة بدليل قوله ﷺ: «الولاء لحمة كلحمة النسب» وثبت فيهم حكم القرابة من الإرث والعقل والنفقة(١٢٢).

قال الشوكاني: «مولى القوم منهم أي حكمه كحكمهم، وبه قال أبو حنيفة والشافعي». وقال أهل العلم: بينهما صلة ورابطة بين المعتق والعتيق يحلّ بها إرث الأوّل من الثاني، بسبب نعمته عليه بالعتق الذي هو فكّ رقبة من أسر الرق إلى الحرية(١٢٣).

مناقشه هذه الآراء

«إنّ مولى القوم منهم» يعني لا تحلّ لهم الصدقة لأنهم من موالي بني هاشم وعتقائهم. والقول على سبيل التشبيه في الاقتداء بهم وبسيرتهم في اجتناب أموال الصدقة. والنهي للتنزيه وليس للتحريم؛ لأنهم لا يعطَون من سهم ذوي القربى؛ ولعله كان ﷺ يكفيهم ذلك، فتحريم الصدقة على أزواج النبيّ ﷺ ليس بطريق الأصالة كبني هاشم، وإنما هو تبع لتحريمها على النبيّ، وإلا فالصدقة عليهم حلال قبل اتصالهن به، فهي فرع من هذا التحريم، كالتحريم على المولى فرع التحريم على سيده. ولما كان التحريم على بني هاشم أصلاً استتبع الأزواج والموالي.

الحكمة من هذا التحريم

ورد عن عبد المطلب بن ربيعة(١٢٤) قال: قال رسول الله ﷺ «إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس وإنها لا تحلّ لمحمّد ولا لآل محمّد»(١٢٥).

فالحكمة من تحريمها على آل البيت لكرامتهم وتنزيههم عن الأوساخ والأدران. ومعنى أوساخ الناس كما قال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها﴾(١٢٦). وهذه طهارة من الله للنبي وآل بيته للمكانة اللائقة، ليُذهب عنهم

الرجس ويطهّرهم تطهيراً، فتكون أيديهم هي العليا يَعطُون ويتصدَّقون ولا يأخذون، ولا يليق بهم أن يأكلوا منها لأنها ملوَّثة بذنوب الناس، والآخذ فيه انكسار وذلّ، وهذا خلاف للعز والشرف والكرم.

قبول الهدية وعدم قبول الصدقة

عن عائشة قالت: كان رسول الله يقبل الهدية ويثيب عليها (١٢٧). والهدية نوع من الكرم وحسن الخُلق تتألف بها القلوب لقوله «تهادوا تحابّوا»، وهذا ما أشارت إليه الكتب السماوية المتقدّمة بأنّ النبيّ محمّداً ﷺ يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة، وهذا صيانة وحفاظاً من الله لنبيه وآل بيته من أوساخ الناس (١٢٨).

وعن أبي هريرة قال: إن النبيّ ﷺ كان إذا أتي بطعام سأل عنه، فإن قيل هدية أكل منه، وإن قيل صدقة لم يأكل منها (١٢٩).

قال ابن عباس: أراد عمر أن ينكح منه أيِّمَنا ويُهدي منه عائلنا ويقضي منه غارِمَنا فأبينا إلّا أن يسلمه لنا (١٣٠).

ومراد عمر أن يزوّج من الخمس من لا زوج له من الرجال والنساء ويعطي الفقير والمديون.

وعن زين العابدين علي بن الحسين أنه قال: إن الخمس لنا أهل البيت. فقيل له: واليتامى والمساكين وابن السبيل. فقال: يتامانا ومساكينا وأبناء سبيلنا (١٣١).

ويشترك في سهم القرابة الغني والفقير والنساء من آل البيت لإطلاق الآية ﴿ولذي القربى﴾، وأعطى ﷺ منه العباس من أغنياء قريش.

وبالاتفاق بين أهل العلم أن المراد بالقربى هم: أهل البيت وأن لهم سهماً من الغنيمة سواء حضر النبيّ ﷺ القتال أو لم يحضر، فله الخمس وإلى آل بيته من بعده.

فرض الخمس من الغنيمة لآل البيت (١٣٢)

مرّ معنا أنّ آل البيت لا تحلّ لهم الصدقة ولا يأكلونها، لأنها تعطى على سبيل الترحّم المبنيّ على ذلّ الآخذ، فأبدلهم الله بالغنيمةِ المأخوذةِ بطريق العزّ والشرف

المبنيّ على عزّ الآخذ وذلّ المأخوذ منه، وقد خصّ اللهُ أهل بيت النبيّ ﷺ بسهم ذي القربى في الغنيمة لقوله تعالى: ﴿واعلموا أنّما غنمتم من شيءٍ فأنّ الله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السّبيل﴾ (١٣٣).

قال مجاهد: كان آل محمّد ﷺ لا تحلّ لهم الصدقة ولا يأكلونها، فجعل الله لهم خمس الخمس من الغنائم، فسهم ذوي القربى كان لقرابة رسول الله من بني هاشم وبني المطلب (١٣٤).

وعن جبير بن مطعم قال: لما قسم رسول الله ﷺ سهم ذي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب مشيت أنا وعثمان إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله به منهم، أرأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا، وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة. فقال: إنهم لم يفارقونا في جاهليّة ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد. ثمّ شبك رسول الله ﷺ يديه إحداهما بالأخرى (١٣٥).

وسُئل ابن عباس عن سهم ذي القربى: لمن تراه؟ قال: هو لنا لقربى رسول الله ﷺ قسّمه رسولُ الله لهم، وفي سواه هو لنا أهل البيت (١٣٦).

صور من تضحيات آل البيت وإقدامهم

كرّم اللهُ آلَ البيت وطهّرهم من الرجس والأهواء والمطامع، وهم على مرّ العصور أكثر الناس إقداماً وتضحيات، يبذلون أرواحهم وأموالهم رخيصة في سبيل الله، فقد اصطفاهم الله لحماية دينه ونشر هدايته، وكذلك ارتضاهم محلاً لبلائه ليضرب بهم للناس أروع المثل في التضحية والفداء، وكان تاريخهم مليئاً بالمواقف والمشاهد والبطولات التي تدلّ على قدرهم ومكانتهم، فاصطفى الله منهم الشهداء ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتّخذ منكم شهداء﴾ (١٣٧).

أول سفير وخطيب للإسلام خارج الجزيرة العربية من آل البيت

لما رأى رسول الله ﷺ حال أصحابه وما يصيبهم من البلاء، وأنه لم يقدر على منعهم وحمايتهم، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكاً، لا

يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتّى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه »(١٣٨).
فخرجت عند ذلك جماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة، وكان ذلك في السنة الخامسة من البعثة، فكانت الهجرة إلى الحبشة أول هجرة في الإسلام.

وعن عبدالله بن مسعود قال: بعثنا رسول الله إلى النجاشي ونحن ثمانون رجلاً ومعنا جعفر بن أبي طالب. وكما كان جعفر أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، كان أحد المهاجرين الأولين إلى الحبشة، وبعث النبيّ ﷺ كتاباً معه إلى النجاشي يدعوه فيه إلى الإسلام.

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله، قد آمنوا وأطمأنوا بأرض الحبشة، بعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بهدايا إلى النجاشي وبطارقته. فلما قدما على النجاشي، وكلّماه فقالا: إنه لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سُفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم، لتردّهم إليهم.

فقال النجاشي: لا يُكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتّى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كان على غير ذلك منعتهم منهما.

فأرسل إلى أصحاب رسول الله فدعاهم، وكان أمير المؤمنين على المهاجرين إلى أرض الحبشة جعفر بن أبي طالب، فسألهم النجاشي، وقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟

فقال جعفر لأصحابه: أنا خطيبكم اليوم، فقال: أيها الملك كنا أهل الجاهليّة، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف، فكنّا على ذلك حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسَبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله وحده. أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، ونهانا عن الفواحش؛ فصدّقناه وآمنا به واتّبعناه؛ فعدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا عنه، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك. فسأله النجاشي أن يتلو عليه شيئاً من القرآن، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم.

فبكى النجاشي. وقال: إن هذا والذي جاء به عيسى بن مريم ليخرج من مشكاة واحدة [١٣٩].

وهكذا أدى جعفر سفيراً وخطيباً واجبه في الدفاع عن المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة، بعد أن شرح تعاليم الإسلام للنجاشي.

المبارزة والتضحية من آل البيت يوم بدر

لقد لفت القرآن الكريم والسنة النبوية أنظار المؤمنين إلى حقيقة تضحيات آل البيت، وقد زخرت كتب السيرة النبوية بمآثرهم، وبما قدموه في ميادين الجهاد من التضحيات؛ ومنها المبارزة يوم بدر؛ قال تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ [١٤٠].

والخصمان: هما فريق المؤمنين وفريق الكافرين الذين برزوا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان يوم بدر الكبرى، فمن المؤمنين عبيدة بن الحارث بن المطلب، وحمزة وعلي عليه السلام ومن الكافرين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة [١٤١].

وكان أبوذر يقسم أن هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين في شأن ربهم [١٤٢]. فقد حرّض صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين على القتال، يوم بدر الذي بدأ بالمبارزة، فقد خرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد، فلما توسطوا بين الصفين، طلبوا المبارزة فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار قالوا: أكفاء كرام، ولكن أخرجوا إلينا من بني عمنا. قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قم يا عبيدة بن الحارث بن المطلب وقم يا حمزة بن المطلب وقم يا علي بن أبي طالب.

فبارز عبيدة عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد، فأما حمزة وعلي فلم يمهلا خصيمهما أن قتلاهما، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه، وكرّ حمزة وعلي بسيفيهما على عتبة فأجهزا عليه واحتملا عبيدة، وهو جريح، ومات شهيداً [١٤٣]. فقد ضحى عليه السلام بأعزّ الناس عليه من أبناء عمومته وآل بيته الكرام.

اختيار رجل من آل البيت لحمل الراية يوم خيبر «علي بن أبي طالب»

عن سهل بن سعد أنّ الرسول ﷺ قال يوم خيبر لأُعطِيَنَّ هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبّهُ اللهُ ورسولُه، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها فقال: أين علي بن أبي طالب؟... فأعطاه الراية. فقال علي يا رسول الله، أقاتلهم حتّى يكونوا مثلنا؟ فقال: «أنفذ على رسلك حتّى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام» (١٤٤).

وقد أظهر عليه السلام يومه من بطولات خارقة حتّى فتح الله على يديه خيبر، وهذه أحد مناقب علي؛ وذلك أن له مواقف عديدة تدلّ على شجاعته وإقدامه؛ منها: حمله يوم بدرٍ لواء رسول الله ومبارزته الوليد بن عتبة، وثباته مع رسول الله يوم أُحد ويوم حُنين وما كان من غزوة تبوك حيث خلّفه عليه السلام بالمدينة على أهله.

إرسال النبيّ رجلاً من أهل بيته لتبليغ سورة براءة على أهل مكة

أرسل النبيّ ﷺ أبا بكر بسورة براءة إلى أهل مكة يوم الحج، حتّى إذا كان ببعض الطريق أرسل علياً عليه السلام فأخذها منه، ثمّ سار بها، فوجد أبوبكر في نفسه شيئاً من الحرج، فقال رسول الله ﷺ: لا يؤدّي عنّي إلا أنا أو رجل منّي.

وفي رواية، قال أبوبكر لرسول الله: أَنزَل فيَّ شيء؟ قال: لا، إلا أني أُمرت أن أُبلغه أنا أو رجل من أهل بيتي، فقرأها علي عليه السلام على الناس يوم التروية (١٤٥).

وعن أبي هريرة قال: كنت مع علي حين بعثه رسول الله إلى أهل مكة ببراءة، فكنا ننادي ألّا يدخل الجنة إلا مؤمن ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد، فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحجّ هذا البيت بعد العام مشرك (١٤٦).

حمل رجل من آل البيت الراية يوم مؤتة «جعفر بن أبي طالب»

ويوم مؤتة أخذ جعفر بن أبي طالب الراية بعد زيد بن حارثة، فقاتل حتّى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها. فكانت أول فرس عقرت في

الإسلام، ثمّ قاتل القوم حتّى قُتل وهو يقول:

يا حبذا الجنّةُ واقترابها ... طيّبةً وبارداً شرابُها

والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابُها

عليّ إن لاقيتها ضرابها

فقد أخذ جعفر اللواء بيمينه فقطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله فقطعت شماله، فاحتضن الراية بعضديه حتّى قتل، وقاد جعفر ﵇ سرية مؤتة في موقف حرج عصيب، فاستقبل الرماح والسيوف مقبلاً غير مدبر، يتقدّم باللواء إلى الأمام، حتّى سقط شهيداً في أرض المعركة دون أن يسقط لواء النبيّ ﷺ الذي رفعه بأسنانه بعد أن قطعت يداه (١٤٧). وقد أبدله الله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة، ولذلك لقّب بجعفر الطيار وذي الجناحين.

ثبوت أبناء هاشم يوم حُنين

خرج ﷺ إلى هوازن بعد أن تمّ فتح مكة باثني عشر ألفاً من المهاجرين والأنصار، فقال بعضهم لبعض: لا نُغلب اليوم من قلة، وقد كمنت لهم هوازن في وادي حُنين، فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد، فولّى المسلمون الأدبار منهزمين.

قال تعالى: ﴿ويوم حُنَين إذ أعجبتْكم كثرتُكم فلم تغْنِ عنكم شيئاً وضاقتْ عليكم الأرضُ بما رحُبَت ثمّ ولَّيتُم مدبِرين﴾ (١٤٨). وثبت رسول الله في موقفه لم يتزحزح عنه وهو يقول: «أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب» ولم يبقَ معه إلا نفر قليل غالبيّتهم من بني هاشم: علي، وأبو سفيان بن الحارث، والعباس بن عبدالمطلب، ثمّ أمر ﷺ العباس أن ينادي باسمه: أنا النبيّ لا كذِب، أنا ابن عبد المطلب. وبعد نداء العباس عجّل في الرجوع جعفر بن أبي سفيان بن عبد المطلب، وقثم بن العباس، وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب، وعبدالله بن جعفر بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب وغيرهم من المهاجرين والأنصار، وأشرف رسول الله فنظر إلى قوم «هوازن» وهم يجتلدون، فقال: «الآن حمِي الوطيس وجاء نصرُ الله» (١٤٩). قال تعالى: ﴿لقد نصرَكُم اللهُ في مواطِنَ

كثيرة﴾[150].

شهادة سيد شباب أهل الجنة «الحسين بن علي»

وقد ذكر المؤرخون أن أهل العراق أرسلوا إلى الحسين بن علي عليه السلام وهو بالحجاز: أن يقدم عليهم للبيعة، وقالوا: إنه قد أميتت السنّة واحييت البدعة.

وما كلّ ذي لب يؤتيك نصحه   وما كلّ مؤت نصحه بلبيب

وأشار عليه عبدالله بن عباس وعبد الله بن عمر واتفقت كلمتهم بالنصح له بعدم الذهاب إليهم، فأصرّ عليه السلام على الذهاب، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إليهم، فبايعه أهلها اثنا عشر ألف رجل، فكتب بالخبر إلى الحسين، للقدوم إليه، ثمّ قدم عبيد الله بن زياد الكوفة، فنكثوا البيعة وقاموا مع ابن زياد، وقُتل مسلم بن عقيل، فبلغ الحسين ذلك فأراد الرجوع، أو يلحق بعض الثغور، فامتنعوا من إجابته إلى ذلك ظلماً وعدواناً، وكان من أشدّهم تحريضاً عليه شمر بن ذي الجوشن. فقُتل عليه السلام وأكرمه الله بالشهادة، ووجد بالحسين يوم قُتل ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة.

شهداء آل البيت يوم كربلاء

وقد قُتل مع الحسين عليه السلام بكربلاء سبعة وثمانون من آل البيت، ومنهم ابنه علي بن الحسين الأكبر وكان يقول:

أنا عليّ بن الحسين بن عليّ   نحن وبيت الله أولى بالنّبيّ

تالله لا يحكم فينا ابن الدعيّ

وقُتل من ولد أخيه الحسن بن علي: عبد الله بن الحسن، والقاسم وأبوبكر، ومن إخوته العباس بن علي، وعبد الله بن علي، وجعفر بن علي، وعثمان بن علي، ومحمّد بن علي.

ومن ولد جعفر بن أبي طالب: محمّد بن عبد الله بن جعفر، وعون بن عبد الله بن جعفر.

ومن ولد عقيل بن أبي طالب: عبد الله بن عقيل، وعبد الله بن مسلم بن عقيل،

وجميع هؤلاء شهداء كربلاء من آل البيت (١٥١).

﴿أولئك علَيهم صلَواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك همُ المهتدون﴾.

تقديم النبيّ ﷺ آل بيته للمباهلة

أقام القرآن الحجة على الذين قالوا بألوهية المسيح بقوله: ﴿فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالَوا ندْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة اللهِ علَى الكاذبين﴾ (١٥٢). الخطاب هنا للنبي ﷺ ـ والمراد أمّته من بعده لأنه لم يكن شاكّاً في أمر عيسى عليه السلام ـ فمن جادلك في شأن عيسى عليه السلام بعد معرفة الحق واليقين فادعهم إلى المباهلة أي الملاعنة، فطلب ﷺ فيمن جادله في أمر عيسى عليه السلام للمباهلة أن يدعو كلّ طرف منّا أبناءه ونساءه ثمّ نبتهل إلى الله، فدعا ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي.

فالمراد من الآية أبناءنا: الحسن والحسين، ونساءنا: فاطمة، وأنفسنا النبي ﷺ وعلي، فقد ضمّ ﷺ هؤلاء للمباهلة لثقته بحاله واستيقانه بصدقه، حيث استجرأ على تعريض أعزّته وأفلاذ كبده، وأحبِّ الناس إليه لذلك، فخصّ ﷺ الأبناء والنساء لأنهم أعزّ الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه، وقدّمهم في الذكر على الأنفس لينبّه على منزلتهم وفضلهم (١٥٣).

كرم آل البيت وتحّملهم آلام الجوع والشدائد

نزل قوله تعالى: ﴿ويُطعمونَ الطَّعامَ على حُبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ (١٥٤). في حق آل البيت وهم يطعمون الطعام مع حبهم له وحاجتهم إليه، للمسكين واليتيم والأسير.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في حقِّ عليٍّ وفاطمة8 عندما وقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم آل بيت محمّد، مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله، فآثروه على أنفسهم وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء، وأصبحوا صائمين (١٥٥).

وقد ورد أيضاً أنّ جعفر بن أبي طالب كان خير الناس للمساكين يطعمهم ما

كان في بيته [١٥٦].

وورد أيضاً أنه كان يمرّ بآل محمّد هلال ثمّ هلال لا يوقد في بيوتهم نار، وكانوا يعيشون على التمر والماء، وما شبع محمّد ﷺ وآل بيته من خبز بُرّ ولا شعير ثلاثة أيام متتابعة، فقد ناولت فاطمة بنت محمّد ﷺ يوماً إلى النبيّ كسرة من الخبز، فقال: لها «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام» [١٥٧].

وعن أم سليم عليها السلام قال لها رسول الله ﷺ «اصبري، فوالله ما في آل محمّد شيء من الطعام منذ سبع أيام، والله لو سألت الله أن يجعل جبال تهامة كلها ذهباً لفعل» [١٥٨].

الهوامش

١ ـ الفيروز ابادي ، القاموس المحيط ، ٣: ٣٣١.

٢ ـ الراغب الأصبهاني ، المفردات ، « ٢٩ » والآية في سورة الأحزاب : ٣٣.

٣ ـ ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ، ٣: ١٧٧.

٤ ـ البخاري ، المناقب ، مناقب قريش ، ح ٢. ٣٥ / ٤: ١٥٥.

٥ ـ أبو داود ، السنن ، الصلاة ، باب الصلاة على النبيّ بعد التشهد ، ح ٩٨٢، ١: ٦٠١.

٦ ـ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ١٤: ١٨٣؛ والشوكاني ، فتح القدير ، ٤: ٢٨٠.

٧ ـ الأحزاب : ٣٤.

٨ ـ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ١٤: ١٨٤؛ وابن العربي ، أحكام القرآن، ٣: ١٥٣٨.

٩ ـ الأحزاب : ٢٨ ـ ٣٤.

١٠ ـ الشنقيطي ، أضواء البيان، ٦: ٥٧٧.

١١ ـ المصدر نفسه.

١٢ ـ هود : ٧٣.

١٣ ـ الطبري : تفسير جامع البيان ، ١٠: ٢٥٩؛ والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ٤: ١٨٥؛ وابن العربي ، أحكام القرآن ، ٣: ١٥٣٩؛ والشوكاني ، فتح القدير ، ٤: ٢٨١.

١٤ ـ المصادر السابقة نفسها.

١٥ ـ الترمذي ، المناقب: ٥: ٣٦١.

١٦ ـ المصدر السابق ، سورة الأحزاب ، ح ٣٢٥٩، ٥: ٣١؛ وأحمد : المسند ، ١: ٣٣١، ٣: ٢٥٨.

١٧ ـ الطبري: تفسير جامع البيان ١٠: ٢٩٦.

١٨ ـ القرطبي ٤: ١٨٤.

١٩ ـ المصدر السابق؛ والشوكاني ، فتح القدير ، ٤: ٢٨٠؛ والشنقيطي ، أضواء البيان ٦: ٥٧٨.

٢٠ ـ المصدر السابق.

٢١ ـ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٤.

٢٢ ـ مسلم ، فضائل الصحابة ، باب فضل علي ١٥: ١٨١.

٢٣ ـ المصدر السابق.

٢٤ ـ الشورى: ٢٣.

٢٥ ـ البخاري، المناقب، ح ٣٤٧٩/ج ٤: ١٥٤.

٢٦ ـ ابن حجر، فتح الباري ٧: ٩٨.

٢٧ ـ ابن القيم، زاد المعاد ١: ٢٥.

٢٨ ـ البخاري، فضائل الصحابة، مناقب الحسن والحسين ح ٣٧٤٦، ٤: ٢١٧؛ وأبو داود، السنة، باب ما يدلّ على ترك الكلام في الفتنة، ح ٤٦٦٢، ٥: ٤٨.

٢٩ ـ الترمذي، المناقب، مناقب الحسن والحسين، ح ٣٨٦١، ٥، ٣٢٣.

٣٠ ـ المصدر السابق، ح ٣٨٥٩.

٣١ ـ السيوطي، الخصائص الكبرى ٢: ٢٥٥، دار الكتاب العربي.

٣٢ ـ الطبراني، المعجم الكبير، ٣: ٣٦، ٥٦.

٣٣ ـ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩: ١٧٢.

٣٤ ـ المصدر السابق.

٣٥ ـ البخاري، المناقب، صفة النبيّ ﷺ، ح ٣٥٥٧، ٤: ١٦٦.

٣٦ ـ أحمد، المسند، ٤: ٢٢٠؛ والبيهقي، دلائل النبوّة، ١: ١٦٩.

٣٧ ـ ابن حجر، فتح الباري، ٦: ٦١٤.

٣٨ ـ الاصطفاء: الخيرة في هذه القبائل باعتبار الخصائص الحميدة فيهم.

٣٩ ـ مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، الفضائل، فضل نسب النبيّ ١٥: ٣٦، والسمعاني، الأنساب ج ١: ٢٧.

٤٠ ـ ابن تيمية، مجموع الفتاوي، ٢٧: ٤٧٢.

٤١ ـ آل عمران: ١٦٤.

٤٢ ـ الشوكاني، فتح القدير، ١: ٣٩٣.

٤٣ ـ انظر أبو نعيم، دلائل النبوّة ١: ٥٧؛ والسيوطي: الخصائص الكبرى، ١: ٣٧.

٤٤ ـ عن محمّد بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين قال: أشهد عن أبي حدثني عن أبيه عن جده علي ابن أبي طالب.

٤٥ ـ المصدر السابق.

٤٦ ـ الشعراء: ٢١٩.

٤٧ ـ البيهقي، دلائل النبوّة، ١: ١٧٠؛ وأبو نعيم، دلائل النبوّة، ١: ٥٨.

٤٨ ـ الأبتر: من لا ولد له. فلان أبتر إذا لم يكن له عقب يخلفه من الذكور، فعاب المشركون على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أمره ودعوته وقالوا سينقطع أمره بموته لعدم وجود الذكر من أبنائه ثمّ ينقطع ذكره بفقدان نسله، انظر: الراغب الإصبهاني، المفردات، ٣٦.

٤٩ ـ الكوثر: ٣.

٥٠ ـ الشوكاني، فتح القدير، ٥: ٥٠٣.

٥١ ـ ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، ٤٥٧.

٥٢ ـ المؤمنون: ٢٣.

٥٣ ـ أحمد: المسند، ٣ ٣٢٣؛ البيهقي: السنن الكبرى، ٧: ٦٤، وطرف هذا الحديث في البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله، ٧: ٩٧.

٥٤ ـ المصدر السابق.

٥٥ ـ أحمد، المسند ٣: ١٨؛ ٦٢، والحاكم المستدرك، ٤: ٧٤.

٥٦ ـ السيوطي: الخصائص الكبرى، ٢: ٢٢٥.

٥٧ ـ اعتقد الكثير من الناس أن الروايات في المهدي ضعيفة أو موضوعة من قبل الشيعة، والحقيقة أنه قد تواترت الأخبار عن المهدي عند المحدثين.

٥٨ ـ ابن كثير، النهاية، الفتن والملاحم، ١: ٢٩. والعباد: عقيدة أهل السنّة. والأثر في المهدي المنتظر، ١٧١.

٥٩ ـ أحمد: المسند، ٣: ٣٧، ٥٢.

٦٠ ـ المصدر السابق، ١: ٨٤؛ وابن ماجة، الفتن، خروج المهدي، ٢: ١٣٦٧.

٦١ ـ أبو داود: المهدي، ح ٣٨٢٤ / ج ٤: ٤٧٣؛ والترمذي، الفتن، ح ٢٢٣١، ج ٤: ٤٧٣، وقال: حسن صحيح؛ وأحمد: المسند، ١: ٣٧٦.

٦٢ ـ أبو داود: المهدي، ح ٤٢٨٣، ج ٤: ٤٧٤.

٦٣ ـ المصدر السابق: ح ٤٢٨٥.

٦٤ ـ أحمد: المسند، ١: ٨٤.

٦٥ ـ أبو داود: المهدي، ح ٤٢٨٤، ٤: ٤٧٤؛ وابن ماجة. الفتن بخروج المهدي / ٤٠٨٦، ٢: ١٣٦٨.

٦٦ ـ البخاري مع فتح الباري: أحاديث الأنبياء، ونزول عيسى عليه السلام، ح ٣٤٤٩، ج ٦: ٥٦٦.

٦٧ ـ المصدر السابق، ٥٧٠.

٦٨ ـ الأحزاب: ٥٦.

٦٩ ـ الصافات: ١٣٠.

٧٠ ـ الشوكاني: فتح القدير، ٤: ٤١٠؛ وابن كثير، ١٤: ٢٠١؛ والهيثمي: مجمع الزوائد، ١٣: ٢٣١.

٧١ ـ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٤: ٢٣٢.

٧٢ ـ البخاري: الدعوات، باب الصلاة على النبيّ، ح ٦٣٥٧ / ج ٧: ١٥٦؛ ومسلم: الصلاة، ٤: ١٢٥.

٧٣ ـ الشافعي: الأم، ١: ١١٧، دار المعرفة؛ وقاضي عياض: الشفاء، ٢: ١٤٤. انظر تفصيل هذا الموضوع في نيل الأوطار للشوكاني، ٢: ١٢٣.

٧٤ ـ انظر ابن حجر، فتح الباري، ١١: ١٦٥؛ والشوكاني، نيل الأوطار، ٢: ٣٢٢.

٧٥ ـ أبو داود: الصلاة، باب الصلاة على النبيّ بعد التشهد، ح ٩٨٢ / ج ١: ٦٠١.

٧٦ ـ قاضي عياض: الشفاء، ٢: ١٦٧.

٧٧ ـ البخاري: الدعوات، باب الصلاة على النبيّ، ٦٣٦٠، ٧: ١٥٧؛ ومسلم، الصلاة، باب الصلاة على النبيّ بعد التشهد، ٤: ١٢٧.

٧٨ ـ الانشراح: ٤.

٧٩ ـ الشوكاني: فتح القدير، ٤: ٥٣٤ ـ ٥٣٦؛ وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٤: ١١٣.

٨٠ ـ البخاري: فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله، ح ٣٧١٣، ج ٤: ١١٣.

٨١ ـ الترمذي، السنن، أبواب المناقب، ح ٣٨٧٨، ج ٥: ٣٢٩.

٨٢ ـ المتقي الهندي، كنز العمال، ح ٤٥٠٩، ج ١٦: 456.

٨٣ ـ مسلم: فضائل الصحابة، فضائل علي بن أبي طالب، ١٥: ١٨٠.

٨٤ ـ أحمد: المسند، ٤: ١٦٥؛ والترمذي، المناقب، ح ٣٨٤٧، ج ٥: ٣١٨.

٨٥ ـ القاضي عياض: الشفاء، ٢: ١١٠.

٨٦ ـ الضحى: ٥.

٨٧ ـ الشوكاني، فتح القدير، ٥: ٤٩٥؛ وابن كثير، ٤: ٥٢٤.

٨٨ ـ القاضي: عياض، الشفاء، ٢: ١١٠.

٨٩ ـ المصدر نفسه: ١١٣.

٩٠ ـ التوبة: ٦٥.

٩١ ـ أحمد: مسند أحمد، ١: ٨٤، ١٨٨ و ٥: ٣٧٠؛ والهيثمي، مجمع الزوائد، ٩: ١٠٧؛ وابن ماجة المقدمة، ١: ٤٣.

٩٢ ـ البخاري، فضائل الصحابة، مناقب فاطمة، ح ٣٧١٣، ج ٤: ٢١٩؛ ومسلم: فضائل الصحابة، فضائل

فاطمة، ١٦: ٣٠٢.

٩٣ ـ المصادر السابقة.

٩٤ ـ الباري، فضائل أصحاب النبيّ، باب فضل عائشة، ٤: ٢٢١؛ ومسلم، فضائل الصحابة، فضل عائشة، ١٥: ٢٠٩.

٩٥ ـ الأحزاب: ٦.

٩٦ ـ الأحزاب: ٥٣.

٩٧ ـ المجادلة: ٢.

٩٨ ـ الأحزاب: ٥٣.

٩٩ ـ انظر الشنقيطي: أضواء البيان، ٦: ٥٧٠؛ والشوكاني، فتح القدير، ٤: ٢٩٨، بتصرف.

١٠٠ ـ المصدر السابق.

١٠١ ـ آل عمران: ١٠٣، انظر الشوكاني، فتح القدير، ١: ٣٦٦.

١٠٢ ـ الترمذي: المناقب، ح ٣٨٧٧، ٥: ٣٢٩.

١٠٣ ـ المصدر السابق: ح ٣٨٧٤؛ وأحمد المسند، ٣: ١٧.

١٠٤ ـ مسلم: فضائل الصحابة، ١٥: ١٨٠؛ ومسند أحمد: ٣: ١٤، و ٤: ٣٧١.

١٠٥ ـ المصدر السابق، ٥: ١٨٢.

١٠٦ ـ ابن تيمية، مجموع الفتاوي، ٢٨: ٤٩٣، والحديث الأوّل: أبو داود، السنّة، باب لزوم السنّة، ح ٤٦٠٧، ج ٥: ١٥؛ والترمذي، العلم، ح: ٢٦٧٨، وقال: حديث حسن صحيح، والثاني، الترمذي، المناقب: ح ٣٨٧٧، ج ٥: ٣٢٩، وأصله في مسلم، فضائل علي بن أبي الطالب، ١٥: ١٨١.

١٠٧ ـ ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ١: ٢١٦.

١٠٨ ـ الأحزاب: ٦.

١٠٩ ـ الشوكاني: فتح القدير، ٤: ٢٦٢.

١١٠ ـ المصدر السابق، والحديث في مسند أحمد، ١: ٨٤، و ٤: ٢٨١.

١١١ ـ البخاري: الإيمان، باب: حب الرسول من الإيمان، ح ١٤، ج ١: ١٠.

١١٢ ـ النساء: ٥٩.

١١٣ ـ انظر الزمخشري: الكشاف، ١: ٥٣٥؛ والشوكاني: فتح القدير، ١: ٤٨١.

١١٤ ـ طه: ٨٢.

١١٥ ـ البخاري: المناقب، ح ٣٤٩٥، ج ٤: ١٥٥.

١١٦ ـ المصدر السابق، ح ٣٥٠٠، ج ٦: ٦١٦.

١١٧ ـ البخاري: اللقطة، باب إذا وجد ثمرة في الطريق، ح ٢٤٣١، ج ٣: ٩٤؛ ومسلم: الزكاة، باب تحريم الزكاة على الرسول وعلى آله، ٧: ١٧٦، والدارمي، الزكاة، باب: الصدقة لاتحل للنبي ولا لأهل بيته، ١: ٣٢٥.

١١٨ ـ البخاري، الزكاة، ما يذكر في الصدقة للنبي، ح ١٤٩١، ج ٢: ١٣٥؛ ومسلم: الزكاة، تحريم الزكاة، ٧: ١٧٥.

١١٩ ـ مسلم: الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله وآله، ٧: ١٧٦.

١٢٠ ـ الشوكاني، نيل الأوطار، ٤: ١٩٣؛ ابن قدامة، المغني، ٢: ٦٥٥ ـ ٦٥٧، بتصرف.

١٢١ ـ أبو داود، الزكاة، باب: الصدقة على بني هاشم، ح ١٦٥، ج ٢: ٢٩٨.

١٢٢ ـ انظر: ابن قدامة، المغني، ٢: ٦٥٥ ـ ٦٥٦.

١٢٣ ـ الشوكاني، نيل الأوطار، ٤: ١٠٥ ـ ١٩٦.

١٢٤ ـ عبد المطلب ابن ربيعة بن الحارس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي.

١٢٥ ـ مسلم، الزكاة، باب: ترك استعمال آل النبيّ على الصدقة و ٧: ١٧٩.

١٢٦ ـ التوبة: ١٠٣.

١٢٧ ـ البخاري، الهبة، باب المكافأة في الهبة، ح ٢٥٨٥، ج ٢: ١٣٢.

١٢٨ ـ المباركفوري، مراعاة المفاتيح، شرح المشكاة، المصابيح، ٣: ١٠٦.

١٢٩ ـ مسلم، الزكاة، تحريم الزكاة على رسول الله وآله، ٧: ١٨٤.

١٣٠ ـ النسائي، قسم الفيء، ٧: ١٢٩؛ والشوكاني، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار ٣: ٦٣، ونيل الأوطار، ٨: ٨٠

١٣١ ـ المصدر السابق.

١٣٢ ـ الغنيمة، ما أصيب من أموال أهل الحرب في أرض المعركة.

١٣٣ ـ الأنفال: ٤١.

١٣٤ ـ الشوكاني، فتح القدير، ٢: ٣٠٩ ـ ٣١٠؛ ونيل الأوطار، ٨: ٧٨.

١٣٥ ـ البخاري، فرض الخمس، ح ٣٢٤، ٦: ٢٨١؛ والنسائي، السنن، كتاب الفيء ٧: ١٢٨.

١٣٦ ـ النسائي، السنن، كتاب قسم الفيء، ٧: ١٢٨.

١٣٧ ـ آل عمران: ١٤٠.

١٣٨ ـ ابن حجر، فتح الباري، ٧: ٢٣٧.

١٣٩ ـ انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٣٤٣ ـ ٣٤٦، ٣٥٨ ـ ٣٦٠؛ وابن حزم، جوامع السير، ٩٦.

١٤٠ ـ الحج: ١٩.

١٤١ ـ الشوكاني، فتح القدير، ٣: ٤٤٤.

١٤٢ ـ البخاري، المغازي، ح ٣٩٦٥، ٥: ٧.

١٤٣ ـ عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، ١٤٦، والرواية في سنن أبي داود، الجهاد، باب المبارزة، ٣: ١١٩.

١٤٤ ـ مسلم، فضائل الصحابة، فضائل علي بن أبي طالب، ١٥: ١٧٧.

١٤٥ ـ النسائي، خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ٩١.

١٤٦ ـ الشوكاني، فتح القدير، ٢: ٣٣٤.

١٤٧ ـ انظر: ابن سعد، الطبقات، ٢: ١٢٨ ـ ١٣٠، ٤: ٣٨ ـ ٤٠؛ وابن هشام: السيرة النبوية، ٣: ٤٢٧ ـ ٤٤٧؛ وأبي حزم، جوامع السير، ٢٢٠ ـ ٢٢٣، بتصرف.

١٤٨ ـ التوبة: ٢٥.

١٤٩ ـ ابن كثير، الفصول باختصار سيرة الرسول: ١٨٣؛ وابن حجر: فتح الباري، ٧: ٦٢٥.

١٥٠ ـ التوبة: ٢٥.

١٥١ ـ انظر: المسعودي، مروج الذهب، ٣: ٧١ ـ ٧٤؛ وابن تيمية، مجموع الفتاوي، ٢٧: ٤٧٢، ٤: ٥١١، بتصرف.

١٥٢ ـ آل عمران: ٦١.

١٥٣ ـ الشوكاني، فتح القدير، ١: ٣٤٦؛ والزمخشري: الكشاف، ١: ٤٣٤، بتصرف. والحديث في صحيح مسلم: فضائل الصحابة، ١٥: ١٧٦؛ والترمذي: المناقب، ح ٣٨٠٨، ٥: ٣٠٢.

١٥٤ ـ الإنسان: ٨.

١٥٥ ـ انظر الطبري، جامع البيان: ٢٩: ١٢٩؛ والشوكاني: فتح القدير، ٥: ٣٤٨.

١٥٦ ـ ابن حجر، فتح الباري، مناقب جعفر بن أبي طالب، ٧: ٩٣.

١٥٧ ـ الكاند هلوي، حياة الصحابة، ١: ٢٩٣.

١٥٨ ـ المصدر السابق، نقلاً عن الكنز، ٤: ٤٢.

المصادر

القرآن الكريم

١ ـ ابن الأثير، أبو السعادات المبارك:

النهاية في غريب الحديث، مكتبة ومطبعة عيسى الحلبي.

٢ ـ ابن تيمية، أحمد بن تيمية الحوراني.

مجموع الفتاوي، دار الكتب العربية، بيروت.

الصارم المسلول على شاتم الرسول، دار المكتب العربية، بيروت.

العقيدة الواسطية، الجامعة الإسلامية، المدينة.

٣ ـ ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.

فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الريان للتراث، مصر.

٤ ـ ابن حزم، علي بن أحمد.

جوامع السير، إدارة إحياء السنة، الباكستان.

٥ ـ ابن العربي، أبو محمّد بن عبد الله.

أحكام القرآن، دار الفكر، بيروت.

٦ ـ ابن قدامة، عبد الله بن أحمد المقدسي.

المغني، مكتبة الرياض.

٧ ـ ابن القيم شمس الدين محمّد بن الجوزية.

زاد المعاد، دار الفكر، بيروت.

٨ ـ ابن كثير: إسماعيل بن كثير.

تفسير القرآن العظيم، مكتبة ومطبعة عيسى الحلبي.

النهاية، دار النصر للطباعة، مصر.

٩ ـ ابن ماجة، محمّد بن يزيد القزويني.

السنن، مكتبة عيسى البابي الحلبي.

١٠ ـ أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني.

السُنن، محمّد علي السيد، حمص.

١١ ـ أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني.

دلائل النبوّة، دار النفائس، ط ٢.
١٢ ـ أحمد بن حنبل.
المسند، دار الفكر.
١٣ ـ البخاري: محمّد بن إسماعيل: المكتبة الإسلامية، استانبول.
١٤ ـ البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي.
دلائل النبوّة، المكتبة السلفية، المدينة، ط ١.
١٥ ـ الترمذي، محمّد بن عيسى بن سورة.
السُنن، دار الفكر.
١٦ ـ الدارمي، أبو محمّد عبد الله الدارمي.
السنن، شركة الطباعة الفنية المتحدة.
١٧ ـ الراغب الأصبهاني.
المفردات، دار المعرفة، بيروت.
١٨ ـ السمعاني، عبد الكريم بن محمّد بن منصور السمعاني.
الأنساب، دار الحنان، ط ١.
١٩ ـ السيوطي: جلال الدين.
الخصائص الكبرى، دار المعرفة العربية، بيروت.
٢٠ ـ الشافعي: محمّد بن إدريس.
الأم، دار المعرفة.
٢١ ـ الشنقيطي، محمّد أمين.
أضواء البيان، ط المدني، مصر.
٢٢ ـ الشوكاني: محمّد بن علي.
فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت.
٢٣ ـ نيل الأوطار، شرح منتقى الأخبار، مصطفى البابي الحلبي.
٢٤ ـ السيل الجرّار المتدفق على حدائق الأزهار، المكتبة العلمية، بيروت.
٢٥ ـ العاقولي، محمّد بن محمّد العاقولي.
الرصف لما روي عن النبيّ من الفعل والوصف، مكتبة الفارابي، دمشق.
٢٦ ـ عبد السلام هارون.
تهذيب سيرة ابن هشام، مؤسسة الرسالة، الكويت.

٢٧ ـ عياض، القاضي، عياض بن موسى الأندلسي.
الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مؤسسة علوم القرآن.
٢٨ ـ فخر الرازي، محمّد فخر الدين الرازي.
التفسير الكبير، دار إحياء التراث.
٢٩ ـ فيروز آبادي. مجد الدين محمّد.
القاموس المحيط، دار المعرفة، بيروت.
٣٠ ـ القرطبي، محمّد بن أحمد الأنصاري.
الجامع لأحكام القرآن، إحياء التراث العربي.
٣١ ـ الكاند هلوي، محمّد يوسف.
حياة الصحابة، دار الاشاعة الدينية، الهند.
٣٢ ـ المباركفوري، محمّد عبيد الله.
مراعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ط. لاهور، باكستان.
٣٣ ـ محمّد فؤاد عبد الباقي.
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، دار إحياء التراث العربي.
٣٤ ـ مسلم بن الحجاج القشيري.
صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث.
٣٥ ـ النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد النسائي.
السُنن، دار الفكر، بيروت.
٣٦ ـ الهيثمي، نور الدين الهيثمي.
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي.

حسين ربح المعركة ويزيد خسرها

محمّد هادي معرفة

قال تعالى: ﴿إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا..﴾ [١].

وقال: ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز..﴾ [٢].

وقال: ﴿وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين..﴾ [٣].

ما هذه النصرة التي وعد بها الله رُسُله وعباده المؤمنين فيهذه الحياة؟

إنّها نصرة الحق واعتلاؤه على الباطل، وتصاغره وفشله إزاء الحق، فالحقّ يَعْلُو ولا يُعْلى عليه، وهو منصور، والباطل مهزوم.

قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: ليس من باطل يقوم بإزاء الحقّ، إلّا غلب الحقُّ الباطل؛ وذلك قوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾[٤].

قال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنّهم لهم المنصورون. وإنّ جندنا لهم الغالبون﴾ [٥].

يخوض المؤمن معركة الحق ضد الباطل، لأجل إعلاء كلمة الله في الأرض، متفانياً في هذا السبيل، باذلاً نفسه ونفيسه من أجل تثبيت كلمة الحق وفضح الباطل مهما كلّف الأمر، ولو بتضحية نفسه ونفيسه.

المؤمن مبدئيّ، يعيش بشخصيته الإنسانية الكريمة، ويحيا مادامت أهدافه الكريمة على قيد الحياة، ولايموت ما دامت أهدافه النبيلة نابضةً بالحياة.

يسعى المؤمن وراء هدفه الإنساني النبيل، ويرى حياته متجسّدةً في تحقّقه، ويعيش بمعيشته ويموت بموته ـ لاسمح الله ـ ولم يقدّر الله أن تخيب آمال عباده الأكرمين؛ يقول تعالى : ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [٦]. فلايخبت ذكرهم

ولا تخبو آثارهم.

إنّ وعد الله قاطع جازم: ﴿إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا...﴾ بينما يشاهد الناس أنّ الرسل منهم من يُقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذوباً مطروداً.. وإنّ المؤمنين فيهم من يُسام العذاب، وفيهم من يُلقى في الأخدود، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعيش في كرب وشدّة واضطهاد.. فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟

ولكن الناس ينظرون إلى ظواهر الأمور، ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كبيرة في التقدير.

إنّ الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيّز محدود من المكان. وهي مقاييس بشرية حقيرة. فأمّا المقياس الشامل فيعرض القضيّة في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولايضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان. ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك. وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها، فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها. وأوّل ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها.

والناس كذلك يقْصِرون معنى النصر على صور معيّنة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم. ولكن صور النصر شتّى، وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة.

ماذا تقول عن إبراهيم عليه السلام وهو يُلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها.. أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟

ما من شك ـ في منطق العقيدة ـ أنّه كان في قمّة النصر وهو يُلقى في النار. كما انّه انتصر مرّةً أخرى وهو ينجو من النار، هذه صورة وتلك صورة، وهما في الظاهر في غاية البعد. وأمّا في الحقيقة فهما قريبان جداً.

قال سيد قطب:

«والحسين عليه السلام وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب، أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير

كانت هزيمة. فأمّا في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً.

«فما من شهيد في الأرض تهتزّ له الجوانح بالحبّ والعطف، وتهفو له القلوب، وتجيش بالغيرة والفداء كالحسينعليه‌السلام يستوي في هذا المتشيّعون وغير المتشيّعين من المسلمين، وكثير من غير المسلمين!

«وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفّز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبه مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محرِّكاً للأبناء والأحفاد. وربّما كانت حافزاً محرّكاً لخطى التاريخ كلّه مدى الأجيال.[٧]..

نعم هكذا كان الإمام الحسينعليه‌السلام انتصر بتضحية نفسه دون عقيدته، وتفدية نفسه دون بلوغ هدفه الأقصى في نصرة الحق وإعلاء كلمة الله في الأرض.

يقول في كتاب كتبه إلى بني هاشم:

«أمّا بعد فإنّه من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلّف لم يبلغ مبلغ الفتح، والسلام»[٨].

هذا الكتاب بظاهره متناقض: في اللحاق استشهاد، وفي التخلّف خسران المعركة.

نعم إنّها معركة الجهاد في سبيل دعوة الحقّ، غاية كلّ مؤمن في الحياة، تلك الحياة الرساليّة التي تحتضنها جوانح المؤمن الغيور على الحق. فمن خاض تلك المعركة ربحها وأدّى ما عليه من رسالة الإيمان، ومن تحاشاها خسرت نفسه ورضي بالأدنى الخسيس من العيش.

إذن، فإنّ المؤمن في خوضه معركة الحياة والجهاد دون كلمة الحق رابح ظافر لامحالة، سواء قَتَل أم قُتل، مادامت أهدافه الكريمة تنبض بالحيويّة والنشاط.

وقد تمثّل الإمامعليه‌السلام بهذا البيت:

فإنْ نَهزمْ فهزّامون قدماً وإنْ نُغْلَب فَغيرُ مُغلَّبينا

فإنّ في التضحية دون العقيدة غلبةً للحقّ على الباطل، وإعلاءً لكلمة الله في الأرض وهو انتصار ضمنه الاستشهاد في سبيل الإسلام.

وهكذا ضحّى الإمام الحسين عليه السلام بنفسه ونفيسه في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، وأماتَ صرخة الشيطان ضدّ الحقّ، والتي كانت تنفثها أفواه أمية القذرة..

كانت أُمية ولم تزل تعمل ـ في نشاط مستمر ـ في سبيل إخماد ثورة الإسلام والسدّ دون نشر كلمة الحقّ في الأرض..

فجاءت حركة الإمام عليه السلام نقضاً لكل دعائم الكفر والضلال وتقويض أعلام النفاق التي طالما أشادها بنو أمية وأذنابهم البعداء.

هذا أبو سفيان، كان لم ينته من إشعال نيران الحروب ضد الإسلام يوم بدر ويوم حُنين وأُحد والأحزاب... فاضطرّته المقادير أن يستسلم لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم لفترةٍ محدودة، حتّى انتهز الفرصة بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم ليعيد شَرَهَه ويكرّ في خيله ورجله ضد الإسلام..

وأوّل كيد قام به، وحاول إطفاء نور الله، مجيئه إلى عليّ عليه السلام بعدما تمّ الأمر لأبي بكر يوم السقيفة، منتهضاً له ضد الحكم القائم لغرض خبيث، هو إشعال نائرة الفتنة داخل الإسلام.

جاء إلى عليّ عليه السلام ناهضاً به، قائلاً:

«ما بال هذا الأمر في أقلّ حيّ من قريش، والله لئن شئت لأملأنّها عليه خيلاً ورجالاً...!

فقال له علي عليه السلام: يا أبا سفيان، طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضرّه بذاك شيئاً.

قال أبو جعفر الطبري: لمّا استتمّ الأمر لأبي بكر، أقبل أبو سفيان، وهو يقول: والله إنّي لأرى عجاجة لايُطفِئُها إلّا دم.. يا آل عبد مناف، فيما أبو بكر من أموركم، أين المستضعفان، أين الأذلّان، عليٌّ والعبّاس؟!

وقال يا أبا الحسن أُبسط يدك حتّى أُبايعك..

فجعل يتمثّل بشعر المتلمّس:

ولن يقيم على ضيمٍ يراد به إلّا الأذلّان عَيْر الحيّ والوتد

هذا على الخسف مربوط برمّته وذا يُشَجُّ فلا يرثي له أحد

فزجره عليّ عليه السلام وقال: إنّك والله ما أردت بهذا إلّا الفتنة، وإنّك والله طالما بغيت

الإسلام شرّاً، لا حاجة لنا في نصيحتك.[٩]..

وكان أبو سفيان، على عهد عثمان، تجرّأ على إبداء خبثه وعدائه للإسلام أكثر ممّا قبلُ..

روى ابن أبي الحديد عن كتاب «السقيفة» لأحمد بن عبد العزيز الجوهري، قال: لما بويع عثمان، قال أبو سفيان: كان هذا الأمر في تيم ـ يعني أبا بكر ـ وأنّى لتيم هذا الأمر، ثمّ صار إلى عديّ ـ يعني عمر ـ فأبعد وأبعد، ثمّ رجعت إلى منازلها واستقرّ الأمر قراره، فتلقّفوها تلقّف الكرة..!

وقال يوماً لعثمان: بأبي أنت، أنفق ولاتكن كأبي حجر.. وتداولوها يا بني أُمية تداول الولدان الكرة، فوالله ما من جنّة ولا نار..

وكان الزبير حاضراً، فقال عثمان لأبي سفيان: أُعْزُب! فقال أبو سفيان: يا بنيّ، أها هنا أحد؟ قال الزبير: نعم والله، لا كتمتها عليك.[١٠]..

وأيضاً ذكر ابن أبي الحديد أنّ أبا سفيان مرّ بقبر حمزة، فضربه برجله، وقال: يا أبا عمارة، إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس، في يد غلماننا اليوم يتلعّبون به.[١١]..

هذا من أمر أبي سفيان طوال حياته القذرة التي قضاها ضد الإسلام.

وإليك الآن حديثاً عن معاوية يكشف متابعته العمياء لأبيه صخر بن حرب.

روى المسعودي خبراً عن كتاب «الموفقيّات» للزبير بن بكار عن مُطْرف بن المغيرة بن شعبة ـ وكان من شيعة آل أبي سفيان قال: وفدت مع أبي المغيرة إلى معاوية بالشام، فكان أبي يأتيه يتحدّث عنده ثمّ ينصرف إليّ فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب ممّا يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، فرأيته مُغتمّاً، فانتظرته ساعةً، وظننتُ أنّه لشيء حدث فينا أو في عملنا، فقلت له: ما لي أراك مُغتمّاً منذ الليلة؟ قال: يابنيّ؛ إنّي جئت من عند أخبث الناس، قلتُ له: وماذاك؟ قال: قلت لمعاوية وقد خلوت به: إنك قد بلغت منّا يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، فقال لي: هيهات هيهات!! ملك أخو تيمٍ فعدل وفعل ما فعل، فوالله ماعدا أن هلك فهلك ذكره، إلّا أن يقول قائلٌ: أبو بكر، ثمّ

ملك أخو عديّ، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فوالله ماعدا أن هلك فهلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: عمر، ثمّ ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه، فعمل ما عمل وعُمِلَ به، فوالله ماعدا أن هلك فهلك ذكره وذكر ما فُعل به، وإنّ أخا هاشم يُصْرَخُ به في كلّ يومٍ خمس مرّات: أشهد أنّ محمّداً رسول الله، فأيّ عمل يبقى مع هذا؟ لا أُمّ لك؛ [لا] والله إلّا دفناً دفناً.. (١٢)..

وأمّا يزيد فحدّث عنه ولا حرج، وهو القائل:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل

تلك الشجرة الملعونة في القرآن حاولت إطفاء نور الله بأفواههم ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون... بل الله يقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق... والحمد لله ربّ العالمين.

الهوامش

١ ـ غافر : ٥٠ .

٢ ـ المجادلة : ١٣ .

٣ ـ الروم : ٤٧ .

٤ ـ المحاسن لأبي جعفر البرقي المتوفى ٢٨٠ هـ ، ج ١ ص ٤٣٢ ، ط المجمع العالمي لأهل البيت . كتاب مصابيح الظلم رقم ٩٩٩ / ٤٠١ . والآية في سورة الأنبياء : ١٨ .

٥ ـ الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣ .

٦ ـ آل عمران : ١٣٩ .

٧ ـ في ظلال القرآن ، تفسير سورة غافر ، ج٧ ص١٨٩ ـ ١٩٠ .

٨ ـ بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٣٠ .

٩ ـ تاريخ الطبري / ج ٢ ص ٤٤٩ ؛ وراجع ابن أبي الحديد ج ٢ ص ٤٤ ـ ٤٥ .

١٠ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٤٤ ـ ٤٥ .

١١ ـ راجع قاموس الرجال ج ٥ ص ١١٦ وج ١٠ ص ٨٩ .

١٢ ـ مروج الذهب ج ٤ ص ٤٠ ، ترجمة المأمون العباسي .

عاشوراء .. ما بين عهدين

مدارس ودلالات

محمّد علي الحلو

المقدّمة

عاشورا.. إنّه صراع الأفكار.. أعاد للأذهان دورة زمنية كاملة.. ليُعيد بدراً وأُحدَ والأحزاب، ثمّ يقفز ليستعرض صفّين والنهروان.

صحيح أنّها سويعات من ذلك اليوم العصيب، لكنّه طوى مئات السنين ليُرجع الأمة إلى وراء.. ليُعيد لها قراءة القرآن من جديد، ويستعرض مشاهد حوار الأمم، بين كلّ كفر وإلحاد، وبين كلّ إيمان وتوحيد، ثمّ ينقلك إلى صراع الأنبياء.. نوح والطوفان.. إبراهيم والنمرود.. موسى وفرعون.. عيسى وبني إسرائيل.. كلّها تجلّت في وارث الأنبياء.. ذلك هو الحسين، في ذلك اليوم المشهود... اقرأ عاشوراء، وستقرأ:

طوفان نوح، وقد أغرق أُمم الضلال، ليفرّق آل أبي سفيان على مدى الأيام، ثم يبقى عاشوراء، ذلك ركب الخلود، وتلك النار كانت برداً وسلاماً على إبراهيم وآل إبراهيم، فقد جعل الله نار آل أبي سفيان برداً وسلاماً على الحسين وآله في ذلك اليوم العصيب..

أسمِعتَ بحوار موسى وفرعون، حتّى أخذه من بين يديه وعن يمينه وشماله، لما آتاه الله من البيّنات الباهرات. لقد حاور الحسين بلغة موسى حشوداً من فراعنة ذلك الزمان، وفي كلّ زمان، ليزهقهم بما آتاه الله سبعاً من المثاني والقرآن العظيم..

أرأيت عيسى والحواريين؛ ورعاية الربّ لتلك القلّة القليلة من أصحابه

وخاصّته، فيدفعون مكائد بني إسرائيل، ثمّ يضحي الجميع من أجل رضا الربّ، فيعرج الكليم إلى سمائه ليختاره إليه.. فقد أتمّ الحسين ذلك المشوار في أرض عاشوراء، واختار هو وأصحابه رحلة الشهداء، بعد مناجاته، وهو كليم الله في تلك الساعات: إلهي لك العتبى فخذ حتّى ترضى.

فيرفع الله الحسين وآله إلى سماء الخلود، فهو المدّخر من رسالات الأنبياء، لأنّ يومه عصارة ذلك الصراع، وفكره حصيلةٌ لوحي السماء.

والحسين ذلك القرآن بقوله تعالى: «وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكثٍ»..

فهل قرأناه كما أراده الله، أم كلٌّ يقرأه بلغته وينظر إليه بعينه، ومن هذا وذاك تنشأ مدارس الفكر لقراءة عاشوراء.

المدارس الفكرية في عهد الإمام عليه السلام

إنّ من أشد ما عاناه الإمام عليه السلام إبّان تحرّكه الشريف، هو ذلك اللؤم والاحتجاج، ضمن طروحات فكرية كانت حصيلة معاناة أُمّة لم تكن قد استوعبت بعض المبادئ الرساليّة بعد، وهي ترسّبات لجيل لم يكن قد هضم إسلامية التغيير وضروراته، حيث تعامل مع حوادث إسلامية مهمّة، كانت جديرة بأن يقف الجميع أمامها، لإرجاعها إلى أصالة وطروحات السماء. فقد وقف حيالها بين قانعٍ بالخنوع والاستسلام، وبين من آثر العزلة، بعدما لم يجد ما يهدّد مصالحه الشخصية ،وبين متحفّزٍ للنهوض فلم يحن الوقت لقيامه لعدم امتلاكه أدوات التغيير والإصلاح بعد.

والإمام يعتصر الألم قلبه الشريف، ويحزّ في نفسه أن يرى الأمّة وقد تضاربت الآراء في نهضته، وهو يسمع من بعضٍ اعتراضه على رسالة السماء في تحرّكه، وعلى الوحي في عزمه، إلّا أن الإمام كان لا يعبأ بما ألقاه هؤلاء، بل اعتمد على أن يخلق من أصحابه شخصيات عاشوراء، ليُهيئها نماذج فيرفد بها ساحة الصراع؛ والمتخلّفون من الأمّة مشغولون بطرح وجهات نظرهم وتصويباتهم والأخذ والرد، وكلٌّ تعهّد بتقديم اطروحة فكرة، هي عصارة تفكيره، وآخر ما توصل إليه من تحليل، يجابه الإمام بالمقترح تلو المقترح، والبديل إثر البديل، ثمّ

يتّكئ للتنظير، في ذلك الوقت المشحون بالأحداث الخطيرة والتي تهدّد كيان الرسالة وجهود نبيّ الإسلام، والحسين يحسب للزمن دوراته المتسارعة، فيُعرض عن كلّ هؤلاء، ويكتفي بالردّ الجميل، ويشكر لها سعيها وحرصها وإشفاقها عليه.

أوّلاً: مدرسة الفهم السطحي

تعامل روّاد هذه المدرسة مع الإمام عليه السلام عند خروجه، بأساليب مختلفة تكشف عن وجهات نظر متباينة تربطهم مع قضية الإمام نوايا لم تكن على وتيرةٍ واحدة. فبنو هاشم وآل الزبير وآل الخطاب وغيرهم اتفقوا على طريق متعدّد الشعب وآراء متباينة النتائج. فمنهم من صوّب رأيه لكن لم ير الحكمة في الخروج الآن، فتقاعس ملتزماً بما أدّى إليه رأيه، ومنهم من أشار على الإمام أن يلزم الانزواء فهو الكياسة التي لاتليق إلّا بمثل الحسين، ومنهم من أشفق على الإمام من خروجه مدفوعاً بعاطفة الرحم أو التخوّف على ما تؤول إليه العواقب، لكن الجميع جمعتهم رؤيا واحدة، وقراءة لعاشوراء كانت نتائجها أن «اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون»(١). فلنلق نظرة سريعة على تشعّبات هذه المدرسة، منهجاً وسلوكاً.

١ ـ أصحاب الفهم الساذج

مثّل هذا الخطّ شرذمةٌ من الناس لم تعِ ما أراده الإمام عليه السلام من خروجه، فقد تعاملوا مع الحدث تعاملاً بسيطاً ساذجاً، وكأنّهم نظروا إلى الحسين وقد اغترّ بمكاتبات الكوفيين، فراحوا يذكّرونه بأهل الكوفة ونكوصهم مع أبيه، ثمّ أخيه من بعده، ثمّ يحذّرونه النهاية المأساوية للخروج. فأحبّوا للإمام العافية، ورضوا منه القعود، بل وصل بهم الأمر إلى أن يضع الإمام يده بيد يزيد.

لكن الإمام عليه السلام بادرهم بأنّ مثل هذه الأمور لم تخفَ عليه، وقد اطّلع على عواقبها بما جاء عن جدّه وأبيه وأُمّه وأخيه، فلا حاجة إلى ما ذهب إليه القوم من التحرّج بالخروج، فقد وطّن أبو الضيم نفسه على الموت الذي لابدّ منه، إتماماً لرسالته، وإكمالاً لجهد جدّه صلى الله عليه وآله وسلم وتأكيداً لمنهج أبيه اللاحب.

نماذج هذه المدرسة

١ ـ عمر الأطرف بن الإمام علي بن أبي طالب

امتازت هذه الشخصية بآرائها التراجعية، ذات النزعة الاستسلامية الشديدة، وحاولت إقناع الإمام بالعدول عن رأيه، وإبدال حركة الإصلاح هذه إلى مصالحة سياسية مع النظام وطالبته بالبيعة ليزيد، تلافياً لأيّ صِدام عسكري، أو صراعٍ سياسي، وإنهاء الأزمة القائمة وإصلاحها، حيث قال للإمام: «حدّثني أبو محمّد الحسن عن أبيه أمير المؤمنين، أنك مقتول، فلو بايعت لكان خيراً لك»[٢].

فبادره الإمام عليه السلام بإلقاء إحدى بنود نهضته المنافية كليّاً لما ذهب إليه عمر الأطرف بقوله: «.. وإنّي لا أُعطي الدنية من نفسي أبداً، ولتلقين فاطمة أباها شاكية ممّا لقيت ذريّتها من أُمّته ولايدخل الجنّة من آذاها في ذريّتها»[٣].

٢ ـ عبدالله بن مطيع العدوي

وهو ثاني النموذجين للفهم الساذج، والرؤية الاستهلاكية المتخاذلة، وقد مثّل العدوي هذا طبقة من الناس، ارتأت أن تحافظ على عناوين جوفاء وأدبيات لايمكن المساس بها، وأن خروج الإمام هذا سيُنافي هذه اللياقة الاجتماعية التي يجب أن يمتلكها الحسين سبط النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فآثرت القعود والاستسلام تحت مبرّرات غير صحيحة. لذا رفض الإمام عليه السلام التعامل معها وأغلق ملفّ التفاوض معها، وأسدل الستار على هذه الفكرة المتهاونة.

ومن خلال قراءتنا لرأي عبدالله بن مطيع العدوي سنشخص معالم مدرسته.

يقول: «أذكّرك يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك، أنشدك في حرمة العرب، فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية لقتلوك، ولئن قتلوك لا يهابوا أحداً بعدك»[٤].

فقد فهم هذا أن نهضة الإمام هي منازعةٌ سلطانيّةٌ يتجاذب فيها المتنازعان أطراف الحكم، فإن لم يصل الإمام إلى غايته، فإن بني أمية تقتله، وبقتله تنتهك حرمتي الإسلام والعرب. وقد غفل هو وأمثاله أن حرمات الإسلام كلّها والإنسانية بأسرها قد انتهكها معاوية من قبل وأتمّها يزيد، بتسلّطه على رقاب المسلمين

وخيرة الصحابة، فهل أبقى هذا وآله حرمة لرسالة أم حقّاً لغيور؟ أو هل خفي على الإمام ملاحظة حرمات الإسلام، حتّى احتاج إلى آراء هؤلاء وتنظيراتهم؟؟!!

٢ ـ المشفقون على الإمام

كانت دواعي الشفقة على الإمام في خروجه، وراء انبثاق آراء سياسية تتنافى فلسفتها مع فلسفة النهضة الحسينية، وهي التي دعت هؤلاء إلى التوسّل بالإمام للعدول عن رأيه، والتمهّل في قراره، فإن خطورة الموقف تستدعي من هؤلاء إثارة العاطفة، ولحقوق الرحم واجباً في النصح والتقويم وهو إقناع الإمام بالتزام الحيادية في هذا الوقت العصيب.

هذا ما رآه المشفقون على الإمام، لكن الإمام على خلاف ذلك، فإن الوضع المتفاقم يطالبه بالإسراع إلى العزم على ما ذهب إليه، وهؤلاء قد ارتكز في أذهانهم ما أودعه النبيّ ﷺ من بيان ماتؤول إليه العواقب من المأساة المفجعة.

وكانت الرؤى السياسية الحاليّة بجميع قرائنها تنتزع فلسفة موحدة أجمعت عليها هذه الجهود من ثني الإمام عن عزمه، إلّا أن الإمام في آخر هذه المفاوضات لم يكن في وسعه إلّا التنويه بمقاصد القوم الحسنة، ومقتضيات النصح والشفقة، وكان لأبي الثوّار لياقة الثائر المحمّدي، يُسجّل للقوم مواقفهم ويردّ عليهم بما سمحت لهم مفاهيمهم، وما استوعبته طروحاتهم من التنظير.

نماذج من هذه المدرسة

١ ـ السيّدة أُم سلمة

كانت هذه السيدة الجليلة تعاني من الخوف الشديد، لما أعلنه حبيبها الحسين عليه السلام ممّا هو عازمٌ عليه من النهضة بوجه هؤلاء القاسطين، وقد عزَّ على هذه السيّدة أن ترى ولدها الحسين وقد تظافرت عليه جموع الشر والعدوان، وكانت معاناتها هو عدم تمامية ما كانت تدركه من إصرار الحسين على النهوض، وهي الشاهد الحيّ حينما رأت النبيّ ﷺ قد حزن على ولده وقد أخبره الوحي بما سيحلّ به من قبل أُمّته قتلاً وتنكيلاً، فأفزعها إصرار الحسين على الخروج فوراً،

وكانت تحمل بين جنبيها عاطفة الأمومة لذلك السبط الحبيب حينما يضمّه جدّه إلى صدره ويقبّله في نحره وهو ينعى ولده ثمّ يبكي حتّى تبتل كريمته من دموع عينيه.

وكانت رضي الله عنها تقرأ فصول المأساة في وجه رسول الله منذ ذلك اليوم الحزين، وقد أسَرَّ لها النبيّ ذلك وهو يودِعها تربة الشهادة، ويوصيها أن تنتظر ذلك اليوم الذي تفور تلك التربة الطاهرة دماً عبيطاً إيذاناً بمصرع حسين الرسول، فهل بعد ذلك اليوم الكئيب يقِرّ لها قرار وهي تسمع برحيل ولدها إلى مصرعه الشريف؟ وهل تأذن لها عاطفة المرأة المترقّبة لهذه المأساة أن تتركه دون أن تخبره بما سمعته من النبيّ ﷺ «يقتل ولدي الحسين بأرض العراق، في أرض يُقال لها كربلا»؟

إلّا أن عزم أبي الأحرار لن يهوله ما سمعه من السيّدة المفجوعة، بل زاد على قولها: «يا أُمّاه وأنا أعلم أني مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً، وقد شاء عزّوجلّ أن يرى حرمي ورهطي مشرّدين وأطفالي مذبوحين مأسورين مقيّدين وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً»(٥).

فلم تملك السيّدة نفسها عند ذاك حتّى فزعت ممّا سمعته من ولدها الحسين الحبيب، وهو يسجّل لها صور المأساة لينقلها إلى هناك إلى حيث محطّ الرحال إلى نهر الفرات المحروم من وروده وأطفاله يستغيثون فلا يُغاثون، إلى حيث حرق الخيام وفرار العيال على وجوههم في تلك الصحراء المظلمة من رمال كربلاء، إلى حيث الرأس المدار على القناة ويُهدى من بلدٍ إلى بلد، وعيون حرمه شاخصة قد روَّعتها المأساة، حتّى انتفضت لتقول له: «واعجباً فأنى تذهب وأنت مقتول».

عند ذاك لم تتوقّع ممّن غذّاه رسول الله ببركات وحي السماء، وأدّبه أبوه بفنون الجهاد ومقارعة الأعداء، ومبارزة الأبطال، وقد رضي بما قسمه الله له ولآل بيته من منزلة الشهداء، أو حياة السعداء، وقد وطَّن للموت نفسه، إلّا أن يقول: «يا أُمّاه إن لم أذهب اليوم ذهبت غداً وإن لم أذهب في غد ذهبت بعد غد وما من الموت والله بدّ، وإنّي لأعرف اليوم الذي أُقتل فيه والساعة التي أُقتل فيها والحفرة التي أُدفن فيها كما أعرفك وأنظر إليها كما أنظر إليك وإن أحببتِ يا أُمّاه أن أريك مضجعي

ومكان أصحابي».

عند ذاك سلَّمت أُم سلمة لعزيمة أبي الأحرار، وماذا تفعل وقد عرفت الحسين صغيراً، وخبرته كبيراً، فلن يُعطي الدنية جيدهُ وروحُ أبيه بين جنبيه.

٢ ـ محمّد بن الحنفية

وهو ابن أمير المؤمنين، قائداً في صفّين، وبطلاً في النهروان، وسيّداً من سادة الحرب في تلك الجمل الضروس، ثابت على مبدأه، متمسّك بولائه لإمام زمانه، إلّا أن الرؤى السياسيّة المتحرّكة على رمال المدينة حتّى الكوفة، والمتسارعة في الانقلاب بين لحظة وأخرى غير القارة على قرار، وآراء الكوفيين وأهواءهم، تقفز كلّ يوم لتستقر في حضن قيادات متباينة، تستضيفها كلّ يوم سياسة، ثمّ تمتطي في اليوم الآخر صهوة جواد لتنتقل سريعاً إلى فكرة، تشكيلة، حزب، فلسفة، عقيدة، أو إلى رؤية جديدة مباينةٍ متناقضة، لن يقرّ لها حال، ولن تثبت على قرار، فبين عليٍّ الإمام، ومعاوية المُلك مساجلات من نكوص الكوفيين، وصرعات رغباتهم، وابن الحنفية هذا الشفيق يُسجِّل على الكوفيين مواقفهم ثمّ يعرضها للإمام ليُذكِّره بأبيه وأخيه وهما بين هؤلاء الكوفيين، فلايريد أن تعاد المأساة، وقد خفي عليه ـ رضوان الله عليه ـ أن عاشوراء أكبر من هذا وذاك، والحسين قادمٌ على أن يُسجّل التاريخ من جديد، وأن يكتب الإسلام بدمه العزيز، فلا مجال اليوم لحسابات السياسة وأرقامها؛ والتغيير والإصلاح لايحتملان أكثر من الخروج إلى ساحات الوغى لتسيل الدماء فتجرف على طول التاريخ، أوكار الظلم والضلال، إلّا ان ابن الحنفية لايملك إلّا أن يقول لأبي الثوّار: «وإنّي أخاف عليك أن تدخل مصراً من هذه الأمصار، فيختلف الناس بينهم فطائفة معك وأخرى عليك، فيقتتلون، فتكون لأوّل الأسنة غرضاً...»[٦].

عندها لم يملك سيد الشهداء إلّا القول: «يا أخي لو لم يكن في الدنيا ملجأً ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية».

وهذه معادلة عاشوراء، يبيّنها الإمام ليقرأها الناس على مكثٍ، ثمّ تنتج من حساباتها ألف عاشوراء.

٣ ـ عبدالله بن جعفر

كتب للإمام كتاباً جاء فيه: «أمّا بعد فإنّي أسألك الله لما انصرفت حين تقرأ كتابي هذا فإني مشفقٌ عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك. إن هلكت اليوم انطفأ نور الأرض فإنك أعلم المهتدين، ورجاء المؤمنين فلا تعجل بالسير فإنّي في أثر كتابي والسلام»(٧).

ثم أخذ عبدالله كتاباً من عامل يزيد على مكّة عمرو بن سعيد بن العاص فيه أمان للحسين، وجاء به إلى الحسين ومعه يحيى بن سعيد بن العاص، وجهد أن يصرف الحسين عن الوجه الذي أراده فلم يقبل أبو عبدالله عليه السلام، وعرَّفه «أنّه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وأمره بأمر لابدّ من إنفاذه، فسأله عن الرؤيا فقال: ما حدّثت بها أحداً وما أنا محدّث بها حتّى ألقى ربّي عزّوجلّ»(٨).

إلى هنا تنتهي جولة من المفاوضات، والإمام يتصدّى لبيان الأهداف، ويعلن عن عزمه الرسالي، ومنطق الثورة هي لغة الحوار، تُترجمها رسالات السماء، ولم تكن لغة أبي الثوّار خافية على الأمّة يوم كانت تقرأ في كتاب الله نواميس الرفض للخضوع والاستسلام لكل نمرود، وفرعون وهامان، والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليها فصول الثورات ليطبقّها في بدر وأُحد وغيرهما من ملاحم الجهاد، وما الذي يفعله سيّد الثوّار في هذا اليوم غير تلاوة القرآن بلغة جدّه، وعلى ترنيمة أبيه السيّد المقدام، وهل هذا إلّا تراث الأنبياء وحبوة الأوصياء؟

٤ ـ عبدالله بن عبّاس

وما الذي عندك يا ابن عبّاس، وأنت الناصح الأمين، أشفقت على ابن عمّك من الخروج، وهو لم يخالفك على ما توجسته بما ستؤول إليه الأمور، لكنّه لم يوافقك على ما ذهبت إليه من التربّص والقعود، وأنت بَنَيتَ رأيك على الربح والخسارة، على الأخذ والعطاء، على مناورات السياسة، وحسابات الحوادث، وهو يبني أمره على كتاب الله في قوله تعالى: «إن أُريد إلّا الإصلاح ما استطعت»(٩).

فلا ضير يا ابن عبّاس هذه هي النظرة السائدة لدى الناس، فهم حثيثون على ضمان المصلحة قبل المبادرة، حريصون على كسب مايضمن لهم الأخذ بعد

العطاء، وأنت يا ابن عبّاس قد خَبَرتك الأيام حتّى عرفت من هو الحسين، وما الذي يحمل بين جنبيه؟ أليس روح أبيه ورؤى جدّه؟

وأنتم يابني هاشم، أهله ومرتجاه، فإن حشاشتكم سبط النبي، وسيّدكم ورأسكم، قد عزم على الإصلاح في أُمّة جدّه، لا يثنيه رأي، ولايؤخّره بديل، وابن عبّاس هذا الناصح المشفق يقترح على ابن عمّه بقوله: «يا ابن العم إني أتصبر وما أصبر، وأتخوّف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال. إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنّهم، أقم في هذا البلد فإنك سيّد أهل الحجاز، وأهل العراق إن كانوا يريدونك كما زعموا فلينفوا عاملهم وعدوّهم ثمّ أقدم عليهم فإن أبيت إلّا أن تخرج فسر إلى اليمن فإنّ بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة وأنت عن الناس في عزلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبثّ دعاتك فإنّي أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحبّ في عافية.

فقال الحسين عليه السلام: يا ابن العم إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق وقد أزمعت على المسير(١٠).

عندها سلَّم ابن عباس لإرادة الله تعالى، في أن تجعل من الحسين، رمز الخلود، ومنبع العطاء ووارث الأنبياء.

معالم هذه المدرسة

١ ـ تأثّر أصحاب هذه المدرسة بالحدث الآتي للوتائر السياسية المتشنّجة، المتوزّعة بين غدر الكوفيين ونكوصهم، وبين استسلام الشاميين وانحرافهم وركون أهل الحجاز والمدينة للذلّ والسكوت. فرأى أصحاب هذه المدرسة عدم توازن معادلة أي حركة عسكرية تصدر الآن، دون النظر إلى أهداف الحسين عليه السلام العميقة في الغور، والطويلة على امتدادات الزمن الإسلامي الثوري.

٢ ـ تعامل أصحاب هذه المدرسة بما أملته عليهم عاطفة الرحم، أو وشائج العلاقات المتبادلة بينهم وبين الإمام، وقد اعتمدوا على قراءة ملاحم المغيَّبات النبوية، يوم كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينعى ولده الشهيد وما تلاقيه ذريّته الطاهرة

على أيدي العصابات الحاكمة، وقد ألقى النبيّ صلى الله عليه وآله ذلك راجياً من الأمّة أن تتمعّن في طروحاته الغيبية، اعتماداً على قرائن تتعهّد في إيضاح وتفسير ما أراده صلى الله عليه وآله، والعمل وفق ما ذكره، ولن يرضى من أُمّته قراءة ما أودعه من إخبار مجرداً، دون الغور في أعماق الحدث، وما هي التدابير اللازمة اتخاذها لاستقبال الأمور ومواجهة الأحداث، وتسييرها وفقاً للمنهج النبوي، والتحكم بها على أساس رؤية إسلامية محمّدية، لا أن الحوادث تتحكّم بالأُمّة فتوجهها وفقاً لما تمليه عليها المستجدّات.

ثانياً: أصحاب المدارس الفكرية السياسية

مثّلت هذه المدارس طروحات سياسية مختلفة، فكانت بعضها تتربّص للأحداث السياسية المتسارعة، وهي توّاقة يومذاك لنيل مآربها السياسية كالوصول إلى الحكم بأي طريقة كانت، وبعضها ترى السلامة وحب العافية، وتجنّب دخول أي معترك سياسي لتضمن بذلك الإبقاء على شخصيتها مجاراة لأي وضع سياسي كان، حتّى على حساب الأمّة وحيثية المبادئ الرساليّة، لذا عانى الإمام عليه السلام من هذه الحركات السياسية، ومناوراتها وهو ينافح عمّا عزم عليه من الإصلاح، وذلك إبان نهضته المقدّسة.

١ ـ مدرسة آل الزبير

كان صاحبها عبدالله بن الزبير، ذا التاريخ السياسي المشحون بالمنافسة السياسية للبيت العلوي آنذاك، فقد ورث عبدالله هذا، مواقف الخصومة والعداء لآل علي من التشكيلة السياسية الثلاثية، والتي مهّدت لشنّ حرب الجمل المشهودة بين طائفتين من المسلمين، وكانت لهذه الشخصية مواقفها المشهورة في تسييس المواقف ودفع الصراعات الفردية إلى واجهة الأحداث واستغلالها كحضورٍ فعّال يساعد على الوصول إلى الأهداف، وكانت مناوراته السياسية مع آل أبي طالب متلكئة لم يكتب لها النجاح، لفقدانه المكانة الدينية والحظوة الاجتماعية التي كان يمتلكها بنو علي وأصحابهم، لذا كان يتربّص بهم الدوائر، ويرجو يوماً تخلو منه

المدينة والحجاز منهم، ليُتاح له الأمر في تنفيذ طموحه السياسي، واستغلال هذه الخلوة العلوية في رفع شعاراته المناوئة للحكم الاموي وعلى أساس فلسفته وطريقته المغايرة لنهضة العلويين أو الداعين لهم؛ لذا فقد كان يرجو اليوم الذي يخرج فيه الحسين من الحجاز ليخلو له الجوّ السياسي، وينفرد في تحرّكه، فإن وجود الحسين يشغل الآن جميع الخارطة السياسية للحجاز، واسمه ـ بأبي وأُمّي ـ يحتلّ كلّ واجهة اجتماعية، فما الذي يبقى لابن الزبير غير التبعية السياسية للإمام الحسين؟ وهو الأمر الذي لن يرتضيه عبدالله أبداً، طمعاً منه في الوصول إلى هدفه المنشود مستقلّاً، والإبقاء ضمن حدود المناورات السياسية الفاشلة التي كان الإمام مطّلعاً عليها جملة وتفصيلاً، لذا فقد دخل على الإمام يوماً مع جملة من أهل الحجاز فقال له: «أبا عبدالله ما عندك فوالله لقد خفت الله في ترك جهاد هؤلاء القوم على ظلمهم واستذلالهم الصالحين في عباد الله، فقال الحسين: قد عزمت على إتيان الكوفة، فقال وفّقك الله، أما لو أن لي بها مثل أنصارك ما عدلتُ عنها، ثمّ خاف أن يتهمه، فقال: ولو أقمت بمكانك فدعوتنا وأهل الحجاز إلى بيعتك أجبناك وكنّا إليك سراعاً، وكنت أحقّ بذلك من يزيد وأبي يزيد»(١١).

لذا عرّف الإمام أصحابه بنوايا هذا فقال: «إن هذا ـ أي ابن الزبير ـ ليس من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز وقد علم أن الناس لا يعدلونه بي، فودّ أني خرجت حتّى يخلو له»(١٢).

أجل وكيف تستقيم أُمور هذا وأمثاله مادام سبط النبيّ متصدّياً للنهضة، وكيف تُسمع دعوة أخرى وابن فاطمة يدعو لطلب الإصلاح في أُمّة جدّه، ومن ذلك جُمّدت كلّ الحركات مادام الحسين شاخصاً في دعوته، فكان لهذا الأمر أثر في دعوة ابن الزبير لإدراكه «أن أهل الحجاز لا يبايعونه أبداً مادام الحسين بالبلد، وأن حسيناً أعظم في أعينهم وأنفسهم منه، وأطوع في الناس فيه»(١٣).

كانت هذه أهم العوامل التي تسبّبت في استئناف حركات مدرسة آل الزبير، وهي الأسباب ذاتها التي أجهضت حركات مدرسة آل الزبير، فهل بعد مدرسة آل علي نجاح؟!!

٢ ـ مدرسة عبدالله ابن عمر

لن يخلو أي زمان من شخصيات متراخية، تُمثّل حالات الترف الاجتماعي، بسبب ما تملكه من تراثٍ لعناوين سياسية أو دينية أو اجتماعية، تحاول أن تعيش على فُتات هذه المخلّفات ذات العناوين البرّاقة، وهي لن تملك قراراً واحداً يُعبّر عن شخصيتها، أو تحرّك يترجم فلسفتها، وهي إضافة إلى ذلك تستنكر أي تحرّك إصلاحي أو توجّه ثوري، بل تستغرب من قيام أي معارضة داعية للتغيير، والإمام الحسين عليه السلام حينما يواجهه عبدالله ابن عمر باعتراضه على خروجه والطلب منه الابقاء على وضعه الاجتماعي الممتاز الذي يمتلكه الحسين عليه السلام، فإن الإمام لايسمع من ابن عمر الشيء الجديد، بل كانت نصائحه هذه تجديداً للعهد بنظرته التراجعية الشديدة، فقد عرفه الإمام عليه السلام كما عرفه النظام الأموي بالشخصية المستكينة للأحداث، لذا كانت دوائر النظام لم تحسب له ذلك الحساب، كما هو تعبير الطبري عمّن أُخذت البيعة منه بأن ابن عمر هذا «تركوه وكانوا لايتخوّفونه»[١٤]

فما كان بينه وبين الإمام عليه السلام من الطلب في البقاء وعدم الخروج إلّا تعبيراً عن وجهة نظر وقراءة أخرى يعرضها لنا التاريخ لفلسفة عاشوراء، وإن نهضة الإمام عليه السلام واجهت كل المدارس الفكرية، وتعاملت مع جميع الفلسفات حتّى أضحت هذه النهضة المباركة تعلن عن كلّ الآراء وتُسقط الأقنعة عن كلّ الوجوه، وتكشف النقاب عن دواخل الناس ومكنوناتهم، لذا فقد حاور الإمام الحسين عبدالله بن عمر بلغته الخاصّة، ودخل إليه من حيث يريد، وقال الإمام في آخر حديثه «اتق الله يا أبا عبد الرحمن ولا تدعنَّ نصرتي»، حيث سأله الإمام عليه السلام بتقوى الله في الخروج معه ومناصرته، وليس التقوى القعود للعبادة ولزوم المساجد والأمّة تستباح من آل أبي سفيان، والإسلام ينتهك ولايرقبون في الله إلّاً ولا ذمّة.

وقد عرّفه الإمام أن من أرقى درجات الطاعة لله تعالى، وأعظم العبودية إليه هو تقديم الدماء وبذل المهج من أجل أن تبقى كلمة الله هي العليا، وقد اشتهر عن ابن عمر هذا العبادة ولزوم المسجد ليلاً ونهاراً، وقد آثر العزلة والانزواء. هذه هي النظرة الباهتة للأحداث، وتلك هي المواقف المترهلة لما يجري من انتهاك لحرمات الله، وبعض مشغولٌ بالعبادة [!] والانزواء عن الناس، فهل هذه هي العبادة حقّاً؟!!

المعالم السياسية لهذه المدرسة

١ ـ في خضمّ الصراع السياسي المحتدم على الساحة الإسلامية، طفحت إلى سطح الأحداث اتجاهات سياسية لا تمثّل السلوك الديني الصحيح، أو المنهجية الإسلامية الناصعة، فقد كانت بثوراً تشوّه الوجه الإسلامي بسبب تقادم تراث سياسي موروث، والتزام فلسفات تقليدية ترى أن لها الحق في نظام الحكم وإدارة المجتمع الإسلامي، وتحت عناوين مستهلكة، لذا كانت تتحاور مع الإمام على أساس رؤى ومنهجيات خاصّة غير خافية على الإمام وضمن تحركاتٍ دقيقة محسوبة.

٢ ـ كانت أُطروحة عاشوراء، قد عانت من فهم ارتجاجي مرتبك، تتجاذبه أفهام سياسية مضطربة، بين الانهزامية الاصلاحية لبعض الشخصيات، وبين شخصيات انتفاعية تعيش على فتات الأحداث السياسية الساخنة، وكل منها مثّل مدرسة سياسية في الفهم والإدراك، أدّت أدوارها بما يتناسب ومعطيات منهجه، فبين ناصح للامام بالسكوت والانعزال وعدم القيام بأي عمل سياسي بل الخضوع للأمر الواقع بما صارت إليه الأحداث، وبين راغب في إخراج الإمام من حوزة نشاطاته، لتخلو له ساحة الأحداث وإبراز نشاطاته السياسية من دون منافس.

وقد استفاد الإمام من هاتين المدرستين وغيرهما في تعرية المواقف الشاذة، والفلسفات الانهزامية، وإعلان مبادئ نهضته المباركة على أسماع الملأ العام بقوله: إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولكن خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي صلى الله عليه وآله وسلم.

هل بقيت نهضة الإمام لغزاً محيّراً؟

عزّ على الإمام أن تبقى ثورته لغزاً يحتجّ به المتخلّفون عن نصرته، أو يتعهّد التاريخ الانفعالي ـ كالذي بين أيدينا ـ أن يُلقي نظراته التحليليّة على عواهنها. فالمدارس التاريخية مع وضوح الثورة والإجماع على ذكر بنودها، شذّت عن مناهجها الموضوعية والتزمت وجهات نظر فردية أو جماعية تعبّر عن فلسفة،

لتفسير أسباب الثورة على أساس طروحاتها الخاصّة، ولم يسع الإمام أن يترك الوقت سدىً ليستقبل طروحات فردية يردّ على كلّ واحدة منها لينتزع منها قناعة فردية في فلسفة خروجه، بل لم يحتج الإمام عليه السلام إلّا إلى دبلوماسية سياسية تضمن له الرد على هذه الفرديات الفلسفية بلياقة يقتضيها المقام وتفرضها ضرورة الأعراف الاجتماعية، وعلى أساس مكانة تلك الشخصية وتأثيرها بالحدث، لذا نجد الإمام عليه السلام في ردوده على هؤلاء قد راعى أفهام القوم ومدى استيعابهم لطروحاته الإصلاحية، لكن بياناته العامة لم تكن غريبة على الأذهان بل هي قديمة قِدم الرسالة، ولم تكن أسباب نهضته بالجديدة على الأمّة، بل هي إصلاح؛ أمر بمعروف؛ نهي عن منكر، محاور ثلاث هي إلى ضرورات الدين أقرب منها إلى الطروحات السياسية المفتعلة.

فالعجب إذن ممّن استنكر على الإمام قيامه، وكانت الأمّة عند ذاك مسؤولة بشدّة في هضم هذه الاطروحة المنتزعة من روح الإسلام الأصيل، ولا حاجة أبداً إلى استعلام الإمام عن أسباب خروجه، وهي إحدى العثرات الثقافية التي عانتها الأمّة، والتي لن تبرَّر بحال، بل كان عليها أن تُسلّم لكل طرح حسيني في تلك الظروف العصيبة.

فانحداره عليه السلام من بيت الرسالة وإرضاعه بفيوضات الوحي، أهّلته إلى نجاح أي مهمّة إصلاحية يضطلع بها، وكان على الأمّة الانخراط في ركب الإصلاح الإمامي هذا.

لكن التلكؤ الذي أصاب الأمّة آنذاك، والتهاون المؤسف في احتضان هذه الثورة فوراً دفع الإمام إلى أن يبعث برسالته لكل الأجيال القادمة ومنها الحاضرة في عصره عليه السلام ، وهي ورقة عمل للإصلاح والتغيير تقرأها الأمّة بفهم حسيني، فوصيّته التي كتبها إلى أخيه محمّد بن الحنفية، هي موجّهةٌ لكل الأمم المهضومة، والمغصوبة حقوقها، وهو الميراث الذي ترثه الأجيال بهذه الوصية المحمّدية، فالحسين لايوصي بذهب ولا فضّة، بل أوصى بمبادئه الإصلاحية، وأخلاقيته الثورية تتقاسمها الأجيال كلٌّ حسب ما يمتّ إليه بنسب الرسالة، أو بسبب الإصلاح، وهذه صورة الوصية كتبها بمداد دمه الشريف:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به الحسين بن علي عليه السلام إلى أخيه محمّد بن الحنفية، أن الحسين يشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، وأن محمّداً عبده ورسوله جاء بالحق من عنده، وأن الجنّة حق، والنار حق، والساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن ردّ عليَّ هذا أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم، وهو خير الحاكمين.

فهل حازت الأمّة بهذه الوصية من ميراث الحسين؟ وهل تعاملت معها بأدب القرآن في قوله تعالى: يقولون ربّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين؟ (١٥)

مدارس الفكر ما بعد عهد الإمام عليه السلام

لم تنته ثورة الإمام بالعرض العسكري السريع الذي أنهى على الثلّة الخَيّرة من آل النبيّ وأصحابهم ظهيرة ذلك اليوم الحزين، ففي عاشوراء تركت تلك الدماء الزواكي نزيفاً لن ينقطع من العطاء. فمن ثورةٍ إلى انتفاضة، إلى احتجاج، إلى حركة ثورية، إلى فلسفة إصلاح، ترتسم طريقها على خطى عاشوراء الحسين. والمستقرئ لجميع ثورات الإصلاح في العالم يجد نبض الحسين في عروق هذه الثورات، ونظراته القدسية ترعى نزعات أفكارها، وشفاهها تُسبِّح باسم الحسين وعلى ترنيمة عاشوراء. ومع ذلك، فإن الافهام لن تتفق في قراءة ثورة الإمام على وتيرةٍ واحدة، بل شذَّت فيها الرؤى، مراعاةً لنزعاتها السياسية وفلسفاتها الاعتقادية.

وعاشوراء هي المسافة القصيرة جدّاً للوصول إلى أعماق كلّ طريقة من هذه الطرق المذهبية التي تحاول قراءة عاشوراء. فكلّما حاولت هذه المدارس أن تفهم

عاشوراء أتاحت المجال للأمّة أن تقرأ عن نفس تلك المدارس وأن تكشف عن تلك الرؤى، ولذا نشأت مدارس الفكر المختلفة كلٌ منها يحاور عاشوراء وعلى طريقته الخاصّة ومنهجه الذي اصطفاه لنفسه، ليعبّر بعد ذلك عن مدى فهمه لرسالة الإسلام ومبادئ السماء.

١ ـ المدارس الثورية

نشأت بعد عاشوراء مدارس ثورية، هي في حقيقتها نزعات انتقامية تأججت في نفوس الأمّة بعدما رأت ما حلَّ بالعترة الطاهرة لآل الرسول، من القتل والتنكيل، وبعدما كشف النظام عن مخطّطاته العدوانية لتصفية أي حركة إصلاح، وقد ابتعد تماماً عن منطق الإسلام الأصيل والتزم بالأساليب الخطابية المجرّدة، والعناوين الإسلامية الباهتة، والأمّة مع هذا ترزح تحت نير مطامع النظام وقد هُتِكتْ حرماتها، واستبيحت مقدّساتها بعدما حوّل النظام الخلافة الراشدة إلى مُلك عضوض. وقد ساهمت نهضة عاشوراء في النقلة الثورية السريعة لأُمّة استكانت لذلّ الأمويين، بعدما فقدت أدوات الإصلاح والتغيير، لابتعادها عن قيادة الإصلاح الشرعية، لذا وضعت عاشوراء اللّمسات الأخيرة لحركات التحرّر وتوجهات الاصلاح المستقبليّة، وجنَت الأمّة ثمار الثورة بفترة قياسية، وإليك طرفاً من أخبارها:

أ ـ ثورة التّوابين

كانت ثورة التوّابين نتاجاً بكراً لثورة عاشوراء، وهي الاستجابة السريعة للنداء الذي أطلقه الإمام طلباً لنصرة مبادئ السماء، حيث وقف بين الصفّين يرسل استغاثته لكل الأجيال منادياً: هل من ناصرٍ، هل من معين؟ وقد قصد ـ بأبي وأُمّي ـ أن نصرته هذه هي الإبقاء على كلّ ما جاء به من مبادئ في قلوب الأمّة حيّة طرية على مدى الأجيال.

كان الكوفيون قد ندموا على خذلان الإمام، وقد قُتل وهو بين أظهرهم، لم ينصروه ولم يغيثوه «ورأوا أن لا يغسلُ عارَهم والإثم ـ الذي ـ عليهم، إلّا قتل من قتله والقتل فيهم»(١٦)، ثمّ وطّنوا للموت أنفسهم، وهَبّوا لاعلان استنكارهم

والمطالبة بقتل من قتل الإمام. وفعلاً كانت ملاحم من الثبات لم يُر مثلها بأساً ولا تنكيلاً بقوات النظام، حتّى سقط المئات من القتلى، وكانت الحرب بينهم سجالاً.

لم تكن في حسابات التوّابين إسقاط النظام أو تحقيق أي هدف عسكري، بل كانت مناورة ثورية، تُعطي الضوء الأخضر لحركات الإصلاح القادمة، ولتُمهّد الطريق لقوافل الثورات المتلاحقة، ثمّ تمتدّ نيرانها بعد أن تُحرق رموز النظام الأموي، إلى الأنظمة التالية بعده.

إن تقييم حركات التوّابين يقف عند حدود إفراغ شحنة من الانتقام النفسي الذي تأجج بعد عاشوراء، لكنّه أذَلَّ رقاب الأمويين إلى الحدّ الذي أفزع رموزه لتحسّب حركات قريبة، وقد عاش هذا النظام حتّى نهايته متحفّزاً مذعوراً تلاحقه لعنة يوم عاشوراء.

ب ـ ثورة المختار

كانت ثورة المختار هي المرحلة الثانية من مراحل ثورة التوّابين، وقد حقّق فيها التوّابون أهدافهم العسكرية المرجوة، حيث تمّ إسقاط الكوفة وتأسيس التجربة النموذجية للحكم العلوي، وملاحقة كلّ من اشترك في قتل الحسين عليه السلام والتنكيل بهم وقتل رموز النظام، فقد كان المختار رحمه الله سيّداً من سادة الفهم الثوري الحسيني، قد قرأ عاشوراء قبل قيامه، وكان يترقّب قدوم الحسين عليه السلام، إلّا أن قوّات ابن زياد عاجلته بالاعتقال وإلقائه في سجون النظام، لمعرفتهم المسبقة بتحرّكاته المعارضة الشديدة، وكان خروجه من السجن قد فتح على التوّابين آفاق التحرّك العسكري الدقيق، والحسابات السياسية المضمونة، لذا سجّلت ثورة المختار حالة الوعي الثوري الذي عاشته الأمّة بعد واقعة الطف.

ج ـ ثورة المدينة

أفلحت المدينة بالمدّ الثوري الحسيني، بعد سني عجاف من أي بادرة ثورية، أو أي أُطروحة اصلاح، رغم الأزمات السياسية التي عصفت بهيكلتها الاجتماعية، وبنيتها الدينية، والعواصف السياسية التي هبّت بعد مقتل الحسين، بلورت للأمّة تحركاتها ضمن مدى اصلاحي جذري، وكان للمدينة حظ وافر من

هذه الهزّات السياسية العنيفة، فبعد عودة الوفد المدني إلى بلاده، استنكر قبائح يزيد بشكل يُحتِّم على المسلم الغيور رفضه وإعلان البراءة منه، فقد رأى هؤلاء عن قرب شذوذ هذا الحاكم المستبدّ وكفره ومروقه عن الدين «فلما قدم أولئك الوفد المدينة، قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعيبه وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويضرب بالطنابير، ويعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الخراب ـ وهم اللصوص ـ وإنّا نشهدكم إنا قد خلعناه. وقام عبدالله بن حنظلة الغسيل فقال: جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلّا بني هؤلاء لجاهدته بهم، وقد أعطاني وأكرمني وما قبلت منه عطاءه إلّا لأتقوى به. فخلعه الناس، وبايعوا عبدالله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد وولّوه عليهم.. والمنذر بن الزبير كان ممّن يحرّض الناس على يزيد وقال: إنّه قد أجازني بمئة ألف ولايمنعني ما صنع بي أن أخبركم خبره وأصدقكم عنه، والله إنه ليشرب الخمر والله إنّه ليسكر حتّى يدع الصلاة. وعابه بمثل ما عابه به أصحابه وأشدّ..»(١٧).

وهكذا كان حال المدنيين، ولعمري ماهي إلّا دماءٌ حسينية قد تحرّكت فيهم، فألهبت شعورهم، لكن ناشدتكم الله ألم يعلن الإمام من قبل ما كان من يزيد وفجوره في قوله: «يزيد رجل فاسق شارب خمر قاتل النفس المحرّمة معلن بالفسق ومثلي لايبايع مثله»؟ (١٨)

ومع ذلك فلم يجد لهذا الاعلان آذاناً صاغية، إلّا بعد أن يُقَدِّم دمهُ الغالي فداءً لمبادئ الإصلاح على أمل أن تجري دماء أخرى للمهمّة ذاتها.

فعبد الله بن مطيع العدوي الذي كان ينهى الحسين عن الخروج، يتصدر ثورة المدينة والاعلان عن الاصلاح الذي سبقه إليه الإمام، فكان يُحرِّض الناس على خلع يزيد لانتهاكه حرمة الإسلام، والعرب، فشتّان ما بين أمسه ويومه، لكن مبادئ عاشوراء مدرسة تصنع الثوار، ومشروع مستمرّ من التضحيات.

د ـ ثورة العلويين وأشياعهم

مازال الانخراط إلى مدارس الثورة مستمرّاً، ومازال روّادها يقرأون ثورة الإمام لتتخرّج منه أفواج الثوّار. وثورة عاشوراء، ثورة ولود، تلد في كلّ آنٍ ثورة،

تلاحق آل أبي سفيان في كلّ زمان، وإليك بريقاً من هذه الثورات يسجّلها التاريخ وتقرأها الأجيال:

ـ ثورة زيد بن علي، سنة ١٢١، خرج بالكوفة على هشام بن عبد الملك بن مروان[١٩].

ـ ثورة يحيى بن زيد بن علي سنة ١٢٦، خرج بالجوجزان من بلاد خراسان في عهد الوليد بن يزيد[٢٠].

ـ ثورة محمّد النفس الزكية سنة ١٤٥، خرج بالمدينة في عهد أبي جعفر المنصور[٢١].

ـ ثورة إبراهيم بن عبدالله أخي محمّد النفس الزكية سنة ١٤٥، خرج بالبصرة في عهد أبي جعفر المنصور[٢٢].

ـ ثورة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، قتيل فخ سنة ١٦٩، في مكة في عهد الهادي العباسي[٢٣].

ـ حركة يحيى وإدريس ابني عبدالله بن الحسن حيث قام الأوّل في الشرق، وكانت حركة إدريس في المغرب سنة ١٧٢ في عهد الرشيد العباسي[٢٤].

ـ ثورة أبي السرايا ومحمّد بن إبراهيم بن إسماعيل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١٩٩، خرج بالكوفة في عهد المأمون[٢٥].

ـ حركة محمّد الديباج ابن الإمام جعفر الصادق في الحجاز في عهد المأمون العباسي سنة ٢٠٠ هـ[٢٦].

ـ ثورة علي بن محمّد ابن الإمام جعفر الصادق في الكوفة سنة ٢٠١، في عهد المأمون العباسي[٢٧].

ـ ثورة إبراهيم بن موسى بن جعفر، خرج في اليمن سنة ٢٠٠، في عهد المأمون[٢٨].

ـ ثورة عبد الرحمن بن أحمد العلوي في اليمن سنة ٢٠٧، في عهد المأمون[٢٩].

ـ ثورة محمّد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، خرج سنة ٢١٩ في الرقة في عهد المعتصم العبّاسي[٣٠].

هذه قائمة من ثورات العلويين وأشياعهم تحرّكت ضمن دائرة من الاصلاح والتغيير وفي إطار من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ذات الشعار الذي رفعه الإمام الحسين، فقد استلهمت هذه المدارس من أطروحة الشهادة، وفكر الإمام الشهيد، بالرغم من الاختلاف في معطياتها وأفهامها إلّا أنها جميعاً تفيّأت ظلال عاشوراء.

١ ـ مدرسة الإمام الخميني الثورية

نُفرد البحث لهذه المدرسة ولم ندخلها ضمن المدارس الثورية، لإطلالتها الجديدة على العالم الإسلامي المعاصر، وما رافق الصحوة الإسلامية من نهوض مبكر إبان انطلاق هذه المدرسة الثورية.

لقد قرأ الإمام الخميني‌ﷺ ثورة عاشوراء بعين حسينية وهي قراءة تختلف نتائجها ومعطياتها عن بعض القراءات الثورية، ذلك لأن الإمام الخميني قد استخدم قراءته هذه في برمجة تحرّكاته الثورية وبما يناسب متطلّبات الأمّة لمواجهة كلّ المستجدات، حيث أدرك أن انطلاقته لا تتمّ إلّا في إطار حسيني ودون ذلك لم تستطع الأمّة من إعادة ذاتها وبرمجة إصلاحاتها.

لقد فهم الإمام الخميني أن من معطيات ثورة الإمام الحسين عليه السلام تتبلور جميع الرؤى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ولكل العصور، ومن خلالها تنفتح آفاق الجهاد والكفاح لمواجهة أشرس هجمات الأعداء، فكان يقرأها قراءة تطبيقيّة، وكان يعي أنّ الأمّة متى ما ذابت في ثورة الحسين، كانت حسينية، في فكرها، في تحرّكها، في نظراتها المستقبليّة. ثمّ انتهج نهجاً آخر في تسليط الأضواء على ثورة عاشوراء ليترشّح من خلالها على الأمّة عطاءات فكر الحسين.

لقد كانت مفاهيم عاشوراء تفتح على الإمام الخميني بصيرة إسلامية خالصة، ليعرف الإسلام بصيغته المحمّدية، وقد قرأ القرآن بقراءة حسينية.

ففي مناسبة ولادة سيّد الشهداء، كان الإمام الخميني يُلقي دروسه الحسينية على مجاميع الحرس الثوري، في بيانٍ تضمّن قوله:

«لو لم تكن عاشوراء لما كنّا نعرف ما الذي حلّ بالقرآن الكريم والإسلام

العزيز، إذ إنّ المنطق الجاهلي لآل أبي سفيان أراد هدم الوحي والكتاب، ويزيد ـ هذا المتخلّف من عصر عبادة الأصنام المظلم ـ أراد اجتثاث أساس الإسلام ظنّاً منه أن يتحقّق له ذلك بقتل أبناء الوحي، وأعلن صراحة «لاخبر جاء ولا وحيٌ نزل» لتقويض صرح الحكومة الإلهية.

لكن إرادة الله تعالى كانت وماتزال تؤكّد أنّ الإسلام يبقى إلى الأبد محرراً، والقرآن هادياً، تحميه وتحييه دماء الشهداء، أمثال أبناء الوحي فهذا الحسين بن علي عليه السلام عصارة النبوّة وتذكار الولاية، تحرَّك ليقدّم روحه وأرواح أعزائه فداء لعقيدته ولأُمّة النبيّ الأكرم العظيمة، يغلي هذا الدم الطاهر على امتداد التاريخ ليسقي دين الله ويحرس الوحي وثماره»[٣١].

ثم بارك للحرس الثوري هذا اليوم وهنّأهم بقرارهم لاختيار ولادة الإمام الحسين عليه السلام يوماً للحرس الثوري، فقال: «واليوم وقد أعلن حرس الثورة واللجان الثورية في العصر الحاضر أن يكون هذا اليوم العظيم المبارك الخالد يوماً للحرس فإنّهم يتعهّدون مسؤوليّة كبرى وواجباً عظيماً وكأنّهم اختاروا هذا اليوم إحياءً لذكرى عاشوراء ولأهداف التضحيات وتقديم الأرواح في كربلاء، وإنّه حقّاً اختيار حسن، وحسنة هذه المسؤوليّة الكبرى التي تدعو إلى إدامة طريق الدم الأحمر للتشيّع، وكبيرة تلك المسؤوليّة التي هدفها التضحية والفداء، وكم ألطف الله على هذا الدم إذ جعله ثار الله وأخذه أبعد من حدود الحجب والنور والظلمة ونقّاه من الأنانية وحب الذات إلى حدّ العبودية جوهرة كنهها الربوبيّة وزيّنه به إلّا أن أيدينا لم تبلغه»[٣٢].

هكذا قرأ الإمام الخميني ثورة عاشوراء، ووعاها بكل جوارحه، وألقاها للأمّة يُعلّمها كيف تقرأ تراث الإمام في ثورته وفكره.

إن من معالم شخصية الإمام ذوبانه في ثورة سيّد الشهداء، وقراءته للسفر الحسيني الخالد؛ يتحدّى من خلالها مؤامرات كلّ الأعداء، وكان سرّ نجاحه هو منهجيته الحسينية حتّى صار فكره أُنشودة الثوّار على ترنيمة عاشوراء.

لقد كان الإمام الخميني دؤوباً في تقييم ثورة عاشوراء بما تسمح له مناسباتها ليُعيد للأذهان ذلك اليوم الخالد من أيّام سيّد الشهداء، حيث أكّد في بيان

آخر له:

«إنّ استشهاد سيّد المظلومين وصحابة القرآن يوم عاشوراء كان بداية للحياة الخالدة للإسلام والحياة الأبدية للقرآن الكريم.. فتلك الشهادة المظلومة، واسارة آل الله قضت على عروش اليزيديين الذين أرادوا بتصوّرهم الواهي وباسم الإسلام القضاء على أساس الوحي، سلمتها إلى الفناء الأبدي وأزالت تلك الحركة السفيانية من مسرح التاريخ»[٣٣].

إن هذا التقييم لثورة الإمام الحسين عليه السلام، لايفهمه إلّا الثوار، ولايقرأ ملاحم عاشوراء إلّا أصحاب المنطق المحمّدي الأصيل، وعلى هذا الأساس قامت صروح مدرسة الإمام الخميني الثورية.

الهوامش

١ ـ المائدة : ٢٤ .

٢ ـ مقتل الحسين ، عبد الرزاق المقرّم ص ١٣٤ .

٣ ـ المصدر نفسه .

٤ ـ مقتل الحسين ، عبد الرزاق المقرّم ص ١٧٦ .

٥ ـ مقتل الحسين ، للسيّد عبد الرزاق المقرّم ص ١٣٦ .

٦ ـ المصدر نفسه .

٧ ـ مقتل الحسين للسيّد عبد الرزاق المقرم ص ١٣٥ .

٨ ـ المصدر نفسه .

٩ ـ مقتل الحسين للسيد عبدالرزاق المقرم ص ١٦٧ .

١٠ ـ هود : ٨٨ .

١١ ـ مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم ص ١٦٨ .

١٢ ـ مروج الذهب للمسعودي ج ٣ : ص ٦٥ .

١٣ ـ مقتل الحسين للسيد عبدالرزاق المقرم .

١٤ ـ تاريخ الطبري ص ٣٥١ .

١٥ ـ تاريخ الطبري ص ٣٤٢ .

١٦ ـ المائدة : ٨٣ .

١٧ ـ الكامل لابن الأثير ٣ : ٣٣٢ .

١٨ ـ الكامل لابن الأثير ٣ : ٣٠٧ .

١٩ ـ حياة الإمام الحسين ، باقر شريف القرشي ج ٣ ص ٢٥٥ .

٢٠ ـ مروج الذهب للمسعودي ٣ : ٢١٧ .

٢١ ـ مروج الذهب للمسعودي ٣ : ٢٥٥ .

٢٢ ـ ٣٠ ـ جهاد الشيعة، د . سميرة الليثي ، على التوالي ص ١٢٦ ، ص ١٤٧ ، ص ٢٦٧ ، ص ٢٩٥ ، ص ٢١٩ ، ص ٢٣٦ ، ص ٣٦٤ ، ص ٣٧٣ ، ص ٣٧٥ ، ص ٣٨٠ .

٣١ ـ توجيهات الإمام الخميني إلى المسلمين، ص ٢٨٥ ، وزارة الإرشاد الإسلامي ، طهران ١٤٠٣هـ .

٣٢ ـ توجيهات الإمام الخميني إلى المسلمين ، ص ٢٨٦ .

٣٣ ـ المصدر نفسه ص ٢٧٩ .

الأدب الرفيع

دراسة في أدب كربلاء ومقارنة بين أدب المعسكرين

علي آل سيّد علي خان

لكلّ ثورة أدبٌ يمثّل هويّتها؛ يرسم معالمها ويحدّد أهدافها، وخط سيرها، وهو الوسيلة الإعلامية التي يستعملها رجال تلك الثورة في بيان حجّتهم وإرسال أدلّتهم، فلا بدّ أن يكون حاوياً وسائل الاقناع والأدلّة والبراهين على صدق ادّعاء الثائر وأحقّية ما يدعو إليه بأسلوب مؤثّر في النفوس بحيث يهزّ المشاعر ويحرّك العواطف فوق قوّة الاقناع حتّى يجلب أكبر قدر ممكن من الأنصار الذين يؤمنون بأهدافه إيماناً يجعلهم على استعداد لتقديم أنفسهم قرابين وضحايا أمام قائدهم وفي سبيل ثورتهم وأهدافها.

ولأدب الثورة ثلاثة أنواع من الأساليب :

الأوّل : في رحلة الإعداد والتخطيط، ويكون أدباً هادئاً يعتمد على قوّة الحجّة والبرهان. وفيه يصبّ المخطّطون أفكارهم وآراءهم، ويرسمون الحال التي تعيشها الأمّة بحيث تبدو على أسوأ مايمكن من صورة، وإلى جانبها صورة الحال فيما لو تحقّقت أهدافهم، بحيث تبدو على أحسن ما يمكن من صورة، متناغمة في ذلك مع عواطف الناس متجاوبة مع آمالهم مزيلة لآلامهم بحيث يتوقون إلى الوضع الجديد الذي ينسجم وأُمنياتهم.

الثاني : في وقت الثورة، وهو أدب ثوري يؤجج الحماس في النفوس الثائرة، ويوقد لهب الاندفاع لدى الثوار بحيث يقتحمون الأهوال بلا تردّد وبعزيمة وإقدام.

الثالث : بعد الثورة، فإن انتصرت فيعود إلى الأسلوب الهادئ الطويل النفس وفيه تظهر أساليب عرض سياسة الثائرين والدفاع عن وسائلهم في الحكم وإدارة البلاد بحيث يجذب الناس ويشدّهم إلى جماعة الحكم فيلتفّون حولهم مدافعين ومضحّين.

أمّا إذا فشلت فسيختلف الأسلوب حيث يأخذ الجانب المأساوي الذي يجعل النفوس تشتعل ألماً وحرقةً، فتنشدّ إلى هؤلاء المظلومين وتتأجج حقداً على الظالمين، وهنا يكون الأدب عاطفيّاً سريعاً حزيناً مليئاً بالدموع والألم، فيه لوعة وحسرة ونقمة.

وثورة الحسين عليه السلام مرّت بهذه المراحل الثلاث وكان الأدب ملازماً لها، فقد اتبع ثلاثة أساليب حسب المراحل التي مرَّ بها، ويمكن رسم هذه المراحل أو تحديدها حسب التقسيم الآتي:

١ ـ من خروجه من المدينة إلى مكّة، ثمّ من مكّة إلى العراق حتّى نزوله كربلاء، وهي مرحلة الإعداد والتخطيط والدعوة إلى نصرته عليه السلام .

٢ ـ مرحلة الثورة وانحصر في يومي التاسع والعاشر من المحرّم.

٣ ـ مرحلة ما بعد استشهاد الحسين عليه السلام وتبدأ بمقتل الحسين عليه السلام والمسير إلى الكوفة ثمّ إلى الشام، والعودة من الشام إلى المدينة مروراً بكربلاء.

وقد استمر هذا الأدب منذ فاجعة كربلاء إلى يومنا هذا وسيبقى إلى آخر الدهر، وهذا سرٌّ إلٰهي عظيم.

نقصر بحثنا على المرحلة الحاسمة أي منذ وصول الحسين عليه السلام مشارف الكوفة حتّى مصرعه في كربلاء، متبعين المنهجية الآتية:

١ ـ مواعظ الحسين وخطبه.

٢ ـ مواقف أصحابه المبدئية.

٣ ـ موقف المعسكر الآخر من قيادته.

٣ ـ محاورات المعسكرين.

٤ ـ أدب وضيع صدر من المعسكر الآخر.

بدأت لهجة الحسين تأخذ منحىً خاصّاً بعد أن عرف ما آل إليه وضع الكوفة، وبعد أن وصله نبأ مقتل سفيره مسلم بن عقيل عليه السلام، فلابدّ من أن يكون الموقف مختلفاً كثيراً يتواءم والأحوال الجديدة، وأوّل ما بدأ هذا الكلام مع الكتيبة التي أُرسلت إليه بقيادة الحرّ بن يزيد الرياحي، فالحسين عليه السلام مايزال ناصحاً لأُمّته يدعوها إلى ما يصلحها، ولا ينظر إليها عدوّاً، بل عدوّهم المشترك هو الحاكم المتسلّط عليهم، فكان يخيّرهم بين أمرين؛ الأوّل فيه خيرهم وصلاحهم بأن يكونوا معه، والآخر فيه سلامتهم من الابتلاء بدمه وحلول غضب الله عليهم، فهو حريص عليهم، يرجو نجاتهم، فقد وقف أمام معسكر الحر خطيباً فقال:

«أيُّها الناس! معذرة إليكم أقدّمها إلى الله وإلى من حضر من المسلمين ـ أني لم آتكم ولم أقدم إلى بلدكم حتّى أتتني كتبكم، ووفدت عليَّ رسلكم أن أقدم إلينا فإنّه ليس علينا إمام، فلعلَّ الله أن يجمعنا بك على الهدى والحقّ، فإنّ كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه وأثق به من عهودكم ومواثيقكم أدخل معكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين ولقدومي باغضين انصرفت عنكم إلى المكان الذي منه جئت»[١].

كان هذا الكلام بعد صلاة الظهر، وقد تكرّر بعد صلاة العصر أيضاً وفيه التخيير نفسه:

«أمّا بعد أيُّها الناس! فإنكم ان تتّقوا وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان، وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقّنا وكان رأيكم على غير ما أتتني كتبكم وقدمت به عليَّ رسلكم انصرفت عنكم»[٢].

وهنا نجد أن الحسين عليه السلام قد أضاف شيئاً آخر وهو الاستدلال بأحقّيتهم، وما يجب على القوم أن يعرفوه من هذا الحقّ ويعرفوا أصحابه، ثمّ التذكير بأنّهم أهل البيت وأنّهم أولى بالأمر، ثمّ نبههم إلى أمر مهم هو أن هؤلاء الحكّام مغتصبون ما ليس لهم بحقّ... إضافة إلى دعوة أهل العراق إيّاه وما فيها من إلزام لهم في أعناقهم إن هم وفوا بعهودهم... فإن لم ينصروه فالخير لهم في أن يتركوه يرجع

من حيث أتى.

لم يترك الحسين عليه السلام مناسبة إلّا وذكّر الناس بما يجب عليهم، ولذا نجده في موطن آخر يتوجّه إلى أصحاب الحرّ مخاطباً ذاكراً أدلّة جديدة تحمّلهم مسؤوليّة شرعية تجعلهم في عِداد الظالمين إن لم يؤدّوها:

«أيُّها الناس! إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلّاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيِّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله».

وبعد أن ساق هذا الدليل انتقل إلى تطبيق ما ورد في الحديث على السلطة الحاكمة في بلاد المسلمين:

«ألّا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلُّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيّر».

وبعد هذا الوصف الدقيق لهؤلاء الغاصبين ذكّر أهل الكوفة (أصحاب الحرّ) بكتبهم ورسلهم، عارضاً استعداده ـ إن لم ينصروه ـ للرجوع من حيث أتى:

«وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليَّ رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم».

وهنا نلاحظ عنصراً جديداً قد دخل في الموضوع هو البيعة التي هي أكثر إلزاماً لهم لأنّها أصبحت طوقاً في أعناقهم ليس لهم فكاك منها، ثمّ أضاف شيئاً مبدئيّاً وعاطفياً إذ قال:

«فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم، فلكم فيَّ أُسوة».

ثم أضاف عليه السلام شيئاً جديداً آخر هو أنّ حركته وثورته من أجلهم هم فإن خذلوه فهم الخاسرون:

«وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم... فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيَّعتم ﴿ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه، وسيُغني الله عنكم﴾[3]»[4].

ففي النصّ السابق نجد أن الإمام الحسين عليه السلام أكّد أُموراً:

١ ـ الموقف الشرعي لكلّ مسلم تجاه السلطان الجائر المتّصف بعدّة صفات.

٢ ـ تجلّي هذه الصفات في يزيد والطغمة الحاكمة.

٣ ـ إنّه أولى بالتغيير ومجابهة هذه العصابة الحاكمة.

٤ ـ إن هناك بيعة وعهداً في أعناقهم.

٥ ـ إن إتمامهم البيعة فيه رشدهم هم قبل أن يكون له مكسباً شخصيّاً.

٦ ـ بيان منزلته بذكره جدَّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأباه عليّاً وأُمّه فاطمة، وهم يعرفون منزلة هؤلاء ولهم أن يقارنوا بينهم وبين يزيد وآبائه وأُمّهاته.

٧ ـ انّه لم يمتَزْ عنهم ولم يفصل نفسه وأهله عنهم، بل قدّم نفسه وأهل بيته وعياله، وان قائداً هذا فعله لجدير بالاتّباع.

٨ ـ ان ذلك أُسوة لهم، فأهل البيت أُسوة حسنة وقدوة.

٩ ـ بيَّن نتيجة نكثهم عهودهم وبيعتهم ومرد ذلك عليهم، فهو تضييع لأنفسهم ونصيبهم وإخطائهم حظّهم وفي ذلك الخسران المبين.

استمرت خطب الحسين عليه السلام مع هؤلاء القوم الذين رافقوه طول الطريق:

«إنّه قد نزل من الأهل ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيّرت وتكدّرت وأدبر معروفها واستمرّت جدّاً، فلم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحقّ لا يُعمل به، وأن الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة (شهادة) والحياة مع الظالمين إلّا برماً»(٥).

في هذه الخطبة يبدو أن الإمام الحسين عليه السلام قد تيقّن بأن هؤلاء القوم غير تاركيه على أيّة حال، ولذلك صوّر لهم حال الدنيا التي من أجلها يتهالكون، وبذا اشتملت خطبته على ثلاثة محاور:

١ ـ وصف الدنيا وإدبارها والتزهيد فيها.

٢ ـ وصف حال الأمّة وتقاعسها عن الأمر بالحق والنهي عن الباطل.

٣ ـ ترغيب المؤمن ـ في هذا الوسط الوخيم ـ في لقاء الله وهو حق، وترغيبه كذلك في الموت بإعطائه تلك الصورة الجميلة (السعادة) وتحقير الحياة مع هؤلاء

الظالمين بأنّها مصدر السأم والضجر والعيش المرّ.

ثم بعد ذلك نجد أن الحسين عليه السلام يؤكّد للقوم إصراره على الموت بنفس عزيزة دون تراجع لأنّه يقاتل من أجل مبدئه:

سأمضي وما في الموت عارٌ على الفتى إذا ما نوى حقّاً وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مثبوراً يغش ويرغما[٦]

وبعد أن وصل الحسين إلى كربلاء وقد جعجع به في الصحراء حيث لا ماء ولا ظلّ، وأحاطت به الجموع كالسيل، واختبر أصحابه فوجدهم ثابتين لايتزعزعون، ووجد من بني هاشم آل أبي طالب ما يسرّ الفؤاد قال:

«أُثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء، اللّهمّ إني أحمدك على ما أكرمتنا بالنبوّة وعلمّتنا القرآن وفقّهتنا في الدين وأكرمتنا به من قرابة رسولك صلى الله عليه وآله وسلم وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ولم تجعلنا من المشركين واجعلنا من الشاكرين.

أمّا بعد فإنّي لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنّي جميعاً خيراً»[٧].

ونجده عليه السلام يتوجّه إلى أصحابه يصف لهم حال الناس وعبوديتهم للدنيا متّخذاً من هؤلاء القوم دليلاً:

«أمّا بعد فإنّ الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معائشهم فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الدّيّانون»[٨].

ثم نجده بعد ذلك يشكو الدنيا والدهر مهيّجاً مشاعر القوم حاثّاً فيهم روح الاستنهاض، وهي حالة إنسانية وجدانية يعيشها كلّ إنسان سليم الطبع، إذ ما من شيء في هذه الحياة ثابت فكل ما فيها إلى رحيل...

يادهر أفٍّ لك من خليلِ كم لك بالاشراق والأصيلِ
من صاحبٍ أو طالبٍ قتيلِ والدهر لايقنع بالبديلِ
وكل حيٍّ سالك السبيلِ ما أقرب الوعد من الرحيلِ
وإنّما الأمر إلى الجليلِ سبحانه جلَّ عن المثيلِ[٩]

فتجد فيها حسرة وتصويراً لحال الدنيا وتصرّفات الدهر، ثمّ النظر إلى

الرحيل القريب بمنظار واضح، وبعدها التسليم لقضاء الله وقدره.

وعندما أزفت ساعة القتال وتوتّر الوضع وأصبح الأمر على وشك الاشتعال، والترقّب على أشدّه والقلوب واجفة؛ تبدّل أُسلوب الحسين عليه السلام من الكلمات القصار إلى الخطب الطويلة التي تشمل عدّة مواضيع، ويبدو بها ناصحاً واعظاً حريصاً على قومه وكثيراً ما يبكيهم لأنّهم سيُعذّبون فيه:

«أيّها الناس! اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتّى أعظكم بما هو حق لكم عليّ، وحتّى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصَف كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليَّ سبيل، وإن لم تقبلوا منّي العذر ولم تعطوا النصَف ﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثمّ لايكن أمركم عليكم غمّة ثمّ اقضوا إليَّ ولاتنظرون﴾[10] ﴿إنّ وليّي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين﴾»[11].

فكانت هذه مقدّمة وتمهيداً كي يستعد القوم وينصتوا إلى كلامه لأنّهم كثيراً ما كانوا يثيرون اللغط كي لايسمعوه.

«أمّا بعد فانسبوني فانظروا مَن أنا؟ ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألستُ ابن بنت نبيّكم صلّى الله عليه وآله، وابن وصيّه وابن عمّه وأوّل المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربّه؟!».

وهنا نجد شيئاً مهمّاً قد دخل في خطب الإمام عليه السلام فقد أكّد الوصيّة وذكرها ذاكراً معها صفات أمير المؤمنين عليه السلام وكأنّه يقول بعدم شرعية الخلافة الأموية من أصلها فضلاً عن خلافة يزيد.

«أوليس حمزة سيّد الشهداء عم أبي؟ أوليس جعفر الطيّار ذو الجناحين عمّي؟ أولَم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنّة؟ أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟».

وفي هذا المقطع من خطبته نجد تأكيده القول على شخصيته وعن منبته ومنشئه وأهله السالفين، وهو أمر تقدره العرب كثيراً وكأنّه ينبههم إلى مقارنة تاريخية بينه وبين يزيد وعبيد الله الموغل نسبهما بالعار والصفحات السود على المستويين الشخصي والموقف من الإسلام والدولة الإسلامية.

«فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكّون أني ابن بنت نبيّكم؟»

وهنا مايزال الإمام عليه السلام يؤكّد علاقته برسول الله صلى الله عليه وآله وفي ذلك كفاية.

«أخبروني! أتطلبوني بقتيل منكم قتلته؟ أومال لكم استهلكته؟ أو بقصاص من جراحة؟»[١٢].

وهذه المحاكمة الأخيرة إقحام للقوم، وأنى لهم بالجواب؟ وهم يعلمون أن جوابهم بكلمة واحدة هي (لا) فلِمَ إذن يقتلونه؟

«أيُّها الناس! إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض».

وهنا أعاد طلبه وفيه سلامتهم من أن يبتلوا بدمه فيُسخطوا الله عليهم. وعندما رأى إصرارهم، قطع الأمر وحسمه:

«والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد»

«عباد الله ﴿إني عذتُ بربّي وربّكم أن ترجمونِ﴾[١٣] ﴿أعوذ بربّي من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب﴾[١٤]»[١٥].

ويستمرّ الحسين عليه السلام في تضييق الخناق على القوم بخطبه وحججه المشتملة على التقريع والتوبيخ إذ لم ينفع النصح والإرشاد لعلَّ فيهم نبضة قلبٍ من حميّة أو عزّة نفس:

«أيُّها الناس! خطّ الموت على بني آدم مخطَّ القلادة على جيد الفتاة. وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وإنّ لي مصرعاً أنا لاقيه، كأنّي أنظر إلى أوصالي تقطّعها وحوش الفلوات غيراً وعفراً قد ملأت مني أكراشها».

هذا كلام من استسلم للموت وآيس من الحياة إذ ليس له فيها صاحب ولا أنيس، فاشتاق إلى أحبابه الذين رحلوا، فتوقّع نهايته واستقبلها بقلبٍ مطمئن وهدوء واستقرار.

«رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ليوفينا أُجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمته وعترته، ولن تفارقه أعضاؤه وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقرّ بها عينه وتنجز لهم فيها عدته»[١٦].

يظهر هنا الإيمان الراسخ والعقيدة القويّة، فما يرضاه الله يرضونه لا يجزعون ولا يشكون، وهم واثقون فهم جزء من رسول الله ولابدّ أن ينجز لهم ربّهم

ما وعدهم إنّه أصدق قيلاً.

ثم نجد له قولاً آخر بليغاً في أهل الكوفة والجموع التي اجتمعت لقتله واصفاً حال الدنيا وانخداع الإنسان بها:

«الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرَّته، والشقيّ من فتنته، فلا تغرنّكم هذه الدنيا، فإنّها تقطع رجاء من ركن إليها وتخيِّب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمر أسخطتم الله فيه عليكم، فأعرض بوجهه الكريم عنكم وأحلّ بكم نقمته وجنّبكم رحمته، فنعم الربّ ربّنا وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة، وآمنتم بالرسول محمّد، ثمّ إنّكم زحفتم إلى ذريّته تريدون قتلهم بعد أن استحوذ عليكم الشيطان الرجيم فأنساكم ذكر الله العظيم، فتبّاً لكم وما تريدون، إنّا لله وإنّا إليه راجعون ﴿هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبُعداً للقوم الظالمين﴾»[١٧].

من القابليّة البلاغية عند الإمام الحسين عليه السلام أنّه يسترسل بكلامه وينحدر عنه الكلام انحداراً، وكان يستطيع أن يقف ويتكلّم ما شاء الله بنفس القوّة ومسيطراً على سامعه، حتّى إن أعداءه كانوا يعرفون هذه الصفة ولذا كانوا يقاطعونه أو يحاولون عدم سماع ما يقول، حتّى إن عمر بن سعد في موقف من المواقف صاح بأصحابه: «ويلكم كلّموه فإنّه ابن أبيه، والله لو وقف فيكم هكذا يوماً جديداً لما قطع ولما حصر»[١٨]، وهنا حاولوا عدم سماع ما يقول:

«ويلكم ما عليكم أن تنصتوا إليَّ فتسمعوا قولي، وإنّما أدعوكم إلى سبيل الرشاد، فمن أطاعني كان من المرشدين، ومن عصاني كان من المهلكين، وكلٌّ عاصٍ لأمري غير مستمع لقولي، قد انخزلت عطياتكم من الحرام ومُلئت بطونكم من الحرام، فطبع الله على قلوبكم، ويلكم ألا تنصتون؟! ألا تسمعون؟!»

وهنا تلاوم أصحاب عمر بن سعد فصاح بعضهم: أنصتوا له.

وهنا بدأ الحسين بتقريعهم:

«تبّاً لكم أيّتها الجماعة وترحاً، أحين استصرختمونا ولهين متحيرين، فأصرخناكم موجفين مؤدّين مستعدّين، سللتم علينا سيفاً في رقابنا، وحششتم علينا نار الفتن التي جناها عدوّكم وعدوّنا، فأصبحتم إلباً على أوليائكم ويداً عليهم

لأعدائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أصل أصبح لكم فيهم إلّا الحرام من الدنيا أنالوكم، وخسيس عيش طمعتم فيه، من غير حدثٍ كان فينا ولا رأي تفيّل[١٩] لنا».

وهنا تتجلّى البلاغة الهاشمية التي جاءته متسلسلة من سلسلة البلغاء على أروع ما تكون حيث المقارنة والوصف الدقيق لحال هؤلاء القوم الذين يسيرون في منحدرٍ وخيم والخنوع في ظل حكومة تحتقرهم وتستذلّهم، والتخلي عن أهل العزّ والكرامة الذين يريدون أن يرفعوهم ويمنحوهم ما يعزّهم ويكرمهم. ثمّ يستمر الحسين عليه السلام مقرّعاً بصورة تصاعدية:

«فهلّا ـ لكم الويلات ـ إذ كرهتمونا تركتمونا، فتجهزتموها والسيف لم يشهر والجأش طامن، والرأي لما يُستحصَف، ولكن أسرعتم علينا كطيرة الدبا، وتداعيتم إليها كتداعي الفراش».

وهذا تأنيب لهم، فهم الذين دعوه، فإذا لم ينصروه كان بإمكانهم أن يتركوه، ولكنّهم عَدَوْا عليه فقتلوه أو على الأقل حاربوه ووقفوا ضدّه. بعد ذلك يصل الأمر ذروته في تقريع هؤلاء وتأنيبهم:

«فقبحاً لكم، فإنّما أنتم من طواغيت هذه الأمّة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ونفثة الشيطان، وعصبة الآثام، ومحرّفي الكتاب، ومطفئي السُنن، وقتلة أولاد الأنبياء، ومبيري عترة الأوصياء، وملحقي العهار[٢٠] بالنسب، ومؤذي المؤمنين، وصراخ أئمّة المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين».

أرأيت أبلغ من هذا الوصف؟ أرأيت قوماً أحطّ وأدنى من هذا الذي وُصفوا به؟ وهل هناك أذلّ من هؤلاء الذين يحكمهم من يفتخر بإلحاقه بغير أبيه؟

ثمّ يطلب منهم المقارنة بينه وبين من نصروه.

«وأنتم ابن حرب وأشياعه تعتمدون، وإيّانا تخذلون».

ثمّ تهدأ الثورة عندما يتذكّر حقيقتهم وأصلهم ومنبتهم، فيخاطبهم خطاب إنسان خبير لايتعجّب ممّا وصلت إليه الأمور:

«أجل والله، الخذل فيكم معروف، وشجت عليه عروقكم وتوارثته أُصولكم وفروعكم، ونبتت عليه قلوبكم، وغشيت به صدوركم، فكنت أخبث شيء شجاً للناصب، وأكلة للغاصب، ألا لعنة الله على الناكثين ﴿الذين ينقضون الأيمان بعد

توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾ فأنتم والله هم».

ثم يقف الحسين عليه السلام مبيّناً مبدئيته وعزّته وكرامته وعدم تراجعه أو استسلامه مضمّناً قوله ما فيه للقوم مرتدع وتذكير:

«ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين، بين القتلة والذلّة، وهيهات منّا أخذ الدنية، أبى الله ذلك ورسوله، وجدود طابت، وحجور طهرت، وأُنوف حميّة ونفوس أبية، لا نؤثر طاعة اللئام، على مصارع الكرام».

وهنا تتّضح بلاغة متعالية عجيبة، فسيّد القوم دعيّ وابن دعيّ، فتعساً لهم وما يطيعون.

والقوم تتّضح قيمتهم من هذه المنزلة، إذ أخذوا الدنية والحقارة فأطاعوا الأدعياء مؤثرين طاعة اللئام على مصارع الكرام فسحقاً لهم وترحاً، ألا يتبعون من يأبى الله ورسوله لهم الذلّ؟ فكم هو الفرق بين سادتهم وهؤلاء الأعزّة؟ ثمّ ألا ينظرون ويقارنون بين هذه الجدود التي طابت وتلك التي خبثت، وبين هذه الحجور التي طهرت، وتلك التي نجست وبالفحشاء ولغت؟

ثم نرى الحسين عليه السلام قد حزم أمره وأبلغهم رسالة واضحة لا غبار عليها ولاتحتاج إلى مزيد نقاش:

«ألا إني قد أعذرت وأنذرت، ألا إنّي زاحف بهذه الأسرة على قلّة العتاد، وخذلة الأصحاب:

فإن نهزم فهزّامون قدما ... وإن نُهزَمْ فغير مهزمينا
وما إن طبّنا جبنٌ ولكن ... منايانا ودولة آخرينا

أما إنّه لاتلبثون بعدها إلّا كريث ما يركب الفرس حتّى تدور بكم دور الرحى، عهد عهده إليّ أبي عن جدّي ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم فكيدوني جميعاً ثمّ لاتُنظرون﴾[٢١] ﴿إني توكّلت على الله ربّي وربّكم ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها إن ربّي على صراطٍ مستقيم﴾[٢٢]، اللّهمّ احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبّرة، فلا يدع منهم أحداً، قتلة بقتلة وضربة بضربة، ينتقم لي ولأوليائي وأهل بيتي وأشياعي

منهم، فإنّهم غرّونا وكذّبونا وخذلونا، وأنت ربّنا، عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير».

هذه نفثة من قلب كليم قد رأى شيعته ومن جاء لإنقاذهم يخذلونه، بل يحاربونه، ولعمري إن ذلك آلم وأحزُّ بالنفس وأبلغ أثراً فيها من انتقام الأعداء الحقيقيين.

ثمّ توجّه إلى عمر بن سعد محذِّراً من سوء العقاب والعاقبة والخسارة في الدارين:

«ياعمر! أنت تقتلني وتزعم ان يوليك الدعيّ ابن الدعيّ بلاد الري وجرجان؟ والله لاتتهنّأ بذلك أبداً، عهد معهود، فاصنع ما أنت صانع، فإنّك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، وكأنّي برأسك على قصبة قد نصب بالكوفة، يتراماه الصبيان ويتّخذونه غرضاً بينهم»(٢٣).

ويبدو أن هذه أطول خطبة له عليه السلام يوم عاشوراء وقد كرّسها ـ تقريباً ـ في أهل الكوفة وتبيان حالهم وواقعهم وما تؤول إليه أُمورهم والهاوية التي سيصلون إليها، وهم يعلمون انّ الحسين عليه السلام صادق في إخباره فهو يخبر عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولذلك كانوا يسألونه فيخبرهم بأخبار المستقبل، فعندما يعرفون أن البلاء آجلاً يحلّ بهم لا عاجلاً يقدمون على قتله.

وحين بدأت المعركة، وسقط الشهداء أخذت لهجة الحسين عليه السلام منحىً آخر فيه التألّم والحزن والاستنجاد والاستصراخ:

«اشتدّ غضب الله على اليهود والنصارى إذ جعلوا له ولداً واشتدّ غضب الله على المجوس إذ عبدت الشمس والقمر والنار من دونه واشتدّ غضب الله على قوم اتفقت آراؤهم على قتل ابن بنت نبيّهم».

ثم يبيّن مبدئيته وثباته وعدم تزحزحه عن موقفه الذي خرج عليه من مدينة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«والله لا أُجيبهم إلى شيء ممّا يريدونه أبداً، حتّى ألقى الله وأنا مخضّب بدمي».

وهنا توجّه إلى القوم مستصرخاً:

«أما من مغيث يغيثنا لوجه الله تعالى؟ أما من ذابٍّ يذبّ عن حُرَم رسول الله؟»[٢٤].

ثم إننا نجد أدعية للحسين عليه السلام هي أبلغ ما تكون وتحتوي على جملة عقائد الإسلام وعلاقة أهل الرسالة بالله تعالى:

«اللّهم أنت ثقتي في كلّ كرب ورجائي في كلّ شدّة وأنت لي في كلّ أمرٍ نزل بي ثقة وعدّة، كم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدوّ، أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة منّي إليك عمّن سواك، ففرّجته وكشفته، فأنت وليُّ كلّ نعمة وصاحب كلّ حسنة ومنتهى كلّ رغبة»[٢٥].

مواقف

يحسن بنا أن نقارن بين نوعين من الأدب في كربلاء، أدب معسكر الحسين عليه السلام، وأدب معسكر الدولة الرسمية، ويتجلّى ذلك في محاورات كلّ فريق مع قادتهم، وفي محاورات العسكرين، وارتأينا بأن نبدأ بالشقّ الأوّل فنعرض محاورات كلّ عسكر مع قائده، مبتدئين برجع الحديث بين الحسين عليه السلام وأصحابه، ثم ما جرى في المعسكر الآخر من مواقف.

أ ـ رجع الحديث بين الحسين وأصحابه

عند استعراضنا قصّة مسير الحسين عليه السلام نجد محاورات بينه وبين أصحابه تدلّ على مبدئية صادقة عند الأصحاب وأنّهم على يقين من أمرهم، لم يخالجهم شكّ ولم تعتورهم شبهة، فلم يتبدّل موقفهم، فموقفهم واحد لا فرق بين ظنّهم بأنّهم فاتحون وأنّهم سيقيمون دولة، وتيقنهم من أنّهم مقتولون لا محالة، وأن ليس هناك دولة أو ملك، شيء واحد عندهم هو أنّ الحسين عليه السلام على الحقّ فيجب الوقوف معه ونصرته، وإنّ السلطة على باطل فيجب محاربتها بكلّ قوّة.

نجد ذلك واضحاً في محاوراتهم، وقد رأيت أن أذكر تلك المحاورات مع الإقلال من التعليق عليها لأنّها لا تحتاج إلى تعليق فلنستعرض ما أمكننا أن نستعرض منها:

الحسين عليه السلام: ألا وإني أظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حلٍّ ليس عليكم منّي ذمام، ألا إنّ أهل الكوفة وثبوا على مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة فقتلوهما وقتلوا أخي في الرضاعة، فمن أحبّ فيكم أن ينصرف فلينصرف من غير حرج. هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، ثمّ ليأخذ كلّ رجلٍ بيد رجل من أهل بيتي ثمّ تفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتّى يفرّج الله، ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري(٢٦).

حبيب: تتكلّمون أم أتكلّم؟

أصحابه: لا، بل تكلّم.

حبيب: قد سمعنا ـ هداك الله يا ابن رسول الله ـ مقالتك، والله لو كانت الدنيا لنا باقية وكنّا فيها مخلّدين، إلّا أن فراقها في نصرك ومواساتك، لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها(٢٧).

مسلم بن عوسجة: أنحن نتخلّى عنك؟ ولمّا نعذر الله في أداء حقّك؟ أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ولا أُفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتّى أموت معك بين يديك.

يا ابن رسول الله أنحن نخليك هكذا وننصرف عنك وقد أحاط بك هؤلاء الأعداء، لا والله لا يراني الله وأنا أفعل ذلك أبداً.

سعد بن عبدالله الحنفي: لا والله يا ابن رسول الله لا نخليك أبداً حتّى يعلم الله تبارك وتعالى انّا حفظنا فيك غَيْبة رسوله، ووالله لو علمت أني أُقْتَل ثمّ أُحيى ثمّ أُحرق، يفعل بي ذلك سبعين مرّة لما فارقتك أبداً حتّى ألقى حمامي من دونك، وكيف لا أفعل ذلك؛ وإنّما هي قتلة واحدة ثمّ أنال الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً؟!

زهير بن القين: والله يا ابن رسول الله لوددت أني قُتِلت ثمّ نُشِرْت، ثمّ قُتلت حتّى أُقتل كذا ألف قتلة وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك.

أصحابه: والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء نقيك بنحورنا وأيدينا ووجوهنا وجباهنا وصدورنا فإذا نحن قُتِلنا بين يديك نكون قد وفينا وقضينا ما

علينا[٢٨]. لا أرانا الله يوم فقدك ولا حاجة لنا في الحياة بعدك[٢٩].

هلال بن نافع الجملي: يا ابن رسول الله! أنت تعلم أن جدّك رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يقدر أن يشرب الناس محبّته ولا أن يرجعوا إلى ما كان أحبَّ، فكان منهم منافقون يعدونه بالنصر ويضمرون له الغدر، يلقونه بأحلى من العسل، ويخلفونه بأمرّ من الحنظل حتّى قبضه الله تبارك وتعالى.

وإنّ أباك عليّاً (صلوات الله عليه): قد كان في مثل ذلك، فقوم أجمعوا على نصرته وقاتلوا معه الناكثين والقاسطين والمارقين، وقوم قعدوا عنه وخذلوه حتّى مضى إلى رحمة الله ورضوانه وروحه وريحانه، وأنت اليوم ياابن رسول الله على مثل تلك الحالة فمن نكث عهده وخلع بيعته فلن يضرّ إلّا نفسه، والله تبارك وتعالى مغنٍ عنه، فسِرْ بنا ياابن رسول الله راشداً معافىً، مشرّقاً إن شئت أو مغرّباً، فوالله الذي لا إله إلّا هو ما أشفقنا من قدر الله ولا كرهنا لقاء ربّنا وإنّا على نيّاتنا وبصائرنا، نوالي من والاك ونعادي من عاداك.

برير بن خضير: ياابن رسول الله! لقد منَّ الله تعالى علينا بك ان نقاتل بين يديك وتقطّع فيك أعضاؤنا ثمّ يكون جدّك رسول الله ﷺ شفيعاً يوم القيامة لنا، فلا أفلح قوم ضيّعوا ابن بنت نبيّهم، أُفٍّ لهم غداً ما يلاقون. سينادون بالويل والثبور في نار جهنّم وهم فيها مخلدون[٣٠].

العبّاس (نيابة عن أهل بيت الحسين عليه السلام): لِمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً، لا أرانا الله فقدك ولا حاجة لنا في الحياة بعدك[٣١].

الحسين: يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم بن عقيل، اذهبوا قد أذنت لكم.

بنو عقيل: والله لا نرجع، أيقتل صاحبنا ونـنصرف، لا والله لا نرجع حتّى نصيب ثأرنا أو نذوق ما ذاق صاحبنا[٣٢]. فما يقول الناس؟ يقولون لقد تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرمِ معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف ولاندري ماصنعوا. لا والله لا نفعل ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتّى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك[٣٣].

الحسين عليه السلام: «لا خير في العيش بعد هؤلاء»(٣٤).

هذا هو الموقف المبدئي، فنحن نقف أمام جبال من الصمود عن علم وبصيرة، لا عن عصبية وحمية عمياء، فهم على علم من أن موقفهم هذا هو أداء لما عليهم، وأن الله قد منَّ عليهم بأن يقتلوا مع الحسين عليه السلام، وأنّهم على يقين من عاقبتهم وأنّهم إلى جوار جدّه وأبيه والصالحين، فكلّ واحد من هؤلاء مدرسة في التضحية في سبيل العقيدة، ومدرسة في معنى موالاة أهل البيت عليهم السلام، كما أنّهم علماء تستطيع أن تستخرج من كلماتهم عقيدتهم بالله وبرسوله وأهل بيته وقضائه وقدره.

بعد هذا الموقف نستعرض جملة من المواقف والمشاهد في كربلاء بين الحسين وأهل بيته وأصحابه:

الحسين عليه السلام: إنّا لله وإنّا إليه راجعون (ثلاث مرّات).

علي الأكبر: إنّا لله وإنّا إليه راجعون والحمد لله ربّ العالمين، ياأبتِ جعلت فداك مِمَّ حمدت الله واسترجعت.

الحسين عليه السلام: يا بنيّ! إني خفقت برأسي خفقة فعَنّ لي فارس على فرس فقال: «القوم يسيرون والمنايا تسري بهم» فعلمت أنّها أنفسنا نعيت إلينا.

علي: يا أبتِ! لا أراك الله مكروهاً، ألسنا على الحقّ؟

الحسين عليه السلام: بلى، والذي إليه مرجع العباد.

علي: ياأبتِ! إذن لا نبالي، نموت محقّين، لا نبالي أوقع الموت علينا أم وقعنا على الموت.

الحسين عليه السلام: جزاه الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده(٣٥).

* * *

فتيان جابريان يبكيان:

الحسين عليه السلام: أي ابني أخي! ما يبكيكما؟ فوالله إني لأرجو أن تكونا عن ساعة قريرَي العين.

الجابريان: ما على أنفسنا نبكي، ولكنّا نبكي عليك، نراك قد أُحيط بك ولا نقدر على أن نمنعك.

الحسين عليه السلام: جزاكما الله يا ابني أخي بوجدكما من ذلك، ومواساتكما إيّاي بأنفسكما أحسن جزاء المتّقين(٣٦).

★ ★ ★

الحسين عليه السلام: رحمك الله يا مسلم ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾(٣٧).

حبيب: عزَّ والله عليَّ مصرعك يامسلم، أبشر بالجنّة.

مسلم بن عوسجة: (بصوت ضعيف) بشّرك الله بخير.

حبيب: لولا أني أعلم أنّي لاحقٌ بك في أثرك من ساعتي هذه لأحببت أن توصيني بكل ما أهمّك حتّى أحفظك في ذلك لما أنت أهله في القرابة والدين.

مسلم: بلى! أُوصيك بهذا رحمك الله ـ وأومأ إلى الحسين ـ أن تموت دونه.

حبيب: أفعل وربِّ الكعبة.

جارية لمسلم بن عوسجة: ياسيّداه! يا ابن عوسجتاه..

أصحاب ابن سعد: قتلنا مسلم بن عوسجة.

شبث بن ربعي: ثكلتكم أُمّهاتكم. أمّا إنّكم تقتلون أنفسكم بأيديكم وتذلّون عزّكم، أتفرحون أن يُقتل مثل مسلم بن عوسجة، أما والذي أسلمت له، لربَّ موقف له في المسلمين كريم، والله لقد رأيته يوم آذربيجان قتل ستة من المشركين قبل أن تلتئم خيول المسلمين(٣٨).

(شبث بن ربعي أحد قادة جيش الدولة ضد الحسين).

★ ★ ★

أبو ثمامة الصائدي: يا أبا عبدالله! نفسي لك الفداء، إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تقتل حتّى أُقتل دونك إن شاء الله، وأحبّ أن ألقى ربّي وقد صلّيت هذه الصلاة التي قد دنا وقتها.

الحسين عليه السلام: ذكرت الصلاة! جعلك الله من المصلّين الذاكرين(٣٩).

★ ★ ★

عمر بن خالد الصيداوي: السلام عليك يا أبا عبدالله، قد هممت أن ألحق بأصحابي، وكرهت أن أتخلّف وأراك وحيداً بين أهلك قتيلاً.

الحسين عليه السلام: تقدّم فإنّا لاحقون بك عن ساعة[٤٠].

سعيد بن عبد الله الحنفي، يقف أمام الحسين عليه السلام وهو يصلّي، يقف فدائيّاً حتى يسقط صريعاً لا يتزحزح[٤١].

عابس (يخاطب شوذب مولاه): ياشوذب! ما في نفسك أن تصنع؟

شوذب: ما أصنع؟ أُقاتل معك دون ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أُقتل.

«هذا الموقف له معنىً خاص، فهذا خادم لم يؤتَ به للقتال، بل للخدمة، نجده يرفض أن يسلم، ولو أراد السلام لما كان عليه سبيل، لا من الحسين عليه السلام ولا من عمر بن سعد، ولكنّه اتّخذ موقفاً مبدئياً».

عابس: ذلك الظن بك. أمّا الآن فتقدّم بين يدي أبي عبدالله حتّى يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه، وحتى أحتسبك أنا، فإنّه لو كان معي الساعة أحد أنا أولى به منّي بك لسرّني أن يتقدّم بين يديَّ حتّى أحتسبه، فإنّ هذا يوم ينبغي لنا أن نطلب الأجر فيه بكل ماقدرنا عليه، فإنّه لا عمل بعد اليوم، إنّما هو الحساب.

عابس (مخاطباً الحسين عليه السلام بعد استشهاد شوذب): ياأبا عبدالله! أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريبٌ ولا بعيد أعزّ عليّ ولا أحبّ إليّ منك، لو قدرت على أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيء أعزّ عليَّ من نفسي ودمي لفعلته... السلام عليك يا أبا عبدالله، أشهد الله أني على هديك وهدي أبيك[٤٢].

★ ★ ★

حبيب: ياابن رسول الله إن هاهنا حيّاً من بني أسد قريباً منّا، أفتأذن لي بالمسير إليهم الليلة، أدعوهم إلى نصرتك فعسى الله أن يدفع بهم عنك بعض ما تكره.

الحسين: قد أذنت لك.

(ويذهب حبيب إلى قومه ليلاً متخفّياً).

بنو أسد: ما حاجتك يا ابن العمّ؟

حبيب: حاجتي إليكم أن قد أتيتكم بخير ما أتى به وافدٌ إلى قوم قط، أتيتكم أدعوكم إلى نصرة ابن بنت نبيّكم، فإنّه فيعصابة من المؤمنين، الرجل منهم خير

من ألف رجل لن يخذلوه ولن يسلموه وفيهم عين تطرف، وهذا عمر بن سعد قد أحاط به في اثنين وعشرين ألفاً، وأنتم قومي وعشيرتي وقد أتيتكم بهذه النصيحة، فأطيعوني اليوم تنالوا شرف الدنيا وحسن ثواب الآخرة، فإنّي أُقسم بالله لا يقتل منكم رجل مع ابن بنت رسول الله صابراً محتسباً إلّا كان رفيق محمّد ﷺ في أعلى عليين.

عبدالله بن بشر (أحد بني أسد): أنا أوّل من يجيب إلى هذه الدعوة(٤٣).

* * *

حنظلة بن أسعد السباعي (يخاطب جيش أهل الكوفة): ﴿ياقوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب* مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد﴾(٤٤) ﴿وياقوم إني أخاف عليكم يوم التناد* يوم تولّون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد﴾(٤٥) ياقوم لاتقتلوا حسيناً ﴿فيسحتكم الله بعذابٍ وقد خاب من افترى﴾(٤٦).

الحسين عليه السلام: ياابن أسعد رحمك الله، إنّهم استوجبوا العذاب حين ردّوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك(٤٧) فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين.

حنظلة: صدقت، جعلت فداك، أنت أفقه مني وأحقّ بذلك، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا؟

الحسين عليه السلام: رُح إلى خير من الدنيا ومافيها وإلى مُلكٍ لا يبلى.

حنظلة: السلام عليك ياأبا عبدالله، صلّى الله عليك وعلى أهل بيتك، وعرّف بيننا وبينك في جنّته.

الحسين عليه السلام: آمين. آمين(٤٨).

ب ـ مواقف نسائية في معسكر الحسين عليه السلام

(عائلة نصرانية أسلمت على يد الحسين عليه السلام في عاشوراء)

أمّ وهب: قم يابني فانصر ابن بنت رسول الله.

وهب: أفعل يا أمّاه، ولا أُقصّر إن شاء الله.

يخرج وهب ويقاتل ثمّ يعود إلى أُمّه:

وهب: ياأُمّاه! أرضيت عنّي؟

أمّ وهب: ما رضيت أو تُقتل بين يدي ابن بنت رسول الله.

زوجته: أسألك بالله أن لاتفجعني بنفسك.

أمّه: لا تسمع قولها وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله ليكون غداً شفيعك عند ربّك(٤٩).

* * *

أمّ (وزوجة شهيد في كربلاء): يابني اخرج فقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله حتى تُقتل.

الفتى: أفعل.

الحسين عليه السلام: هذا شابٌ قُتل أبوه ولعلّ أُمّه تكره خروجه.

الفتى: أُمّي أمرتني ياابن رسول الله.

أميري حسين ونعم الأمير	سرور فؤاد البشير النذير
علي وفاطمة والداه	فهل تعلمون له من نظير؟

(ثم استشهد واحتُزّ رأسه ورُمي به إلى أُمّه فأخذته).

الأمّ: أحسنت ياقرّة عيني وسرور قلبي.

(ثمّ رمت برأسه رجلاً فقتلته.. وأخذت عمود خيمة وحملت على القوم وهي ترتجز وتقول:

أنا عجوز في النساء ضعيفة	بالية خاوية نحيفة
أضربكم بضربة عنيفة	دون بني فاطمة الشريفة(٥٠)

هذه هي مدرسة الرسالة تخلق من النساء، من تلك القلوب العاطفية الشديدة الانكسار، السريعة التأثر؛ قلوباً مضحية بحيث لاترضى الأمّ من ابنها غير الشهادة بين يدي الحسين، وفاءً له ولأُمّه فاطمة الزهراء سلام الله عليها، ثمّ لا يكفيها ذلك فتشارك هي بنفسها في قتال الأعداء، وربّما استشهدت مقبلة ولم تتراجع.

في المعسكر الآخر

بعد هذه الجولة في معسكر الحسين عليه السلام، ننتقل إلى معسكر عبيدالله بن زياد حتّى نتمكّن من المقارنة بين أدبين في معسكرين متصارعين، ومن خلال هذين الأدبين نحكم على كلّ معسكر بما له وما عليه، ولنبدأ بزعيم هذا المعسكر، كما بدأنا بزعيم ذلك المعسكر:

عبيدالله بن زياد (في مسجد الكوفة خطيباً): أيُّها الناس! انكم قد بلوتم آل أبي سفيان فوجدتموهم على ما تحبّون، وهذا أمير المؤمنين يزيد قد عرفتموه حسن السيرة، محمود الطريقة، ميمون النقيبة، محسناً إلى الرعية، متعاهداً للثغور، يعطي العطاء في حقّه، حتّى قد أمنت السبل على عهده، واطفئت الفتن بجهده، وكما كان معاوية في عصره، كذلك ابنه يزيد في أثره يكرم العباد ويغنيهم بالأموال ويزيدهم بالكرامة، وقد زاد في أرزاقكم مئة مئة، وأمرني أن أوفر عليكم، وآمركم أن تخرجوا إلى حرب عدوّه الحسين بن علي، [وقد أمّرت عليكم عمر بن سعد] فاسمعوا له وأطيعوا[٥١].

إنّ عبيدالله يعلم مَن هو يزيد، ويعلم أن أهل الكوفة يعرفونه كذلك، ولذلك جاءت عباراته الأولى أشبه بالاستهزاء والتندّر، وهي إلى الظرافة أقرب منها إلى الحقيقة، والطريقة أو الوسيلة التي يدفع بها الناس إلى القتال نجدها في جمله الأخيرة حيث الأموال وزيادة الأعطيات، إضافة إلى أن المخاطبين كانوا في القصر، وأبواب القصر موصدة وعلى رؤوسهم أسياف حرس ابن زياد، ولو رجعت إلى كلام الحسين وخطابه أصحابه لعلمت أن الفارق بين الاثنين هو فارق مبدئي، فهناك دعوة للجهاد دفاعاً عن المبدأ، وهنا دعوة للقتل من أجل زيادة في الأعطيات، ثم إنه لا مقارنة بين الحسين وما يحمل من تاريخ ونسب وصفات، ويزيد، وعبيدالله أعرف بذلك من غيره.

والآن ننتقل إلى ما كان يجري من حديث داخل معسكر عبيدالله لنقارنه بما كان يدور داخل معسكر الحسين عليه السلام.

عبيدالله: يا ابن سعد! أنت لهذا الأمر، فإذا فرغت سرت إلى عملك إن شاء الله.

عمر بن سعد: إن رأيت أيُّها الأمير أن تعفيني من قتل الحسين فعلت منعماً.

عبيدالله: فإنّا قد أعفيناك، فاردد إلينا عهدنا الذي كتبناه لك واجلس في منزلك حتى نبعث غيرك.

عمر: فأمهلني أيّها الأمير حتّى أنظر في أمري.

عبيد الله: أمهلتك.

.... في اليوم الثاني

عبيد الله: ماعندك ياعمر؟

عمر: أيّها الأمير! إنّك قد ولّيتني هذا العمل وكتبت العهد وقد سمع الناس به، فإذا رأيت أن تنفذه لي وتبعث إلى قتال الحسين غيري من أشراف أهل الكوفة.

عبيدالله: ياعمر! ألا تعلمني بأشراف أهل الكوفة، فإني أستشيرك في من أُريد أن أبعث، فإن سرت إلى الحسين وفرَّجت عنّا هذه الغمّة، فأنت الحبيب القريب، وإلّا فاردد إلينا عهدنا والزم منزلك فإنّا لا نكرهك...

وهنا سكت عمر.

ـ والله يا ابن سعد! لئن لم تسر إلى الحسين وتتولَّ حربه وتقدم عليه بما يسوء لأضربنَّ عنقك، ولأهدمنَّ دارك، ولأنهبنَّ مالك، ولا أبقي عليك كائناً من كان.

عمر: فإنّي سائر إليه غداً إن شاء الله.

عبيدالله: هذه أربعة آلاف فارس... فخذ بكظم الحسين وحُل بينه وبين الفرات(٥٢).

بون شاسع بين ما كان يجري من حديث بين الحسين وأصحابه حيث تجد هناك حبّ الشهادة وحبّ القائد والرغبة في الموت، وهذا الحديث حيثُ أُسلوب الاغراء والتهديد، كما تجد فرقاً كبيراً بين عمر بن سعد الذي يتهالك على ملك زائل ويتنازل عن مبدئيته من أجل لقمة عاجلة، وأولئك الذين يرون الموت بأعينهم، ويرون الدنيا تبتعد عنهم فلا يبالون بل يقدمون على الموت اقداماً.

أمّا عندما ندخل في المراسلات والمكاتبات بين عبيدالله وقادته فإنّنا نجد نفوساً وحشية قد ركبت في أجساد البشر حتّى إنّك لاتكاد تصدّق أن هؤلاء من جنس البشر:

عبيد الله (يكتب إلى الحرّ الرياحي): أمّا بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك

كتابي ويقدم عليك رسولي، فلا تنزله إلّا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتّى يأتيني بإنفاذك أمري. والسلام.

الحرّ: هذا كتاب الأمير عبيدالله بن زياد يأمرني أن أُجعجع بكم وهذا رسوله وقد أمره أن لايفارقني حتّى أنفذ رأيه وأمره.

لقومه: ويحكم إنّه قد ورد عليّ كتاب عبيدالله بن زياد يأمرني أن أقدم على الحسين بن علي بما يسوؤه، ولا والله ما تطاوعني نفسي ولا تجيبني إلى ذلك.

يزيد بن زياد (أبو الشعثاء الكندي): أمالك بن النسير البدي؟

مالك: نعم.

يزيد (أبو الشعثاء الكندي): ثكلتك أُمّك، ماذا جئت فيه؟

مالك: وما جئت فيه؟ أطعت إمامي ووفيت ببيعتي.

أبو الشعثاء: عصيت ربّك، وأطعت إمامك في هلاك نفسك، واكتسبت عاراً وناراً، فبئس الإمام إمامك قال فيه الله عزّوجلّ ﴿وجعلنا منهم أئمّة يدعون إلى النار ويوم القيامة لاينصرون﴾.

حمزة بن المغيرة بن شعبة (ابن أُخت عمر بن سعد): أنشدك بالله ياخال أن تسير إلى الحسين فتأثم بربّك، ولا تقطع رحمك فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كله ـ لو كان لك ـ خير من أن تلقى الله بدم الحسين.

عمر: فإنّي سأفعل إن شاء الله.

يسار الجهني: ما أنت فاعل ياعمر؟

عمر: إن الأمير أمرني بالمسير إلى الحسين فأبيت ذلك عليه.

يسار: أصاب الله بك، أرشدك الله، أجَلْ فلا تفعل ولا تسر إليه[٥٣].

هكذا بدا عمر بن سعد متردّداً، ثمّ حزم أمره على المسير بعد معاناة نفسيّة

دعاني عبيد الله من دون قومه ... إلى خطة فيها خرجت لحَيْني
فوالله ما أدري وإنّي لحائرٌ ... أُفكّر في أمري على خطرينِ
أأنزل ملك الري والري منيتي ... أم ارجع مأثوماً بقتل حسينِ
وفي قتله النار التي ليس دونها ... حجاب وملك الري قرّة عيني[٥٤]

وتبدأ المراسلات بين الأمير الحاقد وقائده المتردّد والمحبّ للعافية والكاره

لأن يؤثم بقتل الحسين حيث يقول: «إني لأرجو أن يعافيني الله من حربه وقتاله».

ويكتب إلى عبيد الله:

بسم الله الرحمن الرحيم: أمّا بعد فإنّي حيثُ نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي فسألته عمّا أقلقه، وماذا يطلب ويسأل، فقال كتب إليّ أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم فسألوني القدوم ففعلت، فأمّا إذ كرهوني فبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم.

عبيد الله: (وقد قرأ كتاب عمر بن سعد).

الآن وقد علقت مخالبنا به ... يرجو النجاة ولات حين مناص

أيرجو ابن أبي تراب النجاة، هيهات هيهات، لا أنجاني الله من عذابه إن نجا الحسين.

عبيد الله (يكتب إلى عمر بن سعد):

بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر الحسين، فاعرض على الحسين أن يبايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه، فإذا فعل وبايع رأينا رأينا، وإلّا فأتني به والسلام.

عمر: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، إن عبيد الله لايقبل العافية والله المستعان[٥٥].

وتستمرّ المراسلات على هذا المنوال، بين أمير حاقد وقائد ينظر إلى الإمرة بشره ونهم، وبينهما ثالث حاسدٌ للقائد يودّ الإمرة مع أنّها لاتكون أكثر من ساعات أو قل يوماً أو يومين.

عمر (يكتب إلى عبيدالله كتاباً كلّه ادّعاء):

أمّا بعد، فإنّ الله قد أطفأ النائرة؛ وجمع الكلمة وأصلح أمر هذه الأمّة، هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى، أو أن نسيّره إلى أي ثغر من ثغور المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه. وفي هذا لكم رضىً وعلامة صلاح.

عبيدالله (يقرأ الكتاب): هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه، نعم قد قبلت.

الشمر (وكان جالساً عند عبيد الله): أتقبل منه هذا وقد نزل بأرضك إلى جنبك،

والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوّة والعزّ، ولتكوننّ أولى بالضعف والعجز، فلا تعطه هذه المنزلة، فإنّها من الوهن، ولكن ينزل على حكمك هو وأصحابه، فإن عاقبت فأنت وليّ العقوبة، وإن غفرت كان ذلك لك، والله لقد بلغني أن حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدّثان عامّة الليل.

عبيدالله: نِعْمَ مارأيت، الرأي رأيك، اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي، فإن فعلوا فليبعث بهم إليّ سلماً، وإن هم أبوا فليقاتلهم فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن هو أبى فقاتلهم فأنت أمير الناس وثِب عليه فاضرب عنقه وابعث إليَّ برأسه.

نصّ الكتاب:

«أمّا بعد، فإنّي لم أبعثك إلى حسين لتكفّ عنه، ولا لتطاوله ولا لتمنّيه السلامة والبقاء، ولا لتقعد له عندي شافعاً، أُنظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إليَّ سلماً، وإن أَبَوْا فازحف إليهم حتّى تقتلهم وتمثّل بهم فإنّهم لذلك مستحقّون، فإن قُتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإنّه عاقّ مشاقّ قاطع ظلوم، وليس دهري في هذا أن يضرّ بعد الموت شيئاً، ولكن عليّ قول لو قد قلته فعلت هذا به. فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أنت أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخلّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر فإنّا قد أمرناه بأمرنا. والسلام.

عمر (مخاطباً الشمر بعد أن قرأ كتاب عبيدالله):

ما لكَ، ويلك لا قرّب الله دارك وقبّح الله ما قدمت به عليَّ، والله إنّي لأظنّك أنت ثنيته عن أن يفعل ما كتبت به إليه، أفسدت علينا أمراً كنّا رجونا أن يصلح. لا يستسلم والله حسين. إنّ نفساً أبيّة لبين جنبيه»(٥٦).

ثم توالت كتب عبيدالله بن زياد إلى عمر بن سعد:

عبيدالله: «أمّا بعد فحُل بين الحسين وأصحابه وبين الماء ولا يذوقوا منه قطرة كما صُنِعَ بالتقيّ المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفّان».

كتاب آخر: (وقد تباطأ عمر في مقاتلة الحسين عليه السلام). ماهذه المطاولة، أُنظر إن بايع الحسين وأصحابه ونزلوا على حكمي فابعث بهم إليّ سلماً، وإن أبوا ذلك

فازحف إليهم حتّى تقتلهم وتمثّل بهم.

يا ابن سعد إني لم أبعثك لمنادمة الحسين، فإذا أتاك كتابي فخيّر الحسين بين أن يأتي إليّ وبين أن تقاتله[٥٧].

في هذه المراسلات نجد أُموراً عدّة تبيّن مدى العلاقة بين القائد وجنده في هذا المعسكر، وكيف أن الأمور كانت تسير بالإرعاب. فالسيف مسلّط على رقبة القائد، وشتّان بين هذه المواقف ومواقف أصحاب الحسين.

بعض الأمور تثير الانتباه هنا؛ من أهمّها: علاقة أصحاب عبيدالله فيما بينهم، فلو استذكرنا علاقة أصحاب الحسين عليه السلام المبنيّة على المحبّة والمودّة والتقدير والاحترام، وكل موقف يمكن أن يكون مدرسة تربوية أخلاقية كاملة لأهل المبادئ وقارنّاها بهذه المواقف لوجدنا بوناً شاسعاً. ولنأخذ مثالاً على ذلك: العلاقة بين الشمر وعمر بن سعد، فإننا نجد الشمر يسيل لعابه لإمرة معركة لا تدوم إلّا يوماً واحداً، وهو يعلم أن ذلك لن يكون إلّا بالإطاحة برأس عمر بن سعد، ولذلك نراه يعمل جاهداً على التخلّص من عمر بن سعد بالتحمّس نفسه في الرغبة في قتله الحسين عليه السلام، فهما عنده سيّان، ولذلك كان يتجسّس على أخبار عمر ويحاول إيصالها إلى عبيدالله وخصوصاً الاجتماعات الخاصّة بين الحسين وعمر والتي رضي بها العسكران ورجوا منها خيراً.

ثم ماهذا الحقد في صدر ابن زياد؟! وما الذي يدفعه إلى حب الانتقام والتمثيل بالحسين عليه السلام وأصحابه؟ إنّه أبعد من كونه أميراً مكلّفاً بمحاربة ثائر خرج على الدولة، فلابدّ أن تكون هناك أسباب أخرى، نفسية، تدعوه إلى حبّ الانتقام هذا، عسى أن نوفّق إلى بحثها والوقوف عليها.

ثم تجد هناك مواقف متفرّقة في هذا المعسكر تستحقّ الوقوف عندها ولو استعراضاً، وأكثرها لا يحتاج إلى تعليق بل هو يتحدّث وينطق بأوسع معنى وأوضحه، من بينها موقف دار بين الشمر وأبي الجنوب في شأن احتزاز رأس الحسين عليه السلام:

الشمر: أقدم عليه.

أبو الجنوب: وما يمنعك أن تقدم عليه أنت؟

الشمر: إليّ تقول ذا؟

أبو الجنوب: وأنت لي تقول ذا؟

(ثم استبّا طويلاً) وأضاف **أبو الجنوب**:

والله لهممت أن أخضخض السنان في عينك.

الشمر (وقد انصرف عن أبي الجنوب):

والله لئن قدرت على أن أضرك لأضرنّك...(٥٨)

أبو الجنوب فارس شجاع ولذلك كان يأخذ حقّه بقوّة ذراعه، أمّا الشمر فسبيله الخبث والتخطيط والإيقاع، ثمّ ما هذا الأدب الوضيع الذي نجده في حوار بين فارسين من فرسان الجيش وقادته.

وموقف آخر يثير السخرية من أُمّة تعرِف الحق وتقتل أهله، فهذا سنان بن أنس الذي احتزَّ رأس الحسين يحثّه الناس على طلب مكافأته والجائزة:

بعض الناس: قتلت حسين بن علي وابن فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قتلت أعظم العرب خطراً. جاء إلى هؤلاء يريد أن يزيلهم عن ملكهم، فأتِ أمراءك فاطلب ثوابهم، وإنّهم لو أعطوك بيوت أموالهم بقتل الحسين كان قليلاً.

سنان: (وقد أقبل إلى فسطاط عمر):

أوقد ركابي فضّة وذهبا	إني قتلت الملك المُحجبا
قتلت خير الناس أُمّاً وأبا	وخيرهم إذ ينسبون نسبا

عمر: أشهد أنّك لمجنون ما صحوت قط. أدخلوه عليّ.

فلما دخل عليه قذفه بالقضيب.

ـ يا مجنون أتتكلّم بهذا الكلام، أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك(٥٩).

أدب وضيع

ونجد في هذا المعسكر من الوضاعة ما لايصدّق، ولو لم تذكره كتب التاريخ لما صدّقناه من مسلمين مازالوا يعيشون عصر الرسالة والنبوّة أن يصل بهم الأمر إلى هذا الحدّ من الدناءة وسوء الأدب، وسنذكر نُتَفاً منها.

فهذا أحدهم وهو علي بن قرظة الأنصاري يخاطب الحسين عليه السلام: (ياحسين

يا كذّاب ابن الكذّاب أضللت أخي وغررته حتّى قتلته)[٦٠].

وكأنّ هذا لم يعرف الإسلام ولم يقرأ القرآن ولم يسمع حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأين كان هذا ؟

وهذا آخر يخاطب الحسين عليه السلام : (ياحسين! ألا تنظر إلى الماء كأنّه كبد السماء، والله لاتذوق منه قطرة حتّى تموت عطشاً)[٦١].

وهذا الشمر المعروف بمواقفه وأنّه لايفقه إلّا الفتنة وسوء المقال يخاطب الحسين عليه السلام حين حفر خندقاً حول معسكره وأشعل فيه النار:

(ياحسين! استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة)[٦٢].

وكأنّه لم يسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة).

ويأتي ابن حوزة حتّى يقف أمام الحسين عليه السلام .

ابن حوزة: ياحسين، ياحسين!

الحسين عليه السلام: ما تشاء؟

ابن حوزة: أبشر بالنار ياحسين! فقد تعجّلت النار في الدنيا قبل الآخرة[٦٣].

وتجد الحصين بن نمير يخاطب الحسين عليه السلام حين طلب منهم أن يكفّوا حتّى يصلّوا الظهر: (انّها لا تقبل منك)[٦٤]، وليت شعري أيّة تربية رُبِّي هؤلاء القوم؟ وفي أي مستنقع نبتوا؟!

هذه نماذج من أدب هؤلاء، لو قارنتها بالمواقف المبدئية والمفاهيم العالية والأفكار القرآنية التي تفوح من حديث أصحاب الحسين عليه السلام لوجدت مدرستين مختلفتين تمام الاختلاف في التربية والتأديب.

محاورات المعسكرين

جرت محاورات بين معسكر الإمام الحسين عليه السلام ومعسكر السلطة، سأوردها مكتفياً بالنصوص دون أن أُعلّق عليها لسببين؛ أحدهما أنها لاتحتاج إلى تعليق فهي تكفي بنفسها عن كلّ بيان وتوضيح، والآخر ضيق المقام هنا، ولعلّ الله يوفّقني لأن أكتب مفصّلاً في الموضوع.

عبيد الله (يكتب إلى الحسين عليه السلام): أمّا بعد ياحسين! فقد بلغني نزولك بكربلاء، وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يزيد أن لا أتوسّد الوثير ولا أشبع من الخمير حتّى ألحقك باللطيف الخبير، أو ترجع إلى حكمي وحكم يزيد.

الحسين عليه السلام: (وقد قرأ الكتاب ثمّ رماه): «لاأفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق».

الرسول: جواب الكتاب.

الحسين عليه السلام: «لا جواب له عندي»(٦٥).

ولم أعثر على مراسلة بين الحسين عليه السلام وعبيد الله غير هذا الكتاب الذي لم يجب عليه الحسين بل رماه.

* * *

الحسين عليه السلام مخاطباً عمر بن سعد: ويحك! أما تتَّق الله الذي إليه معادك؟ أتقاتلني وأنا ابن من علمت؟ ياهذا ذر هؤلاء القوم وكن معي فإنّه أقرب لك من الله.

عمر بن سعد: أخاف أن تهدم داري.

الحسين: أنا أبنيها لك.

عمر: أخاف أن تؤخذ ضيعتي.

الحسين: أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز.

عمر: لي عيال أخاف عليهم.

الحسين: أنا أضمن لك سلامتهم.

عمر:................ (يسكت)

الحسين: مالك ذبحك الله على فراشك سريعاً عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك، فوالله إني لأرجو أن لا تأكل من بُرِّ العراق إلّا يسيراً.

عمر: يا أبا عبدالله! في الشعير عوض عن البرّ(٦٦).

هذا قائد عام، ووال مرشّح لإدارة منطقة واسعة من بلاد المسلمين، لم يكن عنده وازع واحد مبدئي يدفعه لقتال الحسين، بل هو الخوف فقط، ثمّ انظر إلى الخاتمة التي ختم بها كلامه وبها انتهى النقاش بينه وبين الحسين عليه السلام.

وهذه محاورة أخرى:

الحسينعليه السلام من خطبة طويلة: أولم يبلغكم قولٌ مستفيض فيكم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي ولأخي: (هذان سيدا شباب أهل الجنّة).

الشمر: أنا أعبد الله على حرف إن كنتُ أدري ما تقول.

حبيب: والله إنّي لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري مايقول قد طبع الله على قلبك(٦٧).

وحوار آخر بين الحسين عليه السلام ومن كان قد راسله:

الحسين: ياشبث بن ربعي! ويا حجار بن أبجر! وياقيس بن الأشعث! ويايزيد بن الحارث! ألم تكتبوا إليَّ أن قد أينعت الثمار واخضرّ الجناب وطمّت الجمام، وإنّما تقدم على جندٍ لك مجنّدة، فأقبل.

القوم: لم نفعل.

الحسين: سبحان الله! بلى والله لقد فعلتم.

أيّها الناس! إذ كرهتموني فدعوني أنصرف إلى مأمني من الأرض.

قيس بن الأشعث: أوَلاتنزل على حكم بني عمّك فإنّهم لن يروك إلّا ماتحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه.

الحسين عليه السلام: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل(٦٨).

لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد.

عباد الله ﴿إني عذت بربي وربّكم أن ترجمون﴾(٦٩) ﴿أعوذ بربّي وربّكم من كلّ متكبّرٍ لا يؤمن بيوم الحساب﴾(٧٠).

* * *

زهير بن القين: يا أهل الكوفة نذارِ بكم عن عذاب الله، نَذارِ، إنّ حقّاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتّى الآن إخوة على دين واحد وملّة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنّا أُمّة وأنتم أُمّة.

إن الله قد ابتلانا وإيّاكم بذريّة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيدالله بن زياد، فإنكم لاتدركون منهما إلّا

بسوء عمر سلطانهما كلّه، يسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثّلان بكم ويرفعانكم على جذوع النخل ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهانئ بن عروة وأشباهه.

أصحاب عمر بن سعد، (سبّوا زهيراً وأثنوا على عبيدالله بن زياد ودعوا له): والله لا نبرح حتّى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيدالله سلماً.

زهير: عباد الله! إنّ ولد فاطمة (رضوان الله عليها) أحقّ بالودّ والنصر من ابن سميّة، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلوا بين هذا الرجل وابن عمّه يزيد بن معاوية، فلعمري إنّ يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين.

الشمر: (رماه بسهم): أُسكت! أسكت الله نأمتك، أبرمتنا بكثرة كلامك.

زهير: ياابن البوّال على عقبيه! ما إيّاك أُخاطب، إنّما أنت بهيمة، والله ما أظنّك تحكم من كتاب الله آيتين فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

الشمر: ان الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

زهير: أفبالموت تخوّفني؟ فوالله للموت معه أحبّ إليّ من الخلد معكم.

عباد الله لا يغرنّكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمّد (صلّى الله عليه وآله) قوماً أهرقوا دماء ذريته وأهل بيته وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم.

أصحاب الحسين: بئس القوم أنتم، تريدون قتل ذريّة نبيّكم وخيار الناس في زمانهم.

الحسين (يخاطب زهيراً): أقبلْ! فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ(٧١).

أنظر إلى العقيدة البيضاء، والمفاهيم العالية التي يطرحها زهير بن القين من معسكر الحسين عليه السلام، وما يطرحه أولئك في المعسكر الآخر وما فيه من مستوىً وضيع.

وهذا موقف آخر على الماء عندما توجّه العبّاس مع عشرين فارساً لجلب الماء، وكان اللواء مع نافع بن هلال:

عمرو بن الحجاج: من الرجل؟ ماجاء بك؟

نافع: جئنا نشرب من هذا الماء الذي حلأتمونا عنه.

عمرو: فاشرب هنيئاً مريئاً.

نافع: ويحك، كيف تأمرني أن أشرب من الماء والحسين ومن معه يموتون عطشاً؟

عمرو: صدقت، قد عرفت هذا، ولكن أُمرنا بأمر ولابدَّ لنا أن ننتهي إلى ما أُمرنا به.

نافع: لا والله لا أشرب منه قطرة وحسين عطشان(٧٢).

ولنافع موقف آخر ـ عندما كسرت عضداه وكانت الدماء تسيل على لحيته وأُخذ أسيراً ـ مع عمر بن سعد.

عمر: ويحك يا نافع! ما حملك على ما صنعت بنفسك؟

نافع: إنّ ربي يعلم ما أردت. والله لقد قتلت منكم اثني عشر سوى مَنْ جرحت وما ألوم نفسي على الجهد، ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتموني.

الشمر (يخاطب عمر بن سعد): أقتله أصلحك الله.

عمر: أنت جئت به فإن شئت فاقتله.

الشمر: ... (ينتضي سيفه)

نافع: أما والله إن لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا. الحمد لله الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه(٧٣).

في هذين الموقفين تجد ثباتاً على المبدأ عند نافع أخذه من مبدئية معسكر الحسين، فهو يأبى أن يشرب الماء والحسين، قائده وأميره، عطشان ثمّ في أشدّ حالات الاعياء وهو في أيدي الأعداء لم يتزعزع موقفه، بل هو ثابت صامد، أمّا أولئك فلاتجد عندهم إلّا أنهم ينفّذون ما أمروا به حقّاً كان أو باطلاً، وليس عندهم إلّا إسكات الآخر بقطع رقبته واحتزاز رأسه وإن كان جريحاً (وأسيراً) مكسور العضدين.

ويحاول شمر أن يلعب لعبة، انطلاقاً من نفسه المريضة من غير أن يفهم أن

هناك نفوساً كباراً لا تتراجع ولا تستكين.

الشمر: أين بنو أُختي؟ أين عبّاس وعبدالله وعثمان وجعفر بنو علي ابن أبي طالب؟

الحسين عليه السلام: أجيبوه ولو كان فاسقاً، فإنّه بعض أخوالكم.

العبّاس: ما شأنك؟ وما تريد؟

الشمر: يابني أُختي أنتم آمنون فلاتقتلوا أنفسكم مع أخيكم الحسين والزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد بن معاوية.

العبّاس: تبت يداك يا شمر، لعنك الله ولعن أمانك ولعن ماجئت به من أمانك هذا، لا حاجة لنا في أمانك هذا، فإن أمان الله خيرٌ لنا من أمان ابن مرجانة، لئن كنت خالنا، أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له، ياعدوّ الله! أتأمرنا أن نترك أخانا الحسين ابن فاطمة وندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء.

أما أمان ابن سمية فلا نريده، وإنّا لنرجو أماناً خيراً من أمان ابن سميّة(٧٤).

وأظن أنّ في جواب العبّاس وإخوته الكفاية عن كلّ تعليق، فعلاقتهم بالحسين مستندة إلى قواعد السماء القدسية وهم يقارنون بينه وبين هؤلاء الأدعياء، ولا يخطر ببالهم أن يتزحزحوا عنه لحظة وينحدروا إلى الحضيض مع هؤلاء، فالموت مع الحسين أحب إليهم من أمان هؤلاء.

وهذه محاورة أخرى فيها وضوح أكثر، فهذا أبو حرب السبيعي يمر فيسمع الحسين عليه السلام يقرأ آية ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتّى يميز الخبيث من الطيّب﴾(٧٥).

أبو حرب السبيعي: نحن وربّ الكعبة الطيّبون وأنتم الخبيثون قد ميّزنا منكم.

الضحّاك بن عبدالله المشرفي: تدري مَن هذا؟

برير: لا.

الضحّاك: هذا أبوحرب السبيعي عبدالله بن شهر، وكان مضحاكاً بطّالاً، وكان شريفاً شجاعاً، وكان سعيد بن قيس ربّما حبسه في جناية.

برير (يخاطب أبا حرب): يافاسق، أنت يجعلك الله في الطيبين؟ أمثلك يكون من الطيبين، والحسين بن رسول الله من الخبيثين، والله ما أنت إلّا بهيمة لا تعقل ما تأتي

وما تذر فأبشر ياعدوّ الله بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

أبو حرب: من أنت؟

برير: أنا برير بن خضير.

أبو حرب: إنّا لله. عزّ عليَّ، هلكت والله، هلكت والله يابرير، علامَ تريد قتلك؟

برير: يا أبا حرب هل لك أن تتوب إلى الله من ذنوبك العظام، فوالله إنّا لنحن الطيّبون ولكنّكم أنتم الخبيثون.

أبو حرب: وأنا على ذلك من الشاهدين.

الضحّاك: ويحك أفلا ينفعك معرفتك؟

أبو حرب: جعلت فداك، فمن ينادم يزيد بن عذرة العنزي؟ ها هو معي.

برير: قبّح الله رأيك، على كلّ حال أنت سفيه(٧٦).

حوار بين قوم حملة رسالة ودعاة مبادئ، وقوم لاهين لاعبين لا يعرفون من الدنيا إلّا قضاء الوطر القصير، فحياتهم هازلة لا يعرفون فيها الجدّ إلّا قليلاً.

ولبرير هذا مواقف شجاعة ومبدئية عجيبة:

برير: (مخاطباً الحسين عليه السلام): يا ابن رسول الله! إئذن لي أن أأتي هذا الفاسق عمر بن سعد فأعظه لعلّه يتّعظ ويرتدع عمّا هو عليه.

الحسين: ذاك إليك يا برير.

برير: (يذهب ويدخل فسطاط عمر ويجلس دون أن يسلّم على عمر).

عمر (مغضباً): يا أخا همدان! ما منعك من السلام عليّ؟ ألستُ مسلماً أعرف الله ورسوله وأشهد بشهادة الحقّ؟

برير: لو كنت عرفت الله ورسوله ـ كما تقول ـ لما خرجت إلى عترة رسول الله تريد قتلهم، وبعد؛ فهذا الفرات يلوح بصفائه ويلجّ كأنّه بطون الحيات، تشرب منه كلاب السواد وخنازيره، وهذا الحسين بن علي وإخوته ونساؤه وأهل بيته يموتون عطشاً وقد حُلت بينهم وبين ماء الفرات أن يشربوه وتزعم أنّك تعرف الله ورسوله.

عمر بن سعد (يطرق إلى الأرض ثمّ يرفع رأسه): والله يابرير إنّي لأعلم يقيناً إن كلّ من قاتلهم وغصبهم حقّهم هو في النار لا محالة، ولكن يا برير أتشير عليَّ أن أترك ولاية الري فتكون لغيري، فوالله ما أجد نفسي تجيبني لذلك:

دعاني عبيدالله من دون قومه | إلى خطّة فيها خرجت لحَيْني
فوالله ما أدري وإنّي لحائرٌ | أُفكّر في أمري على خطرينِ
أأترك ملك الري والري منيتي | أم أرجع مأثوماً بقتلِ حسينِ
وفي قتله النار التي ليس دونها | حجابٌ، وملك الري قرّة عيني

بربر (عائداً إلى الحسين): يا ابن رسول الله! إنّ عمر بن سعد قد رضي لقتلك بولاية الري[٧٧].

الشيء الواضح في كلام أصحاب الحسين عليه السلام هو أنّهم يرون أنفسهم أمام مسؤوليّة كبرى تجاه هذه الأمّة، وإن كانوا في حرب، فهؤلاء الذين في المعسكر الثاني المحارب هم (ناس) أو (مسلمون) بحاجة إلى من ينقذهم من المصير الذي يسيرون إليه وينتشلهم من الهاوية التي سيقعون فيها، ولذلك تراهم (أصحاب الحسين) يخرجون إلى هؤلاء واعظين ناصحين منذرين ومبشّرين، كما أن لكلٍّ أُسلوبه في الوعظ والإرشاد ومن بينها الطريقة التي أثار بها بريرٌ عمرَ بن سعد عندما دخل عليه ولم يسلّم، لأنّ ذلك أدعى لجلب انتباه عمر وأصحابه، فأنت ترى أن عمر قد أدان نفسه في عتابه مع برير، وجعل بريراً يبدأ بمنطق قويّ لا يستطيع معه عمر إلّا أن يعترف بالحقّ. ولكنّها نوازع الدنيا.

ولبرير موقف ثالث في كربلاء يعظ وينصح:

برير: ياهؤلاء اتقوا الله، فإنّ ثقل محمّد قد أصبح بين أظهركم، هؤلاء ذريّته وعترته وبناته وحرمه، فهاتوا ما عندكم وما الذي تريدون؟

معسكر السلطة: نريد أن نمكّن منهم الأمير عبيدالله بن زياد فيرى رأيه فيهم.

برير: أفلا ترضون منهم أن يرجعوا إلى المكان الذي أقبلوا منه؟

معسكر السلطة: لا.

برير: ويلكم ياأهل الكوفة! أنسيتم كتبكم إليه وعهودكم التي أعطيتموها من أنفسكم وأشهدتم الله عليها وكفى بالله شهيداً؟ ويلكم أدعوتم أهل بيت نبيّكم وزعمتم أنّكم تقتلون أنفسكم من دونهم، حتّى إذا أتوكم أسلمتموهم لعبيد الله وحلّأتموهم عن ماء الفرات الجاري، وهو مبذول يشرب منه اليهود والنصارى والمجوس،

وترده الكلاب والخنازير؟ بئسما خلفتم محمّداً في ذريّته. ما لكم؟ لا سقاكم الله يوم القيامة، فبئس القوم أنتم.

معسكر السلطة: يا هذا ما ندري ماتقول!!

برير: الحمد لله الذي زادني فيكم بصيرة، اللّهمّ إنّي أبرأ إليك من فعال هؤلاء القوم، اللّهمّ القِ بأسهم بينهم حتّى يلقوك وأنت عليهم غضبان.

معسكر السلطة..(يرمونه بالسهام... هذا هو جوابهم)[٧٨].

ونجد مواقف أخرى ومحاورات كثيرة من أبرزها محاورة حبيب بن مظاهر الأسدي وهو من أبطال معسكر الحسين المشهورين.

حبيب: أما والله لبئس القوم عند الله غداً قوم يقدمون عليه وقد قتلوا ذريّة نبيّه عليه السلام وعترته وأهل بيته وعبّاد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار والذاكرين الله كثيراً.

عزرة: انّك لتزكّي نفسك ما استطعت.

حبيب: ياعزرة إن الله قد زكّاها وطهّرها، فاتقّ الله ياعزرة؛ فإنّي لك من الناصحين، أنشدك الله ياعزرة أن تكون ممّن يعين الضلّال على قتل النفوس الزكية الطاهرة عترة خير الأنبياء وذريّة أصحاب الكساء.

عزرة: يازهير ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت، إنّما كنت عثمانياً.

حبيب: نعم، إني كنت كذلك غير أني لمّا رأيت الحسين مغصوباً على حقّه ذكرت جدّه ومكانه منه فرأيت بنفسي أن أنصره وأكون من جيشه وأجعل نفسي من دون نفسه حفظاً لما ضيّعتم من حق الله وحقّ رسوله.

أَفَلست تستدلّ بموقفي هذا أني منهم، أما والله ما كتبت إليه كتاباً قطّ ولا أرسلت إليه رسولاً قط ولا وعدته بنصر قطّ، ولكن الطريق جمع بيني وبينه[٧٩].

ولحبيب مواقف مشهورة أُخَر منها محاورته مع قرّة بن قيس عندما جاء إلى الحسين يستطلع رأيه.

الحسين عليه السلام: ياهذا! أبلغ صاحبك عني أني لم أرد هذا البلد، ولكن كتب إليّ أهل مصركم هذا أن آتيهم فيبايعوني ويمنعوني وينصروني ولايخذلوني، فإن كرهوني انصرفت عنهم من حيث جئت.

حبيب: ويحك ياقرة بن قيس! عهدي بك وأنت حسن الرأي في أهل هذا البيت، فما الذي غيَّرك حتّى جئت بهذه الرسالة، فأقم عندنا وانصر هذا الرجل الذي قد أتانا الله به.

قرّة: أرجع إلى صاحبي بجواب الرسالة وأرى رأيي.

حبيب: ويحك ياقرة! ان ترجع إلى القوم الظالمين، انصر هذا الرجل الذي بآبائه أيّدك الله بالكرامة، وإيانا معك.

قرة: لعمري، لنصرته أحقّ من نصرة غيره، ولكن أرجع إلى صاحبي بالرسالة وأنظر في ذلك(٨٠).

بعد هذا الاستعراض يبدوا الفرق واضحاً بين مدرسة الرسالة الإلهية، مدرسة آل الرسول ﷺ ومدرسة سلطة متسلّطة تحكم بالقهر والاستعباد وسلب الإرادة. بين مدرسة تضحّي بالدنيا وبكل ما فيها من أجل عقيدتها ومبادئها، ومدرسة تضحّي بكل القيم والمبادئ من أجل دنياها وإن كان يوماً واحداً.

يبقى فصل مهم ـ لا يتّسع له هذا البحث ـ هو فصل أراجيز المعركة وأهازيجها التي قيلت في ساحات النزال، حين لم يبق بين المرء وحَيْنِهِ غير شربة ماء وهي مهمّة فيها من المفاهيم العالية ما يرسم طريقاً لمسيرة أُمّة سائرة في طريق المجد.

الهوامش

١ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٣٠٣، منشورات مكتبة أرومية؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، أحداث سنة ٦١ هـ، ص ١٨٦؛ الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام، ج ١، ص ٣٢١؛ أبو مخنف، مقتل الحسين عليه السلام، ص ٨٣.

٢ ـ الطبري، المصدر نفسه، ص ٣٠٣؛ ابن كثير، مصدر سابق، ص ١٨٦؛ أبو مخنف، ص ٨٤.

٣ ـ سورة الفتح، الآية ١٠.

٤ ـ أبو مخنف، المصدر السابق، ص ٨٦؛ الطبري، المصدر السابق، ص ٨٦؛ الخوارزمي، المصدر السابق، ص ٢٣٥، وفيه أن الحسين عليه السلام بعث برسالة بهذا النص إلى من يظنّ أنّه على رأيه وقد بدأها بـ:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وعبد الله بن وال وجماعة المؤمنين... أما بعد فقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قال في حياته: من رأى...).

وربما كان قد كتب ما خطبه إلى شيعته في الكوفة بعد أن قال له الحر بأنه ليس من الذين كاتبوه.

٥ ـ تاريخ الذهبي، أحداث سنة ٦١ هـ، ص ١٢، ويذكر أنّها قيلت في كربلاء عندما نزل عمر بن سعد هناك.

انظر: الطبري، المصدر السابق، ص ٣٠٥؛ أبو مخنف، المصدر السابق، ص ٨٦؛ الخوارزمي، مقتل الحسين، ج ٢، ص ٥.

٦ ـ الطبري، المصدر السابق، ص ٣٠٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣١٤؛ الخوارزمي، المصدر السابق، ص ٢٣٣؛ أبو مخنف المصدر السابق، ص ٨٧؛ ابن كثير، المصدر السابق، ص ٨٦، وفيه وردت الأبيات هكذا:

سأمضي وما بالموت عارٌ على امرئٍ ... اذا ما نوى حقا ولم يُلفَ محرما

فإن متّ لم أندم وأن عشت لم ألم ... كفى بك موتاً ان تذلّ وترغما

٧ ـ الطبري، المصدر السابق، ص ٣١٧؛ ابن كثير، المصدر السابق، ص ١٩١؛ مقتل الخوارزمي، ج ١، ص ٢٤٦؛ مقتل أبي مخنف، ص ١٠٧؛ بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣١٦.

٨ ـ فقه الخوارزمي ج ١ ص ٢٣٧.

٩ ـ المصدر السابق ص ٢٣٧، مقتل أبي مخنف ص ١١١؛ تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣١٩؛ المجلسي، بحار الأنوار ج ٤٤، ص ٢١٦؛ البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٩١ ـ ١٩٢.

١٠ ـ سورة يونس، الآية ٧١.

١١ ـ سورة الزخرف، ١٩٦.

١٢ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ج٨ ص١٩٣ ـ ١٩٤ ؛ مقتل ابي مخنف ص١١٨ ؛ تاريخ الطبري ج ٢ ص٣٢٢ ؛ مقتل الخوارزمي ج١ ص٢٥٣ .

١٣ ـ سورة الدخان ، الآية ٢٠ .

١٤ ـ سورة غافر ، الآية ٢٧ .

١٥ ـ مقتل أبي مخنف ص١١٨ ؛ تاريخ الطبري ج ٤ ص٣٢٣ ؛ البداية والنهاية ج٨ ص ١٩٤ .

١٦ ـ الخوارزمي ، مقتل الحسين عليه‌السلام ج ٢ ص ٥ ـ ٦ .

١٧ ـ الخوارزمي ، المصدر نفسه ج١ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

١٨ ـ الخوارزمي، المصدر نفسه، ج ١ ، ص ٢٥٢ .

١٩ ـ تفيّل : أخطأ .

٢٠ ـ يشير إلى إلحاق زياد بن أبيه بأبي سفيان ، وغيره .

٢١ ـ اقتباس من الآية ١٩٥ من سورة الأعراف ، والآية ٧١ من سورة يونس .

٢٢ ـ سورة هود ، الآية ٥٦ .

٢٣ ـ مقتل أبي مخنف ج ٢ ص٦ ـ ٨ .

٢٤ ـ المصدر السابق ص٩ ، بحار الأنوار ج ٤٤ ص٣١٩ .

٢٥ ـ الطبري ، المصدر السابق ص ٣٢١ ، البداية والنهاية ج٨ ص١٩٣ .

٢٦ ـ الخوارزمي ، مقتل الحسين ج١ ص٢٢٩ ، ٢٤٦ ؛ تاريخ الطبري ج ٢ ص٣١٨ ؛ البداية والنهاية ، ابن كثير ج٨ ، ص ١٩١ ؛ بحار الأنوار ج ٤٤ ص٣١٦ .

٢٧ ـ الطبري ، المصدر السابق ، ص٣٥ ؛ مقتل أبي مخنف ص٨٦ .

٢٨ ـ الطبري ، المصدر السابق ص٣١٧ ـ ٣١٨ ؛ الخوارزمي ، المصدر السابق ص٢٤٧ ؛ البحار ج ٤٤ ، ص٢١٦ ؛ مقتل أبي مخنف ص١٠٩ .

٢٩ ـ البداية والنهاية ، لابن كثير ج٨ ص ١٩١ .

٣٠ ـ الخوارزمي ، المصدر السابق ص٢٣٦ .

٣١ ـ الطبري ، المصدر السابق ص٣١٧ ؛ الخوارزمي المصدر السابق ص ٢١٩ ؛ ابن كثير ، المصدر السابق ص ١٩١ ؛ مقتل أبي مخنف ص١٠٩ ؛ بحار الأنوار ج ٤٤ ص٣١٦ .

٣٢ ـ الخوارزمي ، المصدر السابق ص٢٢٩ .

٣٣ ـ الطبري ، المصدر السابق ص٣١٧ ؛ الخوارزمي ، المصدر السابق ص٢٤٧ ؛ مقتل أبي مخنف ص١٠٩ .

٣٤ ـ الخوارزمي ، المصدر السابق ص٢٢٩ .

٣٥ ـ الطبري ، المصدر السابق ص٣٠٨ ؛ الخوارزمي ، المصدر السابق ص٢٢٦ ؛ الذهبي ، أحداث ٦١هـ ص١٣ ؛ ابن كثير المصدر السابق ص١٨٨ ؛ مقتل أبي مخنف ص٩٢ .

٣٦ ـ الطبري، المصدر السابق ص٣٣٧؛ ابن كثير، المصدر السابق ص ٢٠٠؛ مقتل أبي مخنف ص١٥٢.
٣٧ ـ سورة الأحزاب، الآية ٢٣.
٣٨ ـ الخوارزمي، مقتل الحسين ج٢ ص ١٥ ـ ١٦؛ الطبري، المصدر السابق ص ٣٣١ ـ ٣٣٢؛ ابن كثير، المصدر السابق، ص١٩٧؛ مقتل أبي مخنف ص١٣٧.
٣٩ ـ الطبري، المصدر السابق ص٣٤٣؛ مقتل الخوارزمي ج٢ ص١٧؛ مقتل أبي مخنف ص١٤٢.
٤٠ ـ الخوارزمي، المصدر السابق ص ٢٤.
٤١ ـ الخوارزمي، المصدر نفسه ص١٧.
٤٢ ـ الطبري، المصدر السابق ص٣٣٨؛ ابن كثير، المصدر السابق ص ٢٠٠؛ مقتل أبي مخنف ص ١٥٤.
٤٣ ـ الخوارزمي، مقتل الحسين ج١ ص٢٤٣؛ مقتل أبي مخنف ص١٤٤ الحاشية.
٤٤ ـ سورة غافر، الآيتان ٣٠ ـ ٣١.
٤٥ ـ سورة غافر، الايتان ٣٢ ـ ٣٣.
٤٦ ـ سورة طه، الآية ٤٨.
٤٧ ـ يشير عليه السلام إلى نصيحة أصحاب الحسين أصحاب عمر بن سعد مراراً، وردّ أولئك عليهم ورفضهم نصيحتهم.
٤٨ ـ الطبري، المصدر السابق ص٣٣٧؛ مقتل أبي مخنف ص١٥٣.
٤٩ ـ الخوارزمي، مقتل الحسين ج٢ ص٢٢؛ بحار الأنوار ج٤٤ ص٣٢.
٥٠ ـ الخوارزمي، المصدر نفسه ص٢٢.
٥١ ـ الخوارزمي، مقتل الحسين ج١ ص٢٤٢.
٥٢ ـ الخوارزمي، المصدر نفسه ص٢٣٩ ـ ٢٤٠؛ مقتل أبي مخنف ص ٨٤ ـ ٩٥.
٥٣ ـ مقتل أبي مخنف، ص٢٣٩؛ تاريخ الطبري ج٤ ص٣٠٩؛ البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص١٨٩.
٥٤ ـ مقتل الخوارزمي، ج١ ص٢٤٨.
٥٥ ـ مقتل أبي مخنف، ص٩٧؛ مقتل الخوارزمي ج١ ص٢٤١ ـ ٢٤٢؛ تاريخ الطبري ج١ ص ٣١١؛ البداية والنهاية ج٨ ص١٨٩.
٥٦ ـ مقتل أبي مخنف ص١٠١ ـ ١٠٢؛ مقتل الخوارزمي ج١ ص٢٤٥ ـ ٢٤٦.
٥٧ ـ البداية والنهاية ج٨ ص١٨٩ ـ ١٩١؛ تاريخ الذهبي، أحداث سنة ٦١هـ، ص١٤؛ تاريخ الطبري ج٤ ص٣١٣ ـ ٣١٥.
٥٨ ـ مقتل الخوارزمي ج١ ص٢٤٥.
٥٩ ـ البداية والنهاية ج٨ ص٢٠٣؛ تاريخ الطبري ج٤ ص٣٤٤.
٦٠ ـ تاريخ الطبري ج٢ ص٣٤٧؛ البداية والنهاية ج٨ ص٢٠٥؛ مقتل أبي مخنف ص٢٠١ ـ ٢٠٢.

٦١ ـ تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٣٠.

٦٢ ـ الطبري، المصدر السابق ص ٣١٢؛ بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣١٧.

٦٣ ـ الطبري، المصدر السابق ص ٣٢٢.

٦٤ ـ مقتل الخوارزمي ج ١ ص ٢٤٩؛ تاريخ الذهبي، أحداث سنة ٦١هـ؛ البداية والنهاية ج ٨ ص ١٩٦؛ بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣١٧.

٦٥ ـ الطبري، المصدر السابق ص ٣١٦؛ البداية والنهاية ج ٨ ص ١٩٠.

٦٦ ـ مقتل الخوارزمي ج ١ ص ٢٣٩.

٦٧ ـ الطبري، المصدر السابق ص ٣٢٣؛ البداية والنهاية ج ٨ ص ١٩٤.

٦٨ ـ يشير عليه السلام إلى دور محمّد بن الأشعث إذ قال لمسلم هذا القول نفسه، ثمّ أخذه إلى عبيدالله بن زياد فقتله.

٦٩ ـ سورة الدخان، الآية ٢٠.

٧٠ ـ مقتبسة من الآية ٢٧ من سورة غافر.

٧١ ـ البداية والنهاية، ج ٨ ص ١٩٤؛ الطبري، المصدر السابق ص ٣٢٣؛ مقتل أبي مخنف ص ١١٧ ـ ١١٨.

٧٢ ـ مقتل أبي مخنف ص ١١٩ ـ ١٢٠؛ الطبري، المصدر السابق ص ٣٢٤؛ البداية والنهاية ج ٨ ص ١٩٤.

٧٣ ـ مقتل الخوارزمي ج ١ ص ٢٤٤؛ تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣١٢.

٧٤ ـ الطبري، المصدر السابق ص ٣٢٧؛ البداية والنهاية ج ٨ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

٧٥ ـ مقتل الخوارزمي ج ١ ص ٢٤٦؛ البداية والنهاية ج ٨ ص ١٩٠؛ تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣١٥؛ مقتل أبي مخنف ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

٧٦ ـ الطبري، المصدر السابق، ص ٣٢٠؛ البداية والنهاية ج ٨ ص ١٩٢ إلّا أنّه ذكر (يزيد بن حصين) بدل (برير بن خضير) مقتل الخوارزمي ج ١ ص ٢٥٠.

٧٧ ـ مقتل الخوارزمي ج ١ ص ٢٤٨.

٧٨ ـ المصدر نفسه ص ٢٥٢.

٧٩ ـ المصدر نفسه ص ٢٥٠، الطبري؛ المصدر السابق ص ٣١٥.

٨٠ ـ مقتل الخوارمي ج ١ ص ٢٤١؛ الطبري، المصدر السابق ص ٢١١.

المستشرقون لا يفهمون ثورة الحسين

عبدالله مؤمني

الإمام الحسين عليه السلام أشهر من أن يُعرف أو يُكتب عنه ترجمة أو مقالة. فاسمه يكفي عن ترجمته؛ وألقابُه (سيّد الشهداء) و (الشهيد المظلوم) وسائر ألقابه، خير معبّر عن شخصيته الفذّة وقضيّته العادلة والظلم الذي لَحِقَه.

وقضيّة كربلاء أو وقعة الطف، أشهر معركة دارت بين الحق والباطل، فجسّدت الحق في طرف الإمام الحسين عليه السلام وجسّدت الباطل في طرف يزيد الفاسق. فما خلدت معركة قُتل فيها قائدها وبطلها، وقُتل معه أهل بيته وأصحابه خلود هذه المعركة، فلم يغفلها التاريخ في يوم من الأيّام، لأنّها كانت أقوى من الأيّام، وأقوى من كلّ سلطة غاشمة طاغية أرادت طمس معالم ذلك الحق والنور الساطع الذي خرج من جبين قائدها الإمام الحسين عليه السلام، وصار سيفاً بتّاراً بيد طلّاب الحق، أرعبَ كلّ عاتٍ طغى وتجبّر في الأرض.

لقد كانت معركةً حاسمةً، وكان النصر فيها للإمام الحسين عليه السلام، ذلك النصر الفريد، الباقي مع الزمن، رغم كل القتل والدماء الحمراء التي ضرّجت جباه وأجساد أهل بيت الرسالة الكرام.

أن يهرق دمك لايعني الخسارة بالضرورة، بل الخسارة هي أن تُقْتَل الفكرة، وينتهي المشروع، ويسدِل التاريخ الستار على القضية كما في كثير من المعارك التي حدثتْ في التاريخ الإسلامي.

لكن معركة الإمام الشهيد ضد يزيد الفاسق وأعوانه الظلمة، ليست كسائر المعارك. إنّها معركة مصير أُمّة إسلامية عظيمة ضد حاكم دنيوي يريد القضاء

عليها.

فأين الإمام الحسين الآن، وأين يزيد؟ إنّه الضوء مقابل الظلام، ومن خَفِي عليه الضوء، فهو أعمى في الدنيا، فضلاً عن الآخرة.

لقد درس واقعة الطف غير قليل من العلماء والباحثين[1]، وتوصلوا تلقائياً ودون أي عناء إلى النتيجة البديهية التالية: وهي انتصار الإمام الحسين وخلوده، واندحار يزيد وأعوانه، وذلك لأنّهم درسوا الواقعة من داخل الإسلام وفي ضوء الإسلام والمعلومات التاريخية والأحاديث الشريفة الصحيحة. وهي المصادر الأساسية لدراسة الواقعة، يقودهم في ذلك العقل والوجدان، لكن شذَّ نفر قليل من الباحثين، جاءوا من خارج الدين الإسلامي والتاريخ الإسلامي، فضلّوا الطريق واخطأوا الحق، وتاهوا في الظلمات، وخرجوا بنتائج شاذة، وبعيدة عن الواقع؛ أولئك هم المستشرقون، أو بعض المستشرقين إذا توخّينا الدقّة.

المستشرقون غريبون عن الإسلام

يختلف المستشرقون من واحدٍ إلى آخر بين حياديّ، ومعتدل، وآخر يضمر العداء الشديد للإسلام والمسلمين، ولاشك أن المستشرق الذي يدرس الإسلام والدعوة الإسلامية والنبيّ الكريم والتاريخ الإسلامي بشكل عام، ليس كمن يدرس الفلسفة أو العلم أوالطب أو الرياضيات في الإسلام. فالموضوعات الأولى حسّاسة دقيقة يتعلّق كثير منها بالإيمان بالغيب، بينما الموضوعات الثانية (العلم والطب والرياضيات والكيمياء وما إلى ذلك مما درسة المستشرقون) يمكن أن تخضع لدراسة استشراقية محايدة ونزيهة إلى حدٍّ ما.

وفي كلّ الحالات، من الصعب أن يتخلّص المستشرق من خلفياته التاريخية والدينية، اليهودية والمسيحية وغيرهما، فهي ـ شاء أم أبى ـ تعمل عملها وتؤدي دورها أثناء بحثه موضوعاً معيّناً. والشواهد أكثر من أن تحصى.

ولاشك أنّ هناك أسباباً كثيرة، كانت وراء ابتعاد دراساتهم عن البحث الموضوعي؛ منها: وجود دوافع تدفعهم إليها حكوماتهم لدراسة مادة معيّنة بغية الاحتفاظ بنتائج البحث عند الحاجة. ومنها: الخلفيات الدينية المنحرفة والعنصرية

التي يحملها المستشرق. ومنها: عدم إجادتهم اللغة العربية وعدم فهمهم النصوص التاريخية فهماً صحيحاً. وبالتالي يفهمون فيستنتجون خلاف الحقيقة، وثمّة أُمور أخرى[٢].

والحقيقة، نحن لانستطيع أن نقبل تفسير المستشرقين للتاريخ الإسلامي على علّاته، لأن نظرتهم ـ عادة ـ هي نظرةٌ ماديّة، تنطلق ممّا تحمل عقولهم وأفكارهم ومعلوماتهم وخلفياتهم التي تختلف ـ بلا شك ـ عن منطلقاتنا في البحث، فكثير منهم لايقدسون ـ في دراستهم للتاريخ الإسلامي ـ النصوص التي لايمكن المساس بها بأي نحو من الأنحاء، كالقرآن الكريم، والصحيح من الحديث الشريف، إضافة إلى ذلك فهم لايستندون في فهمهم إلى القيم الإسلامية الأصليّة، والتعاليم والأخلاق والشعائر الإسلامية.

إنّ المستشرقين ـ بشكل عام ـ بعيدون عن هذه الأمور، وإذا اقتربوا من خلال الاطلاع والبحث عن حقائق الإسلام، فهم ثانويّون، فرعيون وليسوا كالمسلمين الذين عاشوا الإسلام وتربّوا في أحضانه، وتشرّبوا تربيته وتعاليمه وروحه باستثناء المنحرفين منهم.

يقول أحد الباحثين المسلمين: فالتاريخ الإسلامي لايمكن فهمه أو تفسيره إلّا في ضوء النظرة الإسلامية للحياة الإنسانية، وكلّ تفسير يقوم على غير هذا الأساس، فهو ضرب من الخطأ العلمي، لايجوز أن يرتكبه باحثٌ جادّ أو مؤرّخ يبتغي وجه الحق وحده.

ولذلك، فإن كلّ مؤرخ غربي يفسِّر التاريخ وفق منهجه الغربي يقع في الخطأ الذي يتمثّل في بعده عن ظاهرة أساسية، هذه الظاهرة، هي وحدة المناهج الإسلامية والفكر الإسلامي في مختلف فروعه وتكاملها.

بينما يؤمن الفكر الغربي بتجزئة هذه المفاهيم والفصل بين الله والطبيعة والعلم والدين.

أمّا روح الفكر الإسلامي وحضارته وتاريخه، فتقوم أساساً على وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة وأقسامها كما قَدَّرها خالقها، وذلك بحسبان أن الإسلام هو النظام الوحيد الذي يُحقّق هذا الانسجام، لأنّه يجمع بين الإيمان بالروح

والجسد في نظام الدين والسماء والأرض في نظام الكون ويسلكها في طريق واحد هو الطريق إلى الله.

وإن الإسلام هو الذي يجمع بين العلم والدين، في وحدة تامّة غير متناقضة، ومن هنا فإن تطبيق منهج التجزئة الغربي في البحث يحول بين الباحث والوصول إلى الحقيقة، ويجعل الأمور أمامه مضطربة غامضة(٣).

وهكذا وجدنا كثيراً من المستشرقين الذين درسوا الشرق والبلاد الإسلامية والحضارة الإسلامية والمسلمين، ومحمّداً ﷺ، والأئمّة الأطهار عليهم السلام، والعلماء الأعلام، درسوهم وفق منظارهم الملوّن بألوان غريبة عن الإسلام، فكانت نتائجهم خاطئة مجحفة بحق الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية.

المستشرق «لامانس» مثالاً

لعلَّ اسوأ مستشرق قرأت عنه، هو المستشرق البلجيكي «الأب لامانس» Henri Lammens المتوفى سنة ١٩٣٧ ميلادية، وهو مستشرق وراهب يسوعي بلجيكي المولد، فرنسي الجنسية انضم إلى الرهبانية سنة ١٨٨٧م، وكان من أوّل خريجي جامعة القدّيس يوسف في بيروت، حيث حصَّلَ اللغة العربية، ودرس اللاهوت في انجلترا، وتولّى إدارة التبشير في بيروت(٤).

درس «لامانس» السيرة النبويّة الشريفة، وبداية الخلافة الأموية، إضافة إلى موضوعات متفرّقة في العقيدة الإسلامية. وكان في دراساته تلك غير نزيه وغير أمين وغير موضوعي، ينفث السموم نفثاً، ويبتعد كلّ البعد عن الحق والحقيقة، فقد تحامل على السيرة النبويّة الشريفة تحاملاً شديداً، زاعماً أن القرآن وحده هو المصدر الذي يعتمد عليه في بيان سيرة النبي محمّد ﷺ، وأن كتب الأحاديث كلّها موضوعة لتحقيق غايات معيّنة هي تمجيد النبيّ محمّد ﷺ(٥).

وقد وصفه الدكتور عبدالرحمن بدوي بقوله: «شديد التعصّب ضد الإسلام، يفتقر افتقاراً تامّاً إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها، ويعدّ نموذجاً سيئاً جدّاً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين»(٦).

إذن كان «لامانس» مستشرقاً حاقداً معادياً للإسلام أشد العداء ويمكن أن

نعدّه مثالاً للمستشرقين الحاقدين على الإسلام، ويظهر حقده بشكل خاص، على سيديّ شباب أهل الجنّة الإمامين (الحسن والحسين) عليهما أفضل الصلاة والسلام.

ففي ترجمته للإمام الحسين الشهيد عليه السلام يقول: «وتصوّر الروايات الحُسين كما تصوّر أخاه الحسن غارقاً في فيضٍ من حنان جدّه لأُمّه»(٧).

ثمّ يقول: «فقد ثبت أنَّ الابن ورث عن أبيه الصفتين اللتين كانتا السبب في هلاك أبيه وهي التردد وقلّة الفطنة»(٨).

ففي النصّ الأوّل؛ يشعر القارئ أن هذا المستشرق يرى في ذلك غرابة، ونحن هنا، نؤكّد مع أحمد شاكر حين يقول في تعليقه على هذه الفقرة الظالمة: «ولستُ أدري أيّة غرابة في أن يحب الرجل أسباطه (أبناء ابنته)، وخاصّة إذا كان أبوهم ابن عمّه الذي ربّاه وشمله بعنايته صغيراً وشابّاً ورجلاً»(٩).

والحقيقة نحن لانعرف الدافع من وراء هذه الغرابة سوى الحقد الدفين ضد أشرف بيت خلقه الله على وجه الأرض.

وفي النصّ الثاني يرمي الأئمّة الأطهار بمفتريات ومطاعن لم نسمع بصور مثلها قط عن أي مؤرخ قديم أو معاصر، فقد رمى الإمامين عليّاً والحسين عليهما السلام بالتردّد وقلّة الفطنة مع أن ذكاءهما وعزمهما وحزمهما ـ وكلّ الأئمّة الأطهار ـ ممّا اتفق عليه المؤرخون والباحثون.

فمن البديهيات الثابتة أنَّ الإمام عليّاً وابنه الإمام الحسين عليهما السلام كانا شجاعين مقدامين، لايرهبان الموت، وإلّا لما خاضا تلك الحروب الضارية. وهما لم يخوضا من أجل الدنيا أو القصور أو الأبّهة أو اللذائذ، بل من أجل إحياء الدين وتطبيقه. وما أكثر الأمثلة على شجاعة هذين الإمامين الكريمين.

ثم يقول هذا المستشرق وبكل وقاحة: «ولم يقم (الإمام الحسين عليه السلام) بعمل واحدٍ من أعمال البطولة التي أغرم الشيعة بالتغنّي بها»(١٠).

ولا أُبالغ إذا قلت إن هذا النص في حق الإمام الشهيد هو نوع من الهذيان والتجنّي، ولا أعتقد أن هناك شيئاً أوضح من بطولة الإمام الحسين عليه السلام في ملحمة عاشوراء. وليس في التاريخ من تجرّأ بمثل هذا القول الحاقد، الذي لم يستند إلى أيّ

أساس وثائقي.

أليس من البطولة مواجهته مع نحو سبعين من أنصاره لجيش دولة كاملة.

أليست البطولة أن هؤلاء النفر مع إمامهم، يعرفون أنَّ الموت والشهادة أمرٌ لا مفرّ منه ويصرّون ذلك الإصرار الذي لا مثيل له في التاريخ، من أجل إحياء الدين.

فأيٍّ بطولة أكبر من أن يخاطب الإمام ـ مع قلّة ناصريه ـ جيشاً يضمّ الألوف بقوله: «لا والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ إقرار العبيد»(١١).

إن الاقدام بهذا العدد القليل وقلّة الناصر لهو من أكبر البطولات.

يقول الإمام الشهيد «ألا وإنّي زاحف بهذه الأسرة مع قلّة العدد وكثرة العدوّ وخذلان الناصر»(١٢). فأي بطولة أكبر من هذه البطولة. وللمزيد، راجع كتب التاريخ والمقاتل خاصّة.

ولعلَّ أكبر نقطة ضعف اتصف بها هذا المستشرق الحاقد، هي ضعف التوثيق أو انعدامه أصلاً.

يقول بدوي في هذا الصدد إنّه: «يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحاتها. وقد راجعتُ معظم الإشارات في الكتب التي أحال إليها، فوجدتُ أنّه إمّا أن يشير إلى مواضع غير موجودة إطلاقاً في هذه الكتب أو يفهم النصّ فهماً ملتوياً خبيثاً أو يستخرج إلزامات بتعسف شديد يدلّ على فساد الذهن وخبث النيّة»(١٣).

رأيهم المتعسف في واقعة كربلاء

ليس ثمة معركة في التاريخ يُقتل فيها القائد وأهل بيته وأصحابه ثمّ يكيل التاريخ الانتصار إلى القتلى، ويصف المقتولين بالمنتصرين، فخلّدهم شهداء عظماء على مدى التاريخ.

إنّها ميزة من ميزات معركة الطف. فالجانب الحسيني الكريم هو المنتصر رغم كلّ ما حدث. والجانب اليزيدي هو المنهزم مع ما حقق من تفوّق مادي آني.

لكن هناك من خالف هذه القاعدة وشذَّ عنها. فخطّأ ـ مخطئاً ـ خروج الإمام الشهيد الحسين عليه السلام على الصورة التي خرج بها مع قلّة عدده وعدّته في قبال العدد الكبير من العدو والعدّة.

يقول المستشرق «فلهوزن»: «لقد مدَّ الحسين يده كالطفل ليأخذ القمر. ادّعى أعرض الدعاوى ولكنّه لم يبذل شيئاً في سبيل تحقيق أدناها، بل ترك للآخرين أن يعملوا من أجله كلّ شيء، ولم يكد يصطدم بأوّل مقاومة حتّى انهار فأراد الانسحاب، ولكن كان متأخراً، فاكتفى بأن راح ينظر إلى أنصاره وهم يموتون في القتال من أجله وأبقى على نفسه حتّى اللحظة الأخيرة»[١٤].

أمّا المستشرق «جولد تسهير»، فيرى: أنَّ الحسين انساق لطيش الشيعة وقصر نظرهم حين أشركوه في نزاع دامٍ مع الغاصب الأموي[١٥].

أمّا المستشرق «سير وليم مور»، فيقول: «إن الحسين بانسياقه إلى تدبير الخيانة سعياً وراء العرش قد ارتكب جريمة هدّدت كيان المجتمع وتطلَّب من أُولي الأمر في الدولة الأموية التعجيل بقمعها»[١٦].

لاشك ان هذه الأحكام الشاذة، القاسية، أو المُغرضة، وغير النزيهة، هي أحكام مادية عسكرية بحتة، تنمّ عن قصورٍ واضح في إدراك الدوافع الكامنة وراء الثورة الحسينية العظيمة، وسوء تقدير لموقف مشرّف كموقف الإمام الحسين وأهل بيته الكرام.

لقد كان الإمام الشهيد مدركاً كلّ الإدراك، النتائج التي ستنتهي إليها المعركة، وقد غفل أولئك المستشرقون أهداف الحسين ومراميه من قيامه بالثورة. لقد ظنّوا أنَّ النجاح هو الانتصار المادي السريع، ولا شيء غيره، بينما كان الإمام الحسين عليه السلام مدركاً النتيجة، وعارفاً أنّه وصحبه سيُقتلون. وأن استشهاده واستشهاد عياله وأصحابه، هو الثورة عينها. فالدماء التي سقى بها أرض كربلاء، كانت ـ في الحقيقة ـ بذوراً مخصّبة لكلّ ثورة على الظلم في كل أنحاء الدنيا.

وكان هو مدركاً تماماً هذه النتيجة وأنه سيُقتل مع أصحابه وأهل بيته، وقد صرّح أكثر من مرّة بذلك. وأنه قد غسل يده من الحياة، وعزم على تنفيذ أمر الله[١٧].

لكن هذا يبدو غريباً جدّاً كما يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين: «فكيف يسير إنسان إلى الموت مع طائفة من أخلص أصحابه طائعاً مختاراً؟ وكيف يحارب في سبيل قضية يعلم أنّها خاسرة. وكيف يمكِّن لعدوه من نفسه هذا التمكين. هذه

علامات استفهام كثيرة تبحث عن أجوبتها»[١٨].

ويجيب على ذلك بقوله: «والذي أعتقده هو أن وضع المجتمع الإسلامي إذ ذاك كان يتطلّب القيام بعمل انتحاري فاجع يلهب الروح النضاليّة في هذا المجتمع، ويتضمّن أسمى مراتب التضحية ونكران الذات في سبيل المبدأ لكي يكون مناراً لجميع الثائرين حين تلوح لهم وعورة الطريق، وتضمحل عندهم احتمالات الفوز، وترجح عندهم أمارات الفشل والخذلان»[١٩].

لقد كان المجتمع الإسلامي أيام الحسين عليه السلام مجتمعاً مريضاً يُشترى ويباع بقليل من المال وكثير من العذاب والإرهاب وما كان من الممكن أن ينبّه إلى زيف وحقارة وجوده، وما كان من الممكن أن توقظ فيه روحه النضاليّة الخامدة إلّا بعمل انتحاري فاجع يتضمّن أسمى آيات التضحية والكرامة، والدفاع عن المبدأ، والموت في سبيله، وهكذا كان.

إن الحسين عليه السلام لم يكن ذا مال لينافس الأمويين وبيدهم خزائن الأموال، ولم يكن ليتجافى عن روح الإسلام وتعاليمه فيجلب الناس إليه بالعنف والإرهاب، ولذا فليس من المعقول أن يطلب نصراً سياسياً آنياً في مجتمع لايحارب إلّا في سبيل المال وبالمال، أو بالقسر والإرهاب، ولكن كان في وسعه أن يقوم بعمله الذي قام به ليهزّ أعماق هذا المجتمع، وليقدّم له مثلاً أعلى طبع في ضمائر أفراده بدم ونار.

وإذا نحن تقصّينا أسماء من قتل الحسين في كربلاء وجدناهم ينتمون إلى معظم القبائل العربية، فقلّما كانت قبيلة عربية لم يُقتل مع الحسين منها واحد أو اثنان.

وهنا يمكن القول إن فاجعة كربلاء، دخلت في الضمير الإسلامي آنذاك وانفعل بها المجتمع الإسلامي عامّة انفعالاً عميقاً. ولقد كان هذا كفيلاً بأن يبعث في الضمير الشلو هزّة تحييه، وأن يبعث في النفس مايبعثها إلى الدفاع عن كرامتها[٢٠].

هكذا نفهم ثورة الإمام الشهيد الحسين بن علي عليه السلام، نفهمها ثورة بنتائجها البعيدة، وليس بنتائجها القريبة، خلافاً لأُولئك الذين حكموا عليها ـ خطأً أو ظلماً ـ بالسرعة والمجازفة وإلقاء النفس إلى التهلكة، كما فهمها المستشرقون أو بعض

المستشرقين.

إن النجاح الحقيقي، ليس بالضرورة نجاحاً مادياً حاسماً، كما يفهم بعض المستشرقين والغربيين، ففي كثر من الأحيان، لابدّ من بذل النفس والنفيس والدم وكل شيء من أجل المبدأ والدين والإيمان.

ماذا كان سيحدث لو لم يقم الإمام الحسين عليه السلام بثورته تلك؟

ماذا كان سيصيب المجتمع الإسلامي لو لم يبذل الإمام الشهيد دماءه في سبيل انقاذ ذلك المجتمع المريض؟

إنَّها الثورة، الثورة الضرورية التي نَبَّهت المسلم إلى ما كان عليه، وأيقظته من سباته، وأعطت للثوار دروساً سامية في الحرية والثورة على الظلم.

وهذا المغزى لايفهمه أولئك الغرباء عن المجتمع الإسلامي والدين والحضارة الإسلامية.

ولو فهموه لكان لهم رأي آخر.

فسلام عليك يا أبا عبدالله قتيلاً وثائراً وكاسراً كبرياء الطواغيت.

المراجع والهوامش:

١ ـ راجع في هذا الصدد: حياة الإمام الحسين، ثلاثة أجزاء، باقر شريف القرشي؛ ثورة الحسين.. ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية، محمّد مهدي شمس الدين؛ أبو الشهداء، عباس محمود العقاد؛ مقتل الحسين، للسيد عبدالرزاق المقرم.

٢ ـ راجع في هذا الصدد كتاب: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، د. مصطفى خالدي ود.عمر فروخ.

٣ ـ سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية؛ أنور الجندي ص ٣٠، دار الجيل سنة ١٩٨٥ طبعة ٢.

٤ ـ المستشرقون، نجيب عقيقي: ص٢٩٣، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨١ الطبعة الرابعة.

٥ ـ موسوعة المستشرقين: د. عبد الرحمن بدوي: ص٣٤٨. دار العلم للملايين، بيروت سنة ١٩٨٩ الطبعة الثانية.

٦ ـ المرجع السابق ص٣٤٧.

٧ ـ دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين، تعريب مجموعة من الباحثين العرب، ج٧ ص٤٢٧، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٨ ـ المرجع السابق ص٤٢٧.

٩ ـ المرجع السابق ص٤٢٧ (حاشية).

١٠ ـ المرجع السابق ص٤٢٨.

١١ ـ تاريخ الطبري، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري: ج ٥ ص ٤٢٥، تحقيق: محمّد أبي الفضل إبراهيم، دار اسويدان: بيروت.

١٢ ـ ثورة الحسين، محمّد مهدي شمس الدين ص ١٨٤، دار التعارف للمطبوعات، بيروت سنة ١٩٨١ الطبعة السادسة.

١٣ ـ موسوعة المستشرقين، د. عبد الرحمن بدوي ص٣٤٨.

١٤ ـ الخوارج والشيعة، يوليوس فلهاوزن، ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي ص١٨٨، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٨.

١٥ ـ نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثنى عشرية، د. أحمد محمود صبحي ص ٣٣٥، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩.

١٦ ـ تاريخ الإسلام السياسي، حسن إبراهيم حسن، ج ١ ص ٤٠١، دار إحياء التراث العربي سنة ١٩٦٤ الطبعة السادسة.

١٧ ـ ثورة الحسين، محمد مهدي شمس الدين ص ١٩٩.

١٨ ـ المرجع السابق ص ٢١.

١٩ ـ المرجع السابق ص ٢٠١.

٢٠ ـ المرجع السابق ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

نتائج نهضة عاشوراء

علي الحسيني الشهرستاني

تمهيد

بعد أن قويت شوكة الإسلام، وذاع ذكر رسول الله ﷺ حتّى عمّ الآفاق، وتحطّمت الجاهليّة، وانهار مجد قريش، عظُم ذلك على أصحاب المصالح ومن لاقى من الإسلام الويلَ والثبور، فراحوا يكيدون للدين بما لهم من مكر وحيلة.

وكان بنو أُمية أشدّ الناس بغضاً لرسول الله؛ وإنّ مواقفهم في بدء الدعوة، وتنكيلهم برسول الله والمجاهدين مشهودة ولاتخفى على أحد، وإنّ معاوية وبطانته لم يُسلموا إلّا يوم فتح مكّة، وقد حاربوا الإسلام حتّى آخر موقف.

أمّا رسول الله ﷺ ـ الذي هو رحمة للعالمين ـ فتراه يشملهم بعطفه وحنانه، فيطلق أسراهم، ويقول: من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، كلّ ذلك سعياً منه ﷺ لاحتوائهم وهدايتهم لطريق الحقّ والسعادة؛ لكن العداء الكامن في نفوس هؤلاء بقى مختبئاً تحت الرماد ينتظر الريح ليتأجّج مرّة أخرى، إذ إنّهم أسلموا رغم أنوفهم، وإنّ مسايرتهم للمسلمين ومشاركتهم في الحروب جاءَ طمعاً، وإنَّ النصوص الصادرة عن أعلام الأمويين تؤكّد هذه الحقيقة وتبرهن على أنّهم لم يؤمنوا بالغيب ولم يرتضوا بشريعة السماء، وأن تصوّرهم عن رسول الله ﷺ كان أنّه: شخص جاهد، فانتصر!!!

الأمويون والإسلام

أخرج أحمد بن أبي طاهر في كتاب (أخبار الملوك): أن معاوية سمع المؤذن يقول: أشهد أنَّ محمّداً رسول الله. فقال: لله أبوك ياابن عبدالله، لقد كنت عالي الهمّة، ما رضيت لنفسك إلّا أن تقرن اسمك باسم ربّ العالمين[١].

وجاء عن مطرف بن المغيرة بن شعبة، قال:

دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدّث معه ثمّ ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة، فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتمّاً، فانتظرته ساعة، وظننت أنّه لأمر حدث فينا!!

فقلت: مالي أراك مغتمّاً منه الليلة؟

فقال: يابني، من أكفر الناس وأخبثهم؟!

قلت: وما ذاك؟

قال: قلت له [أي لمعاوية] وقد خلوت به: إنّك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدْلاً وبسطت خيراً، فإنّك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوانك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإنّ ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه.

قال: هيهات! هيهات! أيّ ذكر أرجو إبقاءه. ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتّى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: أبو بكر. ثم ملك أخو عديّ فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتّى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: عمر.

وإنّ ابن أبي كبشة ليُصاح به كلّ يوم خمس مرّات: أشهد أنّ محمّداً رسول‌الله، فأيّ عمل يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلّا دفناً دفناً[٢].

أضف إلى ذلك قول معاوية لما دخل الكوفة ظافراً: والله ما قاتلتكم لتعبدوا، ولا لتصلّوا، ولا لتحجّوا، ولا لتزكّوا، إنكم لتفعلون ذلك، وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون[٣].

على ضوء ما سبق تبيّن أنّ الأمويين كانوا لايؤمنون بالغيب، بل ينظرون إلى الرسول والرسالة بالمنظار المادي والذي يطلب لعمله الحكم والسلطان، فكانوا يجدّون لترسيخ هذا المفهوم في أذهان الناس ـ بصورة لاشعورية ـ حتّى يمهّدوا لما

يريدونه من الحكم. فقد اشتهر عن أبي سفيان أنّه قال: تلقّفوها يا بني أُمية تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان لا جنّة ولا نار.

وفي (الأغاني) و(تهذيب ابن عساكر) عن أنس أنّ أبا سفيان دخل على عثمان بعدما عمي، فقال: هل هنا أحد؟ فقالوا: لا. فقال: اللّهمّ اجعل الأمر أمر عالمية، والملك ملك جاهليّة، فاجعل أوتاد الأرض بني أُمية[٤].

وجاء في شرح النهج، لابن أبي الحديد: إنّه رفس قبر حمزة وضربه برجله، وقال: يا أبا عمارة!! إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف صار في يد غلماننا يتلعبون به[٥].

وقال مروان بن الحكم للذين هاجموا عثمان: شاهت الوجوه تريدون سلب ملكنا[٦].

وإنّ ما عرضناه كافٍ لتصوير الوجه الأموي الكريه، وما يرجوه من الحكم والشقاق في الصفّ الإسلامي، ولايخفى على المطالع في التاريخ الإسلامي أن أبا سفيان أتى عليَّ بن أبي طالب عليه السلام ـ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليعلن عن ولائه له وعدائه للشيخين؛ وذلك توسيعاً لرقعة الخلاف بين المسلمين بقوله: غلبكم على هذا أرذل بيت قريش!!! أما والله لأملأنّها خيلاً ورجلاً.

فأجابه الإمام: مازلتَ عدوَّ الإسلام وأهلِه، فما ضرّ ذلك الإسلام وأهلَه شيئاً، إنّا رأينا أبا بكر أهلاً، إنّما تريد الفتنة[٧].

وحق للمقريزي ـ بعد هذا ـ أن يتساءل ويقول:

إنّي كثيراً ما كنت أتعجب من تطاول بني أُمية إلى الخلافة مع بعدهم من جذم (أي أصل) رسول الله، وقرب بني هاشم؛ وأقول: كيف حدثتهم أنفسهم بذلك؟ وأين بنو أُمية وبنو مروان بن الحكم ـ طريد رسول الله ولعينه ـ من هذا الحديث؟ مع تحكّم العداوة بين بني أُمية وبني هاشم في أيّام جاهليتها، ثمّ شدّة عداوة بني أُمية لرسول الله، ومبالغتهم في أذاه، وتماديهم على تكذيبه فيما جاء به منذ بعثه الله عزّوجلّ، بالهدى ودين الحق إلى أن فتح مكّة (شرّفها الله تعالى)، فدخل من دخل منهم في الإسلام! لعمري لا بُعد أبعد ممّا كان بين بني أُمية وبين هذا الأمر إذ ليس لبني أُمية سبب إلى الخلافة، ولا بينهم وبينها نسب[٨].

معاوية والحكم

فمعاوية كان يسعى لتثبيت الحكم وإن خالف بها شريعة السماء والأحكام المنزلة منه، أمّا الإمام الحسن والحسين عليهما السلام والصفوة من صحابة رسول الله فكانوا يؤكّدون لزوم متابعة أحكام الله ونفي بدع المبتدعين.

بذلك ترى حدوث اتجاهين في الشريعة:

١ ـ «أئمّة يدعون إلى النار» ويطلبون هوى النفس وتحكيم السلطان؛ ويتزعمهم معاوية بن أبي سفيان.

٢ ـ «ومنهم أئمّة يهدون بأمرنا لما صبروا» ويريدون تبيان رسالة السماء ويصبرون على ما نزل بهم من البلاء.

هذا هو المشاهد في جميع الشرائع والأمم السابقة بل في كلّ عصر وزمان وأنّ دعاة الحق والساعين لنصرته لا محالة موجودون، فجاء عن عبدالرحمن بن أبي بكر أنّه قال لما دُعي إلى بيعة يزيد: أهرقليّة، إذا مات كسرى كان كسرى مكانه؟ لا نفعل والله أبداً، فبعث إليه معاوية بمئة ألف درهم، فردّها عبدالرحمن وقال: أأبيع ديني بدنياي، وعند ذلك دسّ إليه السمّ وقتله!!!

فاتّضح لك أن معاوية كان يجدّ بكلّ وسيلة لأخذ البيعة لابنه يزيد من أعيان الصحابة، ليثبت حكم بنيه مع علمه بفسق يزيد وفجوره، فجاء في وصيّة معاوية ليزيد أن لا يترك الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير وابن عمر بعد وفاته، بل يجدّ في أخذ البيعة منهم.

أمّا الإمام الحسين وابن الزبير فأبيا البيعة ليزيد، وخرج الحسين إلى العراق لدعوة أهلها إيّاه، وأمّا ابن عمر فبايعَ يزيد، وثبت على ولائه إلى أن مات، بل وبعد وفاته!

الحسين ويزيد

لاحق ركبُ يزيد الإمامَ الحسين حتّى حاصره قرب كربلاء، وعرض الإمام على قائد جيش يزيد أن يختار خصلة من ثلاث:

١ ـ إمّا أن يخلو بينه وبين طريقه إلى الحجاز.

٢ ـ وإمّا أن يسيِّروه إلى يزيد بالشام، ليكون بينه وبين يزيد مايكون!
٣ ـ وإمّا أن يُخلّوا بينه وبين الطريق إلى ثغر من ثغور المسلمين.
لكن عمر بن سعد أبى إلّا أن يُنزل الحسين على حكم ابن زياد ومبايعة يزيد.
فقال الحسين عليه السلام: أمّا هذه فمن دونها الموت!
نترك الدكتور طه حسين ليصف لنا هذه الجريمة البشعة:

«فزحف عمر بن سعد بجيشه على الحسين وأصحابه وكانوا اثنين وسبعين فقاتلوهم أكثر من نصف النهار وأبلى الحسين وبنو أبيه وبنو عمومته ومن كان معهم من أنصاره القليلين أعظم البلاء وأقساه، ورأى الحسين المحنة كأبشع ما تكون المحنة؛ رأى إخوته وأهل بيته يقتلون بين يديه، وفيهم بنوه وبنو أخيه الحسن وبنو عمّه، وكان هو آخر من قُتل منهم بعد أن تجرّع مرارة المحنة، فلم يُبقِ منها شيئاً، وقد كانوا يجزّون رؤوس القتلى ثمّ يسلبونها، وسلبوا الحسين حتّى تركوه متجرِّداً بالعراء.. ثمّ يسبُون النساء كما يسبى الرقيق؛ وفيهم زينب حفيدة رسول الله، ثمّ يأتون بهم ابن زياد، وكان معهم علي بن الحسين وكان صبيّاً، فأرسلهم ابن زياد مع سائر أهل الحسين إلى يزيد، وقدّم رؤوس القتلى بين أيديهم؛ وفيهم رأس الحسين، فدخلوا به على يزيد، فوضع أمامه فجعل ينكث في ثغره بقضيب كان في يده وينشد:

يفلِّقن هاماً من رجالٍ أعزَّة ... علينا وهمْ كانوا أعقَّ وأظلَما

وأدخل السبي على يزيد فأدخلهم على أهله ثمّ جهزهم بعد ذلك إلى المدينة»[٩].

واشتهر عن يزيد أنّه كان يتمثّل بهذه الأشعار وهو ينكث رأس الحسين:

ليت أشياخي ببدرٍ شهِدوا ... جزَع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرَحاً ... ثم قالوا يا يزيد لاتُشَل
لستُ من خندفَ إن لم أنتقم ... من بني أحمدَ ما كانَ فعَل
لعبتْ هاشم بالملك فلا ... خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل[١٠]

فالحسين خرج على يزيد طلباً للإصلاح في أُمّة جدّه، وقد جاءت هذه الحقيقة في وصيّته لأخيه محمّد بن الحنفية:

«إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مُفسداً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولى بالحقّ، ومن ردَّ عليَّ هذا، أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين قومي بالحقّ وهو خير الحاكمين»(١١).

فالإمام لم يقل «فمن قبلني لشرفي ومنزلتي في المسلمين وقرابتي من رسول الله» بل قال «فمن قبلني بقبول الحق» وفي كلامه تأكيد بأنّه يريد أن يدعوهم لما عرفوه من الحق لا لنفسه!

ولا أحسب أنّ أحداً ينكر أنّ فاجعة الطف هزّت العالم الإسلامي والضمائر الحيّة، وأطلقت الألسن وأرهفت الأحاسيس ضدّ الظلم والجور، وتركت في نفوس المسلمين أثراً دامياً؛ قال الشاعر:

وأي رزية عدلت حسيناً ... غداة تبيرة كفّا سنان

نعم، كيف سيواجهون الرسول ﷺ وقد استأمنهم على عترته؛ قال الشاعر:

ماذا تقولون إذ قال النبيّ لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم

بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... نصف أسارى ونصف ضرِّجوا بدمِ

ماكانَ هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني بشرٍّ في ذوي رحمي

بهذا وأمثاله قامت النائحات في مكّة والمدينة والكوفة يندبن الحسين ومن قتل معه، ويصوّرن تأسّف النبيّ ﷺ من هذا الحادث المفجع، وكيف بهم يرون انتهاك يزيد وجلاوزته الحرمات والمقدّسات ولا يمكنهم مجابهة الظلم. لقد هال الناس هذا الحادث حتّى الأمويين أنفسهم، فأقضّ مضاجعهم، وأذهل عقولهم حتّى راحوا يرتعدون لمدّة شهرين أو ثلاثة لأنّ الحيطان كانت تتلطّخ بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع، وسمع الناس في المدينة هاتفاً يقول:

أيّها القاتلون جهلاً حسيناً ... أبشروا بالعذاب والتنكيل

كلّ أهل السماء يدعو عليكم ... من نبيٍّ ومرسلٍ وقبيل

قد لُعنتم على لسان ابن داود ... وموسى صاحب الإنجيل

علماً بأنّ أهل مكّة والمدينة كانوا أكثر تعلُّقاً بالحسين من غير البلدان، إذ إنّهم

سمعوا كلام الرسول فيه و «إنّه مني وأنا منه» أو«الحسين سفينة النجاة» أو «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا» وعرفوا مانزل فيه من آياتٍ، كالمباهلة والتطهير... ومكانته من الزهراء حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثورة أهل المدينة

ثارت المدينة أوّلاً لا لقضية الحسين فحسب، بل لما فرض معاوية من العزلة على الحجاز أيّام انتقال الخلافة إلى البيت الأموي، ولظلم ولاة البيت الأموي وجورهم على المدينة، لاسيّما عثمان بن محمّد بن أبي سفيان، ولغيرها(١٢).

ففاجعة كربلاء جاءت لتفجِّر الموقف وتُطلق النفوس من عقالها.

وحاول يزيد بإغداقه الأموال تارة والإرهاب أخرى أن يسيطر على الموقف، لكن موقف أهل المدينة كان حاسماً، فتقرّر في اجتماع زعمائها في المسجد، خلْعَ يزيد ومبايعة عبدالله بن حنظلة ـ غسيل الملائكة ـ.

ولم يقف يزيد موقف المتفرّج على أحداث المدينة، فبعث إليهم مسلم بن عقبة المري، وكان من جبابرة العرب ودهاتهم، وكان قد طعن في السن، فسار إليها وهو مريض، وحاصرها من جهة الحرّة من ظاهر المدينة وفتحها، ثمّ أباحها للجند ثلاثة أيّام، وأسرف هو وجنده في القتل والنهب والاعتداء، فلقّبوه مسرفاً لذلك، وقد استشهد في تلك المعركة التي كانت شرّاً على الإسلام والمسلمين زهرة أهل المدينة من الفرسان ومن خيرة أصحاب الرسول، وهكذا أباح الأمويون المدينة ودنّسوها(١٣) حتّى قيل إنّ الأبكار ولدت ولايعرف من أولدهن(١٤).

ثورة أهل مكّة

استغلّ عبدالله بن الزبير واقعة كربلاء ومجزرة المدينة ليثير الرأي العام ضد يزيد في مكّة، فما أشبه اليوم بالبارحة، والتأريخ يعيد نفسه، فإنّ موقف ابن الزبير ليس بأقلّ من موقف معاوية من عثمان.

فإنّ معاوية خذَل عثمان لمّا طلب النصرة، ثمّ طالب بدمه بعدها، وابن الزبير لم يرتض اجتماع أهل مكّة بالحسين بن علي بل أكّد أن عليه الخروج إلى الكوفة

بقوله: لو كان لي في الكوفة مثل شيعتك ماعدلت عنها. ولما استشهد، رأى أنّ مقتله أشدّ الأسلحة فتكاً بيزيد، فالتجأ إلى البيت الحرام، وكان فيه أغلب أوقاته حتّى سمّاه الناس بالعائذ بالبيت(١٥)، ليظهر للناس زهده في الدنيا وعدم تعلّقه بالخلافة وحزنه على الحسين.

فاجتمع الناس عليه وطالبوه أن يُعلن نفسه أميراً للمؤمنين، وجاء في تاريخ الطبري: إنّ أمر ابن الزبير ارتفع بمكّة عالياً، وكاتبه أهل المدينة، وكان الناس يقولون يومذاك: ليس لها بعد الحسين غير ابن الزبير، واستطاع ابن الزبير أن يستغلّ الموقف من جميع جوانبه، ويكون قائداً للحركة.

أمّا يزيد فلم يترك أهل مكّة، فطلب من مسلم بن عقبة أن يذهب إليهم، والأخير مات في الطريق، وكلّف أحد معاونيه، وهو الحصين بن نمير السكوني لقتالهم.

أمّا أهل مكّة فتحصّنوا مع ابن الزبير في الكعبة، وسدّوا منافذ المدينة، فكان المتخالفون ـ من الهاربين من وقعة الحرّة وجماعة الخوارج النجدية والأزارقة وأنصار المختار الثقفي وغيرهم ـ متآلفين، وهو ممّا قوّى مركز ابن الزبير. فأخذ جيش يزيد يرمي الكعبة بالمنجنيق والأحجار مع النار والنفط، ومشاقات الكتان، وغير ذلك من المحرقات، وانهدمت الكعبة واحترقت الأبنية(١٦).

وفي غمرة هذه الأحداث تأتي الأنباء ناعيةً يزيد، الذي ترك الخلافة الأموية لمصيرها الغامض، فدخل القائد الأموي الحصين بن نمير في مفاوضات مع ابن الزبير، انتهت باجتماع الرجلين في «الأبطح» لمناقشة الوضع السياسي العام.

وقد حاول الحصين إقناع ابن الزبير بالذهاب إلى الشام ومبايعته بالخلافة(١٧) لكنّه أبى وأراد أن يعيد إلى بلاد الحجاز مجدها ويجعلها مركز الخلافة الإسلامية.

وانقسمت الخلافة بعد وفاة يزيد إلى ثلاثة أقسام، إذ إنّ معاوية الثاني لم يتقبّل الخلافة ولم يعهد لأحد، فقيل له: ولِّ أخاك خالداً، فقال: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فلا أتقلّد وِزرها، ثمّ صعَد المنبر وقال: أيّها الناس إن جدّي معاوية نازع الأمرَ أهله ومن هو أحقُّ به منه لقرابته لرسول الله ﷺ وهو علي بن أبي طالب،

وركب بكم ما تعلمون حتّى أتـتْه منيّته، فـصار في قـبره رهـيناً بـذنوبه وأسـيراً بخطاياه، ثمّ قلّد أبي الأمر، فكان غير أهلٍ لذلك وركب هواه وأخلفه الأمـل وقـصر عنه الأجل، وصار في قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بجرمه.

ثمّ بكى حتّى جرت دموعه على خدّيه وقال: إنّ من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وبئس منقلبه، وقد قتل عترة رسول الله ﷺ وأباح الحرم وخرّب الكعبة، وما أنا بالمتقلّد ولا بالمتحمل تـبعاتكم، فشأنكـم وأمـركم، والله لئـن كـانت الدنيا خيراً، فلقد نلنا منها حظّاً، ولئن كانت شرّاً فكفى ذريّة أبي سفيان ما أصـابوا منها؛ ألا فليصلّ بالناس حسّان بن مالك، وشاوروا فـي خـلافتكم رحـمكم الله، ثـمّ دخل منزله وتغيب حتّى مات في سنته بعد أيّام!! (١٨)

فمروان بن الحكم (في الشام) وعبيد الله بن زياد (في البصرة) وعبدالله بن الزبير (في مكّة) كانوا مثلث القدرة في الخلافة الإسلامية بعد معاوية الثاني، فأمـا ابن زياد فأخذ، يخسر رصيده بعدما امتنع أهل الكوفة من مبايعته، أمّا أهل الشام فأيَّد الضحاكُ بن قيس الفهري وزفر بن الحارث الكلابي وغيرهم من زعماء القيسية ابن الزبير، أمّا القبائل اليمانية بزعامة حسّان بن بجدل الكلبي فأيّـدوا مـروان بـن الحكم، فالتقت القبائل، فكان النصر حليف القبائل اليمانية وهزيمة القبائل القـيسية ـ حلفاء ابن الزبير ـ ومقتل زعيمها الضحّاك وثلاثة من أبناء زفر بن الحـارث(١٩). وبذلك ضعف موقع ابن الزبير وقوى الحزب الأموي.

لابدّ هنا من الإشارة إلى نكتة لا تخفى على المحقّقين، وهـي: إنّ ثـورة ابـن الزبير كانت ثورة مستقلّة تطالب بـالخلافة، وليس بـينها وبـين واقـعة كـربلاء أي صلة، وإن كانت قد أغرت بعض الموالين لأهل البيت وخصوصاً المحبين للحسين بن علي كالمختار الثقفي.

فالجميع يعرف أنّ عبدالله هو ابن الزبير وخالته عائشة، وقد دخل مـع أبـيه وخالته الحرب يوم الجمل ضد علي، وهو الذي أشهد خمسين رجـلاً ـ زوراً ـ عـند عائشة، عندما نبحتها كلاب الحوأب، أن هذا المكان ليس بماء الحوأب الذي أخبرها الرسول به.

وقد عرف بعدائه لعليّ ولعنه إيّاه في الملأ ويقول: جاءكم الوغد اللئيم، وقـد

عيّر أباه واتّهمه بالخوف والجبن لما عزم اعتزال المعركة، عندما ذكّره الإمام بحديث رسول الله!

وروى المؤرّخون أن عبدالله سجن محمّد بن الحنفية ـ ابن الإمام علي ـ وسبعة عشر رجلاً من بني هاشم، وأراد أن يحرقهم بالنار، فجمع على باب الحبس حطباً كثيراً، وأضرم عليهم النار، ولولا وصول جيش المختار في الوقت المناسب لبلغ ابن الزبير مراده.

جاء في تاريخ اليعقوبي: ان ابن الزبير تحامل على بني هاشم تحاملاً شديداً وأظهر لهم العداوة والبغضاء، حتّى بلغ ذلك منه أن ترك الصلاة على محمّد في خطبته، فقيل له: لِمَ تركتَ الصلاة على النبيّ؟ فقال: إنّ له أهل سوء يشرئبّون لذكره، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به[٢٠].

لذلك لا يمكن اعتبار ثورة أهل المدينة وأهل مكّة من الثورات العلوية المستلهمة من واقعة الطف ويوم عاشوراء، وإن كنّا لا ننكر تأثير تلك المجزرة في تهييج الرأي العام ضد يزيد وتماسك فصائل المقاومة عند ابن الزبير وغيره.

بعد هذا، لنذكر الحركات المستلهمة من واقعة الطف؛ منها:

التوّابون

كانت هي أوّل حركة شيعية مُسلَّحة بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام، وإن كنّا لا ننسى موقف ابن عفيف الأزدي «الأعمى» في الجامع الأعظم بالكوفة قبلها، واعتراضه على ابن زياد لما قال للعقيلة زينب: كذبتِ، فقال ابن عفيف: يا أبن مرجانة، الكذّاب ابن الكذّاب أنت وأبوك والذي ولّاك وأبوه، يا ابن مرجانة أتقتلون أبناء النبيين وتتكلّمون بكلام الصدّيقين؟

فقال ابن زياد: مَنْ هذا المتكلّم؟

فقال ابن عفيف: أنا المتكلّم ياعدوَّ الله، أتقتلون الذريّة الطاهرة التي أذهب الله عنهم الرجس وتزعم أنّك على دين الإسلام، واغوثاه، أين أولاد المهاجرين والأنصار لينتقموا من طاغيتك اللعين ابن اللعين على لسانِ محمّدٍ رسول ربّ العالمين.

فازداد غضب ابن زياد وقال: عَليَّ به.

فقامت إليه الشرطة فنادى ابن عفيف بشعار الأزد «يامبرور» فوثب إليه عدد كثير ممّن حضر من الأزد وانتزعوه وأتوا به أهله.

إنّ حركة ابن عفيف كانت الجذوة الأولى لانتفاضة الشيعة ضد الأمويين؛ أمّا الثورة الأولى والتي اكتنفت المئات بل الألوف من المخلصين فكانت ثورة التوّابين.

فإنّ ابن زياد ـ في قضية ابن عفيف ـ أرسل جمعاً قليلاً من جنده ليلاً ليأتوه به، فلما بلغ الأزد ذلك، تجمّعوا وانضمّ إليهم أحلافهم من اليمن، وبلغ ابن زياد تجمُّعَهم، فأرسل مضرَ مع محمّد بن الأشعث فاقتتلوا أشدّ قتال، ووصل أصحاب ابن الأشعث إلى دار ابن عفيف واقتحموا الدار، فصاحت ابنته: أتاك القوم!!

قال لها: لا عليك ناوليني سيفي، فجعل يذبّ به عن نفسه ويقول:

أنا ابن ذي الفضل العفيف الطاهر عفيف شيخي وابن أُمّ عامر
كم دارعٍ من جمعكم وحاسر وبطل جدلته مغادر

وابنته تقول له: ليتني كنت رجلاً أذبّ بين يديك هؤلاء الفجرة قاتلي العترة البررة.

ولم يقدر أحد منهم أن يدنو منه، فإنّ ابنته تقول له: أتاك القوم من جهة كذا، ولمّا أحاطوا به صاحت: واذلّاه، يحاط بأبي وليس له ناصر يستعين به، وهو يدور بسيفه ويقول:

أقسم لو يُفسح لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري

وبعد أن تكاثروا عليه أخذوه وأتَوْا به إلى ابن زياد، فقال له: الحمد لله الذي أخزاك.

قال ابن عفيف: وبماذا أخزاني؟ إلى آخر الخبر المنقول في كتب المقاتل(٢١).

أمّا قضية ابن زياد مع التوّابين في عين الوردة فلم تكن كقضيّة ابن عفيف، فتراه يعدّ لهم جيشاً بالألوف، جاء في المنتظم: أن جند الحصين بن نمير ـ أحد قادة جيش ابن زياد ـ وحده بلغ اثني عشر ألفاً(٢٢)، وكان قد أمر شرحبيل بن كلاع بجنده مع الحصين لمقاتلة هؤلاء.

وإليك أخبار ثورة التوّابين من الانطلاقة حتّى النهاية.

جاء في تاريخ الطبري: لما قُتل الحسين بن علي، تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم ورأت أنّها قد أخطأت خطأً كبيراً، بدعائهم الحسين إلى النصرة، وتركهم إجابته، ومقتله إلى جانبهم ولم ينصروه، ورأوا أنّه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلّا بقتل من قتله أو القتل فيه[٢٣].

واتخذوا هذه الآية شعاراً لهم: ﴿... فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم، فتاب عليكم إنّه هو التوّاب الرحيم﴾[٢٤].

وتزعَّم هذه الحركة خمسة من كبار الزعماء الكوفيين المتقدّمين في السن، أصغرهم قد نيف على الستين، وهم:

١ ـ سليمان بن صرد الخزاعي، وكانت له صحبة مع النبيّ.

٢ ـ المسيّب بن نجبة أو نجية الفزاريّ.

٣ ـ عبدالله بن سعد بن نفيل الأزديّ.

٤ ـ عبدالله بن والٍ التيميّ.

٥ ـ رفاعة بن شداد البجليّ.

فكان جميع هؤلاء من القبائل اليمانية ومن شيعة الإمام علي بن أبي طالب ومؤيّديه.

بدأ الزعماء يمارسون نشاطهم في الخفاء، ويدعون الناس إلى محاسبة أنفسهم على التقصير الذي أظهروه إزاء الحسين، ويعاهدون الله على الأخذ بثأره، ولو أدّى ذلك إلى إبادتهم عن آخرهم، ذكر الطبري في تاريخه كلمات الزعماء الخمسة وما تعاهدوا عليه[٢٥].

وقد انضمّ عبيدالله بن عبدالله المري إلى الجمع، فكان كلّما اجتمعوا يقول: ما عذرنا وقد خذلنا ابن أوّل القوم إسلاماً وابن بنت رسول الله، وهل خلق ربّكم في الأوّلين والآخرين أعظم حقّاً على هذه الأمّة من نبيّها؟ وهل ذريّة أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقّاً على هذه الأمّة من ذريّة رسولها؟ لا والله ما كان ولا يكون، لله أنتم! ألم تروا ويبلغكم ما اجترأتم إلى ابن بنت نبيّكم! أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمته واستضعافهم وحدته وترميلهم إيّاه بالدم، وتجرارهموه على الأرض لم يرقبوا فيه ربّهم ولا قرابته من الرسول ـ إلى أن يقول ـ إلّا أن يناصح لله في

التوبة، فيجاهد القاتلين، وينابذ القاسطين، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة، ويُقيل العثرة، إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيّه، والطلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المحلِّين والمارقين، فإنْ قتلنا فما عند الله خير للأبرار، وإن ظهرنا رَدَدْنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبيّنا[٢٦].

بهذا الأسلوب بدأ عمل التوّابين، وهم يعلنون بلهجة واحدة ندمَهم على خذلانهم للحسين وعدم وفائهم بما عاهدوه عليه ـ في رسائلهم التي أرسلوها إليه ـ.

وبقيت حركتهم طيّ الكتمان إلى شهر ربيع الأوّل من سنة ٦٤ وقيل ٦٥، وذلك بعد أن بلغهم نبأ وفاة يزيد، فكتب سليمان بن صرد إلى شيعة الكوفة والبصرة يستنهضهم للأخذ بثأر الحسين والثورة على بني أمية، فجاء في رسالته إلى عامل المدائن[٢٧] سعد بن حذيفة بن اليمان: أمّا بعد: فإنّ الدنيا دارٌ قد أدبر منها ما كان معروفاً، وأقبل منها ما كان مُنكراً، وأصبحت قد تشنّأتْ إلى ذوي الألباب، وأزمع بالترحال منها عباد الله الأخيار، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بجزيل مثوبة عند الله لا تفنى.

إنّ أولياء من إخوانكم، وشيعة آل نبيّكم نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيّهم الذي دُعي فأجاب، ودعا فَلم يجَب، وأراد الرجعة فحُبس، وسأل الأمان فمُنع، وترك الناس فلم يتركوه، وعَدْوا عليه فقتلوه، ثمّ سلبوه وجرّدوه ظلماً وعدواناً وغرة بالله وجهلاً، وبعين الله ما يعملون، وإلى الله مايرجعون ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون﴾.

فلما نظروا إخوانكم وتدبّروا عواقب ما استقبلوا، رأوا أن قد خطأوا بخذلان الزكيّ الطيّب، وإسلامِه وتركِ مواساته والنصرِ له خطأً كبيراً ليس لهم منه مخرج ولا توبة، دون قتل قاتليه أو قتلهم حتّى تفنى على ذلك أرواحهم، فقد جَدّ إخوانكم فجدّوا، وأعدّوا واستعدّوا، وقد ضربنا لإخواننا أجلاً يوافوننا إليه، وموطناً يلقوننا فيه، فأمّا الأجل فغرة شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين، وأمّا الموطن الذي يلقوننا فيه فالنخيلة، أنتم الذين لم تزالوا لنا شيعة وإخواناً وإلّا، وقد رأينا أن ندعوكم إلى هذا الأمر الذي أراد الله به إخوانكم فيما يزعمون، ويظهرون لنا أنّهم يتوبون، وإنكم جُدراء بتطلاب الفضل، والتماس الأجر، والتوبة إلى ربّكم من

الذنب، ولو كان في ذلك حزُّ الرقاب، وقتل الأولاد، واستيفاء الأموال، وهلاك العشائر ماضرّ أهل عذراء[٢٨] الذين قُتلوا ألّا يكونوا اليوم أحياء عند ربّهم يرزقون، شهداء قد لقوا الله صابرين محتسبين، فأثابهم ثواب الصابرين، وما ضرّ إخوانكم المُقتَّلين صبراً، المُصلَّبين ظلماً، والممثَّل بهم، المعتدى عليهم، ألّا يكونوا أحياء مبتلين بخطاياكم، قد خِيرَ لهم فلقُوا ربّهم...»[٢٩] إلى آخر تلك الرسالة الطويلة والتي أتي بها الطبري في تاريخه.

نعم كانت لرسالة سليمان وقعها الكبير على شيعة المدائن، فقد قرأ سعد بن حذيفة رسالة سليمان ثمّ حمد الله وأثنى عليه، وقال:

أمّا بعد: فإنّكم قد كنتم مجتمعين مُزمعين على نصر الحسين وقتال عدوّه، فلم يفجأكم أوّل من قتله، والله مثيبكم على حسن النيّة وما أجمعتم عليه من النصر أحسن المثوبة، وقد بعث إليكم إخوانكم يستجدونكم ويستمدونكم، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضل الأجر والحظ، فماذا ترون؟ وماذا تقولون؟

فقال القوم بأجمعهم: نجيبهم ونقاتل معهم، ورأينا في ذلك مثل رأيهم.

فقام عبدالله بن الحنظل الطائي ثمّ الحزْمِريّ، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

أمّا بعد، فإنّا قد أجبنا إخواننا إلى ما دعونا إليه، وقد رأينا مثل الذي قد رأوا، فسرّحْني إليهم في الخيل، فقال له: رويداً، لاتعجل، استعدّوا للعدوّ، وأعدّوا له الحرب ، ثمّ نسير وتسيرون.

وكتب سعد بن حذيفة بن اليمان جواب رسالة سليمان وأرسلها مع عبدالله بن مالك الطائي:

بسم الله الرحمن الرحيم: إلى سليمان بن صرد، من سعد بن حذيفة ومن قبله من المؤمنين، سلام عليكم، أمّا بعد، فقد قرأنا كتابك، وفهمنا الذي دعوتنا إليه من الأمر الذي عليه رأيُ الملأ من إخوانك، فقد هُديت لحظّك، ويُسرت لرشدك، ونحن جادّون مجدُّون، معدّون مُسرجون مُلْجمون ننتظر الأمر، ونستمع الداعي، فإذا جاء الصريخ أقبلنا ولم نعرج إن شاء الله، والسلام[٣٠].

فلمّا قرأ سليمان الكتاب سرّ، ومن معه من أصحابه.

أمّا رسالته إلى شيعة البصرة فكانت عبارة عن نسخة ثانية لما أرسله إلى سعد بن حذيفة، فقد أرسل سليمان رسالته إلى المثنى بن مخربة العبدي بيد ظبيان بن عمارة التميمي ـ من بني سعد ـ.

وقد ردّ المثنى على رسالة سليمان بقوله:

أمّا بعد، فقد قرأت كتابك، وأقرأته إخوانك، فحمدوا رأيك، واستجابوا لك، فنحن موافوك إن شاء الله للأجل الذي ضربت، وفي الموطن الذي ذكرت، والسلام(٣١).

بذلك أخذت دعوة التوّابين تتسع، والموالون لها يكثرون، ويجيبها القوم بعد القوم، والنفر بعد النفر من الشيعة وغيرها.

ولم يزل أصحاب سليمان بن صرد يدعون شيعتهم وغيرهم من أهل مصرهم حتّى كثر تبعهم، وكان الناس إلى اتباعهم بعد هلاك يزيد بن معاوية أسرع منهم قبل ذلك، فلمّا مضت ستّة أشهر من هلاك يزيد، قدم المختار بن أبي عبيد الكوفة، فقدم في النصف من شهر رمضان، يوم الجمعة.

قال: وقدم عبدالله بن يزيد الأنصاري ثمّ الخطميّ من قبل عبد الله بن الزبير أميراً على الكوفة على حربها وثغرها، وقدم معه من قبل ابن الزبير إبراهيم بن محمّد بن طلحة بن عبيدالله الأعرج أميراً على خراج الكوفة، وكان قدوم عبدالله بن يزيد الأنصاري ثمّ الخطمي، يوم الجمعة لثمان بقين من شهر رمضان سنة أربع وستين.

قال: وقدم المختار قبل عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمّد بثمانية أيّام، ودخل المختار الكوفة، وقد اجتمعت رؤوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن صرد، فليس يعدلونه به، فكان المختار إذا دعاهم إلى نفسه وإلى الطلب بدم الحسين قالت الشيعة: هذا سليمان شيخ الشيعة، قد انقادوا له واجتمعوا عليه...»(٣٢) إلى آخر الخبر.

لقد عزم قادة الثورة على الخروج وأخذوا يستعرضون ما تيسّر لهم من المقاتلين فوجدوه قليلاً لا يتفق مع القضية التي يقاتلون من أجلها، فأرسل سليمان حكم بن منقذ الكندي في خيل، والوليد بن غُصين الكناني في خيل آخر وقال: اذهبا

حتّى تدخلا الكوفة فناديا: يا لثارات الحسين!! وأبلغا المسجد الأعظم فناديا بذلك.

فخرجا وكانا أوّل خلق الله دعوا: يا لثارات الحسين!!

قال: فأقبل حكم بن منقذ الكندي في خيل والوليد بن غُصين في خيل حتّى مرّا ببني كثير، وإنّ رجلاً من كثير من الأزد يقال له عبدالله بن خازم مع امرأته سهلة بنت سبرة بن عمرو ـ وكانت من أجمل الناس وأحبّهم إليه ـ سمع الصوت: يا لثارات الحسين! وماهو ممن كان يأتيهم ولا استجاب لهم، فوثب إلى ثيابه فلبسها، ودعا بسلاحه، وأمر بإسراج فرسه، فقالت له امرأته: ويحك! أجننت! قال: لا والله، ولكنّي سمعت داعي الله، فأنا مجيبه، أنا طالب بدم هذا الرجل حتّى أموت أو يقضي الله من أمري ماهو أحبّ إليه.

فقالت له: إلى من تدع بنيك هذا؟

قال: إلى الله وحده لا شريك له، اللّهمّ إنّي أستودعك أهلي وولدي، اللّهمّ احفظني فيهم، وكان ابنه ذلك يُدعى عزرة؛ فبقي حتّى قتل بعد مع مصعب بن الزبير، وخرج حتّى لحق بهم، فقعدت امرأته تبكيه واجتمع إليها نساؤها، ومضى مع القوم، وطافت تلك الليلة الخيل بالكوفة، حتّى جاءوا المسجد بعد العتمة، وفيه ناس كثير يصلّون، فنادوا: يا لثارات الحسين! وفيهم أبوعزة القابضي وكرب بن نمران يصلّي، فقال: يا لثارات الحسين! أين جماعة القوم؟

قيل: بالنخيلة، فخرج حتّى أتى أهله، فأخذ سلاحه، ودعا بفرسه ليركبه، فجاءت ابنته الرّواع ـ وكانت تحت ثبيت القابضي ـ فقالت: يا أبت، مالي أراك قد تقلّدت سيفك، ولبست سلاحك! فقال لها: يا بنية، إنّ أباك يفرّ من ذنبه إلى ربّه، فأخذت تنتحب وتبكي، فجاء أصهاره وبنو عمّه، فودّعهم، ثمّ خرج فلحق بالقوم.

قال: فلم يصبح سليمان بن صرد حتّى أتاه نحو ممّن كان في عسكره حين دخله، قال: ثمّ دعا بديوانه لينظر فيه إلى عدّة من بايعه حين أصبح، فوجدهم ستّة عشر ألفاً.

فقال: سبحان الله! ما وافانا إلّا أربعة آلاف من ستّة عشر ألفاً[٣٣].

ومن أجل استقطاب المزيد من المؤيّدين تردّدت هذه الشعارات «من أراد الجنّة فليلتحق بسليمان في النخيلة» و«من أراد التوبة فليلتحق بسليمان»[٣٤] إلى

غير ذلك من الشعارات التي لم تخرج عن إطار الغفران والتكفير عن الذنب.

لقد ارتفع عدد المقاتلين مع تصعيد الحملات الدعائية من ألف إلى أربعة آلاف مقاتل، فخرجوا إلى النخيلة وأقاموا بها ثلاثة أيّام وقد مرّ عليك أن أنصارهم كانوا يجوبون الكوفة يطالبون من عاهدهم للخروج إلى النخيلة، فلم يلحق بهم سوى ألف مقاتل آخر، وهكذا الحال كان بالنسبة إلى شيعة البصرة، فإنّهم لم يكونوا أكثر استجابة من الكوفيين.

فتردّد سليمان بن صرد في الخروج بهم، لكن المسيّب بن نجبة قال له: رحمك الله إنّه لن ينفعك الكاره للقتال، ولايقاتل معك إلّا من أخرجتْه المنية فلا تنتظر أحداً وجدَّ في أمرك[٣٥].

فأخذ ابن صرد بنصيحة المسيب وترك الخيار لمن معه في الخروج أو الرجوع إلى الكوفة.

وغادر الجمع المعسكر باتجاه كربلاء لزيارة مثوى الحسين، وكلمات العترة من آل الرسول ترنّ في آذانهم، فزينب بنت علي تقول:

يا أهل الكوفة، أتبكون، فلا سكنت العبرة، ولا هدأت الرنة، إنّما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، تتّخذون أيمانكم دخَلاً بينكم ألا ساء ماتزرون.

أي والله، فابكوا كثيراً، واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، فلن ترحصوها بغسل أبداً، وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوّة، ومعدن الرسالة ومدار حجّتكم، ومنار محجّتكم، وهو سيّد شباب أهل الجنّة؟ لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء، أتعجبون لو أمطرت دماً ؟ ألا ساء ما سوّلت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون، أتدرون أيّ كبدٍ فريتم؟ وأيّ دمٍ سفكتم؟ وأيّ كريمة أبرزتم؟[٣٦]

وفاطمة بنت الحسين تنادي:

يا أهل الكوفة، يا أهل المكر والغدر والخيلاء، فإنّا أهل بيت ابتلانا الله بكم وابتلاكم بنا، فكذبتمونا وكفرتمونا، ورأيتم قتالنا حلالاً، وأموالنا نهباً.

ويلكم، أتدرون أي يدٍ طاعنتنا منكم، وأيّة نفس نزعت إلى قتالنا، أم بأيّة رجل

مشيتم إلينا، تبغون محاربتنا، قست قلوبكم، وختم على سمعكم وبصركم، وسوّل لكم الشيطان، وأملى لكم، وجعل على بصركم غشاوة فأنتم لا تهتدون.

تبّاً لكم يا أهل الكوفة، أي تراثٍ لرسول الله قِبَلكم؟ وذحول له لديكم؟ بما غدرتم بأخيه علي بن أبي طالب وعترته الطيّبين الأخيار.

أمّا كلام علي بن الحسين فلا يمكنهم أن ينسوه، إذ إنّه أنشدهم بالله وقال:

هل تعلمون أنّكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه، وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة، وقاتلتموه؟ فتبّاً لكم لما قدمتم لأنفسكم وسوأة لرأيكم، بأيّ عين تنظرون إلى رسول الله إذ يقول لكم: قتلتم عترتي، وانتهكتم حرمتي، فلستم من أُمتي.

وما إن وصلوا كربلاء حتّى ألقوا بأنفسهم من الخيل وانهالوا على القبر الشريف يبكون ويندبون ويطلبون من الله التوبة، وقد علت صرخات المقاتلين وضجيج التوّابين وهم يدورون حول القبر الطاهر مردِّدين نشيد الغفران: اللّهم إنّا خذلنا ابن بنت نبيّنا، وقد أسأنا وأخطأنا، فاغفر لنا ما قد مضى من ذنوبنا، وتب علينا، إنّك أنت التوّاب الرحيم، اللّهمّ ارحم الحسين الشهيد ابن الشهيد، وارحم إخواننا الذين حصنوا أنفسهم معه بالشهادة، اللّهمّ إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين(٣٧).

وكان الزحام على القبر أشدّ منه عند الحجر الأسود بمكّة كما قال به ابن الأعثم في الفتوح(٣٨).

وتناقل الناس أخبار التوّابين، وتسرّب إلى مسامع أشراف الكوفة ـ المتعاملين مع السلطة ـ وخيّم عليهم الخوف والهلع، وكان أشدّهم قلقاً عمر بن سعد الذي التجأ إلى قصر الإمارة طلباً للحماية والأمان(٣٩)، وقد ألحّ أولئك الأشراف على أمير الكوفة لضرب التوّابين:

فأتى يزيد بن الحارث بن يزيد بن زويم الشيباني، عبدالله بن يزيد الأنصاري ـ أمير الكوفة ـ فقال: إن الناس يتحدّثون أن هذه الشيعة خارجة عليك مع ابن صُرد، ومنهم طائفة أخرى مع المختار، وهي أقلّ الطائفتين عدداً، والمختار فيما يذكر الناس لايريد أن يخرج حتّي ينظر إلى ما يصير إليه أمر سليمان بن صرد،

وقد اجتمع له أمره، وهو خارج من أيّامه هذه، فإن رأيت أن تجمع الشرط والمقاتلة ووجوه الناس، ثمّ تنهض إليهم، وننهض معك، فإذا دفعت إلى منزله دعوته، فإن أجابك فحسبهُ، وإن قاتلك قاتلته، وقد جمعت له وعبّأت وهو مغترّ، فإنّي أخاف عليك إن هو بدأك وأقررته حتّى يخرج عليك أن تشتدّ شوكته، وأن يتفاقم أمره(٤٠).

لكن أمير الكوفة تصرّف بموضوعيّة وإخلاص، فردّ على الأشراف بقوله: الله بيننا وبينهم، إن هم قاتلونا قتلناهم، وإن تركونا لم نطلبهم، حدثني ما يريد الناس؟

قال: يذكر الناس أنّهم يطلبون بدم الحسين بن عليّ؛ قال [عبدالله]: فأنا قتلت الحسين؟! لعن الله قاتل الحسين!! (٤١)

وفي نصٍّ آخر: قيل: ابدأهم قبل أن يبدأوك، فأبيت ذلك، قلت: إن قاتلوني قاتلتهم، وإن تركوني لم أطلبهم، وعلامَ يقاتلونني! فوالله ما أنا قتلت حسيناً، ولا أنا ممّن قاتله، ولقد أُصبت بمقتله رحمة الله عليه!! فإنّ هؤلاء القوم آمنون، فليخرجوا ولينشروا ظاهرين ليسيروا إلى من قاتل الحسين، فقد أقبل إليهم، وأنا لهم على قاتله ظهير، هذا ابن زياد قاتل الحسين، وقاتل خياركم وأماثلكم، قد توجّه إليكم، عَهْدُ العاهد به على مسيرة ليلة من جسر منبج، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم، فيقتل بعضكم بعضاً، ويسفك بعضكم دماء بعض، فيلقاكم ذلك العدو غداً وقد رققتم، وتلك والله أُمنية عدوّكم...»(٤٢).

لم يكتف أمير الكوفة الزبيري، عبدالله بن يزيد عند هذا الحدّ، بل جدّ لأن يرشد سليمان وينصحه بأن الحركة في الموعد المقرّر ليس بصحيح بل يلزم تأخيرها، مصوّراً ذلك في رسالته لسليمان ضخامة الجيش الأموي وما لهم من آليّة حربية وعدّة، الذي بدأ يزحف نحو العراق، مؤكّداً من جديد ضرورة توحيد الجهود بين الزبيريين والعلويين وتكاتف الأيدي ولزوم التريّث إلى وقت النهوض فجاء فيها:

أمّا بعد فإن كتابي هذا إليكم كتاب ناصح ذي ارعاء، وكم من ناصح مستغش وكم من غاش مستنصح محب، إنّه بلغني أنكم تريدون المسير بالعدد اليسير إلى الجمع الكثير، وإنّه من يُرد أن ينقل الجبال عن مراتبها تكلّ معاوله وينزع وهو مذموم العقل والفعل.

يا قومنا لاتُطمعوا عدوّكم في أهل بلادكم، فإنّكم خيارٌ كلكم، ومتى ما يُصبكم عدوّكم يعلموا أنكم أعلام مصركم، فيطمعهم ذلك فيمن وراءكم.

ياقومنا «إنّهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملّتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً» ياقوم، إن أيدينا وأيديكم اليوم واحدة، وإن عدوّنا وعدوّكم واحد، ومتى تجمع كلمتنا نظهر على عدوّنا، ومتى تختلف تهن شوكتنا على من خالفنا، يا قومنا لا تستغشوا نصحي، ولاتخالفوا أمري، وأقبلوا حين يُقرأ عليكم كتابي، أقبل الله بكم إلى طاعته، وأدبر بكم عن معصيته والسلام[٤٣].

فلمّا قرأ سليمان الكتاب أقبل على أصحابه، وقال: والله لا أرى لكم الرجوع عمّا عزمتم عليه، إمّا الشهادة أو الفتح، ونحن نريد الآخرة ثمّ تمثّل بهذه الأبيات:

أرى لكِ شكلاً غير شكلي فأقصري عن اللّوم إذ بُدلت واختلف الشكل

ثم كتب إلى عبدالله بن يزيد الأنصاري بما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم، للأمير عبدالله بن يزيد من سليمان بن صرد ومن معه من المؤمنين، سلام عليك، أمّا بعد، فقد قرأنا كتابك، وفهمنا ما نويت، فنعم والله الوالي، ونعم الأمير، ونعم أخو العشيرة، أنت والله مَن نأمنه بالغيب، ونستنصحه في المشورة، ونحمده على كلّ حال، إنّا سمعنا الله عزّوجلّ يقول في كتابه ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة﴾ إلى قوله ﴿وبشّر المؤمنين﴾. إن القوم قد استبشروا ببيعتهم التي بايعوا، إنّهم قد تابوا من عظيم جرمهم، وقد توجّهوا إلى الله، وتوكّلوا عليه ورضوا بما قضى الله ﴿ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ والسلام عليك[٤٤].

معركة عين الوردة

بعد يوم وليلة من البكاء والنحيب عند قبر الإمام الحسين، اتجه التوّابون عبر الفرات إلى الأنبار ومدينة هيت، ومن هذه الأخيرة كتب سليمان جواب رسالة أمير الكوفة (عبدالله بن يزيد) ومنها خرجوا إلى قرقيسيا حيث كان فيها زفر بن الحارث الكلابي، وكان يعمل لمصلحة ابن الزبير، فساعدهم ووضع لهم سوقاً ليأخذوا منه ما يحتاجون إليه في طريقهم، وأخبرهم بتحرّكات ابن زياد في ثلاثين ألف مقاتل

من الشام ونصحهم بأن يسبقوه إلى عين الوردة، وينزلوا غربيها، ويجعلوها من ورائهم لتحمي ظهورهم.

تقدّم سليمان مع رفاقه في عمق الجزيرة، وراح يرسم الخطط وينظّم المقاتلين إلى مجموعات صغيرة، مهمّتها القيام بهجمات صاعقة على فلول الجيش الأموي، ولما استكمل تنظيمه، وقف خطيباً ليعدّهم نفسيّاً للدخول في أجواء المعركة والتي دنت ساعتها، فقال:

... قد أتاكم الله بعدوّكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل والنهار، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح، ولقاء الله معذرين، فقد جاءوكم بل جئتموهم أنتم في دارهم وحيزهم، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم، واصبروا إنّ الله مع الصابرين، ولا يولينهم امرؤ دبره إلّا متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة، لا تقتلوا مدبراً، ولاتجهزوا على جريح، ولاتقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم، إلّا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه، أو يكون من قتلة إخواننا بالطف رحمة الله عليهم، فإنّ هذه كانت سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل الدعوة.

ثم قال سليمان: إن أنا قُتلت فأمير الناس المسيّب، فإن أُصيب فأمير الناس عبدالله بن سعد بن نفيل، فإن قتل فأمير الناس عبدالله بن وال فإن قتل، فأمير الناس رفاعة بن شدّاد، رحم الله امرأً صدق ما عاهد الله عليه(٤٥).

وبدأت المعركة بين الفريقين غير متكافئة لا في العدد ولا في العتاد، وقد أرسل سليمان المسيب بن نجبة على رأس أربعمئة فارس نحو معسكر الأمويين واصطدم مع جند شرحبيل بن ذي الكلاع والحصين بن نمير السكوني وأوقع بهم خسائر فادحة، علماً أن جند الحصين بن نمير ـ كما قلنا ـ كان يربو على اثني عشر ألفاً.

وكان الحماس بلغ ذروته في هذه المعركة، وتسمع صراخات سليمان ونداءاته تدوي في الصحراء:

يا شيعة آل محمّد، يا من يطلب بدم الشهيد ابن فاطمة، أبشروا بكرامة الله عزّوجلّ، فوالله ما بينكم ودخول الجنّة والراحة من هذه الدنيا إلّا فراق الأنفس والتوبة والوفاء بالعهد(٤٦).

وجاء في تاريخ الطبري وغيره من كتب التاريخ أنّ عبيدالله افتقد السيطرة على أعصابه وأخذ يصبّ جام غضبه على قائده شرحبيل بن ذي الكلاع متّهماً إيّاه بالتخاذل والتقصير، إذ إنّ العمليات الاستشهادية التي كان يقوم بها المقاتلون كانت فوق التصوّر والمتوقّع في الحروب.

وبعد مقتل سليمان تسلّم راية الجند المسيب وكان من أشجع الناس قتالاً وثباتاً، وكان من أبطال الكوفة، فحمل بمن معه على جند عبيدالله بن زياد وهو يقول:

قد علمت ميالة الذوائب	واضحة اللبات والترائب
اني غداة الروع والمقانب	أشجع من ذي لبدة مواثب

ولما قتل المسيب هاجم أصحابه جند ابن زياد هجوم المستميت وهم ينادون: الجنّة الجنّة، إلى البقية من أصحاب أبي تراب، الجنّة الجنّة إلى الترابية.

سقط التوّابون الواحد تلو الآخر ولم يبق في الجمع إلّا رفاعة بن شدّاد وجمع قليل لحين وصلهم الامداد من شيعة البصرة والمدائن، فقال عبدالله بن سعد بن نفيل للوافدين، وكانوا خمسمئة فارس: ياحبذا لو كان مجيئكم ونحن من الأحياء، تشتركون المعركة وتباشرون القتال بقلوبكم العامرة بالتقوى والمطمئنة بالإيمان. ولمّا قتل عبدالله بن سعد انسحب رفاعة بن شداد من المعركة وأدرك عدم الجدوى في القتال، وانتهت المعركة لصالح جند ابن زياد، ورجع من بقي من التوّابين ـ وهم قلّة ـ كلٌّ إلى مصره، وهم يبكون لا لأنّهم لم يحقّقوا الهدف وقتل قتلة الحسين بل لعدم نيلهم الشهادة وتكفير الذنوب.

وقد حاول زفر بن الحارث الكلابي مواساتهم والتخفيف عنهم لمّا وصلوا إلى قرقيسيا فأرسل إليهم المواد الغذائية، والأطباء لمداواة الجرحى عارضاً عليهم الإقامة ما شاءوا في مدينته، فأقاموا فيها ثلاثة أيّام، فكان التضامن السياسي والعقائدي مع التوّابين متجلّياً بأجلى صوره.

وقد كتب المختار ـ من السجن في الكوفة ـ رسالة إلى المتبقي من جند التوّابين معزيّاً إيّاهم. ومبشّراً بالنصر ومعاهداً على إكمال المسيرة التي خطّها سليمان وأصحابه، فجاء في رسالته «أبشروا فقد قضيتم ما عليكم، وبقي ما علينا،

ولن يفوتنا منهم من بقي إن شاء الله»[٤٧].

تلخص ممّا مضى:

١ ـ أن ثورة التوّابين ثورة مسلّحة قادها شيوخ الشيعة.

٢ ـ إنّها اتخذت «يا لثارات الحسين» شعاراً لها.

٣ ـ هدف الثورة هو الثأر للحسين عليه السلام أو الاستشهاد وغسل العار ولم يرجَ منه الحكم والسلطان!

٤ ـ ارتباط الجماهير نفسيّاً وسيّاسياً معها.

٥ ـ كسر حاجز الخوف الذي خيّم على نفوس المسلمين آنذاك وتمهيدها لثورة المختار الثقفي.

وأخيراً

بعدما شرعت في الكتابة كان يعجبني مواصلة البحث، وسرد قصّة الجهاد حتّى آخر العهد الأموي، والمرور بثورات المختار الثقفي وزيد بن علي بن الحسين، وعبدالله بن معاوية بن عبدالملك بن جعفر بن أبي طالب، حتّى تأسيس الدولة العبّاسية تحت لواء (الرضا من آل محمّد).

لكن لما رأيت أن بغيّة المؤتمر قد تحقّق بكتابة ما سبق، ولم يبق لي إلّا بعض الصفحات[٤٨]، أحببت الإشارة إلى أمر يواجه غالب رجال البحث والتحقيق في دراستهم لثورات العلويين في هذه الحقبة من الزمن، ألا وهو:

لِمَ لم يستجب الإمام زين العابدين لاقتراح المختار في الخروج على الأمويين، بل يسبّه على رؤوس الملأ في مسجد النبيّ، ويقول لرسل المختار لما وقفوا على بابه: أميطوا عن بابي، فإنّي لا أقبل هدايا الكذّابين، ولا أقرأ كتبهم.

ولِمَ يتصدى ابن الحنفية الحركة مع وجود ولي الدم وهو الإمام السجّاد؟!

وكيف بالمختار يدعو إلى ابن الحنفية؟ إن كان إماميّاً، وهو يعلم أن علي بن الحسين هو الإمام بالحق وولي الدم؟!

وإن صحّ ما قيل عن المختار وأنّه كان مجازاً في القيام من قِبل الإمام السجّاد؟ فلِمَ لا نرى أو نسمع تصريحاً باسم الإمام في خطب المختار؟ بل نراه

يصرّح أنّه مبعوث من قبل المهدي ويعني به محمّد بن الحنفية؟!

وكيف بمحمّد يرى نفسه المهدي ويصير إماماً للمختار ويتعهّد الحركة مع وجود الإمام علي بن الحسين؟

وما يعني طلب المختار من ابن الزبير الثورة على الأمويين والدفاع عن حق آل أبي طالب وهو يعرف مواقفه من العلويين؟

ولماذا لا يذهب (ابن الحنفية) وعبدالله بن جعفر مع الحسين إلى كربلاء، بل تراهم يبقون في المدينة؟

لو كان ابن الحنفية وعبدالله بن الحسن ومحمّد بن عبدالله (النفس الزكيّة) يرون أنفسهم أئمّة ومهديي هذه الأمّة، فكيف بالباقر يصلّي على ابن الحنفية ويتعهّد دفنه(٤٩)، والصادق يصف عبدالله بن الحسن بالخلف الصالح(٥٠)، ويبكي على النفس الزكية ويترحّم عليه(٥١).

وإن كان معتقد ابن الحنفية صحيحاً ـ كما يقول به الرجاليون ـ وأنه بقي في المدينة لوصيّة الإمام الحسين إيّاه «فلا عليك أن تقيم في المدينة فتكون لي عيناً، لا تخفي عني شيئاً من أُمورهم»(٥٢)، فلماذا نرى الإمام زين العابدين يحاكمه في الإمامة(٥٣).

وكيف يصير فقه زيد بن علي مخالفاً لفقه أخيه الباقر وابنه الصادق، والكلّ أبناء الحسين، والحسين سبط رسول الله، وهم قريبو العهد به؟!

وهل هناك اختلاف بينهم، أم أن ريشة الحكّام رسمت ذلك؟ وهل اختلافهم جاء عفويّاً أم كان تكتيكاً سياسيّاً؟!

نحن أثبتنا في كتاب (وضوء النبيّ) وحدة العلويين في الفقه والسياسة، وإن اختلافهم في المنهجية والأسلوب لا يعني الاختلاف في العقيدة وأُصول التشريع، وإن أهل البيت كانوا يسعون للحفاظ على كلا الأسلوبين للحفاظ على الشريعة والمطالبة بحقهم في الخلافة.

وصحيح أن القيام والقعود خطّان متوازيان، لكنّهما يصبّان في هدف مشترك واحد، وهو ديمومية نهج السُنّة النبويّة في الفقه والسياسة، ولهذا السبب نرى في تاريخ الشيعة تيّارين حاكمين عبر جميع فترات تاريخهم:

١ ـ التيّار الثوري الرافض.

٢ ـ التيّار المنتظر المحافظ.

وبتلاقى التيّارين السالب والموجب يحدث النور ـ كمايقول به علماء الفيزياء ـ وهكذا الحال بالنسبة للحركة، فهي لاتنتج إلّا بتقديم رجل وتأخير أخرى، وكلاهما ضروريان لديمومة النهضة الإسلامية، ولأجل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الحسين والحسين عليهما السلام إنّهما إمامان قاما أو قعدا.

بذلك فقد عرفنا أن صدور نصوص عن علي بن الحسين في المختار أو طلب المختار من ابن الحنفية أو تصدر ابن الحنفية للحركة وقول الصادق عليه السلام في زيد وغيرها لا تعني التشكيك في مبادرة الثائرين بل هو عبارة عن تكتيك عسكري وموقف سياسي اتخذه الأئمّة عليهم السلام ـ وفق الظروف السياسيّة الحاكمة ـ آنذاك.

فالإمام السجّاد عليه السلام كان لايمكنه تصدّر النهضة ضد بني أُمية لتلاحق عيون الحكّام إيّاه، ولخوفه من بتر نسل آل محمّد، إذ بثورته عليهم يعطي المبرّر للنيل منه ومن ولده، ولما بقي اليوم اسم لأولاد علي ولاضمحل محبّو آل محمّد.

وعليه فسكوت الإمام السجّاد خدم قضيّة الشيعة ومهّد للمختار أن يطالب بالحقّ مع جعل الحصانة له.

وهكذا الحال بالنسبة إلى قضيّة الإمام الصادق مع زيد، فإنّه عليه السلام لما رأى تدوين الحديث في العهد الأموي وتأصيل المذاهب ـ من قبل الحكّام ـ في العهد العبّاسي واهتمامهم بالحركة العلميّة، أدرك أن هذه الخطوات هي ثورة ضد الأصول العقائدية والفقهية، وأنّهم يرجون من ورائها مطمعاً سياسيّاً.

إذ إنّ الإمام أبي حنيفة كان يبثّ أفكاره في الكوفة ـ مركز العلويين ـ وبين أفكاره الكثير ممّا يخالف سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والإمام مالك يسيطر على مركز الدعوة الإسلامية ويفتي الناس بالمدينة والمنصور أمر ألا يفتي أحد ومالك في المدينة وحصر الناس على موطأه.

والليث بن سعد يفتي الناس بمصر.

والأوزاعي يفتي الناس بالشام.

فالصادق لمّا رأى دعم الحكومة لهؤلاء الفقهاء ـ تلويحاً كان أم تصريحاً ـ

أحسّ بالخطر وضرورة مواجهة الغزو الفكري والفورة الثقافية التي شنّها الحكّام.

فجاء يتحدّى السلطة بكل قواه وأخذ يوجّه أصحابه إلى الفقه وتعلّم الأحكام فقال مامضمونه: (أحبّ أن يُضرب أصحابي حتّى يتعلّموا) ويروي لهم ما وصل إليه عن رسول الله معنعناً حتّى لا تكون ذريعة بيد المغرضين للنيل منه.

وأمر إبان بن تغلب أن يجلس في المسجد ويفتي الناس.

وأوكل لحمران بن أعين الإجابة عن مسائل علوم القرآن.

وزرارة للمناظرة في الفقه.

ومؤمن الطاق للمساجلة في الكلام.

والطيار وهشام للمناظرة في الإمامة والعقائد.

وبطون الكتب حافلة بمحاورات هؤلاء الأصحاب، وقد أشارت كتب الفهارس إلى مؤلفاتهم، وفي كلّ الميادين، حتّى أُحصي ما دوّنوه في عصره فبلغت أربعمئة مؤلف لأربعمئة مؤلِّف في الحديث فقط، وهي التي عرفت بالأُصول الأربعمئة التي عليها مدار الفقه الشيعي.

وعليه، فيحتمل أن يكون سبب عدم مشاركة الصادق في الثورات العلوية هو تبنّيه للجانب الفقهي والعقائدي للطائفة فالمقاتلون يرابطون على الثغور، والصادق يرابط على العقيدة والفكر.

وقد روى عن زيد الشهيد أنّه قال: من أراد الجهاد فإليّ ومن أراد العلم فإلى ابن أخي.

كما قال الإمام الصادق: القائم إمام السيف، والقاعد إمام علم[٥٤].

وعليه فإن اختصاص واهتمام الإمام الصادق بالحركة لم يكن لأجل معاصرته لفترة الشيخوخة الأموية والطفولة العبّاسية فحسب، بل لاقتضاء الظروف السياسيّة الحاكمة آنذاك، ولزوم تعهّد الإمام للحركة العلمية، لا يمكننا بهذه العجالة التفصيل في هذه الأمور أكثر ممّا قلناه، نتركها لحينها.

آمل أن تتاح لي فرصة أخرى لمواصلة ما كتبته والمرور بالقارئ على ساحات الجهاد ومواقف الأبطال وسفوح النصر والشهادة وكيفية تأسيس الدولة الشيعية عبر فترات الزمن، والانتهاء بها إلى الثورة الإسلامية في إيران التي نرجو

أن نعيش بعدها ثورة المنتقم الحقيقي الحجّة بن الحسن العسكري عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

اللّهم إنّا نرغب إليك في دولةٍ كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله وتذلُّ بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدُّنيا والآخرة.

الهوامش

١ ـ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٠ : ١٠١.

٢ ـ شرح النهج، لابن أبي الحديد ٩ : ٢٣٨؛ النصائح الكافية : ١١٦.

٣ ـ شرح النهج، لابن أبي الحديد ١٦ : ٤٦. البداية والنهاية ٨ : ١٣٤. مقاتل الطالبيين : ٧٠.

٤ ـ

٥ ـ الأغاني ٦ : ٣٥٥؛ تهذيب ابن عساكر ٦ : ٤٠٧.

٦ ـ شرح النهج، لابن أبي الحديد ١٦ : ١٣٦.

٧ ـ تاريخ الطبري ٤ : ٣٦٢ سنة ٣٥.

٨ ـ علي إمام المتّقين، للشرقاوي : ٦٨.

٩ ـ راجع كتاب (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم).

١٠ ـ علي وبنوه ٢ : ٢٦٣؛ والشعر مذكور في الفتوح ٢ : ١٨١.

١١ ـ الفتوح، لابن الأعثم ٢ : ١٨٢.

١٢ ـ بحار الأنوار.

١٣ ـ أنظر تفاصيل الواقعة في حوادث سنة ٦٣ من كتب التواريخ؛ الطبري ٥ : ٤٨٢؛ الفتوح ٢ : ٢١٠ ـ ٢١٦؛ المنتظم ٦ : ١٢.

١٤ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٤٨٥؛ الكامل ٤ : ١١٢؛ تاريخ الإسلام، لحسن إبراهيم حسن ١ : ٢٨٦.

١٥ ـ تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٠.

١٦ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٤٩٨؛ الفتوح ٢ : ٢١٦؛ الكامل ٤ : ١٢٤؛ المنتظم ٦ : ٢٢.

١٧ ـ أنظر تفاصيل الخبر في تاريخ الطبري ٥ : ٥٠٢؛ الفتوح ٢ : ٢١٨؛ الكامل ٤ : ١٢٩؛ المنتظم ٦ : ٢٣.

١٨ ـ تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٥٤ ؛ تاريخ الإسلام ، لحسن إبراهيم حسن ١ : ٢٨٨ .

١٩ ـ أنظر تفاصيل الخبر في تاريخ الطبري ٥ : ٥٣٥ ؛ الفتوح ٢ : ٢٢٢ ؛ المنتظم ٦ : ٢٧ .

٢٠ ـ تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٦١ .

٢١ ـ أخذنا خبر ابن عفيف من مقتل الحسين عليه‌السلام ، للسيّد المقرم : ٤٢٦ ـ ٤٢٩ .

٢٢ ـ المنتظم ، لابن الجوزي ٦ : ٣٦ .

٢٣ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٥٢ ؛ الكامل ٤ : ١٥٨ ؛ المنتظم ٦ : ٢٩ .

٢٤ ـ البقرة : ٥٤ .

٢٥ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٥٢ ؛ الفتوح ٢ : ٢٥١ .

٢٦ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٥٩ ، عنه بتصرّف .

٢٧ ـ وهم الشيعة الذين انتقلوا من الكوفة إليها .

٢٨ ـ إشارة إلى قتل حجر بن عدي وأصحابه في برج العذراء .

٢٩ ـ أنظر تاريخ الطبري ٥ : ٥٥٥ ـ ٥٥٧ .

٣٠ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٥٨ ، الفتوح ٢ : ٢٥١ .

٣١ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٥٨ ، الفتوح ٢ : ٢٥٢ .

٣٢ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٦٠ ، و٥٨٠ ؛ الفتوح ٢ : ٢٥٤ ؛ المنتظم ٦ : ٢٩ .

٣٣ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٨٣ ـ ٥٨٤ .

٣٤ ـ الفتوح لابن الأعثم ٢ : ٢٥٦ .

٣٥ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٨٤ ـ ٥٨٥ ؛ الفتوح ٢ : ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ؛ المنتظم ٦ : ٣٥ .

٣٦ ـ الفتوح ٢ : ١٧٣ .

٣٧ ـ الفتوح، لابن الأعثم ٢ : ٢٦١ ؛ المنتظم ٦ : ٣٦ .

٣٨ ـ الفتوح، ٢ : ٢٦٢ .

٣٩ ـ تاريخ الطبرى، ٥ : ٥٨٧ .

٤٠ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٦١ .

٤١ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٦١ ، الفتوح ٢ : ٢٥٥ .

٤٢ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٦١ ـ ٥٦٢ وقريب منه في المنتظم ٦ : ٣٠ .

٤٣ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٩١ ـ ٥٩٢ ؛ الفتوح ٢ : ٢٦٣ ؛ المنتظم ٦ : ٣٦ .

٤٤ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٩٢ ـ ٥٩٣ ؛ الفتوح ٢ : ٢٦٤ .

٤٥ ـ تاريخ الطبري ٥ : ٥٩٦ حوادث ٦٥ .

٤٦ ـ المنتظم ٦ : ٣٦.

٤٧ ـ الفتوح ٢ : ٢٧٠ .

٤٨ ـ الفتوح ٢ : ٢٧٢ .

٤٩ ـ الفتوح ٢ : ٢٧٢ .

٥٠ ـ إشارة إلى تأكيد أمانة الندوة على ألّا تتجاوز كل مقالة عن ٣٥ صفحة .

٥١ ـ إقبال الأعمال : ٥٧٩ .

٥٢ ـ بحار الأنوار ٤٤ : ٣٢٩.

٥٣ ـ أُصول الكافي ١ : ٣٤٨.

٥٤ ـ جهاد الشيعة لسميرة الليثي : ١٩٠ .

مدرسة الإمام الخميني ودورها

في صيانة ثقافة عاشوراء

مائدة المؤمن

تمهيد

الإسلام دين العقل والتعقّل، دين العلم والتدبّر، فللعقل مكانة سامقة لاتضاهيها مكانة مقابل الجوانب الإنسانية الأخرى، والقرآن الكريم يقابل المعارضين بالاستدلال العقلي والأسلوب المنطقي في إقامة الحجّة، كقوله تعالى: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[١].

ولهذا حرص الإسلام على أن تكون مباني العقيدة قائمة على ركن وثيق من العلم والمنطق والعقل السليم، بل وعمد إلى تفاصيل الحياة الجزئية فأرفدها بنظم وتعليمات جعلت من مسيرة الإنسان تخطو خطواتها المتئدة، واثقة من سلامة مواطئ أقدامها، ومباهية الأمم برزانة ورصانة المبادئ والمعتقدات والسلوك الذي بَنت عليه بنيانها وكيانها الشامخ.

ولا بدع أن لا تجد في مفاهيم الإسلام وسلوكيّاته ولو بإشارة عابرة إلى تأييد شيء من قبيل الخرافة[٢] والاسطورة أو التنبؤات والتنجيم والسحر والطيرة والبدعة والغلوّ وغيرها ممّا يتعارض والأصول العامّة للدين.

حول مفهوم الخرافة

تصدّى القرآن الكريم لكلّ أشكال الضلالات والأباطيل في العديد من الآيات الشريفة وفي مناسبات مختلفة. قال تعالى: ﴿وإنّ منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم

لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[٣]، كما حمل على السحر والسحرة ووصف عملهم بالكيد والخديعة، ووعدهم بعدم الفلاح، وكذلك نهى سبحانه وتعالى عن الطيرة والاستقسام بالأزلام.

وكما جاءت الشواهد القرآنية نافية لمثل تلك الممارسات، جاءت السنّة النبويّة وروايات أهل البيت عليهم السلام داعمة وشارحة ومؤكّدة للكتاب العزيز بشأن الابتعاد عن أمثال هذه الأباطيل والجهالات، فقد ورد في الخبر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «ليس منّا من تطيَّر ولا من تُطيِّر له أو تكهَّن أو تُكُهِّنَ له أو سحر أو سُحِر له»[٤].

وعن الإمام السجّاد عليه السلام قال: «أحبونا حب الإسلام فما زال حبّكم لنا حتّى صار شيناً علينا»[٥]، وهو إشارة منه عليه السلام إلى عدم استغراق الناس في حبّ ذواتهم المقدّسة فيخرجهم ذلك الحبّ إلى الغلو وتجاوز الحدّ. فهو عليه السلام إنّما أوجد الذي يقتضيه الإسلام.

وعلى منهج الأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين الذي هو منهج وسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وامتداد له، مسار فقهاؤنا وعلماؤنا رضوان الله تعالى عليهم وواصلوا المسير على منهاج واحد، واقعين بالشبهات والأضاليل ومضحّين بالنفس والنفيس من أجل ثبات المبدأ وأصالة العقيدة، والحفاظ على صفاء الدين.

وقد برز في هذا المضمار رجال شهدت لهم سوح العقيدة رسوخ القدم في الشدائد والأهوال، والصبر والمصابرة لدى اشتداد المحنة، فكان الإمام الخميني قدس سره رجل القرن العشرين ومن تخرّج في مدرسته، وعلى هذا كان مدار البحث.

ولقد واجه علماؤنا المخلصون العاملون وعلى مرّ السنين كلّ ماهو دخيل على الإسلام الأصيل، وحاربوا البدعة والخرافة لما لهما من أثر في حرف أفكار الناس عن المسار الصحيح. من هنا كان لابدّ من معرفة شيء عن الخرافة ونشوئها.

الخرافة لغة: هي من خَرِفَ وخَرُف خرفاً: فسد عقله من الكِبَر[٦].

وأمّا في الاصطلاح فتعني: الاسطورة أو الأحاديث التي لا واقع لها. وهي بالتالي لاتعدو كونها أحاديث وأباطيل أُريد منها حرف أذهان الناس وتضليلهم.

وعلى اعتبار أن الخرافة معتقد أو ممارسة لا عقلانية، فهي قد تكون دينية، وقد تكون ثقافية أو اجتماعية، وقد تكون شخصية(٧).

سبب نشوء الخرافة

للخرافة ظروف وعوامل عديدة تساعد على شيوعها وتأصيلها بين أفراد المجتمع، من تلك الظروف والعوامل:

أوّلاً: حالة الفراغ الفكري التي تسود المجتمعات، الأمر الذي يؤدي إلى التقاط مايطرح ويشاع في هذا الوسط والاعتقاد به لملء الفجوات الناتجة عن تلك الحالة.

ثانياً: تدني المستوى الثقافي بين أفراد المجتمع، مما يهيئ ويساعد على إيجاد أرضية ملائمة لبروز الخرافة ونموّها وتفاعلها مع التفكير الإنساني، بل وتطويرها في أغلب الأحايين، لتصبح على شكل عقائد وممارسات تتخذ أشكالاً مختلفة تسيّر الفرد والمجتمع، وتحكم تصرّفاته على أنّها مبادئ دينية لايمكن تجاوزها.

ثالثاً: عدم الاتزان العاطفي، فبعض الناس يمتازون بوفرة العاطفة وزيادتها عن الحدّ المطلوب، ممّا يؤدي بهؤلاء إلى ضعف العقيدة والمغالاة في الحبّ والبغض، والتمسّك بالأُمور المثيرة والأحاديث والأقوال الغريبة.

رابعاً: انحسار دور المصلح والموجّه للأمّة، وهو ما له أثر بالغ في شيوع الخرافة وتفاعلها في الوسط الاجتماعي المهيّأ والذي يمتلك العناصر المساعدة لتلقّي الخرافة والاندكاك بها.

فالعالم يجب أن يكون طبيباً دوّاراً بعلمه في حال وقوع المجتمع في أزمات وأن يكتب الدين وتعاليمه بلغة تلائم العصر ومتطلّباته؛ لتعمّ الفائدة جميع طبقات المجتمع.

خامساً: ضعف الشعور الديني وعدم تأصّل العقيدة في النفوس، ممّا تُلجئ الإنسان إلى الاعتقاد بأُمور قد تكون من وحي تفكيره وخياله المجرّد، فيتطيّر بها أو قد يتخيّل الاسطورة من أناسِيَّ توهموا في اعتقاد أُمور وأشياء ظنّوا بها صلاحهم

وخلاصهم، أو من آخرين عمدوا إلى نشر الأضاليل في المجتمع لمصالح خاصّة يبغون تحقيقها.

ولسنا بصدد إيراد شواهد من التاريخ القريب والسحيق لظاهرة شيوع الأساطير والخرافات في المجتمعات الإنسانية البدائية منها والمتحضّرة.

والذي يهمّنا من البحث هو بروز بعض أشكال الخرافات في المجتمع الإسلامي عامّة، ومجتمعنا الشيعي بشكل خاص، رغم سموّ المبادئ الإسلامية وأصالة المعتقد الشيعي المرتبط ارتباطاً وثيقاً بصاحب الرسالة الكبرى النبيّ الأكرم محمّد ﷺ عبر أهل بيته الأطهار، حبل الله المتين، وسفن النجاة، الذين ما فتئوا يصحّحون الأفكار من الشبهات العالقة بها، ويقوّمون العادات والتقاليد والطقوس ممّا يُلحق بها من زيادة، ويعتريها من نقصان.

ومبدئياً أنّه لا وجود لعنصر الخرافة في المعتقد الشيعي البتة، اللّهمّ إلّا بعض الممارسات الخاطئة من بعض الشيعة والتي لاتمثّل بأي حال من الأحوال العقيدة الشيعية. ومن التجنّي على العقيدة والمبدأ أن يوصم بتصرفات زمرة معينة منتسبة إليه، أساءت في طريقة تفكيرها أو تصرّفاتها اللامسؤولة، ولهذا يجب التفريق بين أصالة المذهب وبين سلوك بعض المنتمين إليه.

وهكذا سار سلفنا الصالح على خطى أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام في مواجهة الضلالات وأهل الأهواء والبدع. فكان في كلّ عصر ومصر علم من أعلام العقيدة المنافحين عن الحق، والداعين إلى النزوع والتمسّك بأصالة المبدأ والتخلّي عن السفاسف والقشور، ومن أولئك المعاصرين إمامنا الراحل قدس سره.

ثورة الإمام الخميني مدرسة الأصالة

الإمام الخميني مدرسة للأجيال في صبره ومصابرته، في صموده ومقاومته، في رفضه وإبائه، ولعلّ أروع ما ورثه عن جدّه السبط صريع الدمعة الساكبة هو الرفض والإباء، واتخذ من شعارات أبي الأحرار شعاراً لثورته، فصدح بأعلى صوته «هيهات منّا الذلّة»، فجسّدها على أرض الواقع قولاً وفعلاً.

فنراه تتقطّع نفسه ألماً وحسرةً على الشعوب الإسلامية السادرة في غيّها

وغفلتها، إذ يهتف بهم حرصاً منه على كراماتهم المهدورة قائلاً:

يا مسلمي العالم! ماذا دهاكم؟ لقد استطعتم في صدر الإسلام بعددكم القليل أن تحطّموا القوى الكبرى، وتشيّدوا صرح الأمّة الإسلامية العظيم، والآن وأنتم تقاربون المليار إنسان وتمتلكون الثروات التي بمقدورها أن تشكّل أكبر حربة في مواجهة العدو، أصبحتم أذلّاء ضعفاء[٨].

وفي مناسبة أخرى نسمع منه هذا القول: يارجال الإسلام أنقذوا إسلامكم[٩].

ونراه وهو يتحرّق ألماً وحزناً في قضية الحصانة الممنوحة للأميركان، فيقول في ذلك: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أنا لا أستطيع أن أظهر كلّ ما في قلبي من آلام، لقد غلب عليّ الهمّ والسهاد، وياليتني متّ قبل هذا فلم أُشاهد هذا العار، ليس لإيران بعد اليوم من عيد، لقد صيّروا العيد مأتماً، إنّهم باعونا وباعوا استقلالنا في وقت أوقدوا فيه المشاعل وأقاموا حفلات الرقص العامّة، لقد داسوا كرامتنا وأذهبوا عزّتنا، لقد صادقوا على قانون الحصانة الذي ألحقنا بمعاهدة فيينا[١٠].

هذا الإمام الذي ورث الإباء من جدّه الحسين عليه السلام لايستطيع أن يقف موقف المتفرّج واللامبالاة لما يرى من سحق للكرامات والمقدّسات. نعم، وُلد الإمام ليبقى ما بقي الدهر، ويخلد كخلود الحسين عليه السلام حينما جاء يلبي نداءه على أرض الطفوف «ألا هل من ناصرٍ ينصرنا». ويعلّم الأجيال كيفية الطاعة والانصياع للقائد على نهج الإسلام الأصيل، فيأتيه جواب أُمّة بأسرها (لبيك ياخميني.. لبيك ياخميني)، وتخشع له القلوب والأصوات، وتُسْلِم له النفوس قيادها والأرواح؛ لأنّ الأمّة شخّصت في قائدها العظيم خلوص النيّة في التضحية والإيثار والعطاء، وأنّه مصدر قوّتها وعزّتها، يقول السيّد الطالقاني رحمه الله: كلّما أحسست بالضعف وفتور العزيمة ذهبت إلى قم لاستلهم القدرة من قائد الثورة.

نعم، شكّلت مرجعية الإمام الرشيدة كما يسمّيها السيّد الشهيد الصدر قدس سره مركز استقطاب لكل قطّاعات الأمّة وبمختلف تياراتها. ولاشك أن المرجعية الدينية هي أحد مراكز القوّة والتأثير الفاعل في الاصلاحات الجذرية على الصعيد الديني والسياسي والاجتماعي لما تمتلك من مؤسسات عديدة فاعلة تستطيع من خلالها

إجراء عمليّة التغيير والاصلاح، ومراكز القوّة ـ عادةً ـ تختزل قوّة الأمّة وإرادتها، وتُركّزها في نقطة واحدة، وبذلك يكتسب هذا المركز قوّة كبيرة تساوي قوّة الأمّة، وإرادة قويّة تساوي إرادة الأمّة[١١]، وعندئذٍ يكون قادراً على أداء الدور التغييري الكبير الذي يعجز الناس عن القيام به أفراداً وجماعات. وأكبر مؤسسة تنظيمية تمتلكها المرجعية وتستقطب الأمّة هي مؤسسة الشعائر الحسينية.

الإمام الخميني وصيانة الثقافة العاشورائية

قلنا أن أكبر مؤسسة تستقطب الأمّة حول دوائرها هي مؤسسة الشعائر الحسينية، فيما لو يعي المسلمون أهدافها ومبادئها وأهمّيتها لتكتيل الأمّة ووحدتها.

يقول الإمام الخمينيﷺ في وصيّته معبّراً عن هذا الجانب: علينا أن نعلم جميعاً بأن هذه المراسم السياسية (مراسم العزاء الحسيني) هي التي أوجدت الوحدة بين المسلمين وحفظت هويتهم لاسيّما شيعة الأئمّة الاثني عشر عليهم صلوات الله وسلامه[١٢].

فالإمام يرى في الشعائر الحسينية فضيلة أداء هذا الدور، فهي الطاقة التي تبعث الروح في الأمّة، وهي مدارس تنظيمية وتنويرية تحقّق البُعد الاجتماعي الاصلاحي لثورة الإمام الحسين عليه السلام وتنزله إلى الواقع العملي والتطبيقي. من هنا أدرك الإمام الراحلﷺ أهمّية التنظيم العاشورائي، فعبّر عن القيمة الحركية الفاعلة له بقوله:

تخشى القوى الكبرى هذا التنظيم (الحسيني) الذي ينتظم بدون أن يكون لأحد فيه يد، فالناس تتجمع والأمّة تتعبأ تلقائيّاً في مختلف أرجاء بلد واسع. ففي أيّام عاشوراء وفي شهري محرّم وصفر، وفي شهر رمضان، تنهض مجالس العزاء هذه بمهمّة جمع الناس بعضهم حول بعض؛ وإذا ما أُريد خدمة الإسلام، وإذا ما أراد أحد أن يشرح موضوعاً يخدم الإسلام يكفي لكي ينتشر هذا الموضوع أن يصل إلى الخطباء وأئمّة الجمعة والجماعات، كي يبثّ مرّة واحدة في جميع أنحاء البلاد.

ثم يضيف سماحته مباشرةً مشيراً إلى مرتكز هذا التنظيم الشعبي العظيم بقوله: إن اجتماع الناس تحت ظلال هذا العَلَم الإلهي؛ هذه الراية الحسينية هو الذي

يوفّر أساس هذا التنظيم(١٣).

إنّ قضية أبي عبد الله الحسين عليه السلام في منظار الإمام قدس سره هي سرّ خلود الإسلام وبقائه في حيوية دائمة، فيقول في ذلك:

إنّ قضيّة سيّد الشهداء هي السرّ في حفظ الإسلام والعلّة الأساسية لبقائه، ويجب تخليد تلك الثورة التي قام بها ذلك العظيم... ثمّ يضيف: إنّ كلّ ما لدينا هو من الحسين(١٤).

من هنا نعرف مدى اهتمام الإمام رضوان الله تعالى عليه بالشعائر الحسينية وما يجب أن تكون عليه الممارسات والفعاليّات من اتزان وانضباط لهذه الشعيرة المقدّسة، باعتبارها معيناً ثرّاً للإسلام لاينضب، وزاداً له. وإنّ إظهار مراسم العزاء الحسيني بالمظهر اللائق الحسِن الخالي من العادات الدخيلة والممارسات البهلوانية المثيرة المقززة أحياناً للشعور، إنّما يعكس الوجه الناصع والمشرق للإمام الحسين عليه السلام من خلال إحياء مراسم نهضته، وبالتالي فهي انعكاس لصفحة الإسلام وتعاليمه السامقة التي جاءت لتربّي الأجيال وتُحيي الشعوب، وتدفع بها إلى مراتع الخصب والعطاء والتجديد؛ ذلك أنّ الإمام الحسين عليه السلام ما أراد الشهادة إلّا باعتبارها وسيلة للوصول إلى غايته الأساسية وإن كان له علم بذلك، وكان يخطط لهذه النهاية المأساوية المفجعة، حيث إن جدّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال له: شاء الله أن يراك قتيلاً. كما أن الإمام عليه السلام ما كان يريد أن يوحي للمؤمنين أن يوطّنوا أنفسهم لنيل الشهادة؛ لأنّ فيها من الثواب العظيم والأجر الجزيل ما ليس يحرزه أي عمل آخر، بل أراد أن يجعل من الشهادة وبهذا الحجم من المأساة، وسيلة لإصلاح المجتمع؛ لما فيها من كسب المظلومية واختزال عواطف الأمّة.

فشراء الضمائر والذمم والإرادات، وانتهاك الحرمات، واستعباد الناس... إنّما أراد الإمام الحسين عليه السلام إرجاعها إلى نصابها الطبيعي بهذه الهزّة العنيفة والصدمة الصاعقة. ثمّ إنّه لم يكن هدفه الأساس هو الإطاحة بذلك الطاغوت في عصره فحسب، بل كلّ طاغوت موجود ويوجد على طول التاريخ من اليوم العاشر إلى يوم القيامة؛ وذلك عن طريق إصلاح هذه الأمّة، وإقامة حكم الله في الأرض لكي يسير الإنسان إلى تكامله، وهو الهدف من خلقه.

وعلى غرار الثورة الأمّ جاءت هذه الثورة الوليدة وفق ما خطّط له الإمام الحسين عليه السلام، لتدكّ العروش وتُحيي النفوس، وهذا ما لا يروق لأعداء الإسلام وأعداء الحق. وأنّهم لمّا غُلبوا على أن ينالوا من هذه الثورة الصامدة، فما استطاعوا لها نقباً، وما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، شنّوا حملاتهم المسعورة على شتّى الجوانب والأصعدة العسكرية والإعلامية والثقافية والنفسية، فكانت هذه الأخيرة شديدة الوطئة على هذا الشعب المظلوم، وازداد ترصّدهم بالمسلمين ساعين إلى إثارة الشبهات وترويج المفاهيم الخاطئة، وتأصيل الممارسات الشاذّة البعيدة عن روح الإسلام الأصيل، خاصّة في الشعائر الحسينية باعتبارها وقود هذه الثورة، ثم النعيق بأبواقهم الدعائية والتباكي على الإسلام، وما أدخل عليه من بدع وضلالات.

لكن الإمام الخميني قدس سره بحنكته وفرط ذكائه استطاع أن يتصدّى لهذه الهجمة الاستكبارية، ويقف محذّراً لما يخطّط له الكفر العالمي بقوله:

هل تعلمون أن قطع سيطرة القوى العظمى من إيران، وإخراج الخبراء الأجانب والانتهازيين منها عمل إعجازي عظيم؟ ومع أنكم كنتم مظلومين أدّيتم واجبكم ولكن الأبواق الدعائية العالمية خصوصاً أميركا واسرائيل تنشر الدعايات ضدّكم وتختلق الأكاذيب، وإذا صدر منكم خطأ أو ما يظنّونه خطأً فإنّهم ينشرونه بأضخم مايكون(١٥).

أراد الإمام قدس سره من خلال خطابه هذا التأكيد على أُمور في غاية الأهمية منها: أن يكونوا في أقصى درجات الحيطة والحذر، والتسلّح بالوعي من خطط الشياطين، وأن لايقعوا في أخطاء واشتباهات في سيرهم وسلوكهم تؤدي إلى إيجاد ثغرات يمكن من خلالها للأعداء النفوذ إلى الساحة الإسلامية وبثّ سمومهم في صفوفها.

كما أراد القائد العظيم ـ باعتباره الخبير الواعي بما يجري في العالم، ومايحتاج هذا العصر من متطلّبات ـ تنبيه الأمّة الإسلامية عامّة والشعب الإيراني خاصّة إلى الخطر المحدق بهم والذي يعتبر ـ في نظر الإمام ـ أقوى سلاح تستعمله الدول العظمى ضد كلّ الثورات والحركات الاصلاحية التي تكافح للتخلّص من نير الاستبداد والاستغلال، وهو سلاح الإعلام بوسائله المتعدّدة. فهي ترصد حركاتنا

وسكناتنا وأفعالنا وأقوالنا وتختلق الأحاديث والتهم الباطلة فيما لو وجدت ثغرة أو منفذاً تنفذ من خلاله إلى جسم الأمّة الإسلامية، بالأخص في هذا العصر الحسّاس حيث أصبحت إيران محطّ الأنظار وملجأ المضطهدين، فإذا هي كعبة للمسلمين... وأُمّ القرى.. تستلهم منها الثورات جذواتها، وتُحطّ عندها الرحال.

ثم، ونحن نعيش عصر الذرّة والفضاء، والتطوّر العلمي والتكنولوجي الذي أدّى - عن طريق الأقمار الصناعية - إلى نقل الخبر والمادة الإعلامية من قارّة إلى أخرى خلال دقائق، وذلك يعني أن حياتنا اليوم باتت محاطة بشبكة واسعة من أجهزة رصد الصوت والصورة بشكل يقرب من الخيال.

وبناءً على ذلك، وعلى مقتضيات المرحلة الراهنة، يتطلّب الأمر منّا على صعيد الشعائر الحسينية، استلهام نظرة الإمام(ره) حول عاشوراء الحسين. فرغم تأثّره الشديد والبالغ، وما كان يغلب عليه من الحزن العميق في شهر محرّم الحرام، كان لايتمالك نفسه حين يذكر واقعة الطف، تلك الفاجعة المؤلمة التي بكى لها أهل السماء قبل أهل الأرض، فينفجر بكاءً، لكنّه حينما يُسأل(ره) - وهو الغيور على مقدّسات الإسلام والحريص على تراث كربلاء - عن نظره حول شج الرؤوس بالسيوف، والتشبيه، وإقامة المآتم والمواكب. كان جوابه جواب العارفين بمتطلّبات الأمور ومقتضيات المصالح، وما تحتاج تلك الفترة الزمنية من تغيير وتبديل في الآراء والمواقف التي تعتبر من صلاحية الحاكم الشرعي(١٦). وبخصوص منطقة الفراغ، قال: في الوقت الحالي لاتفعلوا ذلك - أي التطبير - ولكن الشبيه إذا لم يكن مشتملاً على المحرّمات ولم يكن موجباً للاستهانة في المذهب فلابأس به، وإنْ كانت التعزية أفضل، وإقامة المأتم من أفضل القربات(١٧).

فالظروف الحسّاسة والحرجة التي أحاطت آنئذٍ كانت تُملي على الإمام(ره) أن يشنّ حملة لتطهير وتهذيب التظاهرة الحسينية ممّا لحقها عبر سنين طوال من تفاعلات وإرهاصات تراوحت بين المدّ والجزر والسلب والإيجاب، الأمر الذي أدّى إلى إعطاء انطباعات سيئة على مجمل العقيدة الشيعية، وإلى بروز تيّار أخذ بالتشهير والتعريض بالشيعة؛ لذلك ارتأى (رضوان الله تعالى عليه) أن تتسم حملته بطابع الهدوء والمرحليّة، محاولاً تهيئة الأذهان والأرضية اللازمة لطرح

الحكم القاطع باستئصال تلك الممارسات في مرحلة قادمة، انطلاقاً من التحريم المرحلي لبعض الأمور في القرآن الكريم كتحريم الخمر مثلاً، حيث جاء على مراحل ثلاث:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾[١٨].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾[١٩].

٣ ـ ثمّ قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾[٢٠].

إلّا أن القضاء لم يمهله (رضوان الله تعالى عليه)، فأكمل الشوط الذي ابتدأه من تولى ولاية الأمر من بعده وهو السيّد علي الخامنئي (حفظه الله) الذي يعتبر وجوده امتداداً لخط الإمام الراحل ومدرسته.

إذن فمن الحكمة التدرّج في تصحيح بعض ما علق بالشعائر الحسينية من تراكمات غير مستحسنة؛ لأنّ قضيّة الحسين عليه السلام قد ارتبطت بعواطف الناس وتلاحمت معها بشكل كبير، أضف إلى ذلك اعتبارها واحدة من المسائل العقيدية التي لاتقبل التغيير والتبديل.

فالإمام الخميني قدس سره جسّد الدستور الذي سنّه لنا أهل البيت عليهم السلام، فكان يوصي بإقامة مراسم العزاء التقليدية كالمشاركة في المجالس الحسينية، ونعي الإمام الحسين عليه السلام والبكاء عليه، واللطم على الصدور في مواكب العزاء. ومن خلال تحديده (رضوان الله تعالى عليه) لهذا النوع من الشعائر استهدف التأكيد على استلهام الدروس والمعطيات التي من أجلها ضحى سيّد الشهداء، وأكّد عليها أئمّة أهل البيت عليهم السلام؛ لكي لاتهدر الطاقات والأوقات في قضايا تشكيليّة عديمة الفائدة، بل تغضب أصحاب العزاء.

السائرون على خطى الإمام قدس سره والتصدّي للخرافات

الثورات الأصيلة.. تغيّر الواقع، وتبنّي أُمّة.. وتترك بصماتها على الأجيال.. وتصنع العمالقة والأفذاذ، بعد أن صنعها وفجّرها عملاق واحد، وهكذا رأينا ثورة

الإمام الحسين عليه السلام . وكذا لمسنا في الثورة الإسلامية الإيرانية هذا الحدث.. فكان الإمام الراحل قدس سره . ويكفيه أنّ رحم الحياة عقم عن أن يلد نظيره في هذا القرن.. فاستحق أن يكون أُمّة كما كان النبيّ إبراهيم أُمّة (٢١)، ونال بعمله ما ناله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يوم الخندق (٢٢).

وثمّة عصبة سارت على نهجه القويم فنالت الخلود والحياة باستشهادها على طريق الثورة والاصلاح، وأخرى واصلت المسير مستلهمة من أصالة فكره، وقوّة صبره، وشدّة حزمه التي ورثها من جدّه السبط أبي الأحرار وملهم الثوّار.

وبفضل المخصلين الواعين من رجال الأمّة والمصلحين من العلماء والعاملين بدت تنجلي هذه الغياهب وتتقشع السُحب الكثيفة التي تحجب النور الطبيعي من النفاذ إلى القلوب، ومن أولئك المخلصين الذين أفرزتهم مدرسة الإمام ومن سار على خطّه ومنهجه، فكان العضد المساعد للإمام الراحل وثورته، نذكر منهم:

آية الله الخامنئي والمسؤوليّة الكبرى

إن أفضل من مثّل مدرسة الإمام الراحل قدس سره وحذا حذوه متّخذاً منه أُسوة حسنة في إدارة أُمور البلاد والعباد، ولي أمر المسلمين آية الله السيّد علي الخامنئي (حفظه الله) المخلص الوفي لقائده، الذي وظّف كلّ طاقاته وإمكاناته من أجل القائد وأُمّته، فجاء يتابع خطواته ويكمل المراحل التي بدأها، فكان مَثَله عند الإمام الخميني كمثل علي عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

تطلّع فيه الإمام أهليّة القيادة والريادة والولاية على الأمّة فلمّح بذلك لها مراراً وصرّح في بعض الأحايين.

وحسب الشرائط والضوابط والمواصفات استحق وسام الولاية والاشراف على الأمّة الإسلامية أجمع.

وبما أن الجماعة البشرية التي تتحمّل مسؤوليات الخلافة على الأرض، إنّما تمارس هذا الدور بوصفها خليفة عن الله، ولذا فهي غير مخوّلة أن تحكم بهواها أو باجتهادها المنفصل عن توجيه الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ هذا يتنافى مع طبيعة

الاستخلاف، وإنّما تحكم بالحق وتؤدي إلى الله تعالى أمانته لتطبيق أحكامه على عباده في بلاده[٢٣].

ولكن لو ترك الإنسان ليمارس دوره في الخلافة بدون توجيه وهدىً كان خلقه عبثاً ومجرّد تكريس للنزوات والشهوات، وألوان الاستغلال؛ لذلك وضع الله سبحانه وتعالى إلى جانب خط الخلافة ـ خلافة الإنسان على الأرض ـ خط الشهادة الذي يمثّل التدخّل الربّاني من أجل صيانة الإنسان الخليفة من الانحراف وتوجيهه نحو أهداف الخلافة الرشيدة.

فالشهيد ـ نبيّاً كان أو إماماً أو مرجعاً ـ يجب أن يكون عالماً على مستوى استيعاب الرسالة، وعادلاً على مستوى الالتزام بها والتجرّد عن الهوى في مجال حملها، وبصيراً بالواقع المعاصر له، وكفوءاً في ملكاته وصفاته النفسية[٢٤].

ومن أجل سلامة المسيرة البشرية، وصيانتها من الانحراف يقتضي وبحسب المسؤوليّة الملقاة على عاتق الولي الفقيه ـ الشهيد ـ التدخّل واتخاذ كلّ التدابير اللازمة الممكنة حسب الظروف والشرائط الزمانية والمكانية، والخطر المحدق بالأُمّة.

ومن هذه المنطلقات انبرى السيد الخامنئي (حفظه الله) ليطهر الممارسات الدينية بالأخص الشعائر الحسينية من البدع والخرافات، بدافع من مسؤوليته وغيرته على الإسلام والمسلمين، وحفظهم من خطر الغزو الثقافي والشبهات المثارة لاستقطاب البسطاء والسذّج من الناس، وتحريرهم من أسار العادات السخيفة التي اتخذوها سنة بحيث لايمكنهم تجاوزها والتخلّف عنها.

ونعلم جميعاً، بل ونقطع جازمين أنّ من تنوّر بنور السماء، وكان له أدنى درجة من الوعي والفهم لايعمد إلى تأييد هذا النوع من الشعائر الحسينية، كشج الرؤوس بالسيوف، وغرز الأثقال في الجسد، وإدماء الصدر والظهور والوجوه، فضلاً عن مباشرتها، بالأخص لو عرفنا أن بدايتها كانت بوحي من الصدفة، ثمّ اتخذوها عادة فصارت سُنّة ومن ثمّ عقيدة راسخة لايمكن تركها لمن اعتادها ومارسها.

وهذه الظواهر إن استندت على شيء إنّما تستند على الفراغ الفكري والضآلة

الدينية والثقافية لدى غالبية من يمارس تلك الأعمال، ومن تبقى غلبتهم العاطفة فانجروا وراءها.

وبوجود مثل هذه الثغرات يستطيع الطواغيت استعباد الشعوب وإذلالها ونهب ثرواتها، فالعدوّ يخطط دوماً إلى استئصال اللب وإبقاء القشور موحياً بأنّها هي الأصل والأساس.

لذلك نجد عدم إمكان استعباد الرعية وظلمها مادامت غير حمقاء وغير تائهة في ظلمة الجهل، ولأنّ العلم نور والله خلق النور للإنارة والحرارة، فالنور ينشر الخير، والإنارة توجد في النفوس الحرارة، وفي الرؤوس الغيرة، والمستبد يخشى العلوم التي تفتح الذهن وتنشر الوعي بين الناس وتُفهمهم ماهو الإنسان وماهي حقوقه؟ هل هو مغبون؟ كيف يطالب بحقوقه وكيف يمكنه حفظها؟[٢٥]

فالاستكبار العالمي لايبكي علينا لتخلّفنا وتشرّدنا وجهلنا، ولايسعى لتحضّرنا إلّا بالمقدار الذي يحلو له والطريقة التي تعجبه؛ لاستغلالنا واستعبادنا فيبقى هو السيّد ونحن العبيد الأذلاء، فترى البعض منّا يضحك ويبكي، ويذم ويمدح ويتحرّك ولكن لايعي كثيراً من ذلك. وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: همج رعاع أتباع كلّ ناعق.

إشكاليّة التعبير عن الشعائر

الأعمال لاتوزن بكثرتها، بل بكيفيّتها ودوافعها، والمؤمن الواعي ليس له عقل قارئ فحسب، بل واعٍ ومدرك، وخالٍ من التحلّل والتزمّت، يسأل ويستدلّ، ولهذا فهو بعيد عن مواطن الشبهة والخرافة، على عكس الجاهل الذي ينسيه التطرّف والجهل وسوء الفهم أن تحريم الحلال لايقلّ ذنباً في أي حال من الأحوال عن تحليل الحرام. ونحن أمسّ ما نكون في هذه الفترة من الصحوة إلى رجال دين واعين بعيدين عن المصانعة ليضعوا حدّاً لهذا التطرّف.. الذي يؤدي إلى الكفر ومحق وتشويه الرسالة الإسلامية[٢٦].

فالولي الفقيه الخامنئي (حفظه الله) أحد أولئك الواعين الذي تصدّى للخطر المحدق بالأُمّة بشدّة وصرامة، وبحجم خطورة الموقف؛ فقال في خطاب له:

حيث شوهدت ـ وللأسف ـ خلال الأعوام الثلاثة أو الأربعة ؟ أعمال تروّجها بعض الأيدي على ما يبدو، أنّهم يروجون في مجتمعنا بعض الأعمال التي تثير علامات استفهام في أذهان المشاهدين، لقد جرت العادة في قديم الأيّام بين عوام الناس أن يعلّقوا أقفالاً بأجسادهم في مراسم العزاء، فانبرى لها كبار العلماء، واندثرت هذه العادة غير أنها ظهرت مجدّداً في الآونة الأخيرة.. إنّه عمل خاطئ يقوم به هذا البعض، وكذلك الأمر بالنسبة لشجّ الرؤوس بالسيوف أي مايُصطلح عليه بـ « التطبير » فلو كان الإمام (رضوان الله تعالى عليه) حيّاً لتصدّى لظاهرة شج الرؤوس بالسيوف على الصورة التي روّجت بعد انتهاء الحرب، وكيف يمكن اعتبار هذا العمل من مراسم العزاء؟... إنها بدعة وليست من الدين، ولاشك في أن الله لايرضى على ذلك، وأنا أيضاً غير راضٍ بالتطبير من صميم قلبي...

ثمّ استنكر عدداً من البدع والخرافات الغريبة ووصفها بأنّها استهانة بالدين ومن عمل الأعداء(٢٧).

وحينما يُستفتى سماحته عن حكم التطبير، يجيب: إذا كان موجباً للاستهانة بالمذهب في الوقت الحاضر أو مستلزماً لخطر الموت أو الضرر الشديد فغير جائز(٢٨).

فالإمام الخامنئي تنبّه إلى هذه المسألة المهمّة باعتباره أحد الواعين الذين يعول عليهم في تصحيح المسار وإعادة الناس إلى الأهداف الحقيقية المعطاء لثورة الإمام الحسين عليه السلام، فعندما يرفض البدع والخرافات يطرح البديل لتبيان المنهج الصحيح لإقامة مراسم العزاء،

فيقول: يجب أن تتميّز هذه المجالس بثلاثة أُمور:

١ ـ تكريس المودّة للحسين بن علي عليه السلام ولأهل بيت النبوّة، وتعزيز العلاقة والارتباط العاطفي بهم.

٢ ـ إعطاء صورة واضحة عن واقعة عاشوراء.

٣ ـ تكريس المعرفة الدينية ووشائج الإيمان بالله سبحانه وتعالى لدى المستمع(٢٩).

دور علماء الدين

ليس السيّد الخامنئي (حفظه الله) أوّل من انفرد بهذا الرأي وسار على خطى الإمام الراحلﷺ ، فهناك مجموعة كبيرة من الفقهاء والعلماء البارزين في إيران وخارجها ممّن استوعب أفكار وتوجيهات الإمام الخميني وساروا على هداه ، كان لهم نصيب وافر وفي هذا المضمار بالأخصّ. فأدلوا بآرائهم الفتوائية وتصدّوا بشكل قاطع لظاهرة البدعة والخرافة التي لحقت بالشعائر الحسينية ، فجاءت مواقفهم على غرار نهج الإمام والولي الفقيه السيّد الخامنئي في تحريمها؛ لأنّ هذه الأعمال المنكرة موجبة للاستهانة بالتشيّع والثورة الإسلامية التي أضحت محطّ أنظار العالم.

فلماذا إذن التحريم والمنع لهذا النوع من الممارسات الدخيلة على الشعائر؟

وقبل الإجابة لابد أن نلمّ بشكل إجمالي وسريع بشيء عن مفهوم البدعة وموجبات تحريمها.

البدعة لغة: بَدَعَ بَدعاً الشيء: اخترعه وصنعه لا على مثال. والبِدْع من الرجال: الجاهل ومن لايعرف الأمور (٣٠).

والبدعة في الشرع: إدخال ماليس من الدين في الدين، استناداً إلى ما روي عنه ﷺ : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؟» (٣١).

وعرَّف علماء الجمهور البدعة بتعريفات عديدة وقسّموها إلى الأحكام الخمسة، وذلك كلّه لايستند إلى أساس صحيح، ولا يثبت أمام الدليل.

والبدعة في التشريع لاتقبل القسمة إلى الحسن والقبح، بل هي من غير صاحب الشرع قبيحة مطلقاً. وأمّا الابتكار والابداع في العادات والتقاليد وأُمور المعاش والحياة، فهو الذي يقبل القسمة إلى الحسن والقبيح، ويكون موضوعاً للأحكام الخمسة: الوجوب، والحرمة، والاستحباب، والكراهة، والإباحة.. وعليه فالأُمور العادية والحياتية ونحوها، ممّا لم يرد من الشارع حكم متعلّق بها بخصوصها أو بعموم يكون كلّ منها أحد أفراده ومصاديقه، إنْ عملها المكلّف وقام بها، أو تركها بعنوان أنّها من الدين، فإن لم تكن منه، فإنّه يكون قد أبدع في الدين، وأدخل فيه ماليس منه (٣٢).

ولايحتاج تحريمها ـ البدعة ـ إلى دليل خاص، بحكم العقل بعدم جواز الزيادة على أحكام الله تعالى، ولا التنقيص منها؛ لاختصاص ذلك به تعالى وبأنبيائه، الذين لايصدرون إلّا عن أمره[٣٣].

فالممارسات الدخيلة على الشعائر الحسينية، هل يصدق عليها عنوان البدعة؟ سيتبين لنا من خلال هذه اللمحة السريعة أنّها مرفوضة شرعاً وعقلاً.

فمن الناحية الشرعية ومن حيث الأدلّة الأوّليّة محرّمة ممنوعة؛ لقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «لاضرر ولا ضرار في الإسلام»[٣٤]. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن الله عزّوجلّ فوّض إلى المؤمن أُموره كلّها ولم يفوّض إليه أن يذلّ نفسه»[٣٥].

ومن حيث العناوين الثانوية فإنّها من الناحية السياسية تشوّه سمعة الإسلام والمسلمين، وهو ما لا يريده الشارع المقدّس، وينهى عنه.

ولما كانت تنتسب بشكل وآخر إلى الدين، وتترك انطباعاً في الأذهان كونها طقوساً دينية معترفاً بها، فإنّ عنوان البدعة يصدق عليها؛ لأنّها تعني إدخال ماليس من الدين فيه، وربّما شكّلت لدى بعض الجهلة أهم المراسم الدينية!! فكيف يمكن نفي الابتداع فيها؟[٣٦]

وأمّا من الناحية العقليّة فمن البديهة أن العقلاء لايرتضون مثل هذه الممارسات المقززة للنفوس، ويحكمون قطعاً بعدم جدوى فائدتها، فضلاً عن كونها مهدرة للأموال والطاقات، وهي بالتالي لاتحقق الأهداف الحقيقية المتوخاة من ثورة الإمام الحسين عليه السلام لا من قريب ولا من بعيد.

وهكذا يتّضح أن كلّ مايصدر من الإنسان ممّا يسبب له الاضرار أو الخذلان لنفسه أو لغيره، وليس له هدف عقلائي، مرفوض عقلاً وشرعاً، وعلى هذا جاء النهي الولائي التالي:

في مقابل كلّ هذا، هناك رموز تؤيّد وتدعم هذا النوع من الممارسات الشاذة، متوسلة بأدلّة واهية لاتصمد أمام الأدلة العلمية والمنطقية، وأهم أدلّتهم هو أصل الإباحة، وقد عرفت من الأدلة الشرعية بعناوينها الأوّليّة والثانوية حرمة هذه الأعمال. وأمّا جواز الإدماء لصدوره عن أهل البيت عليهم السلام، فهو أوّلاً غير ثابت بالقطع لا متناً ولا سنداً. وحتى لو سلّمنا بصحّة الرواية، فما بالنا لانجد ـ وعلى مرّ التاريخ ـ

أحداً من العلماء والفضلاء قام بمثل هذه الأعمال فيما لو كانت مستحبة، وفيها من المواساة لأهل البيت؟ حيث إنّهم أولى من غيرهم في التسابق بذلك. وما قيل من جواز خمش الوجوه في مصيبة الإمام الحسين عليه السلام، فقد ورد عن الإمام الحسين عليه السلام قوله لأهل بيته قبل وداعهم الأخير: «ولاتقولوا بألسنتكم ماينقص من قدركم»(٣٧)، فإذا كان الحسين عليه السلام لايرضى بالقول الموهن، فكيف يرضى بخمش الوجوه والإدماء؟ وهو الذي أوصى نساءه وأهل بيته بقوله: «إذا أنا قُتلت فلاتشققن عليّ جيباً ولاتخمشن وجهاً ولا تقلن هجراً»(٣٨).

ثم إنّهم يستدلّون على جواز الادماء بقول الإمام المنتظر عليه السلام في زيارة الناحية: «ولأبكين عليك بدل الدموع دماً» وهذا من أوضح الواضحات أنّه جاء في باب المجاز لا من حيث الحقيقة.

وأروع ما قيل في هذا المجال قول آية الله السيّد محمّد حسين فضل الله: بعض الناس يقول أنا أضرب على صدري؛ لأنّ زينب لطمت صدرها، أو اني أجرح رأسي مواساةً للحسين عليه السلام. نقول: صحيح نريد أن نواسي الحسين عليه السلام أن نُجرح حيث جُرح، في الموقع الذي جُرح فيه الحسين عليه السلام، جُرح وهو يجاهد في سبيل الله، فإذا أردنا أن نواسي الحسين عليه السلام فلنُجرح في مجال الجهاد في سبيل الله مثلاً. إذا أردنا أن نلطم على صدورنا على أساس أن السيّدة زينب عليها السلام لطمت على صدرها [فهي فعلت ذلك] وهي تحتج على قتل الحسين عليه السلام وتريد أن تقف بوجه الظالمين.

هذا ما أردنا بيانه حول البدعة والممارسات المبتدعة في مراسم العزاء الحسيني، ومن المناسب ونحن على أعتاب الختام، أن نذكر أن أوّل من كتب في تنزيه وتهذيب الشعائر الحسينية ممّا علق بها من بدع وأُمور خاطئة هو العلّامة المجتهد الأكبر السيّد محسن الأمين رحمه الله والذي يعتبر أوّل من سنّ هذه السنّة الحسنة، فله أجرها وأجر من سار عليها من بعده، إذ شنَّ حملته الاصلاحية منصرفاً بكل طاقاته وهمّته التي لاتعرف الكلل والملل بكتابة رسالته المعروفة بالتنزيه عام ١٣٤٦ هـ، ١٩٢٧م.

وعلى إثر ذلك فقد اتهم بأبشع الاتهامات ظلماً وعدواناً حتّى جعلوه أجنبياً وخارجاً عن المذهب، وكثير من الاتهامات الباطلة، ولكنه خاض غمار معركة قاسية

ضد الجهل والتخلف والبدع.

فيقول في رسالته: ومن أعظم المنكرات اتخاذ البدعة سنّة والسُنّة بدعة... فمن ذلك إقامة شعائر الحزن على سيّد الشهداء أبي عبدالله الحسين بن علي... التي ادخل فيها أُموراً أجمع المسلمون على تحريم أكثرها، وأنّها من المنكرات وبعضها من الكبائر التي هدّد الله فاعلها وذمّه في كتابه العزيز(٣٩).

وهذا دأب الأحرار على طول التاريخ في الاصلاح والتوجيه، وفي تشخيص الخطر المحدق بالأُمّة، ومعرفة الوظيفة الأساسية الواجب تقديمها على غيرها من الوظائف الأهم فالأهم. كما سار أبو الأحرار الحسين بن علي عليه السلام على الطريق الحمراء لاتأخذه في الله لومة لائم، وهو الطريق نفسه الذي انتهجه إمامنا الراحل قدس سره وأسس مدرسة الأصالة فكانت امتداداً للمدرسة الحسينية الكبرى.

والحمد لله أوّلاً وآخراً وهو حسبي.

الهوامش

١ ـ البقرة : ١١١ .

٢ ـ جاء في تاج العروس للزبيدي : ٢٣ ، ١٩٣ مادة خرف : أن خُرافة رجل من عُذرة أو جهينة استهدته الجن واختطفته ، ثمّ رجع إلى قومه ، فكان يُحدِّث بما رأى أحاديث يعجب منها الناس فكذّبوه فجرى على ألسن الناس وقالوا : حديث خُرافة .

وفي الأثر عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : حدِّثيني ، قلت : ما أُحدّثك حديث خُرافة؟ قال : أما إنّه قد كان .

٣ ـ آل عمران : ٧٨ .

٤ ـ كنز العمّال : ح ٢٨٥٦٥ .

٥ ـ الإرشاد ، المفيد ، ٢ : ١٤١ .

٦ ـ المنجد في اللغة : ١٧٥ .

٧ ـ موسوعة المورد ، منير البعلبكي ، ٩ : ١٤٣ .

٨ ـ الإمام الخميني تجسيد الخلق الإسلامي ، السيد فاضل النوري : ٦٦ .

٩ ـ المصدر نفسه : ١٤ .

١٠ ـ المصدر نفسه : ٦٣ .

١١ ـ حول المرجعية الدينية وخصائص العالم الديني ، الشيخ الآصفي ، مجلّة التوحيد، ٧٦ : ٥٢ .

١٢ ـ وصيّة الإمام الخميني ـ الترجمة العربية : ص ١٥ (انتشارات أُسوة) .

١٣ ـ راجع مقال الشعائر الحسينية ، خالد توفيق ـ مجلّة الفكر الإسلامي : ١٠ : ١٨٢ .

١٤ ـ الإمام الخميني ، السيد فاضل النوري : ص ١٠٤ .

١٥ ـ مختارات من أقوال الإمام الخميني ، إعداد وزارة الإرشاد، ٤ : ١٣٣ .

١٦ ـ الإمام الخميني رحمه الله كتب رسالة إلى العلماء جاء فيها : فالمسألة التي كان لها حكم سابق قد تأخذ حكماً جديداً في إطار علاقة الحاكم بالسياسة والمجتمع والاقتصاد.. وقد يحتاج الموضوع الجديد إلى حكم جديد . وإن جميع الفقهاء يتّفقون على أن حكم الحاكم الشرعي الولي الفقيه نافذ على الجميع حتّى على الفقهاء .

١٧ ـ نقلاً عن ٣٨٠ استفتاءً جديداً : ٩٢ .

١٨ ـ البقرة : ٢١٩ .

١٩ ـ النساء : ٤٣ .

٢٠ ـ المائدة : ٩٠ .

٢١ ـ (إن إبراهيم كان أُمّة قانتاً لله حنيفاً) النحل : ١٢٠ .

٢٢ ـ قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن ود يوم الخندق أفضل أعمال أُمتي إلى يوم القيامة . تاريخ بغداد ، ١٣ : ١٩ .

٢٣ ـ خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ، الشهيد الصدر ، ص ١٢ ـ ١٣ .

٢٤ ـ المصدر نفسه : ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧ .

٢٥ ـ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، عبد الرحمن الكواكبي ، ص ٧٢ ، عن مجلة التوحيد ٧٧ : ١٣٣ .

٢٦ ـ من كتاب حوار مع السيد محمّد حسين فضل الله ص ٢٣ .

٢٧ ـ سلسلة في رحاب الولاية ، إصدار دار الولاية للثقافة والإعلام ، ٤٦ : ٢٠ .

٢٨ ـ پيرامون عزاداری عاشوراء ، إعداد مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم ، ص ٣٤ (فارسي) .

٢٩ ـ سلسلة في رحاب الولاية ، ٤٦ : ١٨ .

٣٠ ـ المنجد في اللغة : مادة بدع ، ص ٢٩ .

٣١ ـ سنن أبي داود ، ٤ : ٢٠٠ .

٣٢ ـ المواسم والمراسم ، السيد جعفر مرتضى العاملي : ٦٤ .

٣٣ ـ كشف الارتياب ، السيد محسن الأمين ، ص ٩٨ .

٣٤ ـ وسائل الشيعة ، الحر العاملي ، ١٧ : ٣٧٦ .

٣٥ ـ المصدر نفسه : ج ٢ ـ باب ١٢ من أبواب الأمر والنهي .

٣٦ ـ الشعائر الحسينية بين الوعي والخرافة ، إعداد السيد محمود الغريفي ، ص ١٣٤ .

٣٧ ـ جلاء العيون ، المجلسي (بالفارسية) عن مقتل الحسين للمقرم ، ص ٢٧٦ .

٣٨ ـ الإرشاد ، المفيد ، ٢ : ٩٤ .

٣٩ ـ التنزيه ، السيّد الأمين ص ٧ ، نقلاً عن مجلة الثقافة الإسلامية ، ١٢ : ١٣٦ .

نهضة الإمام الحسين

مَعْلَمُ الثُّوار

محمد عبد الحسين البغدادي

لاشك في أنّ الثورة الحسينية المظفّرة هي الثورة الأمّ للثورة الإسلامية الإيرانية، بل هي الدافع والمُرشد والمحرّك لكثير من ثورات التأريخ.

ونحن لانعتبر كلّ حركة عسكرية أو غيرها نادت باسم سيّد الشهداء الحسين عليه السلام أو استلهمت منه منتسبة إليه عليه السلام، بل لما كان بينها وبين ثورة سيّد الشهداء عليه السلام من وحدة عقيدة ووحدة هدف. وإلّا فالثورة العبّاسية دعت إلى الأخذ بثأر الحسين عليه السلام ثمّ هدّمت قبره وحرثت المنطقة لتضييع أثره.

والمطلوب توفره هنا هو سير الثورة المستلهِمة على خُطى الثورة الأمّ في أهدافها وفي روحها وفي التزامها لخط إسلامي واضح أصيل يرى الله سبحانه ولا يرى معه شيئاً.

الثورة الحسينية، هذه الثورة العظيمة التي روت كثيرٌ من أُمّهات المصادر التأريخية والروائية أحداثها ونقلت جزئيات مجرياتها، وكُتب الكثير منها سرداً لتفاصيلها وتحليلاً لمواقفها ولم تنفدْ بعْدُ أسرارها ولم ينضب معينها ولم تخبُ جذوتها بل تزداد مع الليالي والأيام اتّقاداً وانتشاراً وأنصاراً، ومازال ترفد الفكر بالجديد من معطياتها وتشحذ الأذهان لاستكناه جوهرها وأسرارها واستطلاع خفيّ مقاصدها وطهارة أساليبها وعمق دروسها.

لقد استطاعت الثورة الحسينية المحمّديّة أن تخترق حدود الزمان والمكان، وأن تخرج من هوّة الصحراء التي جَرَت فيها أحداث معركة الإمام الوصيّ ضد جيش الانحراف والنفاق وأن تخترق الهوس الإعلامي للنظام الحاكم وأذنابه وكل تحريفه للحقائق وذرّه للرماد في عيون أفراد المجتمع الإسلامي للتعتيم على أبطال

الثورة وأهدافهم ومجريات أحداثها وطمس حقائقها وإطفاء نورها، واستطاعت أن تبرز رغم هذا المعوّق وذاك بكُلِّ نصاعتها وبكل مسارها وزكيّ أهدافها، وأن تفضح الطُغاة عُبّاد الشهوات من فراعنة هذه الأمّة الذين استأسدوا على الأمّة وليسوا بالأُسود بل هم قرود[1]، نزوا على منبر رسول الله ﷺ في غفلةٍ من الزمن بل في مؤامرةٍ واسعة النطاق لإقصاء أوصياء رسول الله ﷺ وعلماء الأمّة والقادة الحقيقيّين عن مقاعدهم التي رتّبهم الله سبحانه فيها.

لقد فضحت ثورة الحسين العظيم فراعنة الأمّة أمام أوليائهم وأعدائهم فلم تبقِ عذراً لمعتذر يقتفي آثار أولئك الظلمة ومحرّفي الشريعة والذين حاولوا بكل ما أُوتوا من قوّة ومكر وخديعة إطفاء نور الله سبحانه ولكنّ المولى سبحانه وعد التمام لنوره مهما بلغ سعيهم ومكرهم وعديدهم.

إنّ الظفر الذي نالته الثورة الحسينية ـ مع المدد والنصر الغيبي الإلهي ـ بدأ على يد سيّد الأنبياء ﷺ حيث ذكر بمحضر أصحابه مراراً وتكراراً نهضة الحسين عليه السلام[2] ومظلوميته وعدوان مجرمي الأمّة عليه، وأبان مكانته عنده وعند المولى جلّ جلاله.

وهذه الإبانات النبويّة طارت كُلّ مطير واستوعبتها آذان المسلمين وكانت الأمّة تترقّب أحداثها وتعلم ببعض ما سيجري فيها من بلاغات النبيّ ﷺ لأُمّته وكذا واصل هذا المسار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والإمام الحسن السبط المجتبى عليه السلام وهذا ما وصل إلينا عبر كتب التأريخ والروايات، والله سبحانه أعلم كم من خبر بل كتاب ضاع عبر هذه السنين حوى ما بلّغه أهل العصمة لجمهور الأمّة حول قضيّة الإمام سيّد الشهداء عليه السلام ونهضته بما فيه البلاغ وتمام الحجّة ولتهيئتهم لحسم موقفهم تجاه هذا اليوم الذي لا عمل بعده لأنّه المحكّ الأعظم.

وامتدت مساحة الظفر على يد الإمام زين العابدين عليه السلام وعقيلة بني هاشم وأخواتها حاملي هموم كربلاء وأحزانها، فما وهنوا ولا ضعفوا عن بيان حقيقة الثورة ومنبت أبطالها وانتسابهم لبيت النبوّة، وعن بيان إسلامية مسارها وأهدافها وانحراف أعدائها وكفرهم، وأن هذه الثورة منتصرة خالدة، وأن العار والبوار لمناوئيها.

إن الثورة الحسينية لها جوانب عديدة من أهمّها ثورة السيف والكفاح وبذل الروح بل كل ما يملكه المرء من أجل الله سبحانه؛ فقد ضحّى الحسين صلوات الله وسلامه عليه ومعه أهل بيته وأصحابه بكل وجودهم الشخصي لله سبحانه إبقاءً لذكره وإعلاءً لكلمته وإحياءً لدينه ودعوةً لطاعته، فجزاهم المولى سبحانه حياة الدنيا والآخرة، بل جعل حياة الناس بصراً وبصيرة روحاً وجسداً في الدنيا والآخرة بهم. فمن لم يُؤمن بالحسين ولم يعتقد عقيدته ولم يسلك دربه ولم يُنابذ أعداءه فأبعده الله وقد خَسِرت صفقته وأحبط الله عمله ولم يجعل الله له نوراً يُرشده في دنياه وينجيه في أُخراه، وليس كلّ هذا عطاء المولى سبحانه للحسين المهظوم وفدائييه، بل يعجز القلم عن البيان للعجز عن استيعاب مظاهر كرم الله العظيم.

والجانب الثاني لثورة الحسين عليه السلام إنّما هو: الجانب الإعلامي بإعلان حقيقة الثورة وقضيّتها وأهدافها التي تكافح لإحيائها، ودعم الثائرين بما يقوّي من عزائمهم ويُوهن عزيمة عدوّهم وإعطاء الديمومة لهذه الثورة ممّا يحقّق لها النصر النهائي بتحقّق أهدافها وإن طال المدى حتّى مع عدم تحقّق النصر العسكري الآنيّ في ساحة المعركة والفِداء.

إنّ هذا الجانب من ثورة الحسين عليه السلام بدأه ـ كما ذكرنا ـ سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم وسار به سيد الأوصياء عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام وقام بقسطٍ كبير منه الإمام الشهيد الحسين قبل ملحمة كربلاء وأثناءها، وواصل العمل الإمام السجّاد والعقيلة زينب وبقيّة الأئمّة المعصومين عليهم السلام أجمعين ثمّ جاء دور الشيعة بعلمائهم وأبطالهم بل أكثر شيعة أهل البيت عليهم السلام مارسوا الجانب الإعلامي بشكلٍ وآخر لإظهار قضيّة سيّد الشهداء وإعلان انحراف أعدائه.

إننا مازلنا نفتقر إلى الكثير من الدراسات الجادّة الواعية للثورة الحسينيّة والتي تخرج من حدود حكاية الثورة بتفاصيلها (رغبةً في الثواب) إلى تحليل أحداثها وتجسيم وقائعها بما يُعرب عن التشريع الإلهي الذي يُغذّي فكر الأمّة بقوانين وتوجيهات تدفع مسار الحركة الإسلامية ومجتمعها إلى أمام.

إنّنا نحتاج إلى دراسة درايتية لمجريات ملحمة الطف وما سبقها ولحقها ممّا يرتبط بها لاستخلاص الموقف العملي لنا من خلالها كي يظهر الموقف الحسينيّ

بجلاء لمن لم يتمكّن من تفهّم حركته المقدّسة كقانون سماوي خالد، وإنّما أخذها ودرسها باعتبارها (قضيّة في واقعة) لها ظروفها وأسرارها ممّا لايمكن مع هذين من القياس عليها واستجلاء أحكامنا وتكاليفنا من خلالها.

إنّنا نعتقد أن السُنّة ـ والتي هي أهم مصدر تشريعي في الإسلام لاستيعابها أكثر تفاصيل التشريع الإلهي ـ إنّما هي قول المعصوم وفعله وتقريره، وملحمة كربلاء المقدّسة وما يرتبط بها إن هي إلّا قول المعصوم وفعله وتقريره، وقد نُقلت إلينا بتفاصيل كثيرة وبدقّة لم يُرزقها غيرها من الوقائع بحيث يمكن القول إنّ مع عدم إمكان استنباط مواقفنا الفقهيّة من ثورة الحسين التي ملأت الدنيا وأقامتها ولم تُقعدها وانتشرت تفاصيلها في كتب القوم وفي مدوّنات الأعداء قبل الأولياء؛ يصعب بل يشكل استنباط الأحكام من كثير من أفعال المعصومين وإمضاءاتهم لسلوك الآخرين، بل يصعب استنباط الأحكام من أقوال المعصومين لوجود الاحتمالات الكثيرة الصارفة لمعنى الرواية عن ظاهرها واحتمال أُمور عديدة مصاحبة لِآن صدور الرواية يقوّض لما فهمناه منها.

إنّ ملحمة عاشوراء معين ثَرّ لاستنباط أحكام الدفاع عن الإسلام وتشريعاته ومقدّساته وأحكام مناهضته السلطة الجائرة الحاكمة لبلاد الإسلام بل لأحكام الدفاع عن النفس والعِرض والكرامة الشخصية، بل فيها جهات كثيرة للبحث والاستنارة ومن أهمّها سلوكية قادة المسلمين مع الظالمين وهادمي الإسلام وسلوكية جماهير المسلمين مع قادتهم

إنّ ملحمة الطف ما خبت جذوتها غُروب يوم عاشوراء حتّى أعلنت للعالم خِسّة أولئك المجرمين المغفّلين الذين يُريدون إطفاء نور الله سبحانه ودحر دين الله وإنهاء وجوده في مسرح الحياة، هذا الدين الذي حمل مشعله عشرات الآلاف من الأنبياء والأوصياء والشهداء والعلماء والصلحاء ومن ورائهم الله جلّ جلاله بكل جبروته وعزّته وحكمته ومكره وجنده ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾(٣)، ﴿وما يعلم جنود ربّك إلّا هو﴾(٤)، وبعض جنده ملائكته التي ملأت أركان السماوات والأرض بل مع كلّ إنسان مجموعة منهم فهذا كاتب الحسنات وذاك يسجّل السيئات وهذا الشاهد ومنهم الحافظ وغيرهم من الملائكة الكرام الموكلين

بكل فرد من أفراد النوع الإنساني.

وقد استأصل المولى سبحانه أعداءه بالطير الأبابيل وبالصيحة والريح والمسخ بل آستأصل أعداءه بأعدائه ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون* فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمّرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنّ في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾(٥).

وما كانت سُنّة الله سبحانه مع الحسين ومظلوميّته ببدع عن تلك السُنن الإلهية؛ فقد ابتدأ النصر الإلهي للحسين عليه السلام في ساحة المعركة قبل بدء القتال أمام جيش الكفر والضلال اليزيدي مُنذراً ومحذراً بسوء العاقبة لهم وببيع دينهم ودنياهم بالثمن الأبخس فما ازدادوا إلّا عتوّاً غير نفرٍ قليل عطفوا إلى الحسين تائبين فنالوا الكرامة مخلّدين.

ثم أنزل المولى سبحانه العذاب الهون بيزيد وابن زياد وعمر بن سعد وشمر وحرملة وجميع قتلة الحسين عليه السلام فأُبيدوا قتلاً وتنكيلاً، ولاحقتهم اللعنات في عصرهم وعبر التأريخ، وتبرّأ منهم قومهم ومن إليهم ينتمون ولهم يُشيدون ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظرين﴾(٦).

ويأتي الآن من لا يفقه من الإسلام أمراً أو نهياً وأصبح أُلعوبة في أيدي الظالمين والفراعنة فيُحاول الإساءة لقضيّة الحسين عليه السلام وثورته وإزالة أنجاس يزيد بلسانه وقلمه بعدما لفظت الدنيا كلّها يزيد واليزيدية وما يجرؤ للدفاع عن يزيد إلّا جروٌ، وإلّا فقضيّة الحسين ومظلوميته وجريمة يزيد وفجوره وانحرافه من القضايا التي يسمّيها المناطقة بالقضايا الأوّليّة وهي التي يصدّق بها العقل بمجرّد تصور طرفي القضيّة مع توجّه النفس إلى النسبة بينهما. فما بلغ هذا المبلغ من الوضوح والبداهة كيف يتصدّى لحرف مساره من لا وزن له.

إنّ ملحمة الطف التي ما غربت عنها الشمس حتّى ألهبت مشاعر المسلمين وفجّرت طاقاتهم وأدرّت أموالهم ونفوسهم رخيصةً لله سبحانه ولرفعة الإسلام وعزّه وأشعلت الثورات ما تهدأ واحدة حتى تنطلق أخرى وكُلّها مِنَ الحُسين أَخَذَ وَبه يُنادي وبمشعله يستنير حقيقةً أو ادعاءً، تزلّفاً للجماهير لاستدرار عواطفهم ورجاءً لإسنادهم.

فما دام الأمر كذلك علينا أن لا نتناولها بوصفها فقط ظُلماً أحاط بأهل بيت العصمة والطهارة بل نتناولها كمَعْلَم نور يرفدنا بكثير من المعطيات العقائدية والتوجيهات السلوكية فيرفع عنّا الحيرة ويحدّد لنا التكليف الإلهي في أُمور قلّ توافر النصوص الواضحة بشأنها أو كَثُر وجود التعارض بين أدلّتها، وأحاط بمداليها الغموض أو فُقدت منها الأسانيد، وكل هذا نتيجة مئات من السنين عاشها أئمّة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم في تقية شديدة وضغطٍ من السلطات الحاكمة السائرة على خط يزيد، وقلّة في إمكانيات المواجهة مع المتلاعبين بالإسلام وأهله، ممّا دعا إلى قلّة البحث في هذه المسائل وطول إمساكٍ عنها أضحت معه من غرائب المسائل، وأحاطها الغموض ومازلت تجد الإعراض عن التفقّه فيها والاندهاش من نتائجها.

إنّ أوّل مايلزم وضعه نصب العين حين دراسة النهضة الحسينية المحمّدية المباركة هو الهدف الحسيني المُعلن لحركته المقدّسة إذ كتب عليه أفضل الصلاة والسلام في وصيّته إلى أخيه محمّد بن الحنفية: «وإنّي لم أخرج أشِراً ولا بَطِراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي وأبي عليّ بن أبي طالب فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين»(٧).

وقال صلوات الله عليه في خطبته لجيش الحرّ: «أيُّها الناس! إنّ رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنّة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحقّ من غير»(٨).

كما قال عليه السلام: «خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخير لي مصرع أنا لاقيه كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلا فيملأن منّي أكراشاً جوفاً

وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أُجور الصابرين»(٩).

إن صدور هذه النصوص عن سيّد الشهداء عليه السلام يوضّح بجلاء أن المسيرة التي سارها الحسين المظلوم إنّما هي عن إرادة وتصميم وإدراك لأبعاد الوضع الخطر الذي يعانيه المسلمون بل الدين الإسلامي الحنيف الغضّ الذي لما يزل يتغلغل في احناء أبنائه ومعتنقيه وتتشربه نفوسهم وعقولهم حتى هجم ذئاب الكفر بكل شراستهم ووقاحتهم يتّخذون عباد الله خولاً وماله دولاً، ولم يزل الكفر وعشق أصنام مكّة يملأ كلّ جوانحهم إدراكاً أن لا بقاء لهم ولا بُلهنية في العيش مادام الإسلام يحيا ناصعاً واضحاً بوجود القرآن العزيز وبوجود القادة الربّانيّين.

إن الدعوة الإلهية التوحيدية التي بدأها أبو البشر آدم وقام بنشرها مئة وأربعة وعشرون ألف نبي ومثلهم عدداً من الأوصياء والكثير من العلماء والصلحاء والربّانيين والمؤمنين حتى انتهت إلى خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه وآله وسلم الذي أحيى من دين الله تعالى ما درس، وأنار الله به درب الهداية للبشرية جمعاء وجعل شريعته الخاتمة والباقية إلى يوم القيامة. والتي ناضل من أجلها سيّد الأوصياء علي عليه السلام وأبو محمّد الحسن المجتبى عليه السلام وصلت إلى منعطف خطر جدّاً وكانت جهود الماضين وآمالهم تستصرخ الحسين عليه السلام إذ إنّ بني أمية قد عقدوا العزم على إطفاء تلك الشعلة الإلهيّة وإماتة الدين الحنيف وطمس مضامينه إلى الأبد. وقد أعلن هذا الهدف جدّهم أبو سفيان وأبوهم معاوية سيّد البغاة في قوله لعمرو بن العاص: «لا والله إلّا دفناً دفناً» في قصّة مشهورة.

فلمّا كانت مسألة الخلافة وتسلُّم زعامة الأمّة الإسلامية مركزية جدّاً في أهداف الأئمّة المعصومين من أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام وكانت الوسيلة الوحيدة الطبيعية ـ غير المخلّة بالتخطيط الإلهي لمسيرة الكيان البشري وتكامله ـ للمحافظة على سلامة مسيرة الدين الإسلامي وبقاء تعاليمه وأحكامه وعقائده بل وللمحافظة على قادته وأفراده وكيانه الأسري والاجتماعي العام؛ كان لابُدّ من تسلّم الخلافة بالطريقة الممكنة فإن أمكن بالطريقة المُثلى الأسهل فيها وإلّا فبكل طريقة ممكنة لاتتعارض وقوانين الإسلام ما وُجِد المعاضد وأمكنت الفُرص،

إلّا أنّهم عليهم السلام لا يتصدّون لتسلّم الخلافة لو نتج عن تسلّمها فساد يكون حصوله أعظم شرّاً من فوت الولاية كما لو ينتج عن الحركة هتك للإسلام أو فناؤه أو وقوع حوادث تؤدي إلى تشويه صورة الإسلام الحقيقيّة في أنظار الجماهير وتؤدي إلى اشمئزازهم منه، وتصوير حركة الأئمّة عليهم السلام على أنّها تنافسٌ لأجل سلطان وأمثال هذه من الأمور التي تعيق الأئمّة عليهم السلام عن أداء دورهم الأصيل وهو المحافظة على الإسلام أو إحياؤه بعد طمس الظالمين لمعالمه.

نعم، ذهاب الأنفس والاستشهاد وكذلك صرف الأموال ونفائس المقتنيات في هذا السبيل ممّا لا توقّف للأئمّة عليهم السلام فيه أبداً وكيف و ﴿إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة يُقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هُوَ الفوز العظيم﴾(١٠).

ويترتّب على ما تقدّم حقيقة أنّ الأئمّة عليهم السلام من بعد وفاة سيّد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم كان همّهم الدائم إقامة حكومة إسلامية يُحكم فيها بحكم الله تعالى، ويُؤخذ فيها للمظلوم من الظالم، وتترسّخ فيها مضامين الإسلام في قلوب معتنقيه وتكون سلوكياتهم طبقاً لقوانينه وهم عليهم السلام لم يغفلوا لحظة واحدة عن هذا الأمر لضرورته واستحالة تصحيح المسيرة والمحافظة على ما يجب المحافظة عليه بدونه؛ إلّا أنّهم عليهم السلام توقّفوا في بعض الأحيان عن إعلان الثورة على الوضع القائم لعدم المعاضد والمناصر بما يكفي لنجاح الحركة، وللخوف على الكيان الإسلامي من التصدّع ثُمّ الدمار، والخوف من هيجان فتنة تكون عاقبتها انهيار البناء الذي شاده سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم وينطفئ حينذاك نور التوحيد إلى الأبد ويذهب الإسلام بالمرّة كما انتهت الأديان السابقة من قبله قبل أن تضرب في الأرض جذورها وتستوي على سوقها. ويوضّح هذا المعنى ما نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة.

ولمّا حانت الفرصة لسيّد الأوصياء عليه السلام قام بالأمر وحدث ماحدث من الفتن والاضطرابات التي أثارها الطامعون في السُلطان والإمرة والتمتّع بميزات منصب الرئاسة للعالم الإسلامي ممّا لايكون مسوّغاً لترك تحمّل المسؤوليّة وترك الحبل

على غاربه وفسح المجال للجهلة بالتشريع الإسلامي بل غير المبالين بتطبيقه لإدارة دفّة الحكم، وترك الناس في محنة تحت سيطرة هؤلاء.

ثمّ قام بالأمر الإمام الحسن السبط سلام الله عليه وانتهى الأمر إلى ضرورة عقد الصلح مع سيّد البُغاة وإمام الطغاة معاوية لاستيلاء معاوية على أطراف العالم الإسلامي المهمة وشرائه لذمم مجموعة من رؤساء العشائر والقادة العسكريين وإحداثه الفتن والبلبلة في أوساط جيش الإمام عليه السلام وجماهير المسلمين المتشعبة آراؤهم ونزعاتهم، ولوجود مؤامرة تستهدف تسليم الإمام عليه السلام حيّاً إلى الطليق معاوية كي يُجري على الإمام الطاهر عليه السلام هذا اللقب والذي حمل معاوية عاره إلى الأبد فلا لقب له مدى الدهر كلقب ـ الطليق ـ الذي أسبغه عليهم خاتم الرسل صلى الله عليه وآله وسلم وذلك حينما فتح مكة واعتقل معاوية فيمن اعتقل وقال لهم: ما تظنّون أنّي فاعلٌ بكم؟ فقالوا: أخٌ كريم وابن أخٍ كريم. فقال: إذهبوا فأنتم الطلقاء، فأعتقهم بعد أن أصبحوا له عبيداً وأضحوا موالي لبني هاشم بعد أن كانوا سادة مكّة.

أقول: قد صالح الإمام الحسن عليه السلام الباغي معاوية على شروط منها أن يكون الأمر للإمام الحسن السبط بعد معاوية فمع تعذّره يكون الأمر بعد معاوية للحسين السبط عليه السلام، ووقع الصلح وتوقّفت الحرب. وانتقلت دفّة الحكم إلى معاوية لترى الأمّة من ناصرت وعمّن تقاعست.

ففعل معاوية الأفاعيل وما أبقى للجاهليّة عادة إلّا أحياها ولا للإسلام مكرمة إلّا وأعفاها وأماتها. ولله وليّ إلّا شرّده أو قتله، وتتبع أولياء علي عليه السلام فحصدهم فأحدث في الإسلام أحداثاً يشيب لها الولدان وينماث منها قلب المؤمن كالملح في الماء، وهذا ما دعا أولياءه وأعداءه إلى الثورة عليه، وكاتب الناس ورؤساء العشائر ملجأهم ومفزع نازلتهم سيّد شباب أهل الجنّة الحسين عليه السلام طالبين منه النهضة، ووعدوه النُصرة والموت دونه وجاءت الكتب تترى.

السرّ في إعلان الثورة الحسينية في عهد يزيد

أوّل ما يُطالعنا في الثورة الحسينيّة المباركة إباؤها الانطلاق في عهد سيّد البُغاة معاوية وانفجار بركانها في أيّام تسلّط يزيد بالرغم من اشتراك العهدين

بالمظالم والفتن والعداء السافر للإسلام والإنسانية. فما السرّ؟ وأين يكمن الفرق؟ فلنحاول استكشاف حقيقة الموقف:

١ ـ إن سيّد الشهداء بحكم عقد الصلح المبرم بين الإمام الحسن المجتبى عليهما السلام وبين معاوية هو صاحب الحق الوحيد لتسلّم خلافة الأمّة الإسلامية مع هلاك معاوية ووفاة الإمام الحسن عليه السلام قبله، وبالرغم من أن معاوية أعلن فور دخوله الكوفة بعد الصُلح نكثه لعهوده مع الإمام الحسن عليه السلام إلّا أنّه لم يجرِ ترتيب آخر لمسألة ما بعد معاوية إلى آخر أيّامه حين عزم على استخلاف يزيد فلم يكن من المناسب الخروج على معاوية مع إمكانية الظروف لتسلّم الإمام الحسين عليه السلام للخلافة بهدوء.

٢ ـ إنّ الإمام الحسين عليه السلام ملتزم بعقد الصلح مع معاوية والذي عقده إمام معصوم واجب الطاعة وهو الإمام المجتبى عليه السلام والعهود التي جرت مع معاوية لا أثر لها لكونها مأخوذة بالإكراه لا عن رضىً وطواعية وقناعة بالحاكم، لأنّ معاوية قد نكث عهوده فأصبحت المعاهدة لاغية إلّا أن الإمام الحسين المعصوم الحكيم لما التزم بعقد الصلح وكان النكث والتفريط بالعهود والعقود ممّا يُفقد المرء مصداقيته وهيبته ونصاعته وكان سلام الله عليه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحق وحامل شمائله وطهارة مسلكه فما كان ليُبرم عقداً ثُمّ يتراجع عنه والقرآن العزيز يؤكّد على الوفاء بالعهد، بل إن من أسباب ذهاب الخلافة من سيّد الأوصياء عليه السلام والزلزال الذي حصل في دولته وانهيار حكم الحق أيّام خلافة الإمام الحسن، نكث العهود من الصحابة وجمهور الأمّة بل من أحزاب الأمّة الخارجة على الإمام الوصي والبادئة بفتح باب الفتن طائفة الناكثين. بل ما انهارت ثورة الحسين المظلوم ظاهريّاً مقابل جيوش يزيد في كربلاء إلّا بنكث العهود من أهل الكوفة وغيرهم. بل سيحتاج الإمام الحسين عليه السلام حين قيام دولته ـ لو قُدّر لها القيام ـ إلى وفاء الناس بعهدهم وبيعتهم أفيكون أُسوة لهم وبادئاً في هذا المجال وإن كان بين علّة تركه لعهد الصلح وعلّتهم لنكثهم العهود معه بُعدَ المشرقين.

٣ ـ إن معاوية قد نجح في شراء ضمائر وذمم كثير من رؤساء العشائر ووجهاء المدن وناكثي العهود من الصحابة ومن لهم القدرة على التأثير على كيان

الدولة الأموية وزلزلة أركانها.

٤ـ طغيان معاوية وجبروته وشراسته جعلت حالة من الرُعب والخوف وخور النفوس تهيمن على كيان الأمّة وعموم أطراف العالم الإسلامي ولهذا لم يُعرف عن أيّامه قيام حركات مسلحة مناهضة له فكان وضع الدولة في عهده بعد صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام هادئاً تقريباً بالنسبة له. نعم قام هو بحملات إبادة واسعة النطاق لتشتيت شمل الأمّة وهدّ قواها وإشغالها عن واجبها. ويكفي الإشارة إلى أنّه كتب كتاباً واحداً إلى ولاته في عموم العالم الإسلامي يأمرهم فيه بأخذ الناس على التُهمة والظنّة وإنزال العقاب بكل من احتملوا في حقّه الولاء لسيّد الأوصياء عليه السلام فعليهم بهدم داره وتشريده وفعل الأفاعيل به.

ويكفيك في ريادته للإجرام أن قطع رأس العبد الصالح عمرو بن الحمق الخُزاعي وسيّر برأسه في البلدان وهو أول من فعل هذا في الإسلام وقد فعل هذا بعمرو بعدما أمّنه وأعطاه من العهود والمواثيق ما لو أعطاه لطائر لنزل إليه من رأس جبل على حدّ ما كتبه الإمام الحسين عليه السلام لمعاوية[١١] في رسالةٍ له طويلة يقول له في آخرها: «وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك ولأُمّة محمّد واتق شقّ عصا هذه الأمّة وأنْ تَرُدّهم إلى فتنة، وإنّي لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمّة من ولايتك عليها ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأُمّة محمّد صلى الله عليه وآله علينا أفضل من أن أُجاهدك فإن فعلت فإنّه قربة إلى الله وإن تركته فإنّي أستغفر الله لذنبي واسأله توفيقه لإرشاد أمري».

ولمّا استعصى على معاوية أسر عمرو بن الحمق قام بأسر زوجته وأودعها السجن كي يتمكّن منه وهو أوّل من فعل هذا في الإسلام.

وقام بقتل حجر بن عَدِيّ الكندي وأولاده وصحبه لحبّهم عليّاً عليه السلام وهو أوّل من قَتَل في حبّ علي عليه السلام. وأرسل جيشاً إلى اليمن فعل بأهلها الأفاعيل وممّا فعلوا أنّهم باعوا نساء المسلمين في الأسواق لحبّهم عليّاً عليه السلام، ومعاوية أوّل من باع نساء المسلمين في بلاد الإسلام.

وبائقة الدهر قتله ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله مولانا أبا محمّد الحسن المجتبى سيّد شباب أهل الجنّة.

وسنّ سبّ أمير المؤمنين في جميع أرجاء العالم الإسلامي قهراً ومحنةً لعامّة المسلمين.

وأمّر يزيد على الأمّة فيما بعد، وكلّ ذلك مبارزة لله سبحانه واستعلاءً عليه وطُغياناً لم يُعهد مثله في الإسلام أبداً.

بل هو الذي سنّ الطغيان لجبابرة الأمّة وفراعنتها من بعده.

ألا يكفي في الدلالة على فجوره وعتوّه قول المؤرخين لفترة مابعد تولية زياد ابن أبيه على الكوفة: لم يبق في الكوفة شيعيّ يُعرف، من شدّة أفاعيله بمحبيّ علي عليه السلام وبمهبط شيعته ومقرّ حكمه وأنصار خلافته.

٥ ـ الظروف التي صالح من أجلها الإمام الحسن عليه السلام ما زالت قائمة، فمعاوية وبطشه واستماتته من أجل البقاء في الحكم، وأنصاره وأمواله وغشّه ومكائده؛ مازالت عقبات أمام النهضة، فما الداعي للنهوض وإجهاضه بالتالي.

وكلّ هذا يعني انفراط أُمور الدولة بعض الشيء بهلاك معاوية ممّا ينفع في استغلال الظرف وزعزعة أركان النظام القائم وهدّه بخسائر أقلّ وبنتائج مضمونة.

٦ ـ إن خروج سيّد الشهداء على القائم مقام معاوية فيه المشروعية الكاملة بنظر عموم المسلمين. أمّا الشيعة فهو الإمام المعصوم وصاحب الحق الوحيد في زعامة المسلمين وقيادة الدولة.

وفي نظر غير أوليائه لملكاته وفضله على غيره، ولكونه صاحب الحقّ في الخلافة بحكم عقد الصلح بين الإمام المجتبى ومعاوية الباغي.

ومادام الأمر كذلك فاللازم على الكل نصرته وتأييده وإطاعته وإرغام عدوّه؛ إلزاماً لكلّ طرفٍ بما يعتقد.

٧ ـ يزيد ضعيف الشخصية، فاقد الأهليّة لصغائر الأمور فضلاً عن مقام الخلافة، لا ديانة له، ذائع الصيت باقترافه المنكرات والفواحش واستهتاره بشرع الله سبحانه علانية، كلّ هذا وغيره يدفع المجتمع بمختلف توجّهاته إلى التقاعس عن نُصرته والاشمئزاز منه ورفض خلافته، ويشجعهم على الخروج عليه احتساب هذا عند الله تعالى ورجاء الجنّة.

ولذلك نرى أن الفئات التي رفضته في حياة أبيه وبعد هلاكه هم من غير

الإمامية غالباً ـ لقلّة أتباع أمير المؤمنين وشيعته في تلك الفترة مع كثرة المعارضين للدولة ـ إذ الشيعة بأجمعهم رافضون له.

٨ ـ إن سيّد الشهداء لم يُبايع يزيد أبداً لا في حياة معاوية ولا بعده، وهذا ممّا يساعد في إعلان الحرب عليه ـ بل من الغريب عدم مبايعته لمعاوية أيضاً ـ.

إذ موقف الأئمّة عليهم السلام من نكث البيعة ومخاطرها على النظام العام أن النكث والتشجيع عليه وفتح الباب أمام الجماهير لممارسته سيؤدي إلى استهانة الناس بها وهذا واضح تبعاً للتأكيد الشرعي عليها. ومن أمراض المجتمع في تلك الفترة بل من أيام السقيفة هو نكث البيعة والعهد، ومن المعلوم أنّه لا تقوم دولة ولايستقرّ نظام ولا تهنأ حياة بغير الوفاء بالبيعة واحترام العهود. وقد ورد عن الإمام المنتظر المهدي أرواحنا له الفداء في هذا الخصوص مايعزّز هذا الرأي ـ «إنّه لم يكن أحد من آبائي إلّا وقد وقعت في عُنُقه بيعة لطاغية زمانه وإنّي أخرج حين أخرج ولابيعة لأحد من الطواغيت في عنقي»[١٢].

هذا مع تسليمنا ببطلان هكذا بيعة لأنّها مأخوذة بالإكراه والتهديد بالقتل، ولا عقد ولا بيعة مع هذا لأنّ العقد شدّ وربط يحصل من إرادة طرفين فإذا كان بالإكراه لم يحصل الاشتراك في الشدّ ولم يحصل الالتزام.

ثمّ إنّ مبايعة أمثال هؤلاء الفجرة أعداء الأمّة خيانة للأمّة وهدم لمقدّساتها وذبح لأبنائها وهتك لأعراضها، وقد ورد لهذا المعنى عن مولانا الصادق عليه السلام: «لأنّ كلّ شيء من جهة المعونة (للظالم) معصية كبيرة من الكبائر وذلك أن في ولاية الوالي الجائر دوسَ الحق كلّه وإحياء الباطل كلّه، وإظهار الظلم والجور والفساد، وإبطال الكتب وقتل الأنبياء والمؤمنين، وهدم المساجد وتبديل سُنّة الله وشرائعه. فلذلك حَرُمَ العمل معهم ومعونتهم والكسب معهم إلّا بجهة الضرورة نظير الضرورة إلى الدم والميتة»[١٣].

٩ ـ إن الغضب الشعبي قد بلغ أوجَه وتفجّر حين هلاك معاوية ممّا لاقته الأمّة من الظلم والجبروت والهوان والإهمال لمصالحها واستيلاء الفراعنة على مقدّرات البلد ووصل ليل الناس بنهارهم رعباً وعبودية وهواناً. أفترتضي الأمّة من يجدّد لها هذا العهد ويستمرّ فيه إلى أمد لايعلمه إلّا الله؟! بل وتخضع لهوان أقسى منه

وجاهليّة من نوع آخر. فجاهليّة يزيد غير جاهليّة معاوية، إذ شاع عن يزيد شرب الخمور والولع بالفجور واللهو بالقرود، فجاهليّة يزيد أعتى ومعاوية أمكر وأغدر وأضلّ.

١٠ ـ ان الإمام الشهيد عليه السلام قد ضرب للثائرين موعداً وهو هلاك معاوية فالنفوس متحيّنة لتلك الفرصة تتأهّب وتلملم قواها وإمكانياتها ممّا يُلهي معاوية عنهم بعض الشيء لعدم تهديدهم الفعلي لسلطانه، والنظام الجديد لم يتأهّب بَعْدُ للمعركة ولم يستنفر قواه فتكون الفرصة سانحة جدّاً لهدم الدولة الجاهليّة.

١١ ـ إن المعصومين عليهم السلام كما هو معروف يتعاملون مع الحوادث لا بحسب نظام المعجزات أو بحسب العلم المكنون لديهم، بل إنّ للواقع بحسب ظاهره مدخليّة مهمّة في ترتيب التكاليف على المعصومين، إذ إنّ سيّد الأوصياء عليه السلام لمّا نكل الناس عنه قعد، ولمّا وجد الأنصار قام بالأمر وكذلك بقيّة المعصومين ومنهم سيّد الشهداء الذي لزمه القيام بحسب ظاهر الحال أيّام يزيد لمّا أعلن الكثير مبايعته واستعدادهم لنصرته. فالحجّة قد ثبتت لهم بحسب هذا الظاهر على سيّد الشهداء لكن لمّا كان ﴿فللّه الحجّة البالغة﴾[١٤] و﴿أحَسِبَ الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايُفتنون* ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾[١٥]؛ كان لابُدّ من تعريض الناس للجهاد إذا تمّت شرائطه بحسب الظاهر ومنها عدد المقاتلين وإمكانية تحقيق النصر بهم.

١٢ ـ إن الفترة التي أعلن فيها أبو الشهداء ثورته المحمّدية كانت من أنسب الفترات وأكثرها تأثيراً في خلخلة أُسس النظام وإسقاطه وانهياره بالتالي[١٦].

لأنّ يزيد الفجور لم تكن له شخصية مُهابة أو سمعة حسنة أو عمل يمجّده أو نصّ يقدّمه أو شبهة ينعش بها مقامه أو نسب محترم أو غيرهن من الأسباب التي تُثبت له عرشه وتدفع المعارضين عنه.

فالنسب المقدّس لسيّد الشهداء عليه الصلاة والسلام، والنصّ بحقّه، والعمل الزكي منه والجهاد وعظمة الشخصية وبُعد الصيت وتأريخ الأسرة الحافل بإنعاش الناس وسدّ خُلّتهم مع تحمّل ضيق المعاش ﴿ويُطعمون الطعام على حُبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً* إنّما نطعمكم لوجه الله لانُريد منكم جزاءً ولا شكوراً* إنّا نخاف من

ربّنا يوماً عبوساً قمطريراً* فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرةً وسروراً* وجزاهم بما صبروا جنّةً وحريرًا﴾(١٧)، إلى غير ذلك من أُمور تضيق عنها مجلّدات، وكل هذي لسيّد الشهداء عليه السلام الذي تهفو له قلوب الأمّة بلا مُنازع، ولذلك انزعج عبدالله بن الزبير من وجود سيّد الشهداء عليه السلام بمكّة لعلمه أنّه لا ينجح في مساعيه ولا يلتفت إليه العامّة والخاصّة في مكّة مع تمركز سيّدالشهداءعليه السلام فيها ولذلك كان يرغّبه في الخروج ليخلو له الجوّ.

أقول: إنّ يزيد أقلّ من تولّي السلطة حظّاً في نيلها ممّن نالها، ولذلك توسّل أبوه لتثبيتها له بالأموال والتخويف والخداع، بل ما كانت الفكرة لتأخذ طابعاً جديّاً في ذهنه لولا واليه المغيرة الذي حسّنها له وضمن له ماتحت يده من البلاد ـ وذلك طمعاً في بقائه في ولايته ـ وأكّد له مبايعة باقي البلدان بحكم سطوة ولاته الآخرين وقسوتهم مع رعاياهم.

ومن مظاهر تفاهة يزيد في المجتمع أنّ ولاة أبيه لم يُظهروا حماساً لنصرته؛ فوالي الكوفة لا رغبة له في مواجهة الثوّار وعلى حدّ تعبير بعضهم ـ يتضعّف ـ أي يُظهر ضعفه عن مواجهة الثوّار، ووالي المدينة لا رغبة له في الضغط على سيّد الشهداء عليه السلام لإرغامه على مبايعة يزيد، ووالي مكّة لم يكلّفه يزيد بقتل سيّد الشهداءعليه السلام بل بعث من الشام إلى مكّة ثلاثين مجرماً لينفذوا عمليّة اغتيال الإمام الحسينعليه السلام.

بل ما تمكّن يزيد من قتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلّا بتطميع ابن زياد بتوليته الكوفة والبصرة وتطميع ابن زياد لعمر بن سعد بولاية الريّ وجرجان وتطميع أهل الكوفة وتخويف قسم منهم وتهديدهم بجيش الشام حتّى تمكّن يزيد من سيّد الشهداء، ثمّ لمّا اقترفوا جريمتهم وتمّت لهم ادّعى المجرم يزيد أمام أهل الشام بأن آل الحسين إنّما هم من سبايا الروم أو من الخارجين على الدولة عصياناً وأمثال هذي من الزُخرف لعلمه أن بانكشاف حقيقة الأمر انفلات الأمور من يده وانقلاب السحر على الساحر، وهو الذي حصل، فقد التهبت البلاد وفار التنور من قصورهم.

فهذا ابن عفيف أمام ابن زياد في الكوفة أمام الملأ، وهذا ابن الأرقم في قصر ابن زياد، وسفير قيصر الروم في قصر يزيد وغيرهم في غيرها من الأماكن حتّى

اشتعلت ثورة المدينة وثورة التوّابين وثورة المختار وامتدت النار تحرق بني أُمية ومن انتمى إليهم.

فوضع يزيد غير وضع معاوية الذي تمكّن بتدليسه وأحابيله من محاربة الإمام الوصيّ أمير المؤمنين عليه السلام فترة طويلة ومن محاربة الإمام الحسن عليه السلام حتّى تقلّد زمام دولة الإسلام من شرق العالم إلى غربه، وأطاعته الناس في حربه ـ أي أهل الشام ـ.

فضمن الأجواء التي مرّ ذكرها وزوال معاوية عن سدّة الحكم يكون عرش يزيد في غاية التزلزل والميل للانهيار ممّا يحتاج معه لحركة بقوّة الحركة التي بدأ بها سيّد الشهداء عليه السلام ثورته لهدّ الحكم وإنهاء عصر دولة الطغيان وإعلان الدولة الإسلامية الإلهيّة وإحياء دولة الأنبياء والأوصياء.

١٣ ـ في الواقع إن سيّد الشهداء المظلوم عليه السلام لم يبدأ معركته بسبعين رجلاً كي يُناقش هذا ويُشْكَل عَلَيه بإمكانية تحقيق النصر بهذا العدد. فمع غضّ النظر عن مفاد الآية الكريمة ﴿كم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾(١٨)، والآية المباركة ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنّهم قومٌ لايفقهون﴾(١٩) فإنّ الإمام القائد بدأ معركته مع السلطة القائمة بالآلاف من الأنصار في الكوفة ومعهم قائدهم مسلم بن عقيل صلوات الله عليه، وبالآلاف الذين خرج بهم من مكّة وقدّرهم بعض المؤرخين بخمسة آلاف، وبجيش استدعاه من البصرة وتحرّك هذا الجيش فعلاً وفي أثناء الطريق بلغهم مقتل الشهيد فرجعوا، وبجهات عدّة مستعدّة للنهوض ضد الدولة في حال تزلزلها كابن الزبير وأتباعه في مكّة، وبقاعدة جماهيرية عريضة جدّاً تتمركز في الكوفة والمدينة ومكّة واليمن والبصرة، إلى وضع منهار بضربة كافية.

١٤ ـ إن المنازلة والمعركة الفاصلة بين حسين الطهر ويزيد الفجور قد بدأت منذ بعث يزيد بثلاثين رجلاً من سقط المتاع لاغتيال الإمام ولو وجدوه متعلّقاً بأستار الكعبة واستغلال ظروف الحجّ ومشاعره لتنفيذ جريمتهم وتضييع دمه المقدّس وإشعال الفتنة في مكّة المكرّمة في تلك الأيّام الحرام، ثمّ تعيين ابن زياد

على الكوفة واقترافه لجريمة قتل سفير الحسين وقائد الجماهير برغبتها وانتخابها وإعضادها السيّد الجليل والقائد الحكيم مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليه مع أحد أكابر قادة الشيعة ووجهائهم بل من أكابر المجتمع الإسلامي هاني بن عروة رضوان الله تعالى عليه؛ ذلك العبد العابد المجاهد الغيور على دينه المتمسّك بقيمه وعهوده والمتعلّق بربّه، وهذا ممّا لايفهمه أذناب السلطة الحاكمة فأيّ وفاء بالعهد لمسلم وهم نكثوا عهدهم مع الله تعالى ونبيّهم وإمامهم.

ثمّ من مظاهر بدء المنازلة ـ غير ما تقدّم ـ مطاردة الشيعة الثوّار ونفيهم وتشريدهم وملء السجون بهم حتّى نُقل أن في سجون الكوفة ما يُقارب الخمسة آلاف من المقاتلة والأكابر من الشيعة ومنهم العبد الصالح والعالم الربّاني ميثم التمّار الذي صلبه ابن زياد الأفّاك قبل ورود الإمام عليه السلام، ثمّ قيام ابن زياد بإرسال طلائع جيشه بقيادة الحُر الرياحي لتطويق سيّد الشهداء وحجزه عن الرجوع.

كلّ ماتقدّم وغيره يدلّل على أن المعركة كانت قد بدأت وعلى سيّد الشهداء أن يخوضها بما أمكنه من قدرات متوافرة لديه.

١٥ ـ إن سيّد الشهداء هو ابن سيّد الأنبياء وابن البتول الزهراء وابن أمير المؤمنين وأخو الإمام المجتبى، وهذه العائلة المطهّرة قدّمت أروع صورة لأولياء الأمور وقادة الأمّة وساسة البلاد خلال فترة إدارتهم للمجتمع الإسلامي بما لم يألفه الناس من قبل ولم يعهدوه من بعد، وقد طالت فترة حكم معاوية وذاقت الأمّة خلالها ما لا يوصف من الهوان والفقر والإهمال لتتأمّل حالها وتعلم عظم جريمة تقاعسها عن إمامها وقائدها العظيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام.

ومن العجيب الغريب أن الأمّة جرّبت حكماً أُموياً وغيره ما بين وفاة النبيّ القائد صلى الله عليه وآله وسلم ومصرع عثمان ممّا أرهقها وفجّرها ووجهها إلى الإمام الحقّ الناصح الرحيم بالأُمّة علي عليه السلام، وسرعان ما دبّ فيهم الوهن بسبب عدم غلظة الإمام معهم وكثرة الفتن المسلّحة العابثة بهم وأوّلها فتنة الصحابة الناكثين لعهدهم مع نبيّهم صلى الله عليه وآله وسلم، وثانيها فتنة معاوية وصحبه القاسطين، وثالثها فتنة الخوارج الأغبياء، ورابعها فتنة معاوية التي حالت دون تصفيتها جريمة ابن ملجم لعنه الله تعالى.

فالقصد أن الأمّة جربت حكم أمير المؤمنين عليه السلام ذلك الإمام العابد الأوّاه الذي يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة ويخوض حروبه بسيفه متقدّماً جنده بالرغم من شيخوخته، وتراه يتفقّد السوق ويَنْهى عن ضروب المعاملات المنحرفة ومنها الحُكرة، ويتفقّد رعيته في أطراف عاصمته فيخفف عنهم مصائبهم وتشتكي له امرأة ظلم عامله في أقاصي البلاد فيبعث له بعزله بكتاب يكتبه فوراً ويرسله بيد المشتكية ليكون أذلّ للظالم.

والإمام الحسن المظلوم رفض كما رفض أبوه من قبل أن يفعل كلّ ما تناله يد قدرته للمحافظة على الخلافة. فالخلافة إنّما يريدها لإقامة موازين العدل وتطبيق الأحكام الإلهية وإحياء الكتاب والسُنّة. أمّا إذا كان الحكم ومقوّماته وشرائط بقائه تجعلنا نخسر الكتاب والسُنّة وننحرف عن طريقهما فلا نفع في حكم كهذا ولا فرق بينه وبين حكم المنحرفين، فإمّا حكم وعدل وإمّا لا حكم.

فالحسين عليه السلام في استقامته وتمثيله لشخصية أبيه وأخيه وهيبته وعبادته وزهده وشجاعته يجعله في نظر الأمّة المستحق لخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعتقد فيه: حتمية قيام الحكومة الإسلامية الحقيقة باسمها ومضامينها وأهدافها على يديه المباركتين.

إن الأمّة ولاشكّ تفرّق بين الحسين عليه السلام وغيره وهو الذي له سابقة في إدارة أُمور الأمّة بمعيّة أبيه وقاد أيضاً جيوش أبيه فشهد الناس حسن سياسته من إمرته وقرآنيّة تفكيره والكلّ يعلم ما يفعله أبناء الحكّام والزعماء وهم تحت مظلّة آبائهم من الجور بالناس واستغلال النفوذ والعبث بممتلكات الأمّة واستدرار منافعها، فلم يحدث هذا من الحسين عليه السلام وكلّ أطراف البيت النبويّ الذي بقي ثلاثة أيّام بلا طعام تفضيلاً لأسير ومسكين ويتيم، وكم جاع سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم فيقوم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بسقي نخيلات ليهودي مقابل كفٍّ من تمر يطعم منها سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم ويطعم معه، بل اشتكى عقيل بن أبي طالب لأخيه الإمام فقره أيّام حكمه في الكوفة وشكى له جوع أطفاله فما رقّ له الإمام عليه السلام ولا فضّله في العطاء على سواه بينما يتنازل الإمام عليه السلام عن نصيبه من غنائم المعارك لمن لم يشارك لحاجته والإمام عليه السلام أحوج منه.

وأمّا غير الحسين فقد سام الأمّة الخسف وجرّعهم كلّ غُصّة واتخذهم خِولاً ومال الله دولاً وأصبح العراق وبلاد الإسلام بُستاناً لهم وقطائع لأبنائهم وأذنابهم.

فمن يذيق الجوعَ نفسه وأطفاله حتّى بلغوا من الضعف أن أدّى بالنبيّ ﷺ أن يقول حين دخل عليهم ـ واغوثاه آل محمّد يموتون جوعاً. فأغاثهم الله سبحانه بطعامه وآياته الغُرّ.

هؤلاء هم أولياء الأمور وسادة الأمم وأَولى الناس بالناس ومن تتمنّى الأمّة أن تحيا في ظلّهم.

لم يكن سيّد الشهداء ليتوقّف عن جهاده في هدم دولة البغي والكفر والطغيان بمجرّد عقد الصلح مع معاوية الذي دفن التزامه بعهوده في مسجد الكوفة بمحضر أهل الشام وأهل الكوفة وبمحضر الإمامين الحسن والحسين، إلّا أنّ الإمام القائد سلك طريقاً آخر وأخذ يمهّد للانقضاض على دولة الجور، وما فتئ يسعى لتطويق آثار تدميرهم الواسع النطاق. فقد وقف في موسم الحجّ أثناء موقف عرفات وجمع الناس وخطب بهم وعدّد لهم فضائل بيت النبوّة وأبيه سيّد الأوصياء عليه السلام واستشهدهم على صحّة كلامه فشهدوا بصحّة كلّ ما قاله فأمرهم بنشر ما سمعوه في بلدانهم[٢٠].

وهذا منه تعرية للسلطة وفضح لها ولأبواقها الإعلامية التي سلكت كلّ سبيل من الكذب والدجل ووضع الأحاديث المزورة لِحَرفِ الأمّة عن أهل البيت عليهم السلام وهذا منه أيضاً تحريضٌ للمجتمع الإسلامي على مواجهة الهجمة الإعلامية للدولة ومناقضة دعاواها وصدّ النظام عمّا يحاوله من المشي خطوة أخرى بعد خطوة تسلّم السلطة، وخطوة قهر الأمّة والتنكيل بها. وهذه الخطوة هي تشويه الحقائق وغسل الأدمغة وتغيير العقيدة لاصطناع مجتمع جديد محل المجتمع الإسلامي، والمجتمع المأمول إقامته هو مجتمع الدولة الواحدة الأموية الجاهليّة المُسْتعْبِدَة، فيوالي هذا المجتمع بني أُمية ويجهل كلّ شيء عن الإسلام وعن قادته الحقيقيين بل يكون حرباً عليهم.

كان سيّد الشهداء يرى الأمور تسير من سيّئٍ إلى أسوأ في ظلّ الحكم القائم، فكان عليه تدارك الأمر أو التخفيف من حجم الخسائر في هذه المرحلة قدر الإمكان

حتى يحين أمد التغيير.

وقد وصلت أنباء تحرّكات الإمام القائد لمعاوية فارتأى الإرهابيّ معاوية إرهاب الإمام ليحدّ من نشاطه فكتب له يتهدّده ويتوعّده؛ فردّ عليه الإمام القائد بأغلظ كتاب خلّده لنا التأريخ يحطّم به شموخه ويذلّ كبرياءه ويُعلِمْه بأنّه لم يسكت عنه لخوف أو حرمة أو نهي ديني للخروج عليه.

وممّا قام به سيّد الشهداء عليه السلام أنّه امتنع عن بيعة يزيد بالمرّة حتى قارب الأمر قتله أيّام معاوية فحافظ على حياته المقدّسة لأنّ نهاية حياته معناه نهاية المقاومة ومبايعته ولو ظاهريّاً تعني الإجهاز على حركته وإلى الأبد بل كلّ حركة، وستُعلن الأمّة استسلامها لبني أُمية.

وكما أنّه لم يُبايع، كذلك لم ينقض عهداً ولا صلحاً أبرمه المجتبى حتّى يحين حينهم.

تحليل لموقف سيّد الشهداء عليه السلام من أنصاره

لاشك في أنّ النهضة الحسينيّة بل كلّ حركة مقاومة لاستبداد دولة قويّة طاغية ظالمة تتطلّب أن تعتمد على اقتناع أبناء الأمّة بها وإيمانهم بصحّتها واندفاعهم لنصرتها وإخلاصهم واستماتتهم في سبيلها، وهذا لايتحقّق مع إكراه الناس على نصرتها أو الاستفادة من حيائهم ومجاملتهم.

يروي التأريخ أن سيّد الشهداء خرج من مكّة بموكب يرافقه فيه ما يُقارب الخمسة آلاف نسمة إلّا أن هؤلاء لم يكونوا جميعهم من مستوى الجيش العقائدي المطلوب توافره في مثل هذا الظرف، ولذلك حين بلغه خبر استشهاد مسلم بن عقيل رضوان الله تعالى عليه أبلغ الناس أنّه: قد أتانا خبر فظيع، قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وعبدالله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا؛ فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف غير حَرِج ليس عليه ذِمام. فتفرّق الناس عنه وأخذوا يميناً وشمالاً حتّى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة ونفر يسير ممّن انضموا إليه وإنّما فعل ذلك لأنّه عليه السلام عَلِمَ أنّ الأعراب الذين اتبعوه إنّما اتّبعوه وهم يظنّون أنّه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله فكره أن يسيروا معه إلّا وهم يعلمون على ما يقدمون(٢١).

وبدأ الإمام عليه السلام في موقفه الحازم ـ من ذلك الحين ـ والذي وقع مورد التساؤل فتراه يُرغّب بعض الرجال في نصرته ويُبين له الكرامة الأخروية التي تنتظره ومغفرة الذنوب الكثيرة التي بذمّته ممّا يستعقب نصرته كما حصل هذا مع عبيدالله بن الحر الجعفي الخائب وزهير بن القين رضوان الله تعالى عليهما. وتراه من جانب آخر يعرض على أصحابه الرجوع ويشرح لهم طريق نجاتهم في رجوعهم في أحلك الظروف وذلك عند إحاطة جيش ابن زياد بهم إحاطة السِوار بالمعصم.

لاشك في أنّ حركة الحسين عليه الصلاة والسلام كانت بحاجة إلى من يستشهد مع الإمام المظلوم المهتضم وإلى من يبقى بعد شهادته المقدّسة.

أمّا من يبقى فلمواصلة الجهاد عن طريق شرح مظلومية الحسين عليه السلام وشرح أهدافه وتحريض جمهور الأمّة على السلطة الحاكمة الغاشمة ونشر عقائد الأئمّة من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ومبادئهم، ونشر التشيّع وإشعال فتيل الثورة في أرجاء الدولة.

وأمّا من يستشهد معه فمن الطبيعي أن حركة الحسين عليه السلام تكتمل بوجود عناصر متعدّدة مساندة لها ممّا يقطع الطريق على أذناب السلطة لتشويهها.

فترى في ثورة الحسين أهل بيته من أولاد علي عليه السلام وأولاد الإمام الحسن عليه السلام وأفلاذ كبد الحسين وأولاده وأولاد عقيل وأولاد جعفر، ونرى أيضاً الشيخ الكبير والطفل الصغير والمرأة المُسنّة والمرأة الشابّة والحرّ والعبد، وقائد جيش الأمويين الحر الرياحي وأعظم الناس تشيّعاً والعثماني الهوى زهير بن القين وزعيم عشيرة وهكذا غيرهم.

ومعه أيضاً نساؤه وصغاره ونساء أصحابه، وكل من حضر كان من خيرة صنفه ومن وجهاء البلد ومن نُسّاكهم وزهّادهم.

فجمع جيش الحسين الأعمار المختلفة والعقائد المختلفة، وقد اتّحدت هذه العقائد في عقيدة واحدة شيعية حسينيّة تحت راية الإمام القائد.

إن وجود هذه المجموعة تحت راية الحسين يستوقف من لايعرف الحسين وقضية الحسين. فما الذي يدفع زهير بن القين وهو عثماني الهوى إلى السير تحت راية الحسين وبذل حياته رخيصة في سبيله وفي سبيل قضيّته ويهجر الأهل

والولدان والأموال.

وهكذا القول في الحرّ قائد جيش ابن زياد حيث أعرض عن قيادة الجيش بعدما أحاطت الجيوش بالحسين وبعدما تيقّن الجميع من مقتله، وتَركَ طيّبات الحياة الدنيا ولم تمنعه خطيئته عن أن يتوب إلى الحسين وسط ساحة المعركة ويكون هو أوّل مقاتل وأوّل شهيد، والعبد جون لو ترك القتال لتركه جيش ابن زياد كما يروي التأريخ أنّهم تركوا عبداً آخر بعدما انتهت المعركة.

وسيّد قومه حبيب بن مظاهر الأسدي. وهكذا صور أخرى في منتهى الروعة وأعظم العبرة تستوقف المتأمّل لتشرح له بلسانها الذلق مظلومية الحسين وطهارة أهدافه وإسلامية ثورته. ممّا حفلت بها كتب الخاصّة والعامّة وأودت بيزيد ودولته وآل أُمية وحشرتهم في مزابل التأريخ وعجّلت بفناء دولتهم وصيّرتهم ألعن دولة وأخسّ عائلة في تأريخ الإسلام.

إن استشهاد الإمام الحسين وحيداً في ساحة المعركة ممّا تأبى نتائجه النفوس الأبيّة فإنّ في هذا استهانةً بمقام المعصوم وبخساً لقدره وغضّاً لمقامه وإثارةً لروح الشكوك حول قضيّته، وهذا بخلاف ما لو كان أهل بيته بصغارهم وكبارهم، شبابهم وكهولهم، رجالهم ونسائهم بأرفع بيوتهم شأناً ومعه من الأنصار علية المجتمع من زعماء ورؤساء عشائر وقُرّاء للقرآن ـ كما هو مصطلح العلماء والفقهاء في تلك الفترة ـ بل لزعماء من جهاز الدولة وقادتها العسكريين ولأفرادٍ من جندهم أو لطوائف أخرى من المسلمين، فإنّ هذا يضفي على قضيّة الحسين مع عظمة الحسين عليه السلام الشخصيّة التي هي في الظهور كالشمس في وضح النهار تمامية وصورة رائعة من الالتحام، وكون قضيّة الحسين إسلامية لا شخصيّة ولا نفعية ممّا يدفع بهذا الجمع المختلف الانتماء وبتشكيلته القائمة إلى التضحية بكل غالٍ ونفيس مع الحسين.

ويقف الإمام القائد لينقل للدنيا عبر الأجيال صورةً لهؤلاء الصحب ولإيمانهم وتفانيهم عجزت أُمّ الدهر عن نظائرهم إلّا ماندر.

يقول الإمام عليه السلام : أمّا بعد فإنّي لا أعلم أصحاباً خيراً منكم ولا أهل بيت أفضل وأبرّ من أهل بيتي.

وحين عرض عليهم الرجوع، نرى بعضهم يجيبونه: وَلِمَ نفعل ذلك؟! لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً.

وآخرون: لا والله ياآبن رسول الله لانُفارقك أبداً، ولكنّا نقيك بأنفسنا حتّى نُقتل بين يديك ونَرِدَ موردك، فقبّح الله العيش بعدك.

ويقول له زهير بن القين الذي كان لأيّام خلت على دين الدولة وفكرها العثماني: والله ياآبن رسول الله لوددت أنّي قُتلت ثمّ نُشرت ألف مرّة وأنّ الله يدفع بذلك القتل عنك وعن هؤلاء الفتية من إخوتك وولدك وأهل بيتك.

وآخر يجيبه: أكلتني السباع حيّاً إن فارقتك.

ويقيناً لا دافع لمقالهم ومواقفهم إلّا محض الإيمان والوقوف إلى جهة دين الله في مفترق الطرق ومواجهة الموت وآلام المعركة وكل نتائجها مهما كانت.

ودافع آخر: هو عدم ترك الإمام وحيداً يواجه الموت وأكفر أعداء الله في موقف إيمانيّ وقضيّة تتعلّق بوجود الإسلام ورسول الله ﷺ والقرآن.

والواقع أنّ أعظم مشكلة واجهت المعصومين بل كلّ الأنبياء والأوصياء تقريباً عبر الأزمان هي مشكلة الأنصار وعقيدتهم وتفانيهم في الذبّ عن دين الله والتضحية في سبيله كي يقوم على سوقه.

وهذه الروح اكتسبها الإمام الخميني المجاهد من عطر كربلاء الفوّاح فتغلغلت في خبايا نَفْسِه وأعلن بكل استماتة كفاحه ضد النظام الكافر البهلوي وأقزامه، ورمى بنفسه في لهيب المعركة فنقل الروح الكربلائية التي حملها إلى الشعب المؤمن الإيراني الكربلائي الذي اندفع في مظاهرات أذهلت الدنيا ودوائر السياسة العالمية التي ما استطاعت في يومٍ نَفْخَ الروح الاستشهادية في واحدٍ من أتباعها.

وأين هم من كربلاء التي أحيت أجيالاً لا تنتهي كلّما استشهد جيل قام جيل آخر يندفع ضدّ يزيد زمانه لإسقاطه ويُقيم دولة الحسين في الأرض حتّى انتهت النوبة إلى الشعب الإيراني الحسيني الذي وصفه الإمام الخميني (قدس سره) بقوله:

«أنا أزعم بجرأة أن الشعب الإيراني بجماهيره المليونية في العصر الراهن أفضل من أهل الحجاز في عصر رسول الله صلّى الله عليه وآله وأفضل من أهل الكوفة في العراق على عهد أمير المؤمنين والحسين بن علي صلوات الله وسلامه

عليهما»[٢٢].

لقد وجّه الإمام الخميني خطابه إلى الحوزات العلمية لبناء الروح الفدائية الاستشهادية فيهم باعتبارهم الرعيل الأوّل من جند الإسلام والخط الأوّل في الدفاع عنه:

«استعدوا للموت، للسجن والذهاب إلى الخدمة العسكرية، استعدّوا لتلقي الأذى والإهانة، استعدوا للمصائب التي ستواجهونها في سبيل الدفاع عن الإسلام والاستقلال».

وبلغ الأمر بالروح الاستشهادية المتغلغلة في نفوس العاشورائيين الإيرانيين أن الإمام الخميني يقول:

«لقد كتب لنا أهل مدينة شهر ري رسالة يقولون فيها: نحن خمسة آلاف شخص نرتدي الأكفان ونقف رهن الإشارة. ومن جابلق بعث لنا مئة ألف شخص برسائل يعلنون فيها استعدادهم لتنفيذ ما يُطلب إليهم. ومن لرستان بعثوا لنا برسائل يقولون فيها إنّ عشائرها ارتدت الأكفان وتستعدّ للتحرّك، وهكذا».

إن حركة الإمام الخميني المباركة ولاشك إحدى نتاجات نهضة الإمام الحسين عليه السلام وتضحياته الجسيمة في سبيل الإسلام والأمّة، إذ ثورة الحسين عليه السلام ملهمة الثوار وَمَعْلَمُ الكرامة ومُرشدة أهل الإباء.

الإمام الخميني الذي عاش ورأى ما يحلّ بإيران الإيمان على أيدي القاجار الظلمة وأيدي النظام البهلوي الكافر المنحطّ قد قضى أيّامه يعدّ العدّة للإجهاز على هذا الجبروت والطغيان وليحطّم الأغلال التي كبّلوا بها الإسلام وأهله وعلماءه.

لقد أذلّوا أهل الإيمان وحاولوا مالم يحاوله بل لم يحلم به الاستكبار العالمي المجرم الذي أدرك حقيقة عدم إمكانية مساومة علماء الإمامية إذ لا مطاطية في ثوابت الدين الإسلامي كما في تعاليم النصرانية الرائجة ـ من ضربك على خدّك الأيمن فأدِر له الأيسر، ومن أخذ منك الرداء فأعطه القميص ـ ويتلو عليهم مخاطباً كهنتهم: ما تحلّونه في الأرض يكون محلولاً في السماء وما تربطونه يكون مربوطاً.

لم يعلّمهم الإسلام كما تعلّم المسيحية أتباعها أن عيسى صُلب ليكون فداءً لأتباعه ويمحو بصَلبه جرائمهم وعارهم ومخازيهم.

الإسلام يُغذّي معتنقيه: «حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة»، ويُغذّي أتباعه: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله﴾[٢٣].

يعلّم أهله: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأنّ لهم الجنّة...﴾[٢٤].

يعلّم المؤمنين: «إن الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه.. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء ودُيّث بالصغار والقماءة»[٢٥].

يُعلّم أهله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾[٢٦].

يعلّمهم: ﴿فمن يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّةٍ شرّاً يره﴾[٢٧].

لم يتفهم الاستكبار صلابة الإسلام في تحقيق الحياة الكريمة في النشأتين.

لم يتفهموا عالميّته ولا إنسانيّته حتى اصطدموا بعلماء الإمامية.

فَهِمَ الاستكبار وأذنابه الحُكم والمُلك غنيمة يسعونَ إليها بكل زور وحيلة وشيطنة ولم يتفهموه مسؤوليّة عظمى.

الأحكام والقوانين والجزائيات يضعونها حسب قناعاتهم وأذواقهم واستحساناتهم ولم يستوعبوا أن من حكم بين اثنين في درهم بغير ما أنزل الله فقد كفر[٢٨].

نظروا الحياة بعين من لايرى معها آخرة فعليه أن يأخذ من الدنيا كلّ ما يشتهيه بأقصى ما يستطيعه وبكل وسيلة ممكنة وعيسى عليه السلام فداء لهم.

هذه الدول حاولت حكم العالم الإسلامي مباشرة ففشلت فشلاً ذريعاً فتوسّلت لهذه الغاية بأذنابها شُذّاذ المجتمع ومنبوذيه تفعل فيه ما تُريد.

وَفَقِه الإمام الخميني خطورة الوضع وهول عاقبته وَفَقِه المطلوب منه إسلامياً. فأخلص النيّة. ووطّد عُلقته بالله جَلّ جلاله. واستوعب الإسلام عقيدةً وعلماً وسلوكاً ليتعرف أحكامه بنفسه ويستطلع إرادته عن تمعّن وإذعان. ونفى عن نفسه حبّ الحياة والدنيا، وباع نفسه وكرامته الشخصية لله سبحانه؛ ولا يتم عملٌ

كهذا بالتعلّق بالحياة. بل احرص على الموت توهب لك الحياة.

وكما تصدّى الإمام الحسين عليه السلام لمسؤولياته بعد غياب الإمام المجتبى وسنوح الفرصة وتحقّق شرائط القيام؛ تصدّى الإمام الخميني لمسؤولياته القيادية بعد غياب السيّد البروجردي والسيّد الكاشاني عن الساحة، ومحاولة السلطة انتهاز فرصة غياب القادة لتحقيق مآرب عَسُرَ عليهم تحقيقها بوجودهم، فظهر لها الإمام الخميني وتصدّى لمخططاتها وألاعيبها؛ فكان التُحفة الإلهية والمهدوية للأمّة في الوقت المناسب. فبدأ بالتضحية بنفسه قبل أن يدعو إليها غيره فارتقى المنبر وخطب خُطبه التي أيقظ بها الأمّة والشعب من سُباته وغفلته، وحرّك فيه نخوته وأزاح عنه خور النفس ووهن الجسد، وقرع بخطبه رؤوس أصحاب السلطة فأذهلهم وأدهشهم.

لقد خاطب الأمّة بلهجةٍ قلّما تسمعها وأحيا فيها مفاهيم ومعتقدات بلغ بها الإسلام قمّة المجد ونبت فيه معتقد الإمامية وقامت عليه مدرستهم الحسينية الجهادية وستقوم عليه الدولة المهدية الإلهيّة.

يقول الإمام الخميني:

ياعديمي العقول! أيمكن للإسلام الذي يقول: ﴿وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة﴾ أن يقول لكم اقعدوا حتى تصبحوا فريسةً للآخرين.

أيمكن للإسلام الذي يقول: ﴿واَقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ أن يقول لكم ضعوا يداً على يد واتركوا الآخرين يسيطرون عليكم.

إن الإمام الخميني يجعل أحكام الجهاد والدفاع عن الإسلام والبلاد والعِرض بمكان من البداهة والوضوح بحيث يصف من لم يستوعبه بعديم العقل، بينما يحاول غيره التأمّل في هذه الأحكام ويُعاني لإقامة الدليل عليها وتتداعى عنده صور المواقف.

فالإمام الخميني في أُسلوبه يصدم الأمّة في جهلها وجمودها بأن ما لم يستوعبوه إنّما هو من الوضوح بمكان، بل قامت عليه الدعوة الإسلامية الأولى وسيرة المعصومين وحركة الحسين عليه السلام، وهو منهج جميع الأئمّة عليهم السلام وهو دستور المهدي عجّل الله تعالى له الفرج.

ويُعلن الإمام الخميني ارتباط حركته بل كلّ المسلمين بعلمائهم؛ بحركة الإمام القائد الحسين عليه السلام ـ وأنّ هذه الأمّة هي شيعة أعظم رجل في التأريخ، إنّها من شيعة الرجل الذي سطّر ملحمة عاشوراء العظيمة بنفرٍ قليل من الرجال، تلك الملحمة التي قبرت وإلى الأبد السلالة الأمويّة المجرمة:

«وبعونٍ من الله فإنّ شعبنا العزيز سيواصل نهج الإمام الحسين عليه السلام وسيدفن عبر التضحية بدماء أبنائه السلالة البهلوية الشيطانية في مقبرة التأريخ، وسيرفع راية الإسلام في أرجاء البلاد بل في كلّ البلدان [٢٩].

إن ارتكاب المذابح بحقّ مواكب العزاء الحسيني وصمة عار في جبين الشاه الخائن وأنصاره المحليين والدوليين» [٣٠].

من الأمور المهمّة التي قام بها الإمام الخميني أنّه لم يبق خلف الكواليس يحرّض على الثورة والتظاهر وإسقاط نظام الشاه ويدفع المؤمنين والعلماء إلى الشارع وإلى إعلان التمرّد والسخط على النظام البهلوي العميل، بل بدأ بنفسه ففداها لله سبحانه واعتلى صهوة المنابر وهاجم ذلك النظام وسمّى الأشياء بمسمّياتها، فزوّد الجماهير بوضوح الصورة من جهة تكليفهم الشرعي ومن جهة تحديد العدوّ وكُنه القضية التي سخطوا لها والهدف النهائي لحركتهم الإسلامية.

فتصديه بنفسه علانيةً وعلى أعواد المنابر لمقاومة النظام المجرم وتزويده الأمّة بوضوح الصورة.

ومشاركة أهل بيته وخُلّص طُلّابه وأصحابه في المعركة ضدّ النظام وبذل التضحيات وموافقته على مشاركة المرأة في المعركة ضد النظام [٣١].

وإحياؤه لأيّام الشعائر والمناسبات كعاشوراء والأربعين وغيرهما في مهاجمة النظام، وإيضاحه لحقائق الأحكام، واستشهاده بالآيات والروايات أمام العلماء والجمهور لإنارتهم بحقيقة موقف الإسلام من الأوضاع المعاصرة، مما ساعد على التحام الأمّة به.

كلّ هذي وغيرها تُعيدنا إلى مواقف الإمام القائد الحسين عليه السلام حين تهيئته الأوضاع للثورة ومع إعلانها.

لقد حدّد الإمام الحسين عليه السلام هدفه والغرض من امتناعه عن البيعة ومناهضته

للسلطة؛ بقوله:

«إنّا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا ختم الله، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحترمة، معلنٌ بالفسق ليس له هذه المنزلة، ومثلي لا يُبايع مثله»(٣٢).

وقال عليه السلام: «ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟! ليرغب المؤمن في لقاء ربّه محقاً فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما»(٣٣).

وقال عليه السلام: «تبّاً لكم أيّتها الجماعة وترحاً، أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين»(٣٤).

فجعل عليه السلام سبب نهضته استصراخ المظلومين من جور بني أُمية وطلبهم النُصرة منه.

قال المولى سبحانه: ﴿ومالكم لاتُقاتلون في سبيل الله والمستضعَفين من الرجال والنساء والوِلدان الذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾(٣٥).

وقال عليه السلام: «ألا وإنَّ الدعيَّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين بين السِلّة والذِلّة وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وحجور طَهُرَت وأنوف حميّة ونفوس أبيّة مِنْ أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»(٣٦).

وقال في أواخر كلامه: «أما والله لا أُجيبنّهم إلى شيء ممّا يريدون حتّى ألقى الله تعالى وأنا مخضّبٌ بدمي»(٣٧).

وقال عليه السلام: «لا والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفِرُّ فِرار العبيد»(٣٨).

وقال صلوات الله عليه: «ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحق من غيّر»(٣٩).

وقال عليه السلام لمعاوية: «ولا أعلم نظراً لنفسي وولدي وأُمّة جدّي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أفضل من جهادك فإن فعلته فهو قربة إلى الله عزّوجلّ»(٤٠).

وقال سيّد الشهداء منذراً وواعظاً فيمن لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن

المنكر وخصوصاً العلماء[٤١]:

«اعتبروا أيّها الناس بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائِهِ على الأحبار إذ يقول: ﴿لولا ينهاهم الربّانيون والأحبار عن قولهم الإثم﴾[٤٢]، وقال: ﴿لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل ـ إلى قوله ـ لبئس ما كانوا يفعلون﴾[٤٣] وإنّما عاب الله ذلك عليهم لأنّهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك رغبةً فيما كانوا ينالون منهم ورهبةً ممّا يحذرون والله يقول: ﴿فلا تخشوا الناس واخشونِ﴾[٤٤].

وحينما نُعرّج على الأهداف المتوخاة لحركة الإمام الخميني والتي أعلن عنها في مناسبات عدّة، نجد:

أنّه يستشهد بعدّة من الآيات الكريمة ليحرّض الأمّة على القتال والدفاع عن استقلال البلاد وعن النفس ثمّ يقول: «هذه هي الأوامر الإلهية، هذه هي النداءات الغيبيّة التي أنزلها إليكم إله العالم ليحقّق بها استقلال بلاد المسلمين، وليُقيم صرحاً شامخاً لأُمّة القرآن»[٤٥].

ويخاطب رئيس وزراء الشاه ـ علم ـ: فإنّ تصوّرت أنّ بإمكانك تغيير القَسَم بالقرآن إلى أفستا الزرادشت أو الانجيل وبعض الكتب الضالّة الأخرى لعدّة أيّام مستعيناً بالقوّة والإكراه، وإن تصوّرت أنّك تستطيع أن تلغي رسميّاً القرآن الكريم وهو الكتاب السماوي الوحيد لعدّة ملايين من مسلمي العالم وتعيد عبادة الكهنة، إذا تصوّرت أن بإمكانك ذلك فقد وقعت في خطأٍ كبير، وإن تصوّرت أن إصدارك قانوناً باطلاً مخالفاً للدستور يمكن أن يوجّه ضربةً مدمّرة لأُسس الدستور الذي هو ضمان استقلال البلاد ويفتح الطريق أمام أعداء الإسلام وإيران فقد وقعت في خطأٍ جسيم[٤٦].

ويعترض على أُمور كثيرة تمارسها الدولة؛ منها:

١ ـ الحصانة القانونية للأميركان الموجودين في إيران[٤٧].

٢ ـ تبديل القَسم بالقرآن الكريم إلى أيّ كتاب محترم عند غير المسلمين[٤٨].

٣ ـ إيجاد دور السينما ومراكز الفساد وإشاعة الخمور في مدينة قم المقدّسة[٤٩].

٤ ـ فرض الحظر على إبداء الرأي العام في الصحف[٥٠].

٥ ـ إصدار القوانين المخالفة للإسلام والمذهب الجعفري[٥١].

٦ ـ عدم الاعلان في الصحافة عن إلغاء القوانين المخالفة للإسلام[٥٢].

٧ ـ إهدار أموال الأمّة وتبذير الملايين منها في أُمور تافهة (احتفاليّة) والأمّة تعيش تحت مستوى الفقر ولا عمران ولا خدمات عامّة ولا اكتفاءً ذاتيّاً في البلد زراعيّاً وصناعيّاً حيث يُعَدّ البلد صناعيّاً من بلدان العالم الثالث المتخلّف مع إمكانياته المادية الهائلة ومع إغداقه الأموال على أعداء الأمّة.

٨ ـ تسليم البلاد غنيمة باردة للأميركان والاسرائيليين واعتبارهم الحليف الأوّل لدولة إسلامية شيعيّة مناهضة لكل ظالم فضلاً عن النصارى واليهود وعتاة المستكبرين في العالم.

٩ ـ تأييد اللقيطة إسرائيل ودعمها بالمساعدات والنفط والإعلام والرأي الدولي، في الوقت الذي كان الرأي العام العالمي الحكومي والجماهيري يعتبر إسرائيل عدوّة للإنسانية وللإسلام ودولة عنصرية ممّا أدى إلى تصوّرٍ خاطئ عند بعض عن موقف الشيعة عموماً وعلمائهم بالخصوص من إسرائيل في الوقت الذي يُكافح العرب والمسلمون هذه الدولة المجرمة وفي الوقت الذي كانت إسرائيل تقتل وتُشرّد أهل فلسطين وتحرق المسجد الأقصى وتوسّع رقعتها وتقيم المفاعل النووي في ديمونة.

فموقف الإمام الخميني المتصدي بعنف لهيمنة الاسرائيليين الصهاينة في إيران ولوجودهم في فلسطين جعل الشيعة الإمامية ـ وكما هم دائماً في مثل هذه الحالات ـ في طليعة المسلمين المقاومين للهيمنة الصهيونية على البلاد الإسلامية والعربية وعلى السياسة الدوليّة عبر تغلغلها في مؤسسات الدول الاستكبارية.

١٠ ـ تشويه مقام العلماء وحقيقتهم في وسائل الإعلام أمام الشعب الإيراني ووصفهم بالرجعية والعمالة.

١١ ـ محاولة إيقاع الفتنة بين الشباب الجامعي والحوزات العلمية بتشويه الحوزة للحيلولة دون ارتباط الجامعيين بالعلماء وتأييدهم الثورة وتحوّلهم من شباب طيّع لملذّاته وللسلطة إلى شباب مؤمن رساليّ يخضع لعلماء الأمّة

وتوجيهاتهم.

١٢ ـ بقاء البلد في تخلّف علمي مع كثرة الجامعات وقِدَمها في البلد ومع ذلك فعلاج المريض وإعمار البلد مرهون بالخارج.

والأهمّ والأعظم من كلّ ما تقدّم أن حكومة الطاغوت البهلوي كانت تعمل من أجل هدف ضخم، ألا وهو تمييع الوجود الإسلامي في إيران، وجعل الدين عنواناً وأسماً بلا واقع وجوهر ومفاد في حياة الفرد والمجتمع، وهذا ما يحقّق لهم بقاء مُلك آل البهلوي وبناء المجتمع كما يشاءون وتمرير كلّ رغبة بمسمعٍ ومنظر من عموم الشعب، وتسليم البلاد وخيراتها لقمة سائغة لأميركا. وهذا التمييع لا يتحقّق مع وجود الحوزات العلمية ومع قوّة العلماء الكبيرة في إيران وشدّة الارتباط بين العلماء والشعب الإيراني.

فلابُدّ من تفتيت هذا التكتّل وهذه القوى، وبناء نظام الحياة الغربي على أشلاء مجتمع الإسلام وشيعة أهل البيت عليهم السلام.

وهذا ما حاوله آل البهلوي وحاوله أتاتورك وغيرهم ويحاوله اليوم صدام وكثير من قادة البلدان الإسلامية بدعم وحماية وتوجيه لا نظير لقوّته من طاغوت العالم أميركا وحلفائها الغربيين.

وهذا الخطر الضخم الشامل هو الذي حاربه الإمام الخميني بالاسم وتحاربه الجمهورية الإسلامية في إيران اليوم، وهو واجب العصر لكل المؤمنين والمسلمين بحسب مواقعهم وإمكانياتهم.

وقال الإمام الخميني: على المسلمين التزام الحذر والتحلّي باليقظة والوعي ومراقبة أوضاعهم والمحافظة على مصالح الإسلام، إنّ عليهم أن يرصّوا صفوفهم أكثر فأكثر ليتمكّنوا من قطع أيّة يدٍ قذرة قد تمتدّ إلى مقدّساتهم ـ لاسمح الله ـ[٥٣].

وكان يستصرخ الأعلام: أدركوا الإسلام يا قادة الإسلام، انقذوا الإسلام يا علماء النجف[٥٤].

وقال: إن ديننا هو الدفاع عن الإسلام والاستقلال[٥٥].

وقال: إنّني عازم على المُضيّ لأعرّف النظام الفاسد قَدْرَه وأوقفه عند حدّه أو أَفِد على الله معذوراً[٥٦].

ويؤكّد ارتباط هذه الحركة المباركة بالنهضة الحسينية ويستمدّ منها القوّة ونفاذ البصيرة، ويمدّ بها أنصار الله تعالى: «لقد واجه أئمتنا وقدواتنا مصائب عظيمة كعاشوراء وليلة الحادي عشر من المحرّم.. ما الذي تخافونه اليوم؟ إنّ من يدّعي اتّباع الإمام علي عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام لا يليق به التراجع والتخاذل»(٥٧).

وقال: إن واجبنا هو إعداد أنفسنا لكل هذه الحوادث لنتمكّن من قطع أيدي خونة الإسلام(٥٨).

وقال: التقيّة حرام وكشف الحقيقة واجب ولو بلغ ما بلغ(٥٩).

وقال أيضاً: مادام القلم في يدي فسأكشف للشعب كلّه الممارسات المضادّة لمصالح البلاد(٦٠).

وتحدّث الإمام الخميني عن الظروف التي أحاطت بالأُمّة الإسلامية من جهة الحكّام الفاسدين، فقال:

«الأنانيون والطواغيت جعلوا من القرآن الكريم وسيلة لإقامة حكومات معادية للقرآن، وعمدوا بأعذار مختلفة ومؤامرات مدبّرة سلفاً إلى إقصاء المفسّرين الحقيقيين للقرآن والمطّلعين على حقائقه»(٦١).

وقال رضوان الله تعالى عليه حول مشاركة المرأة في بناء الدولة الإسلامية والدفاع عنها مستشهداً بمواقف عقيلة بني هاشم زينب صلوات الله عليها: «ونحن رأينا كِراراً أن نساء عظيمات يرفعن أصواتهن كزينب عليها سلام الله ويقلن أنّهنّ قدّمنَ أبناءهن وتخلّين عن كلّ عزيز لديهنّ في سبيل الله تعالى والإسلام العزيز، ويفخرن بذلك ويعلمن أنّ ما كسبنه أسمى من جنّات النعيم فكيف بمتاعٍ دنيوي حقير»(٦٢).

وقال (قدّس الله نفسه) في إحياء الشعائر الحسينية: «لا تغفل عن مراسم عزاء الأئمّة الأطهار وبخاصّة سيّد المظلومين والشهداء حضرة أبي عبدالله الحسين صلوات الله الوافرة وصلوات الأنبياء وملائكة الله والصالحين على روحه الحماسية الكبيرة، ولتعلم أن تعاليم الأئمّة عليهم السلام لإحياء هذه الملحمة التأريخية الإسلامية وما ينصبّ من لعن على ظالمي أهل البيت إنّما هو بأجمعه يمثّل صرخة الشعوب البطوليّة في وجه الحكّام الظلمة على مرّ التأريخ وإلى الأبد.

وتعلمون أنّ لعن بني أُمية لعنة الله عليهم والحديث عن ظلمهم ـ مع أنّهم قد انقرضوا وراحوا إلى جهنّم ـ إنّما هو صرخة في وجه ظلمة العالم، وهو إحياء لهذه الصرخة الحسينية المُبيدة للظالمين. ومن اللازم أن تُذكر في النياحة وأشعار الرثاء وقصائد الثناء على أئمّة الحقّ عليهم السلام بشكل قارع فجائع ظلم الظالمين في كلّ عصر ومصر، وفي هذا العصر وهو عصر مظلومية العالم الإسلامي بيد أميركا وروسيا وسائر أتباعهما ومنهم آل سعود خونة الحرم الإلهي لعنة الله وملائكته ورسله عليهم، يجب ذكر ظلمهم بشكل قارع مقرون باللعن. ولنعلم جميعاً أنّ ما يبعث على الوحدة بين المسلمين هو هذه الشعائر السياسية التي تحفظ هوية المسلمين وخاصّة شيعة الأئمّة الاثني عشر عليهم صلوات الله وسلامه»(٦٣).

وقال في بيان ضرورة إقامة الحكومة الإسلامية والتي سعى لإقامتها أبو عبدالله الحسين عليه السلام واقتدى به من بعده الصالحون:

«الدنيا المحذّر منها هي تكديس الثروة والمال والعلوّ في الأرض وانتهاج طريق الطاغوت وبالتالي الدنيا التي تجعل الإنسان غافلاً عن الباري تعالى. أمّا حكومة الحق المقامة لصالح المستضعفين ولمنع الظلم والجور ولإحلال العدالة الاجتماعية فهي التي سعى إليها أمثال سليمان بن داود ونبي الإسلام الأعظم صلّى الله عليه وآله وأوصياؤه الكرام وهي من أعظم الواجبات وإقامتها من أسمى العبادات»(٦٤).

وقال قدس سره عن مظلومية الحسين عليه السلام: «ومسلمو العراق والكوفة فعلوا ما فعلوا بسيّد الشهداء الحسين بن عليّ وأولئك الذين لم يرتكبوا إثم قتله إمّا أنّهم فرّوا من المعركة أو جلسوا حتّى وقعت جريمة التأريخ»(٦٥).

وقال قدس سره ـ ومقاله يُذكّر بما قاله سيّد الشهداء عليه السلام: فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما(٦٦) ـ قال: «لو أننا فنينا عن ظهر البسيطة باليد الآثمة الأميركية والسوفيتية ولقينا ربّنا بدم قانٍ لقاءً مشرّفاً لكان ذلك أفضل من أن تكون لنا حياة مترفة مرفهة تحت راية الجيش الأحمر الشرقي أو الأسود الغربي، وهذه كانت سيرة الأنبياء العظام وأئمّة المسلمين وأعلام الدين المبين، ويجب أن نقتدي بها»(٦٧).

الحيثيّة التي انطلقت منها الثورة الحسينية واقتدت بها الثورات والحركات التي جاءت بعدها هي ـ أن الإسلام في خطر ـ.

فالحسين العظيم خرج على دولة هي في تلك الفترة أقوى وأعتى دولةٍ في العالم، وقوّتها أتت من كونها الدولة الإسلامية الباعثة لروح الإنسانية والتعاليم الربّانية المتعالية في عالم ميّت وثنيّ أخلدت فيه الخرافات وعشّشت في عقول الناس الخزعبلات فمن عابدِ وثن إلى عابد صليب إلى عابد بقرٍ وهلم جرا.

فعظمة هذه الدولة وقوّتها أتت من الإسلام الذي غزت تعاليمه وجيوشه العالم وشادت صرح كيانٍ ما كان للعرب أن ينشئوا مثله في مئاتٍ من السنين.

وما شاد هذا الكيان إلّا قادته المؤمنون به والمضحّون في سبيله، فبدأه رسول الله ﷺ وسار على دربه أتباعه العقائديون يرأسهم سيّد الأوصياء عليه السلام. وقد أحدث رسول الله ﷺ بنهضته المقدّسة موجاً كاسحاً لم يستطع مناوئوه إلّا مجاراته فيه، إلّا أنّهم أهملوا أهدافه وما قامت له هذه النهضة من نشر التوحيد وإيصال الإنسان إلى كماله وتحسين معاشه وتأمين معاده.

إلّا أنّ هذه الدولة عتت على قادتها ومبادئ دينها لوصول أُناس إلى سدّة الحكم لم يتغلغل الإسلام في نفوسهم بل كانوا ولم يزالوا أعدى أعدائه، فما تنتظر منهم وقد تسلّموا زمام الأمور؟!

كفأوا الإسلام على وجهه وعادوا بالناس القهقرى إلى جاهليتهم الأولى فحرّفوا عقائد الإسلام وأحكامه وابتزّوا مقام الأوصياء، وقتلوا وشرّدوا كلّ من يتمسّك بعقيدته ولا ينصاع لتوجيه السلطة الباغية، واشتروا الضمائر وسلّموا المناصب لأراذل الأمّة، فتجد أزنى ثقيف يحكم الكوفة، ومن لا يُعرف له أب حتّى قيل له (ابن أبيه) يحكم البصرة، وعلى هذه الشاكلة فَقِسْ.

وحين خرج سيّد الشهداء ليوجّه لهذه السلطة الضربة الماحقة المزلزلة لأركانها فإنّما خرج على نظام هو أقوى نظام متسلّط في العالم كمن يُحارب في زماننا أميركا المجرمة في عقر دارها مع عظم إمكانيات الدولة وقلّة إمكانيات محاربها إلّا أن الفرق أن الدولة الأموية كانت على حافّة زلزال لموت معاوية ولغيره من الأسباب المتقدّمة. والإمام الخميني قاد ثورته في دولة هي من أقوى دول

المنطقة عسكرياً وأمنياً وتأييداً من الدول الاستكبارية العُظمى.

والقاسم المشترك الذي أرادت الدولة الأموية تحقيقه ويريد طُغاة اليوم تثبيته هو إزاحة أيّة عقبة تعترض سبيل وجودهم وبقاء حكمهم وتمتعهم بالدنيا بأقصى ما يُمكن وفعلهم ما يشاءون بدون حسيب أو رقيب أو مانع؛ وأعظم مانع بل المانع الوحيد هو الإسلام والقرآن والعترة.

فما دام الإسلام في الساحة يوجّه الجماهير فلا بقاء لهم ولا هناء.

الهوامش

١ ـ مقتل الحسين عليه السلام ، ص ١٨٥ ، السيّد عبد الرزاق المُقرّم .

٢ ـ مقتل الحسين عليه السلام ، ص ١٨٥ ، السيّد عبد الرزاق المُقرّم .

٣ ـ الفتح: ٧ .

٤ ـ المدثر: ٣١ .

٥ ـ النمل: ٥٠ ـ ٥٢ .

٦ ـ الدخان: ٢٩ .

٧ ـ تأريخ إيران السياسي المعاصر ، ص ٣٦٥ ، الدكتور سيّدجلال الدين المدني .

٨ ـ طبقاً لما ورد أن سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم رأى بني أُمية ينزون على منبره كما تنزو القردة فساءه هذا فأنزل الله سبحانه: « وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلّا فتنةً للناس والشجرة الملعونة في القرآن » سورة الإسراء: ٦٠ ، راجع تفسير كنز الدقائق للشيخ محمّد المشهدي ج ٥ ص ٥٤٧ ، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ، وتفسير الميزان ج ١٣ ص ١٤٠ وص ١٤٨ .

٩ ـ الإرشاد، الشيخ المفيد ، ج ٢ ص ٧٣ ، فما يُروى عن سلمان المحمّدي رضوان الله تعالى عليه .

١٠ ـ التوبة: ١١١ .

١١ ـ مقتل الحسين عليه السلام ، ص ١٣٩ ، السيّد عبد الرزاق المُقرّم .

١٢ ـ مقتل الحسين عليه السلام ، ص ١٨٥ ، السيّد عبد الرزاق المُقرّم .

١٣ ـ مقتل الحسين عليه السلام ، ص ١٦٦ ، السيّد عبد الرزاق المُقرّم .

١٤ ـ الأنعام: ١٤٩ .

١٥ ـ العنكبوت: ٢ ـ ٣ .

١٦ ـ معجم رجال الحديث ، الإمام الخوئي ، ج ١٨ ص ١٩٣ .

١٧ ـ الدهر: ٨ ـ ١٢ .

١٨ ـ البقره: ٢٤٩ .

١٩ ـ الأنفال: ٦٥ .

٢٠ ـ الاحتجاج ، الشيخ أحمد بن علي الطبرسي ، ج ٢ ص ٥٤٥ .

٢١ ـ تحف العقول ، الحراني، ص ٣٣٢ ؛ والوسائل، الحرّ العاملي ، ج ١٧ ص ٨٤ باختصار ؛ ودرس الحق : في غير نسخة دروس الحق .

٢٢ ـ الوصية ص ٢٧.
٢٣ ـ التوبة : ١١١.
٢٤ ـ نهج البلاغة، ص٥٧ ودُيّث : ذُلّل والصغار والقماءة: التصغير والتحقير والذلّة.
٢٥ ـ التوبة : ٥.
٢٦ ـ الزلزلة : ٧ ـ ٨.
٢٧ ـ الكافي، الشيخ الكليني، ج٧ ص٤٠٤.
٢٨ ـ تأريخ إيران السياسي المعاصر، الدكتور السيّد جلال الدين المدني، ص١٩.
٢٩ ـ المصدر السابق، ص٣٦٥.
٣٠ ـ الوصيّة السياسية للإمام الخميني، ص١١.
٣١ ـ الملهوف، السيّد ابن طاووس، ص٩٨.
٣٢ ـ الملهوف، ص١٣٨.
٣٣ ـ الملهوف، ص١٥٥.
٣٤ ـ النساء : ٧٥.
٣٥ ـ الملهوف، ص١٥٦.
٣٦ ـ الملهوف، ص١٥٨.
٣٧ ـ الإرشاد، الشيخ المفيد، ج٢ ص٩٨.
٣٨ ـ مقتل الحسين عليه السلام، ص١٨٥، السيّد عبد الرزاق المُقرّم.
٣٩ ـ الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج٢ ص٩١.
٤٠ ـ تحف العقول، الشيخ الحراني، ص٢٣٧.
٤١ ـ سورة المائدة، الآية ٦٦.
٤٢ ـ سورة المائدة، الآية ٨١.
٤٣ ـ سورة المائدة، الآية ٤٧.
٤٤ ـ تأريخ إيران، الدكتور المدني، ص٢٠.
٤٥ ـ تأريخ إيران، المدني، ص٣٠.
٤٦ ـ تأريخ إيران، المدني، ص١٤١.
٤٧ ـ تأريخ إيران، المدني، ص٢٩.
٤٨ ـ تأريخ إيران، ص٢١.
٤٩ ـ تأريخ إيران، ص٢٩.

٥٠ ـ تأريخ إيران ، ص ٣٣ .

٥١ ـ تأريخ إيران ، المدني ، ص ٣٦ .

٥٢ ـ تأريخ إيران ، ص ٣٧ وفي الأصل (ويعلن أنّهم) وهو خطأ والصحيح ما أثبتناه .

٥٣ ـ نور الهدى ، ص ١٤ .

٥٤ ـ نور الهدى ، السيّد حميد علم الهدى ، ص ١٢ .

٥٥ ـ نور الهدى ، ص ١٢ .

٥٦ ـ نور الهدى ، ص ١٢ .

٥٧ ـ تأريخ إيران ، ص ٧٢ .

٥٨ ـ تأريخ إيران ، ص ٧٢ .

٥٩ ـ تأريخ إيران ، ص ٧٣ .

٦٠ ـ تأريخ إيران ، ص ٧٣ .

٦١ ـ الوصيّة السياسيّة ، الإمام الخميني ، ص ٩ .

٦٢ ـ الوصيّة السياسيّة ، الإمام الخميني ، ص ١٢ .

٦٣ ـ الوصيّة السياسيّة ، الإمام الخميني ، ص ١٤ .

٦٤ ـ الوصيّة السياسيّة ، الإمام الخميني ، ص ٢٣ .

٦٥ ـ الوصيّة السياسيّة ، الإمام الخميني ، ص ٢٧ .

٦٦ ـ الملهوف ، ص ١٣٨ .

٦٧ ـ الوصيّة السياسيّة ، الإمام الخميني ، ص ٥٨ .

المصادر

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ نهج البلاغة للامام أمير المؤمنين، السيد الرضيّ .

٣ ـ الارشاد ، الشيخ محمّد بن محمّد بن النعمان المفيد .
تحقيق : مؤسسة آل البيت لإحياء التراث .

٤ ـ الملهوف على قتلى الطفوف ، السيّد رضي الدين علي بن موسى بن طاووس . تحقيق : الشيخ فارس تبريزيان الحسّون .

٥ ـ تحف العقول ، الشيخ الحسن بن علي بن شعبة الحراني . صحّحه وعلّق عليه : علي أكبر الغفاري .
٦ ـ الوصيّة السياسية الإلهية ، الإمام الخميني ، انتشارات أُسوة .
٧ ـ فروع الكافي ، الشيخ محمّد بن يعقوب الكليني ، تحقيق : الشيخ محمّد جواد مغنية ، طبعة دار الأضواء ـ لبنان .
٨ ـ تأريخ إيران السياسي المعاصر ، الدكتور سيّد جلال الدين المدني .
٩ ـ نور الهدى : لمحات من حياة الإمام الخميني ، السيّد حميد علم الهدى ، ترجمة : عبدالرضا افتخاري .
١٠ ـ الاحتجاج ، الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي ، الإشراف على التحقيق : الشيخ جعفر السبحاني ، انتشارات أُسوة .
١١ ـ مقتل الحسين عليه‌السلام ، السيّد عبدالرزاق المقرّم .
١٢ ـ معجم رجال الحديث ، الإمام السيّد أبو القاسم الخوئي .
١٣ ـ المنجد في اللغة ، مجموعة من أهل الاختصاص .
١٤ ـ تفسير الميزان ، السيّد محمّدحسين الطباطبائي .
١٥ ـ تفسير كنز الدقائق ، الشيخ محمّد المشهدي .
١٦ ـ وسائل الشيعة ، الشيخ محمّد الحرّ العاملي .

دوافع الشهيد والشهادة

السيّد محمّد حسين مرتضوي

الحمد لله الذي جعل لنا القتل عادة، وأوْسَمَنا تكرّماً بالشهادة، وله المنّة لجعلها كفّارة للذنوب، ومُنسياً بها يوم الحشر للسيّئات والعيوب والصلاة والسلام على خاتم الرسل والأنبياء، وعلى ابن عمّه خيرة الأوصياء وسبطه سيّد الشهداء، وسائر الأئمّة الذين بهم ثبتت الأرض والسماء، واللعنة الدائمة على ظالميهم أشقى مَن في الكون من الأعداء.

أمّا بعد؛ فإنّ موضوع هذه المقالة يدور حول: دوافع الشهيد والشهادة، وهذا يحتاج إلى تمهيد مقدّمة لها ارتباط وثيق بما نحن فيه وهو معرفة المراد من الشهيد؟

جاء في الحديث الشريف أنّ الشهيد: «هو من مات بين يدي نبيّ أو إمام معصوم أو قُتل في جهاد سائغ»[١]. وقيل سُمّي بذلك لأنّ ملائكة الرحمة تشهدُه، فهو شهيد بمعنى مشهود. وقيل لأنّ الله وملائكته شهود له في الجنّة. وقيل لأنّه ممّن يشهد يوم القيامة مع النبيّ ﷺ على الأمم الخالية. وقيل لأنّه لم يمت كأنّه شاهد أي: حاضر، أو لقيامه بشهادة الحق في الله حتّى قُتل، أو لأنّه يشهد ما أعدَّ الله له من الكرامة، وغيره لايشهدها إلى يوم القيامة، فهو فعيل بمعنى فاعل[٢]. ولايبعد كون المراد هو جميع ماذكر أو أكثر لانطباقها عليه.

والشهيد اسم من أسمائه تعالى وهو الذي لايغيب عنه شيء[٣]. وعليه يكون شهيد الإسلام مظهراً لاسم من أسمائه تعالى بناءً على بعض التفاسير الآنفة الذكر.

وعلى كلّ حال فإنّ أهمّ الدوافع التي تبعث الشهيد على الجهاد في سبيل الله والقتال حتّى الرمق الأخير هي:

١ ـ ثمن الشهادة: الجنّة

قال تعالى: ﴿إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلون...﴾[٤].

فأحد الدوافع أن الشهيد يبيع نفسه الزكيّة بجنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمجاهدين في سبيل الله وللمؤمنين المتّقين حيث فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولهذا يشري الحياة الدنيا بالآخرة، قال تعالى: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة...﴾[٥].

٢ ـ الخوف من عذاب الله

قال تعالى: ﴿إلّا تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولاتَضُرّوه شيئاً...﴾[٦].

٣ ـ مرضاة الله

قال تعالى: ﴿ياأيّها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تُلْقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ يُخرجون الرسول وإيّاكم أن تؤمنوا بالله ربّكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي...﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد﴾[٨].

٤ ـ امتثال أمر الله

قال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم...﴾[٩].

وقال أيضاً: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[١٠].

وقال أيضاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار﴾[١١].

فهنا نجد أن دافع القتال والجهاد هو امتثال أمر الله تعالى كما في الصلاة والصوم والحجّ ونحو ذلك.

٥ ـ الغيرة

قال تعالى: ﴿وما لكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها...﴾(١٢).

فهذه الآية الكريمة تثير الغيرة الموجودة عند الإنسان وتجعل القتال لأجل المستضعفين من المسلمين فإنّها تستنهضم وتهيّجهم على قتال الكفّار الذين استضعفوا ذراري المسلمين، ولذا فليغيروا لهم وليتعصّبوا وهذا أمر بادئ ذي بدء ممدوح.

قال سيّد مشايخنا العلّامة الطباطبائيّ﴿ره﴾: بأنّ الإسلام وإن أبطل كلّ نسب وسبب دون الإيمان إلّا أنّه أمضى بعد التلبّس بالإيمان الأنساب والأسباب القومية، فعلى المسلم أن يفدي عن أخيه المسلم المتصل به بالسبب الذي هو الإيمان، وعن أقربائه من رجاله ونسائه وذراريه إذا كانوا على الإسلام فإنّ ذلك يعود بالآخرة إلى سبيل الله دون غيره(١٣).

٦ ـ المظلومية

قال تعالى: ﴿أُذن للذين يُقاتَلون بأنّهم ظُلموا وإنَّ الله على نصرهم لقدير﴾(١٤).

فالقتال نتيجة المظلومية والقهر والاستضعاف أمر سائغ عقلاً وشرعاً بل هو مطلوب لبقاء النسل الإنساني كما سوف يأتي إن شاء الله تعالى.

٧ ـ الحفاظ على مراكز العبادة

قال تعالى: ﴿لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصرُه إن الله لقويّ عزيز﴾(١٥).

فالجهاد يحفظ هذه المراكز العبادية وخاصّة في عصرنا الحاضر حيث نرى في بعض البلدان ـ ونتيجة التخلّي عن هذه الفريضة العظمى أعني الجهاد ـ كيف

تتحوّل بعض المساجد إلى أطلال تستحق الوقوف والبكاء عليها أو معابد أصنام أو مراكز خمر ودعارة وما أشبه ذلك. فكل هذا يجعل الإنسان مشحوذاً للوقوف أمام كل من أراد بهذه المراكز سوءاً.

٨ـ فساد الأرض

قال تعالى: ﴿لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضلٍ على العالمين﴾[١٦].

فالظالم والطاغية يسعى ليفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل لكن المجاهد في سبيل الله يَحوُل دون ذلك ويقاتل لأجل بقاء الحياة الطيّبة على هذه المعمورة.

٩ ـ حبّ الله للمجاهدين

قال تعالى: ﴿إن الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنّهم بنيان مرصوص﴾[١٧].

فبعض المجاهدين يقاتلون في سبيل الله كي يكون محبوباً عند الله، ومن صار محبوباً للذات المقدّسة فإنّ الألطاف والفيوضات الإلهية الخاصّة لاتنقطع عنه وبالتالي يفوز بالدنيا والآخرة.

١٠ ـ الأجر العظيم

قال تعالى: ﴿فضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾[١٨].

١١ ـ الدرجة الرفيعة

قال تعالى: ﴿فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾[١٩].

وقال أيضاً: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾[٢٠].

١٢ـ عدم المساواة بين المجاهد وغيره

قال تعالى: ﴿لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أُولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾[٢١].

فعدم المساواة تدفع ببعض المؤمنين إلى القتال والجهاد للقطع بأن المجاهد أرفع منزلة من المؤمن الضعيف والقاعد.

١٣ـ كون متاع الدنيا قليلاً

قال تعالى: ﴿ياأيّها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّا قليل﴾[٢٢].

١٤ـ هداية سبل الخير

قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[٢٣].

فالإنسان المجاهد في سبيل الله يجعل الله له نوراً يمشي به في الناس ويوم القيامة نوره يسعى بين يديه وله البشرى بأنّ له جنّةً عرضها السماوات والأرض.

١٥ـ الإخراج من الديار والوطن

قال تعالى حاكياً عن بني إسرائيل: ﴿وما لنا ألّا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلمّا كتب عليهم القتال تولّوا إلّا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾[٢٤].

فالإنسان الذي يتمّ إخراجه من أرضه ووطنه لايجد بدّاً من القتال والجهاد كي يسترجع بلده ومسقط رأسه وهذا أمر فطريّ أمضاه الشارع وأكّده، حيث قال تعالى: ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾[٢٥].

١٦ ـ الجهاد لجعل الدين كلّه لله

قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتّى لاتكون فتنة ويكون الدين كلّه لله﴾[٢٦].

١٧ ـ نيل البرّ

قال تعالى: ﴿لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون﴾[٢٧].

وفي الكافي والعياشي عن صادق آل محمّد عليه السلام: لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ماتحبّون قال: هكذا فاقرأها[٢٨]. وعليه فهل يوجد شيء أحبّ للإنسان من مهجته وروحه؟ فعندما ينفقها في سبيل الله وفي ساحات الوغى دفاعاً عن الإسلام والمسلمين فإنّه لا محالة يفوز بأعلى مراتب البرّ عند الله سبحانه وتعالى.

١٨ ـ الخجل من القعود مع النساء والأطفال

قال تعالى: ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوّاً إنكم رضيتم بالقعود أوّل مرّة فاقعدوا مع الخالفين﴾[٢٩].

هذه هي بعض الدوافع التي يمكن أن نستفيدها من القرآن الكريم، ولولا اجتناب الإطالة لسبرناها بشكل مفصّل ليقف كلّ من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد على حقائق الكتاب العزيز الذي لاتنقضي عجائبه ولاتُبلى محاسنه.

وأمّا ما يستفاد من أحاديث أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام حول دوافع الشهيد والشهادة أُمور منها:

١ ـ كون الجهاد أحد مراتب الأمر بالمعروف

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الجهاد أربع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣٠].

٢ ـ كون الجهاد باباً من أبواب الجنّة

قال الإمام عليّ عليه السلام: أمّا بعد: فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه[٣١].

٣ ـ الجهاد وازدياد الإيمان

قال أمير المؤمنين عليه السلام : ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا أعمامنا مايزيدنا ذلك إلّا إيماناً وتسليماً... وجدّاً في جهاد العدوّ(٣٢).

٤ ـ كون الجهاد أفضل مما يتوسّل به المتوسّلون إلى الله

قال مولى الموحّدين علي عليه السلام : إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله(٣٣).

٥ ـ ترك الجهاد يوجب الذلّ والبلاء المذموم

قال سيّد العارفين علي عليه السلام : فمن تركه [الجهاد] رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء(٣٤).

ولهذا قال الإمام الحسين عليه السلام يوم العاشر من محرّم الحرام في خطبةٍ له بأهل الكوفة : ألا وإن الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين بين السِلّة والذلّة وهيهات منّا الذلّة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأُنوف حميّة ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام(٣٥).

ولنعم ما قاله بعضهم:

أَبَتِ الحميّةَ أَنْ تُفارِقَ أَهْلَها   وأَبى العَزيزُ بِأَنْ يَعيشَ ذَليلا(٣٦)

٦ ـ الجهاد رواح إلى الله تعالى

قال قائد الغرّ المحجّلين علي عليه السلام : الجهاد الجهاد عباد الله ألا وإنّي معسكر في يومي هذا، فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج(٣٧).

٧ ـ الجهاد أحد دعائم الإيمان

قال قسيم الجنّة والنار عليّ عليه السلام : الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد(٣٨).

٨ ـ الجهاد لباس التقوى ودرع الله الحصينة

قال حيدر الكرّار عليه السلام في وصف الجهاد: وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنّته الوثيقة[٣٩].

٩ ـ الشهادة رزق الله

قال الأسد الغالب علي بن أبي طالب عليه السلام: اللّهمَّ... فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة[٤٠].

ولهذا قال الإمام الخميني (سلام الله عليه): إنّ الشهادة هديةٌ من الله تبارك وتعالى للذين هم أهلٌ لها[٤١].

١٠ ـ الجهاد عزّ الإسلام

قالت بضعة الرسول فاطمة البتول عليها السلام: فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم... والجهاد عِزّاً للإسلام[٤٢].

١١ ـ الثورة الإسلامية في إيران*

إنّ للثورة الإسلامية في إيران الحقّ والإسلام المحمّدي الأصيل بقيادة الإمام الخميني العظيم (سلام الله عليه) الأثر الكبير والدافع القويّ لقيام مسلمي العالم المجاهدين على حكوماتهم الظالمة، ولهذا تأسّست كثير من الحركات والمنظّمات الإسلامية في العالم لأجل الجهاد في سبيل الله تأسّياً بالشعب الإيراني المسلم المجاهد والثوري بهدف تحقيق عدالة الله سبحانه وتعالى.

هذا غيض من فيض والذي تحصّل إلى هنا أنّ دوافع الشهيد نحو القتال

(*) كتب المؤّلف هذا العنوان في العناوين المستفادة من السنّة المبيّنة لدوافع الشهادة، والحال ان هذا يعدّ دافعاً للشهادة في من يطلب الشهادة في هذا الزمان، فالمؤلّف يريد أن يقول ان الذي يطلب الشهادة الآن في العالم، يمكن أن يكون متأثّراً عمّا حدثت في إيران من الثورة. ولا يخفى أن هذا أوّلاً: ليس مستفاداً من السنّة، وثانياً: لا يعدّ من الدوافع العامّة، والحال ان الموارد المذكورة سابقاً كانت منها.

دوافع متعدّدة وبتعدّدها تتعدّد مراتب الشهادة ومقام الشهيد عند الله، فمن يقاتل مرضاةً لله غير من يقاتل طمعاً في الجنّة أو خوفاً من النار، ولذا كان قتال علي وتضحيات عليّ ابتغاء مرضاة الله لا غير، ولهذا نزل في حقّه قرآن كريم: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾(٤٣).

ثمّ من خلال هذه الدوافع التي ذكرت في القرآن المبين وسُنّة المعصومين ما تجعل المجاهد الحقيقي يفضّل إحدى الحسنيين على الأخرى. فأولياء الله يختارون دائماً الشهادة على النصر. والقرآن الكريم فرّق أيضاً بين هاتين العاقبتين المحمودتين ورجّح الشهادة على النصر بنوع من البلاغة الرائعة حيث قدّم القتل على النصر فقال: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلِب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾(٤٤).

يقول سيّد مشايخنا العلّامة الطباطبائي‌قدس‌سره: قدّم القتل على الغلبة لأنّ ثوابه أجزل وأثبت فإنّ المقاتل الغالب على عدوّ الله وإن كان يُكتب له الأجر العظيم إلّا أنّه على خطر الحبط باقتراف بعض الأعمال الموجبة لحبط الأعمال الصالحة، واستتباع السيئة بعد الحسنة بخلاف القتل إذ لاحياة بعده إلّا حياة الآخرة فالمقتول في سبيل الله يستوفي أجره العظيم حتماً، وأمّا الغالب في سبيل الله فأمره مراعى في استيفاء أجره(٤٥).

ولهذا فقد كان الأئمّة عليهم‌السلام يسألون الله تعالى دائماً الشهادة لأنّها الفوز العظيم والأجر الجسيم. فقد كان دعاء أمير المؤمنين عليه‌السلام هكذا: نسأل الله منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقة الأنبياء(٤٦).

وهكذا يقول في كتابه لمالك الأشتر رضوان الله عليه: وأنا أسأل الله بسعة رحمته... وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة(٤٧).

ثم يقول في مكان آخر: والله لولا رجائي الشهادة عند لقائي العدوّ ولو قد حمّ لي لقاؤه لقرّبت ركابه ثمّ شخصت عنكم فلا أطلبكم ما اختلف جنوب وشمال(٤٨).

ويقول أيضاً: فوالله لولا طمعي عند لقائي عدوّي في الشهادة... لأحببت ألّا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً(٤٩).

وقال يوماً للرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: يارسول الله، أوليس قد قلتَ لي يوم أُحُد

حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت عنّي الشهادة، فشقّ ذلك عليَّ فقلت لي: أبشر، فإنّ الشهادة من ورائك؟

فقال لي: إنّ ذلك لكذلك فكيف صبرك إذن؟ فقلت: يارسول الله، ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر(٥٠).

وجاء في دعاء للإمام زين العابدين عليه السلام: وأسألك ببسم الله الرحمن الرحيم أن تجعل اسمي في هذا اليوم الشريف من السعداء، وروحي مع الشهداء وعملي مقبولاً وحسناتي في عليّين وذنوبي مغفورة ياربّ العالمين(٥١).

ولهذا نجده في مكان آخر يسأل الله تعالى أن تكون وفاته قتلاً في سبيله فيقول: وأسألك أن تصلّي على محمّد وآل محمّد وأن تجعل وفاتي قتلاً في سبيلك مع أوليائك تحت راية الحقّ من أهل بيت نبيّك محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وآله(٥٢).

إذن من لم يحبّ القتال لايحبّ الشهادة ومن لم يحبّ الشهادة لايحبّ لقاء الله ومن لم يحبّ لقاء الله فإنّه ينادى من مكان بعيد.

أعاذنا الله وإيّاكم من ضعف الهمم وكفران النعم وجعلنا وإيّاكم على الصراط المستقيم وللشهادة محبّين والحمد لله ربّ العالمين.

الهوامش والمراجع

١ـ مجمع البحرين ، مادة : شهد .

٢ـ المصدر نفسه السابق .

٣ـ أُنظر كتاب التوحيد للصدوق رحمه الله ص٢٠٧ ، باب أسماء الله تعالى ، والقواعد الفقهيّة للشهيد الأوّل رحمه الله ج٢ ص١٧١ ، وروح الأرواح في شرح أسماء الملك الفتاح للسمعاني ص٤٢٩ .

٤ـ التوبة : ١١١ .

٥ـ النساء : ٧٤ .

٦ـ التوبة : ٣٩ .

٧ـ الممتحنة : ١ .

٨ـ البقرة : ٢٠٧ .

٩ـ البقرة : ١٩٠ .

١٠ـ النساء : ٧٦ .

١١ـ التوبة : ١٢٣ .

١٢ـ النساء : ٧٥ .

١٣ـ تفسير الميزان ج٤ ص٤١٩ .

١٤ـ الحج : ٣٩ .

١٥ـ الحج : ٤٠ .

١٦ـ البقرة : ٢٥١ .

١٧ـ الصف : ٤ .

١٨ـ النساء : ٩٥ .

١٩ـ النساء : ٩٥ .

٢٠ـ التوبة : ٢٠ .

٢١ـ النساء : ٩٥ .

٢٢ـ التوبة : ٣٨ .

٢٣ـ العنكبوت : ٦٩ .

٢٤ـ البقرة : ٢٤٦ .

٢٥ ـ البقرة : ١٩١ .

٢٦ ـ الأنفال : ٣٩ .

٢٧ ـ آل عمران : ٩٢ .

٢٨ ـ تفسير الصافي ص٨٧ ط حجرية .

٢٩ ـ التوبة : ٨٣ .

٣٠ ـ نهج الفصاحة ص ٢٨١ ، وروي أيضاً عن علي عليه السلام في نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣١ .

٣١ ـ نهج البلاغة ، الخطبة ٢٧ .

٣٢ ـ نهج البلاغة ، الخطبة ٥٦ .

٣٣ ـ نهج البلاغة ، الخطبة ١١٠ .

٣٤ ـ نهج البلاغة ، الخطبة ٢٧ .

٣٥ ـ نفس المهموم ، ص٢٤٧ .

٣٦ ـ عُشّاق الرحمن وسادة الجنان ، ص٤٨ .

٣٧ ـ نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٢ .

٣٨ ـ نهج البلاغة ، قصار الحكم ٣١ .

٣٩ ـ نهج البلاغة ، الخطبة ٢٧ .

٤٠ ـ نهج البلاغة ، الخطبة ١٧١ .

٤١ ـ عشّاق الرحمن وسادة الجنان ، ص ٤٤ .

٤٢ ـ نهج الحياة ، ص١٠٢ . وروي هذا عن علي عليه السلام في النهج ، قصار الحكم، ص٢٥٢ .

٤٣ ـ البقرة : ٢٠٧ .

٤٤ ـ النساء : ٧٤ .

٤٥ ـ تفسير الميزان ج ٥ ص٤١٩ .

٤٦ ـ نهج البلاغة ، الخطبة ٢٣ .

٤٧ ـ نهج البلاغة ، الكتاب ٥٣ ، سطر ١٥٥ و ١٥٦ .

٤٨ ـ نهج البلاغة ، الخطبة ١١٩ .

٤٩ ـ نهج البلاغة ، الكتاب ٣٥ .

٥٠ ـ نهج البلاغة ، الخطبة ١٥٦ .

٥١ ـ الصحيفة السجّادية ، دعاء ٢١ ، من شهر رمضان المبارك ، ص ٢٦٤ .

٥٢ ـ الصحيفة السجّادية ، دعاء ١٩ ، من شهر رمضان المبارك ، ص ٢٦٢ .

ارتباط مباني الإمام وآرائه الأخلاقيّة والعرفانيّة بعاشوراء

وسام الخطاوي

الحمد لله الذي أظهر دينه بالثار وأنار سبيله بـالأمـام، حـمداً يـدوم مـادامت الأنوار وانجلى بالحق غياهب الظلام، والصلاة على مشعل الحرية الموقود، وعلى آله مصباح النور، وبدمائهم هتفت أهل الثغور.

السلام على الإمام الثائر، والقائد الكبير، نبراس الحرية في متاهات الطرق، روح الله وروحه الأعظم العارف الأوحد الإمام الخميني، مادام نور وحقّ.

الانطلاق والتحرّك الثوري الروحي له مناشئ تؤدي به إلى مسـالك وطـرق ومزالق وكثيراً ما يخالطه اغتشاش فكري وروحي، لذلك كان سلوك هذا الوادي فيه عقبات وزلّات غير محمودة فترى كبار الثائرين أحجموا عن الخوض فيه. هذا مـن ناحية.

ومن ناحية أخرى بعد تجاوز هذه العقبة تأتي أخرى لاتقلّ عنها أهمّية وهي اختيار الطريق لهذا التحرّك الثوري.

يُنقل عن السيّد الشهيد الصدرﷺ أنّه قال: «أكبر عقبة تواجه القائد هي عدم إطاعة الأمّة له»، فترى المصلحين لم يـلاقوا ذلك التـعاطف مـن أُمـمهم لانـطلاقهم الثوري فبقت أفكارهم عقيمة وأيديهم قاصرة عن نيل ما زرعوه في أذهانهم وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه حتّى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثمّ صـرفكم عـنهم ليـبتليكم ولقـد عـفا عـنكم والله ذو فـضل عـلىٰ المؤمنين﴾[1].

فأخذ روّاد التحرّك يرفعون قدماً ويؤخّروا أخرى، ينطلقون من مبنى ويختارون آخر، ويعقدون على عزم ويتاه بهم سبيله، يؤسسون بناء وتنهار بعض قوائمه. فورث الصغير مرارة الكبير ورأى هذا سلوك ذلك اتخذه مسيراً في حياته فأخذ الانهيار يستوي على جميع الهياكل والأركان، وأخذ اليأس يدبّ في صميم الأمّة، وأخذت الفجوة تكبر والجرح يلتهب والروح تنهار ومابقيت من أُصول الجهاد الثوري إلّا خواطر لسمر ليالي الشتاء الباردة.

وأخطر من ذلك هو ما دبّ في صميم قلب الأمّة وهو صعوبة هذا الأمر واستحالة تحقّقه وإلباسه بلباس التحقّق والفعليّة.

فأخذت هذه الجرثومة تستحكم واستولى الظلام على جميع العصور، وإن أخذت تبرق بعض البوارق لكن سرعان ما واجهت هذا الجرثوم ودبّ في صعيدها وروحها فخمدت في مهدها.

الفقيه العارف والثائر المجاهد

إضافة إلى ما تقدّم، حصل انكماش وتراجع واضح في حجم ومساحة النشاط العرفاني حيث غلب على أهل الطريقة والسلوك ابتعادهم عن مجريات الحياة فضلاً عن الجهاد الثوري بهدف الخروج من هذه الساحة منتصراً، حيث إنّ العارف رهين روحه ونفسه يجاهدها ويلجمها ليفوز بالمقامات الكشفية وإظهار أنوار الخفايا الملكوتيّة.

وإن خرج من هذا القانون ممّن يعتدّ به من أهل الله فترى الثائر المجاهد جمال الدين الأسد آبادي الذي نفث من جسد الأمّة الإسلامية روح الثورة والمقاومة والنهوض يخرج من مدرسة العارف الصوفي المولى الشيخ حسين قلي الهمداني (رضوان الله عليه) الذي كان مدرسة روحية كبيرة وعميد مشايخ التصوّف في الحقبة الأخيرة وقد خرجت من مدرسته جهابذة هذا الفن كالعارف ميرزا جواد الملكي التبريزي رحمه الله صاحب المراقبات وأسرار الصلاة وهذا هو الذي تأثّر به الإمام الخميني قدس سره ونال من مشربه وسيأتي مزيد ذلك.

ولكن بعد تحرّك العارف الكبير الإمام الخميني قدس سره ضد الاستكبار انطلق

النشاط العرفاني لروّاد المعرفة والسلوك ليكون لهم أُسوة في التحرّك.

ولذلك يقول العلّامة المجاهد السيّد محمّد حسين فضل الله (حفظه الله): وفي ضوء ذلك لم يكن العرفان لديه [الإمام الخميني] استغراقاً في الله بحيث ينسى الحياة... [بل] بالانفتاح على كلّ آفاق المسؤوليّة التي تحدّد له وجوده إنساناً مسؤولاً عن الإنسان والحياة فيما أراد الله لهما أن يكونا على الخطّ الذي يحبّه ولم يفهم التذكّر بالمعنى الجامد نفسه الذي ينغلق فيه الإنسان على المعنى الذاتي في روحيّته التي تجعله يهرب من التجربة الحيّة التي تدفعه إلى الاقتراب من المواقع المحرّمة في الحياة ثمّ يعبّر عن ذلك بالعزلة عن الناس وعن المسؤوليّة وعن كلّ المشاكل الإنسانية الكبيرة التي تحاصر الإنسان في حياته الخاصّة والعامّة كما يفعله الكثيرون من العرفانيين الذين استغرقوا في الجانب الفلسفي للعرفان(٢).

فالأفكار التي كانت تدور حول اقتصار حركة مشايخ التصوّف على الأبعاد الروحية والأخلاقية والكشفية في داخل إطارات ضيّقة قد تزلزلت وضعفت عند تحرّك هذا العارف كثيراً حتى بدأ المجتمع ينتقد هذا الدور الضيّق والاقتصار عليه:

وقد نبّه الإمام‬ﷺ على ذلك وأشار إلى ذلك الخطر مراراً وتكراراً، يقول‬ﷺ: «لكن الأعداء أظهروا الإسلام بغير هذا المظهر فقد رسموا له صورة مشوّهة في أذهان العامّة من الناس وغرسوها حتّى في المجامع العلمية وكان هدفهم من وراء ذلك إخماد جذوته وتضييع طابعه الثوري الحيوي حتّى لايفكّر المسلمون فيالسعي لتحرير أنفسهم وتنفيذ أحكام دينهم كلّها عن طريق تأسيس حكومة تضمن لهم سعادتهم في ظل حياة إنسانية كريمة.

فقالوا عن الإسلام أنّه لا علاقة له بتنظيم الحياة والمجتمع أو تأسيس حكومة ومن أي نوع بل هو يعنى فقط بأحكام الحيض والنفاس شيئاً ومن المؤسف أن تكون لهذا كلّه آثاره السيئة ليس في نفوس عامّة الناس فحسب بل لدى الجامعيين وطلبة العلوم الدينية أيضاً فهم يخطئون فهمه ويجهلونه حتّى لقد عاد بينهم غريباً(٣).

ويقول أيضاً:

ولكن الأجانب وسوسوا في صدور الناس والمثقفين منهم خاصّة بأن

الإسلام لايملك شيئاً.

الإسلام عبارة عن مجموعة أحكام الحيض والنفاس، وطلبة العلوم الدينية لايتجاوزون في تخصّصهم هذه المواضيع.

صحيح أن بعض الطلبة لايهتمّ بأكثر من هذا وهم مقصّرون وفي هذا ما يعين الأعداء أحياناً على نيل مقاصدهم وفي هذا مايدعو إلى ابتهاج المستعمرين الذين عملوا منذ مئات السنين على غرس بذور الإهمال في مجامعنا العلمية وصولاً إلى أهدافهم فينا وفي ثرواتنا وخيرات بلادنا(٤).

فالإمام الخميني﷯ هو النموذج الأمثل للعارف السالك المتكامل في جميع سيره السلوكي.

وهذا التكامل ميزة يتفرّد به هذا العارف عمّن سواه من العرفاء الذين عرفهم التاريخ الإسلامي أو مشايخ وروّاد الإصلاح الاجتماعي.

مضافاً إلى مميّزات أكملت هذه الجوانب كان لها الشرعيّة في نهضته المباركة وإضافة إلى تلك الخصوصيات، كان الموقف الشرعي بالنسبة له مكمّلاً للجوانب الأولى التي يتمتّع بها خلال تحرّكه ونهضته المباركة.

كان الفقيه (حسب العرف السائد) له الناحية التكليفية في حياة مقلّديه ولايتجاوز عمله إلّا الإفتاء وبعض الأمور التقديسية التي لم تكن محطّ نظر الرسالة العالمية الإلهية.

وإذا قارنّا ذلك بالأئمّة الهداة من أهل البيت عليهم السلام وصاحب ثورة الطف على وجه التحديد، سنجد أن سيّد الشهداء عليه السلام لم ينظر في إدارته للمجتمع مجرّد الجانب التشريعي ـ بمعنى الإفتاء ـ فقط بل إنّه كان صاحب الموقف الروحي لصحبه وشيعته، وبهذا الشكل استطاع أن يربّي ثلّة من الأصحاب المثاليين في تاريخ وعالم الجهاد والتضحية، وهكذا لم تكن مؤهّلات ومميّزات الإمام الخميني﷯ محصورة بالجانب الفقهي من شخصيته بل تعدتها إلى أبعد من ذلك في تأثيره على مريديه بما يشبه ما يسمّى بالكريزما حسب المصطلح السياسي الحديث.

وفي هذا الصدد، يصف السيّد محمّد حسين فضل الله شخصيّة الإمام الإلهية، فيقول:

وهذه هي الميزة البارزة في شخصيّته التي استطاعت أن تجعل ملامحها الداخليّة الخارجية وحدة في الفكر والسلوك على أساس وحدة الخط الإسلامي الذي لايبتعد فيه العرفان عن الشرعية بل ينفذ إليها ليزيدها عمقاً في الحركة ولاتتجمّد الشريعة لديه في نطاق فردي بل تنطلق لتشمل الحياة كلّها بأبعادها العامّة والخاصّة في جميع المجالات(٥). ولذلك ترى الكرامات له على لسان أُمّته والعشق الشديد له، فتراهم يمسحون لباسهم وأبدانهم بجسده المبارك وعندما ينطلق بكلماته العرفانية كيف يتوجّهون ويتأثّرون بهذه الكلمات.

أقول صريحاً لولا أن الإمام الخميني أصبح الكلمة الوجودية لحديث (يقول للشيء كن فيكون) لم يكن له هذا التأثير الملكوتي والتصرّف في العالم وفي النفوس وله التأثير العجيب.

يقول الدكتور ولايتي: إنّ أحد الدبلوماسيين كان يقول: إنّي التقيت برؤساء العالم وعندما دخلت على الإمام الخميني أخذتني الرهبة ولم أعرف ما أصابني.

فهو الجامع بين المرجعية الدينية العليا في الفتوى والتقليد وقيادة الأمّة والثورة والدولة وبين سلوكه العرفاني النظري والعلمي.

وكل هذه الخصال يتمّم بعضها الآخر وهي بمجموعها كلٌّ لايتجزأ يسير بسير واحد وينحو بأسلوب فارد.

وقد كان هذا العارف صائب النظر في سيره النظري العرفاني حيث أخذ يبثّ هذا السير الملكوتي وتراه يشيد هذا المسلك بحواشيه على مصباح الانس وفصول الحكم ومصباح الهداية وبين سلوكه العملي العرفاني بكتابه آداب الصلاة ومعراج السالكين وخطبه البليغة.

أُنظر مرّة أخرى إلى الإطار العام والهيكل المجموعي لكلامه تراه مصبّه العرفان العملي والأخلاق وقد يتطرّق إلى العرفان النظري قبله، وما كان يريد إلّا أن يحفظ هذا الارتباط الروحي.

وهناك مشاعر الشعب الإيراني حيث كانت أنفاسهم تصبّ مصبّ فكره وأخذ المقاتلون في جبهات القتال تدوي هذه الأفكار بينهم، وهذا واضح لمن عاش تلك الأيّام وجال خلال الديار.

هذا النهج الفريد وهذه الاستفادة من هذا المسلك الملكوتي ليس شرعاً جديداً ولا رأياً مبتدعاً لم يعرفه بعض مشايخ هذا الطريق لكن نرى أنّهم في السابق استفادوا منه في خلال مجالات ضيّقة وأُفق ضئيلة تراهم يقتصرون على تربية نخبة من طلّاب الحوزة وجلسات مخصوصة وقد تعمّم في بعض الأحيان كما في خطب المرحوم السيد علي التستري وآخرين، ولكن هذا واجه الفناء ولعدم حركته الجذرية.

هؤلاء كانت طاقاتهم محدودة ونظراتهم قريبة وإن كانت هناك لهم مبرّرات قد لاتخلو من ضيق الأفق.

وعارفنا الأوحد الإمام الخميني استغلّ هذا الجانب بنحو أوسع وعمّمه على جميع قطّاعات الأمّة الإسلامية ورآه خير سبيل لقدح هذا الضوء الخافت.

وقد استعمل هذا الأسلوبَ للقوّة التي رآها في ارتباط المريدين بالشيخ بحيث تفوق حدّ التصوّر والخيال فوضعه عاملاً مؤثّراً في حركته الثورية.

لأنّ هذه العلاقة والانجذاب كانت منهجاً يسير عليه مشايخ التصوّف وأهل الله وكان يشترط عليهم أن لايسير المريد إلّا بأن يضع شيخه مناهج الطرق له ويوضح له معالمه وينير له الطريق بنبراس المعرفة والسلوك.

علاقة المريد لاتتجاوز حدود حق الاستاذ بل هو يفديه بحياته ويمسح نعليه بذوابته ويتبعه متابعة الفصيل لأُمّه لما يرى فيه من عطف ومحبّة وكونه يريد به السير من عوالم تفوق تصوّره وخياله لا أن يغذي عقله ووهمه بل يسمو به إلى عالم السموّ وحاق النور والوجود.

استغل سيّدنا الإمام هذا المنهج وجعله أوّل تحرّكه وسيره الجهادي واستفاد من هذا النحو بأحسن أُسلوب.

أراد أن لايهمل هذا المنهج وأن لايكون تعليماً بحتاً، أراد أن لاتضيع جهود مشايخه وإن كانت ضيّقة.

فلذلك أخذ يحشّد قواه في هذا المجال حيث شرع بدرس العرفان النظري والعملي والأخلاق على مشايخ لهم الوزن الثقيل في هذا الطريق فأخذ يدرس العرفان النظري كالفصوص والمصباح على شيخه العارف الشاه آبادي۞ ولم

يكتفِ بذلك بل علّق على آرائهم وكانت له نظرة في هذا المسلك. فاتّضحت له معالم هذا العنصر وكشف الغموض عن جوانبه وعرف أساليبه وأُسسه.

فالإمام العارف انتهج في حياته هذا المنهج لتشير هذا الطريق وتوضيح معالمه وجلب أنظار أُمّته إليه لتأشير بهم سبيل الحقّ ويخرق أكبر الحواجز والعقبات.

إذن كشف ذلك بطرق:

منها دراسته على مشايخ أهل الله كما تقدّم.

ومنها إبداء أنظاره العرفانية على الصعيدين النظري والعملي.

ومنها إبداء المنهجين السابقين في حياته الزهدية وحياته البسيطة حيث بيته في خمين وحياته في النجف التقشفية وتعامله الأخلاقي حتّى مع أبعد مناوئيه وبعد الانقلاب بيته في جماران الذي لم يتغيّر حتّى آخر أنفاسه القدسية، كلّ ذلك أثّر أثره. وأعطى الزخم لهذا العامل المهم.

فترى السيّد أحمد الخمينيﷺ يعرض ممتلكاته فما هي إلّا ما كانت إلا لأقلّ أفراد الأمّة الإسلامية.

ومنها خطبه العرفانية، فالصيغة العامّة لخطبه كان طابعها العرفان ومنهجها السلوك الروحي لدعم هذا المنهج التربوي.

فهذا المنهج بالحقيقة ليس مستحدثاً في هذا المسلك بل ليس مستحدثاً في الإسلام المحمّدي الأصيل، وإنّما له جذوره في صعيد مشايخ السير والسلوك كالشيخ الصوفي نجم الدين كبرى الذي استشهد في جمع مريده من أهل السير والسلوك.

وكذلك هو منهج أهل البيت عليهم السلام سادة الزهد والأخلاق والادلاء على الحق خصوصاً قائد الثوّار سيّد الشهداء عليه السلام، فكلّهم سفن النجاة وسفينة الحسين أوسع وكلّهم باب الله وباب الحسين أوسع.

إن نهضة الإمام الخمينيﷺ المباركة الروحية والإنجازات الفريدة التي حقّقها لاتزال مباركة وتكون نبراس يضيئ في هذا المنهج لمن أراد أن يقود الأمّة الإسلامية.

فاستطاع إمامنا الخميني أن يحدث تطوّراً وصحوةً في الفكر العرفاني العملي وأن يطلق حركته نحو الأمام ويحرّره من كثير من القيود والأغلال التي كانت تكبّله ويفتح له آفاقاً واسعة نحو بناء المستقبل الإسلامي في ظل الحكومة الإسلامية ومعرفة أبعاد هذا الأمر المهمّ بسلوكه العرفاني خلال دراسة الظروف العرفانية للحوزة العلمية وبالخصوص حوزة قم العرفانية وهي التي كان ينظر إليها بأنّها أكبر قادة لدراسة مشارب العرفان والفلسفة عكس حوزة النجف التي انطفى هذا المصباح فيها ـ مع الأسف ـ لعدم اعتنائها بهذه العلوم الفريدة، ولذلك ترى المواجهة الشديدة في حوزتها وقلّة الأساتذة المختصين إلّا على صعيد بعض الكتب كالتجرّد والمنظومة، وهي مبادي فلسفية فضلاً عن أن تكون أسفاراً عرفانية.

بخلاف حوزة قم وطهران فهي حاضنة أعمدة العرفان كالمرحوم الشاه آبادي والميرزا أبي الحسن القزويني والفاضل التوني والمرحوم الاشتياني جهابذة هذا الفن وخريتيّ الصناعة في هذه الأنوار، الذين لهم الدور في بلورة المدارس النظرية السلوكية والعرفانية.

هذه الحقبة الزمنية من المرحوم محمّد رضا القمشي وتلميذه الميرزا هاشم الاشكوري وحتى مشايخنا أرباب السير والسلوك هي نهضة روحية كان لها الأثر الكبير على صيقلة الحوزة القمّية ولها التأثير البالغ لتجميع الهمم لثورة روحية كبرى ظهرت على يد إمامنا الخمينيؒ فيما بعد.

فأخذ أرباب هذا الفن بدراسة هذه المباحث والتعمّق فيها، فأخذت تترونق وتزدهر حتّى وصلت إلى أعلى القمم بيد عارفها الكمّلي إمامنا الخميني طيّب الله تربته. فيحقّ لنا التساؤل عن أبعاد التغيير التي أحدثها الإمام الخميني (سقى الله تربته الأنوار) عن الفكر العرفاني العملي لقلب هذا النكوس فيالقلوب.

ولنذكر بعضها:

١ ـ تطوير نظرية العرفان النظري للتغير الاجتماعي

من أهم وأبرز إشكاليات الفكر العرفاني الشيعي بل الإسلامي منهجية التغيير الحوزوي والاجتماعي في المجتمع، وليس التيار الشيعي الذي يعاني من هذه

الإشكاليّة فحسب بل حتّى التيّار الإسلامي على صعيد المذاهب الإسلامية (مع كثرة تنظراته في هذا الحقل بالذات) يواجه هذه الإشكاليّة لرفع المستوى الروحي.

يبقى هذا الثغر واسعاً وتبقى الوسائل عقيمة لسدّ هذا الفج من روّاد هذا الفن للإصلاح الاجتماعي في جميع طبقاته.

وقبل انتصار الثورة وإعلان الإمام الخميني تحرّكه الثوري العرفاني كان الغموض والإبهام على طريقة السلوك في العرفان النظري والعملي مشهودة وإن لم تكن تتجلّى بصورة كليّة لعدم وضع خطّة جذرية لهذا التغير الروحي.

ولكن بتحرّك عارفها السلوكي أخذت القواعد العرفانية السلوكية تتبلور وتنضج لنظرية التغيير في جميع أبعاد التحرّك الإسلامي الروحي من أنحاء المعمورة.

ولا نغالي إن قلنا إن الأعمدة الروحية بجميع العالم الإسلامي أخذت تستفيد من هذا التحرّك الفريد وهذا واضح لمن سبر المجلّات والصحف التي انتشرت وكانت تشرح الحياة الزهدية للإمام الخميني‌ﷺ.

وكان من الضروري دراسة وتحليل هذا المنهج التربوي ومعالم آثاره وكيفية سلوكه وكيف وضع الإمام الخميني هذا المنهج وشرح لهذا العنصر الذي كان غامضاً في كيان مشايخه الكبار أهل السلوك وتوضيح بعض التفاصيل والجزئيات الأساسية على ضوء تحرّك الإمام الخميني باعتبارها تجربة حيّة ناجحة وخطّ مهم يمكن بلورته في جميع العصور المتتالية:

فالإمام الخميني‌ﷺ في نظريته الروحية العرفانية لتغيير نفوس أُمّته واجه عدّة إشكالات في سيره ـ كما يأتي ـ.

ولكن كيفيّة طرحه لهذا المنهج الروحي تجلّت في إحاطته العلمية والعمليّة لأن إشباع الأمّة بهذا الفكر بحاجة إلى دراسة في حياته وسيرها ودراسة في الفكر العرفاني الصوفي الإسلامي لكي نتوصّل إلى نظرية واضحة في المعالم في عملية إدارة الثورات وقيادة الشعوب المسلمة نحو النهضة الإصلاحية بهذا العنصر.

ولاشك أن هذه النهضة الرائدة العرفانية التي بدأت بالإمام العارف هي الكمال في ذروتها السلوكية.

٢ ـ العرفاء والفلاسفة والحكم الإسلامي

مسألة إدارة المجتمع الإسلامي وقيادة الأمّة الإسلامية هي الإشكال الأساسي في المسلك العرفاني على جميع العصور.

فهذا السلوك بحاجة إلى تطوير أفكاره وطرقه السلوكية خلال الفترة المتأخّرة. ومن المؤسف أن الحركات الإصلاحية قبل الإمام الخميني كانت لها تصوّرات جزئية جذرية في هذا المضمار لكن سرعان ماواجهت تيّاراً من المواجهة الحوزوية وكلّما كانت الحوزة بعيدة من مسالك العرفان أخذ التحدي يزداد والقبح يتعمّق وأخذ الفاصل يتّسع.

روّاد الإصلاح وسيرهم الفلسفي والعرفاني

نرى المصلحين مع غضّ النظر عن عقائدهم ونيّاتهم ـ يتمسّكون بمبدأ السلوك لتوخيهم فيه الحلّ الثوري.

فنرى محمّد بن عبدالوهاب يرحل إلى أصفهان (فإنّها معهد الحكمة المشائية والإشراقية وكانت من أكبر مدارس الحكمة المتعالية) ويدرس فلسفة الإشراق والتصوّف على روّادها ليستفيد منه فيما بعد لوضع مذهب جديد. ولذلك اختار لنفسه ولاتباعه اسم «الموحّدين» وأما اسم الوهابية فهو اسم أطلقه عليهم خصومهم واستعمله الأوربيون ثمّ جرى على الألسن[٦].

ونرى المصلح الآخر السيّد جمال الدين الأفغاني يرمي إلى إصلاح العقول والنفوس أوّلاً ثمّ إصلاح الحكومة ثانياً.

فبدأ بدراسته الواسعة في الفلسفة الإسلامية والتصوّف ودروسه في الهند الرياضة على الطريقة العصرية.

فغرس بذور نهضته السلوكية بدروسه في بيته بمصر فكان يلقيها على أمثال الشيخ محمّد عبده والشيخ عبدالكريم سلمان والشيخ إبراهيم اللقاني والشيخ سعد زغلول والشيخ إبراهيم الهلباوي.

كان أكثر الكتب التي قرأها لهؤلاء وأمثالهم كتب منطق وفلسفة وتصوّف مثل كتاب الزوراء للدواني وشرح القطب على الشمسية في المنطق والهداية والإشارات

وحكمة العين وحكمة الإشراق في الفلسفة والإشراقية والمشائية(٧).

لقاءات المرحوم السيّد جمال الدين أسد آبادي مع المرحوم النائيني؟ وعدم التوافق بينهما إشارة في هذا المجال لابدّ من دراسة لهذا الاختلاف ومنحى كيانه الثقافي.

المرحوم السيّد جمال الدين من روّاد المعرفة السلوكية فطالما قرأ كتب العرفان والتصوّف واستذوق مافيها، ففي كلام له مخاطباً لهذه الكتب في مكتبته:

ياحكمة الاشراق وياحكمة المشرقية... طالما قرأتكن وحفظت مطالبكن ورجعت إليكن.

هذا المسلك يسريه في مصر للشيخ محمّد عبده وغيره وترى ذلك بادياً في سلوك الشيخ محمّد عبده وأتباعه ومدرسته فيما بعد ذلك بنحو من الاختلاف.

ومن المؤكّد أن السيّد الأسدآبادي أراد أن يحرّك هنا الاتجاه لعمله الثوري ولكن هناك عوامل كان فاقداً لها لم تؤهّله لأن يستمر بهذا الاتجاه.

وأهم عامل واجهه هو أن قيادة الأمّة الشرعية كانت بيد أعاظم الحوزة النجفية كالمرحوم النائيني والعراقي والأصفهاني وغيرهم وكان مسير هؤلاء واضحاً في عدم تحرّكهم السياسي والثوري.

وهذا الذي فهمناه هو ما توصل إليه الاستاذ أحمد أمين لكنه لم يجل نقطة السرّ هذه حيث قال:

«ويظهر لي أن هذه الكتب [أي الكتب الفلسفية التي درسها] لم تكن لها قيمة في ذاتها فقد كان الشيخ حسن الطويل مثلاً يقرأ بعض هذه الكتب في الأزهر ولم يؤثّر أثره، إنّما كانت قيمتها في أن كلّ فصل من فصولها أوجملة من جملها كان تُكأة يستند إليها الشيخ في شرح أفكاره وآرائه والتبسط في مناحي الفكر والتطبيق على الحياة الواقعة ونظرته إلى العالم كوحدة مازجاً التصوّف بالفلسفة وبالهيئة وبغير ذلك.

وهذا هو ما أقنع الشيخ محمّد عبده من الشيخ وطمأن نفسه... فوجد عنده طلبته وأقصى أُمنيته...(٨).

حيث يقول الشيخ محمّد عبده: كان السيّد جمال الدين يلقي الحكمة لمريدها

وغير مريدها ومن خواصّه أنّه يجذب مخاطبه إلى ما يريد(٩).

وكان من المؤمنين بوحدة الوجود كما كان يحكي عنه الشيخ محمّد عبده وبعض خاصّته متصوّفاً يدين بعقيدة المتصوّفة(١٠).

والبعض الآخر كان له هذا المجال للتحرّك لكن لم يعطه الشموليّة لجميع أنحاء المعمورة.

وهناك مشكلة أخرى كانت تواجه الإمام الخميني هو أنّه كان يحسّ بأنّ أفكار الناس ترفض بأن يكون العارف السلوكي على مستوى عال من الحكم السياسي وأن يكون له نظرية في مسألة الحكم وإدارة الدولة وكل ما لديهم إنّما هي إرشادات روحية ومراقبات نفسية لم تمت بالحكم الثوري رأساً.

وعند تحرّك الإمامﷺ انقلب هذا الفكر جذرياً وأصبح واضحاً ممكناً بل واجباً أن يكون قائدها روحيّاً وشيخاً سلوكياً يعرف داءها الروحي والنفسي ويشبع عواطفها الجيّاشة ويكون أباً روحيّاً لها يسلك بها طرق الملكوت يوصلها إلى معدن الرحمة وتصبح نفوسها معلّقة بالملأ الأعلى وعزّ القدس.

ولقد طرح الإمام الخميني مفهوم الزهد قبل التحرّك حيث يبعث رسالة إلى إيران بأن على جميع السادة والطلبة أن لايغيّروا منازلهم بل يقتصروا على ما كانوا عليه، وكذلك رسالته إلى «غورباتشوف» حيث يحثّه الإمام على قراءة كتب الشيخ السهروردي وغيرها من كتب محيي الدين ابن عربي لأنّه يراها خير سبيل للسموّ والتخلّص من الشرك، لذلك قال الإمام الخمينيﷺ:

إننا نستطيع تصدير الثورة الإسلامية، التصدير يتحقّق ببعث الحقائق الإسلامية والأخلاق السامية الإنسانية...(١١).

ويقولﷺ:

عندما تدخلون بلداً يجب أن تتصوّروا أنكم تريدون تربية أبناء البلد كما تربّون أبناء بلدكم وتبتغون تصدير الإسلام إليه، وتصدير الإسلام يتم عن طريق الأخلاق والآداب والأعمال الإسلامية(١٢).

فأراد التحرّك من الأمّة بعد أن أحدث التحرّك في نفسه أوّلاً بحياته الزهدية نحو العمل الثوري ولقد طرح الإمام الخميني فكرة التحرّك بعد أن أزال عنها جميع

الشبهات بأن جعل الحياة الروحية دخيلة في مسيرها الثوري.

حيث يقولﷺ: والإيمان بضرورة تشكيل حكومة وإيجاد تلك المؤسسات جزء لايتجزء من الإيمان بالولاية والعمل والسعي من أجل هذا الهدف هو مظهر من مظاهر ذلك الإيمان بالولاية(١٣).

٣ ـ الجدال المستمر القديم بين العارف العمل الثوري

هذا الجدال العنيف، بأن الصوفي العارف ما له في التحرّك نصيب كان مرتكزاً تنطلق منه الأمّة الإسلامية فضلاً عن العارفين، فمن المباحث المعمّقة عندهم هو عدم تدخّل العارف في ميادين الحكومة والسياسة وكذلك كان هذا سارياً في جميع الأمم حتّى غير الإسلامية منها.

فهذا النقاش الحادّ وإن مضى عليه قرون لكن لازال مصبّاً لبروز تبعات لاتحمد عقباها حتّى قال بعضهم:

أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة ومن بعد معنى السياسة ومن كلّ حرف يلفظ من كلمة السياسة ومن كلّ خيال يخطر ببالي من السياسة ومن كلّ أرض تذكر فيها السياسة ومن كلّ شخص يتكلّم أو يتعلّم أو يجن أو يعقل في السياسة ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس(١٤).

وهذا ما أشار إليه صريحاً الإمام الخميني وانتهز كلّ فرصة لأن يطرحه ويقطع جذوره حيث قال:

المستعمرون قبل أكثر من ثلاثة قرون أعدّوا أنفسهم وبدأوا من نقطة الصفر فنالوا ما أرادوا، لا تُمكّنوا الغربيين وأتباعهم من أنفسكم.

عرِّفوا الناس الإسلام كي لايظنّ جيل الشباب أن أهل العلم في زوايا النجف وقم، يرون فصل الدين عن السياسة وأنّهم لايمارسون سوى دراسة الحيض والنفاس ولاشأن لهم بالسياسة....

وأنا أقول لكم إنّه إن كان همّنا الوحيد أن نصلّي وندعو ربّنا ونذكره ولانتجاوز ذلك فالاستعمار وأجهزة العدوان كلّها لا تعارضنا. ماشئت فصلّ... ماشئت فأذّن، وليذهبوا بما آتاك الله والحساب على الله ولا حول ولا قوّة إلّا بالله

وعندما نموت فأجرنا على الله وإذا كان هذا تفكيرنا فلاشيء علينا ولا علينا.

هم يريدون أن لانرتفع إلى مستوى الآدميين لأنّهم يخافون الآدميين، وإذا وجدوا في مكان آدمياً فهم يرهبونه، لأنّ هذا الآدمي تقدّمي متطوّر يستطيع التأثير في الناس والمجتمع تأثيراً يهدم جميع ما بناه العدو ويزلزل الأرض من تحت عروش الظلم والخيانة والعمالة، ولهذا فإنّهم إذا وجدوا آدمياً في وقت من الأوقات ائتمروا به ليقتلوه أو يثبتوه أو يخرجوه أو يتّهموه بأنّه سياسي[١٥].

٤ ـ تطوير نظرية العرفان الإسلامي

لاشك ان تحديد مبنى العارف واتجاهه العرفاني من أهم الأمور التي تحدّد السير السلوكي لمسير البشرية فإن مبنى العارف الثوري هو الذي يؤثّر على تحرّك الأمّة ويبرز روح نظامها ويعطي لباقي الثائرين منهجاً وأُسلوباً لعملهم الثوري الروحي ومن خلال سلامة هذا الطريق السلوكي تعطي الاستقامة للانطلاقات الثورية التي تسير على طريقها.

ولقد كان العارف الإمام الخميني نموذجاً لسلامة هذا السلوك حيث فيه صفات تكاملت بعضها مع البعض الآخر لصنع هذا العامل الروحي.

يقول سماحة السيّد فضل الله:

لقد استطاع [الإمام الخميني] أن يدمج شخصيّة العارف بشخصية الفقيه. ثمّ انطلق من ذلك ليندفع من خلال هذه الشخصية الجديدة إلى الله في خط المعرفة والحركة معاً ليعيش في شخصية الداعية إلى الله والمجاهد في سبيله.

ومن هذا الموقع كان انفتاحه على الأمّة كلّها، وعلى المستضعفين[١٦].

أُنظر بدقّة كلمته الأخيرة وهي: (ومن هذا الموقع كان انفتاحه على الأمّة كلّها وعلى المستضعفين) وهي عين ما قلنا بأن هذا هو رمز انتصاره في عمله الثوري.

ومنها نموّه السالم وتحرّكه السلوكي كان برعاية مشايخ هذا الطريق فأعطاه التحرّك لمسيره الثوري الروحي، فدعم روحيّاً وشرعياً في مسيره الجهادي.

هذه العوامل هي التي صنعت هذه الشخصية لأن تقود العالم الإسلامي وأهّلته بأن يختار منهجه الفريد في نهضة الأمّة ويسير بها إلى منتهى الطريق

ويضع مدرسة روحية ثورية قابلة للدراسة والتدقيق.

ولذلك قال شهيدنا الصدر: (ذوبوا في الإمام كما ذاب هو في الإسلام). إشارة إلى فناء هذا العارف في ذاته وأصبح مجلى للأسماء والأفعال وأصبح الإنسان الكبير الذي حوى الحضرات القدسية، وأصبح كلمته التامّة.

ومن مسيره الجهادي حصلنا على أهم الفوائد التي هي السير العرفاني الصحيح ووضع مبانيه الصحيحة وطرقه السالمة، ولايخفى أنّ الإمام كان ناظراً إلى جانب التفريط الذي قد ينشأ من هذا السير الآفاقي للمجتمع الإسلامي ولذلك وقف أمام أي إفراط في البين وتفريط.

وإنّي أظن أن استعراض صلاة الإمام الخميني في تلفزيون الجمهورية الإسلامية كان وضع خط لعدم تجاوز هذا الطريق، وأن لايتجاوز عمله خارج إطار الشريعة المقدّسة.

فإنّ المتبادر قبل ذلك من أنفاس البعض أن صلاة الإمام الخميني ﷺ وأعماله الأخرى العبادية كانت بشكل خاصّ وتألّه خاص، فتلافياً لهذا التطرّف الذي ظهرت معالمه خصوصاً على جبهات الحقّ حُدّت هذه التطرّفات ونظر للإمام كما هو غير متجاوزين حقيقته.

وأشار المجاهد الكبير الشيخ محمّد مهدي الآصفي دامت إفاضاته إلى ذلك:

ومن أركان هذا الخط وميزاته وخصائصه: «الربّانية» والارتباط بالله سبحانه وتعالى ارتباطاً وثيقاً قائماً على أساس العبودية الحقيقية لله تعالى والإخلاص له والاتّكال عليه تعالى في كلّ الحالات.

وهذا هو قوام الخط وأساسه الأوّل ومن دونه لايبقى لهذا الخط شكل ولا محتوى. والتركيز على هذا الجانب هو المهمّة الأولى لكلّ الأنبياء والأئمّة عليهم السلام والدعاة إلى الله تعالى.

فإنّ الدعوة إلى الله وتوحيده بالعبودية هي الحجر الأساسي في رسالة الأنبياء ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين[١٧].

وحركتنا ليست حركة سياسية، تستهدف إسقاط الأنظمة الطاغوتية فقط،

إنّما تتحرّك لتعبير الإنسان لله تعالى، بعد إسقاط الطاغوت، وربطه به عزّوجلّ، وتخليصه لعبوديته سبحانه.

وقد رافقت الثورة الإسلامية منذ أيّامها الأولى، بتوجيه وتأكيد الإمام مباشرة موجة من التربية الربّانية والدعوة إلى الله والتوجيه إليه عزّوجلّ، بالدعاء والصلاة والتضرّع وتبنى دراسة القرآن...

والصفة الأخلاقية والتربوية في الثورة هي المميزة الأخرى المرتبطة بالربّانية، فإنّ الثورة تمتاز بالأخلاقية وإعداد الجيل الصاعد لتربية أخلاقية شديدة في مكافحة الهوى وتهذيب النفس وبنائها على أساس من التقوى والالتزام الدقيق بحدود الله تعالى.

والذي يتتبع كلمات الإمام يجد حرصاً بالغاً واهتماماً كبيراً، بخصوص مسألة تهذيب النفس ومخالفة الهوى.

ولاشك أن هذه المسألة تأتي بعد «الربّانية»، مباشرة في سلّم اهتمامات الأنبياء عليهم‌السلام ورسالتهم(١٨).

إذن استفاد هذا العارف من هذا المسلك (العلاقة بين المريد ومريده) أحسن استفادة للغرض الإسلامي الأصيل وخلق المستحيل، ونهض بحركة الثورة إلى الأمام بأسلوب فريد علماً وعملاً ومنطقاً، فأصبح مشعلاً للطريق ومناراً لمن أراد السبيل.

فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين.

الهوامش

١ ـ آل عمران ، الآية: ١٥٢ .

٢ ـ دراسات في الفكر السياسي للإمام الخميني ص ٧٢ ـ ٧٣ .

٣ ـ الحكومة الإسلامية ص ٢٠ .

٤ ـ المصدر السابق ص ٨ .

٥ ـ دراسات في الفكر السياسي للإمام الخميني ص ٧٢ .

٦ ـ راجع في ذلك زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ١٠ .

٧ ـ المصدر السابق ص ٦٠ .

٨ ـ المصدر السابق ص ٦٥ .

٩ ـ المصدر السابق ص ٧١ .

١٠ ـ المصدر السابق ص ١١٢ .

١١ ـ مختارات من أقوال الامام الخميني ص ٥٠ .

١٢ ـ المصدر السابق ص ٤٨ .

١٣ ـ الحكومة الإسلامية ص ١٨ .

١٤ ـ آفاق المستقبل في العالم الإسلامي ص ٢١٧ .

١٥ ـ الحكومة الإسلامية ص ٢٠ .

١٦ ـ دراسات في الفكر السياسي للإمام الخميني ص ٧٣ .

١٧ ـ سورة فصّلت، الآية:، ٣٣ .

١٨ ـ دراسات في الفكر السياسي للإمام الخميني ص ٤٠ ـ ٤٢ .

الفهرست

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

محمد حسين الأنصاري

النماذج التربوية والأخلاقية في نهضة الإمام الحسين

شهاب الدين الحسيني

الشهادة على الأمّة

د. طلال عتريسي

استعادة العزّة في فكر الإمام الحسين وحفيده السيّد الخميني

د. محمد علي آذر شب

الإمام الخميني والخطاب الكربلائي

د. علي زيتون

امتداد عاشوراء في الزمن

عبد المجيد فرج الله

ثقافة عاشوراء وجذور الوعي عند النخبة

ماجد الغرباوي

الإمام الحسين ومصلحة الإسلام العليا

فؤاد المقدادي

الأدوار السياسية والاجتماعية للمراسم الحسينية في منظور الإمام الخميني

طالب الأحمد

عاشوراء عند المغاربة

د. عباس الجراري

طرق إحياء عاشوراء في كلام الأئمّة

مرتضى الإيرواني

خصائص آل البيت في ضوء السنّة النبويّة

د. أحمد حسن عبد الجواد

حسين ربح المعركة ويزيد خسرها

محمد هادي معرفة

عاشوراء ما بين عهدين .. مدارس ودلالات

محمد علي الحلو

المدارس الفكرية في عهد الإمام

المدارس الفكرية ما بعد عهد الإمام

الأدب الرفيع

علي آل سيّد علي خان

المستشرقون لا يفهمون ثورة الحسين

عبد الله مؤمني

نتائج نهضة عاشوراء

علي الحسيني الشهرستاني

مدرسة الإمام الخميني ودورها في صيانة ثقافة عاشوراء

مائدة المؤمن

نهضة الإمام الحسين

محمد عبد الحسين البغدادي

دوافع الشهيد والشهادة

محمد حسين مرتضوي

ارتباط مباني الإمام وآرائه الأخلاقيّة والعرفانيّة بعاشوراء

وسام الخطاوي